FIFA WORLD CUP RUSSIA 2018

ليلى العلمي

OCCIDENS

ORIENS

ما رواه المغربي

ترجمة نوف الميموني



ما رواه المغربي

رواية

ليلى العلمي

ترجمة

نوف الميموني



ما رواه المغربي

ما رواه المغربي / رواية

تأليف ليلى العلمي

ترجمة نوف الميموني

الطبعة الأولى 1438 / 2017

ردمك 978-2-84409-646-3



دار أثر للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية - الدمام

تلفون: 00966505774560

الموقع الإلكتروني: www.darathar.net

البريد الإلكتروني: info@darathar.net

الإهداء

إلى ابنتي

ملاحظة من المترجمة

قبل بدء رحلتك عزيزي القارئ مع مصطفى أودّ أن أبيّن مسألتين متعلّقتين بترجمة هذه الرواية. أوّلهما أن جميع الهوامش في الرواية هي من إضافتي. وثانيهما هو أني اخترتُ ترجمة الرواية بمحاكاة أسلوب الرحالة العرب في كتب الرحلات القديمة، مثل ابن بطوطة وابن جبير والإدريسي وغيرهم، مع الحفاظ على أساليب السرد الحديثة التي وظّفتها المؤلفة، للحفاظ على أبعاد النص الثقافية واللغوية. وتطلّب ذلك الرجوع إلى كتب التراث للوقوف على الأساليب والأسماء والأوصاف المستعملة في هذا السياق. رحلة سعيدة.

بسم الله الرحمن الرحيم. الحمد لله رب العالمين، والصلاةُ والسلامُ على نبينا محمدٍ وآله وصحبه أجمعين. أما بعدُ فهذا المحرّرُ بيد الفقير إلى ربه مصطفى بن محمد بن عبد السلام الزموريّ، يسجل فيه سيرةَ حياته وترحاله من مدينة أزمور إلى بلادِ الهنود التي وطأ أرضَها عبدًا مملوكًا، وكان فيها ضالاً هائمًا بعدما انقطعت به السبلُ أعوامًا عديدة، وقبل أن ينجو من أصفادِ العبودية. ولمّا أنّي كتبتُ هذه الحكاية بعد وقوع أحداثها بزمنٍ طويلٍ فقد اضطررتُ في نقلها إلى الاعتمادِ على حافظتي، ولا غرو إذ ذاك أن تكونَ المسافاتُ بين البلاد التي أذكرها خاطئةً أو المواقيتُ غير دقيقةٍ، وتلك هفوات هيّنة لا أستبعدها. وفيما خلا ذلك فأشهدُ أنّي لا أقول في كتابي هذا غير ما رأته عيناي حق الرؤية، وإن كان يحمل قارئَه على تكذيب قولي من ندرة ما جرى لي. ومرادي هو تصحيح دقائق القول فيما جرى لنا حسب ما رواه أصحابي في الرحلة، وهم ثلاثةٌ من وجهاءِ قشتالة يُدعون أندريس دورانتس دي كارانزا، وألونزو ديل كاستيو مالدنادو، وألفار نونييز كابيزا دي فاكا الذين قدّموا شهادتَهم، ما أسموه السجلَّ المشترك، إلى البلاط الملكي في سانتو دومنيغو. أما أولهم فكان سيدي ومخدومي، وأما الثاني فصاحبي في الأسر، وأما الثالث فمنافسي في الرواية. غير أنّي بخلافهم لم أُستدعَ للشهادة أمام مندوبِ الملك من إسبانية بما جرى في رحلتنا وحلّنا وترحالنا بين الهنود. ومع شهادتي أن السادةَ القشتاليين الثلاثة ذوو شرفٍ وأمانة، فإني لا أستبعدُ أنهم بأمرٍ من الأسقف ومبعوثِ الملك ومركيز الوادي، وانصياعًا لما تستتبعه عليهم

مراكزُهم، ما وجدوا بدًا من إخفاءِ بعض الوقائع وتهويلِ بعضها، وكتمانِ شيءٍ من التفاصيل وابتداعِ بعضها الآخر. أما أنا فما كنتُ يومًا مسؤولاً في جلسات وجهاءِ قشتالة ولا ملزومًا بسنن قومٍ لستُ منهم، فلا ضيرَ أراهُ في قولِ حقيقةِ ما وقع لي ولأصحابي.

إن قصارى ما يبغيه أي امرئٍ أبيضَ كان أم أسودَ، سيدًا أم مملوكًا، غنيًا أم معدمًا، رجلاً أم امرأة هو أن يُذكر بعد موته. ولستُ بخلافِ بني البشر في هذا، فخلاصي هو النجاةُ من الظلمةِ المدلهمّة التي تنتظرني. وإن وَجَدَ كتابي هذا برحمةٍ من تصاريف القدرِ سبيلاً إلى يديّ ناسخٍ أمينٍ، يستنسخُ منه بلا تصريفٍ ولا زيادةٍ، ما خلا ما تفرضُه أصولُ الخطِ أو الزخرفةِ والرسم على نهجِ الأتراك والفرس، فلعلّ الله يأذنُ أن تبلغَ قومَي يومًا أعاجيبُ رحلتي، ويستنيرون منها قبسًا يهدي من أنار الله قلبَه، فوالله ما كان القصدُ منها إلا قولَ الحق وتسليةَ الروح.

1

حكاية لا فلوريدة

في عام أربعة وثلاثين وتسعمئة بعد هجرةِ سيد المرسلين، وأنا أعدُّ من سنّي ثلاثين عامًا، ومن أسري خمسة، ألفيتُ نفسي على حرف الأرض التي نعرفها، في مسيرةٍ طويلة وراء سنيور دورانتس، في أرض خضراء نضرة يسميها هو وقومه القشتاليون لا فلوريدة. ولا علمَ عندي بما يسميها قومي في أزمور، فما كان منادو المدينةِ يرفعون عقائرَهم بشيءٍ إلا أخبار المجاعة والزلازل والثورات جنوب بلاد البربر، ولا علمَ لديهم عن هذه البلاد. لكن لعلمي بأعراف التسميةِ لدينا نحن العرب فإني أجزمُ أننا كنا سنسميها بلادَ الهنود، على أنّ الهنود أنفسهم ولا بد يسمّونها كذلك اسمًا بلسانهم، وإن لم يعرفه سنيور دورانتس ولا غيره ممن في حملتنا.

وقد ذكَرَ لي سنيور دورانتس أنّ لا فلوريدة جزيرةٌ كبيرة، أكبرُ من قشتالة نفسها، وأنها تمتدُ منْ الساحلِ الذي أرسينا به إلى البحر الكاهل[1]، فمن المحيطِ إلى المحيطِ على حدِّ زعمه. وكلُّ هذه الأرض سيحكمها بانفيلو دي نارفاييز قائدُ الأسطول الحربيّ، وإن كنتُ في قرارةِ نفسي، ودون أن ينطق لساني بهذا الرأي، أشكُّ أو أتعجّبُ أن يسلّمَ ملكُ إسبانية حكمَ أرضٍ أكبرَ من بلاده لأحدٍ من رعيّته.

كنّا في قافلةٍ نقصد في مسيرنا مملكةَ الأبلاتشي في الشمالِ، وهي التي سَمِعَ عنها القائدُ سنيور نارفاييز من هنودٍ أَسَرَهم بعد أن أرستْ مراكبُ الأسطولِ

1- وهو المحيط الهادئ.

على ساحلِ لا فلوريدة. ورغم أنّي لم آتِ إلى هنا بمحض إرادتي فإني ارتحتُ أيما ارتياحٍ في اللحظة التي لمسَتْ قدماي البرَّ، فقد كان في الرحلةِ التي قَطَعْنا بها بحرَ الظلمات[1] من المنغّصاتِ والمكدّرات ما لا يعلمُه إلا من أَسلَمَ نفسَه لسطوةِ البحر. فخبزُ الرحلة يابسٌ، وشرابها نجسٌ، ومطاهرها دنسةٌ، ومع تقاربِ الناس في أماكنَ ضيقةٍ أمدًا ليس قصير تسوءُ أخلاقُهم وتقبحُ أمزجتُهم وتكثرُ شكاياتُهم. غير أنّ أسوأَ ما في الرحلةِ هي الرائحة؛ وهي رائحة زنخ أجسادِ الرجال إذا ما جافاها الماءُ مدةً، واختلطَ بها دخانُ المجامرِ وروثُ الخيولِ وزِبْلُ الدجاجِ التي التصقت بحيطان الزرائب مع تنظيفها يومًا بعد يوم. وإنها لرائحةٌ تزكم أنفَ المرء حالما ينزلُ إلى المقصوراتِ الدنيا.

كما أن فضولي مستثارٌ حول هذه البلاد إثر ما سمعتُه، أو ما تناهى إلى سمعي، من سيّدي وأصحابه من أحاديثَ كثيرةٍ عن الهنود، ومنها دعواهم أنهم ذوو جلدٍ أحمر وعيونٍ بلا جفون، وأنهم كفارٌ يدفعون البشر قرابين لآلهتهم، وأنهم يجرعون مشاربَ عجيبةً يصنعونها فتكشف لهم حُجُب الغيب، وأنهم يسيرون هم ونساؤهم عراةً لا يكسو عوراتهم شيءٌ، وهذا ما استنكرتُه واستعصى عليّ تصديقه، فصرفته على أنه من باب المبالغة والتهويل. وهذه البلاد مع ذلك قد أسرتْ خيالي حتى لم تعد مجرد مقصدٍ للسفر، بل أرض فيها العجائب والغرائب التي لا يستحضرها إلا عقلُ أبرع الرواة في أسواقِ البربر. وكذا هو أثر رحلة المرءِ لمّا يقطع عبابَ بحر الظلمات، وإن كان مرغمًا عليها دون خيار ولا رغبة. فإنه يهوي في مغبة مطامح الآخرين ومطامعهم إلى غير ذي رجعة.

وكان تركُ السفينة بادئ الأمر قاصرًا على جمعٍ صغير من القادة والجنود

1- وهو المحيط الأطلسي.

من كل مركب، ولمّا كان سنيور دورانتس قائدَ سفينتنا غراسيا دي ديوس[1] فقد اختار عشرين رجلاً وبمعيتهم هذا الفقير إلى ربّه مصطفى بن محمد للنزول، فركبنا زوارقَ التجديف حتى بلغنا الشاطئ. ووقف سيّدي بمقدمةِ المركب، يضع يدًا على خاصرته والأخرى على قائمِ سيفه، كهيئةِ من يقفُ أمام نحّاتٍ ليقدَّ صورتَه من الحجر، ويتّضحُ في مظهره مشاوفته إلى احتراز ثروات العالم الجديد.

وإذ تجلّى صباحُ أحد أيام الربيع باهيَ السماء صافيَ الماء، مشينا من الشاطئ بتؤدةٍ قاصدين قرية صيد لمحها أحدُ البحّارة من علّو الصاري على مسافة رمية سهمٍ من الساحل. وإن أوّلَ ما أدركتُه من البر هو السكونُ الذي اكتنفنا. ولربما كانت كلمةُ السكون تجانبُ الحقيقةَ، فثمّة صوت الموج وصوت الرياح تحرّك أشجار النخيل، وعلى طول الطريق تدانت زمج الماء[2] يحدوها الفضول، فظلّت ترصد حركتنا ثم ما لبث أن طارت ترفرف بأجنحتها. ومع كل هذا شعرتُ بخواء عظيم.

كان في القرية نحو اثني عشر كوخًا من سعف النخل، مسنّمة بأعمدة من خشب، وموزّعة في دائرة عريضة، يفصلُ بين كل زوجٍ منها والذي يجاوره مسافةً كافية للطبخ وحفظِ الطعام. ووجدنا الخشبَ في مواقدِ النار المتفرقة في حدود القرية لم يحترق بعد، وثلاثةَ غزلان معلّقة من عارضة سُلخت جلودها فقطرت دماؤها على الأرض. ولا بشر في القرية. فأمر الحاكمُ أن يبحث الجنود فيها، فعثروا في الأكواخ على أدوات طبخ وتنظيف، وجلود حيوانات وفرائها، ولحم وسمك يابسٍ، ومن بذور تبّاع الشمس والثمار والفاكهة الشيء العظيم. ولقد وضع الجند أيديهم على كل ما رأته أعينهم

1- تعني بالعربية: هبة الإله

2- النوارس

على الفور، والواحد منهم متمسكٌ بما سرق يواريه إلى حين أن يقايضه بالحاجات التي يريدها. ولم آخذ شيئًا ولم يكن معي ما أبادلُ أحدًا به، غير أني غصصت بمرٍّ الهوان لشهودي تلك السرقات وقلةِ حيلتي في نهرهم عن إتيانها، فاحتسبتُ نفسي شريكًا معهم فيما اقترفوه.

وبينما أنا واقفٌ مع سيدي عند باب أحد الأكواخ، إذ لمحتُ كومة شباك صيدٍ، فرفعتُ إحداها أدقق النظر بكيفية صنعها فوجدتُ تحتها حصاةً صغيرة غريبة. ظننتُ أول الأمر أنها ثقلٌ يثبّتُ الشِبَاك على الأرض، لولا أن عليها أوتادًا ملساء من حجر لا تشبه هذي الصفراء الخشنة التي بيدي. ثم خلتُها لعبةَ صبي، فهي كالحجارة التي يلعب بها الصغار أو يملؤ بها الناس خشخاشَ الرضيع، ولعلّ أحدهم نسيها على الشباك. ورفعتها أقرّبُها إلى النور كي أستطلع أصلَها، فرآها سنيور دورانتس وسألني: إستبانكو، ماذا وجدّتَ؟

وإستبانكو هو الاسم الذي سمّاني القشتاليون به بعدما اشتروني من التجّار البرتغاليين. وهو اسم ثقيلٌ على اللسان غليظٌ على الآذان. فعندما وقعتُ في شرك الرّق، أُكرهتُ على أن أنبذ بعد حريتي اسمي الذي اختاره لي والداي، واسمُ المرء غالٍ يحمل في ثناياه لغةً وتاريخًا وعاداتٍ وإيمانًا، وخسارته يعني انفصامَ عرى الروابط التي تصلني بتلكم الأمور. فما استطعتُ يومًا أن أدفع ثقلَ إستبانكو عني، فما هو إلا رجلٌ وُلد على يد رجالِ قشتالة ولا يشبهني في شيءٍ قط. تلقّف سيدي الحصاةَ من بين أصابعي وسأل: ما هذا؟

لا شيء سنيور.

لا شيء؟

مجرد حجر.

دعني أرَ. حكّ الحصاةَ بظفره فظهرتْ من تحت التراب الذي غطّاها صفرةٌ فاقعة. وسيّدي رجلٌ محبٌ في الاستطلاع مبتغٍ للمعرفة مجدٌ في طلبها، وربما كان ذاك الشغف هو ما أغراه بهجر ترف قصره في بيهر ديل كاستنيار، ليسعى وراء خيراتِ أرضٍ مجهولة. ولم أكره فيه فضولَه في معرفة العالم الجديد، غير أني حسدته على يقينه بمجد مخلّد كلما ذكر إيابَه إلى بلاده.

أعدتُ قولي. إنه لا شيء.

وإني أظن غير ذلك.

إنها ولا بد قطعة نحاس.

أو قد تكون ذهبًا. قلّب الحصاةَ بين أصابعه لا يدري ما يصنع بها. ثم استقر رأيُه فركض إلى القائد سنيور نارفاييز الواقفِ في وسط القرية ينتظر إتمام عساكره للبحث، فنادى سيّدي: دون بانفيلو. دون بانفيلو[1].

وحرّي بي هنا أن أصف الحاكمَ لك. إن أوّل ما يُرى من وجه هذا الرجل هي رقعة سوداء فوق عينه اليمنى، تفزع قلب من ينظر إليه، لولا خدّاه الغائران وذقنه. وهو يعتمر في غالب الأيام خوذة من حديدٍ فوقها ريش النعام، وإن لم تكن ثمة حاجة إليها. وعلى درعه من ناحية الصدر وشاحٌ أزرقُ، يمتد من كتفه وينتهي بعقدة كبيرةٍ تحاذي فخذَه. وهو على اهتمامه بحسن مظهره جلفٌ شديدُ الغلظة، كأحقر واحد من جنده. ولقد رأيته مرةً بينما هو يتكلّم مع أحد ربابنة سفنه عن أحمال السفينة يسدّ أحد منخريه بإصبعه، ويقذف من المنخر الآخر سيلاً طويلاً من النخامة.

قبض الحاكمُ سنيور نارفاييز الحصاة بأصابعَ نهمةٍ، ورفعها إلى الضوء ليستبينها وحكّها، ثم استقرت في راحة يده المفتوحة كقربان، وقال بصوت

1- دون تعني سيد

غليظ وقور: هذا ذهب. أحسنتَ يا كابتن دورانتس. أحسنت. واجتمع القادةُ حول الحاكم فرحين، وانطلق جنديٌّ إلى الشاطئ يبلغ الآخرين بخبر الذهب. ووقفتُ خلف سنيور دورانتس أستظلُّ بظله، وكلي يقينٌ أن الفخر استفاضَ على وجهه، وإن لم أرَ وجهه في تلك اللحظة. فمنذ أن اشتراني قبل عامٍ في إشبيلية تعلّمتُ أن أستدل بظاهره على باطنه، فبتُّ أفرّقُ بين منتهى سعادته واعتدالِ رضاه، وبين شدّة سخطه وتوسّطِ انزعاجه، وبين غاية قلقه وقلّة اهتمامه. وهذه درجاتٌ متقاربة من مزاجه ينجم عنها أفعالٌ تمسني بنفع أو أذى. فهو في ذلك الموقف مثلاً فرحٌ باكتشافي، وإن منعه الكبرُ أن يقول لهم إنّي من وجد الذهبَ، فآثرتُ الركون إلى الصمت والاستغراق في لجج النكران، تاركًا له وحدَه عز الاكتشاف.

ثم أمر الحاكمُ فنزل ركابُ الأسطول. واستغرق نقلُ كل البشر والخيل والأمتاع إلى الشاطئ الرملي الأبيض ثلاثةَ أيام. والناسُ مع ازدياد أعدادهم يحتشدون حول من كان قرينهم في المكانة، بغيةَ حصول الألفة لسابقِ معرفة. فتجدُ الحاكمَ يقف مع قادته بدروعهم وخوذاتهم ذات الريش، ومبعوثَ البابا يحادث الرهبان الأربعة وكلهم يلبسون مسوحًا داكنةً متشابهة، والفرسانَ يتجمعون مع حملة السلاح من البنادق والقربينات[1] والقسّي والسيوف والرماح ذوات الأنصال الحديدية والحِراب والسكاكين. وهنالك بعدُ أهلُ الحِرَف الذين يزمعون استيطانَ هذه الأرض، وهم النجارون والحدّادون والإسكافيون والخبّازون والفلاحون والتجار، وغيرهم ممن لا علم لي بحرفهم أو أني نسيتها. وعشر نساءٍ وثلاثة عشر طفلاً يقفون جمعًا وتحيط بهم صناديق من خشب. أما العبيد ويقارب عددهم الخمسين، ومنهم عبدُ الله كاتب هذا الكتاب، مصطفى بن محمد، فكانوا منتشرين في الأرجاء،

1- بنادق ذات فوهات قصيرة.

كلٌ منهم يقف قرب مولاه، يحمل متاعه أو يحرس أمتعته.

واكتمل الجمعُ على الشاطئ في عصرِ اليوم الثالث، والجَزر منخفضٌ والأمواج ساكنةٌ، فانحسر شطرٌ من الشاطئ أسودُ. وقد لَطُفَ الجوُّ حتى صار الرملُ باردًا لزجًا تحت قدميّ. وتراكمت السحبُ الثقال عاليةً في قبّة السماء، فلاحَ قرصُ الشمس دائرةً بعيدة بلا وهج، والضبابُ الكثيف يدنو من جهة المحيط يسلبُ العالمَ من حولنا ألوانَه، فصار كلُّ الكونِ أبيضَ رماديًا، وغشِيَه السكون.

تقدّم كاتب الأسطولِ هيرنمو دي ألبانيز، وهو رجلٌ مربوع بدين ذو عينين كعينيّ البوم، فوقف بين يديّ الحاكم نارفاييز وفضّ لفافةَ ورق، وأنشأ يقرأ بصوتٍ رتيب: باسم الملك والملكة، نعلنُ أن هذه الأرضَ ملكٌ للإله ربنا الحي الباقي، وأنَ الإله قد كلّف رجلاً واحدًا وهو القديس بطرس بحكم بني آدم في هذه الدنيا أينما كانوا، وأي شرع أو ملّةٍ أو دين اعتنقوا، وأن وليّ القديس بطرس في ذلك هو الأبُ المقدس البابا، وهو من تطوّعَ هذا البلدَ البكر خيرًا للملك والملكة. فنشهدكم أنّ الكنيسةَ هي حاكمةُ هذه البلاد، وأن القسّيس المسمى البابا والملكَ والملكة هم حكّامُ هذه الأرض. سكتَ سنيور ألبانيز عن الكلام بغتةً، وبلا إذنٍ ولا اعتذار قرّب من فمه قربةً كانت معلّقةً على كتفه، وارتشف منها الماء.

وظلّت عيناي معلّقتين بوجه الحاكم الذي بدا مغتاظًا من هذه المقاطعة، لكنه أحجم عن الاعتراض ولو بكلمة، فما كان سيجني من ذلك شيئًا سوى إطالةِ زمن المراسم بلا معنى. أو أنه لم يستحبْ أن يغضبَ الكاتبَ، فلولا الكتبةُ والموثقون ما عرف أحدٌ ما فعل الحكّامُ، فلذا آثر الصبرَ وإبداء الاحترام، على قلّته.

مسح سنيور ألبانيز فاه بظاهر يده على غير عجلٍ ثم أكمل بيانه. فإن

امتثلتم لما نقولُ فلكم منّا النجاة وسنتلقّاكم لقاءً حسنًا، وإن أبيتم الطاعةَ أو استعصيتم بأذى، فائذنوا بحربٍ منا في كل حينٍ وعلى كل وجهٍ، تُسبى فيها نساؤكم وأولادكم، وتؤخذ منكم أموالكم ويحلُّ عليكم منّا العذاب والهلاك، فيكون الموتُ والخسران جزاءً ما اقترفته أيديكم أنتم، لا بفعل مولانا ومولاتنا ولا جندهم الحاضرين هنا. وبعدُ فإننا نسألُ الكاتبَ أن يقدم شهادتَه مكتوبةً، وأن يُشهِدَ الحاضرين على ملكية الأرض.

لم أعِ أنّ هذه الخطبة كان يُقصد بها الهنود إلا عندما وصل سنيور ألبانيز في كلامه إلى التهديد والوعيد، وكذلك لم أفهم لِمَ قال ما قاله هنا على هذا الشاطئ إن كان حديثًا مرسلاً للهنودِ الذين فرّوا من قريتهم من قبل أن نبلغها. فوقع في نفسي غرابةَ فعلِ هؤلاء القشتاليين، فهم يرون أنّ ما ينطقُه لسانهم يُكتب في صفحة القدر، فعلمتُ أنّ هؤلاء الغزاة، مثل من سبقهم ومثل من يليهم، يلقون الخطبَ لا لإقرار الحقّ بل لافتراءِ الإفك.

ولمّا سكت سنيور ألبانيز أخيرًا عن الكلام قدّم اللفافةَ مطأطئ الرأس إلى الحاكم نارفاييز، وانتظر بينما يوقّع المكتوبَ باسمه، ثم التفت الحاكمُ إلى الناس وأعلن أنّه سمّى هذه القريةَ بورتيو، فخفض القادة رؤوسهم ورفع جنديٌّ الراية، وكانت من قماشٍ أخضرَ مطرّزٍ بدرعٍ حمراءَ في وسطه. فتذكرتُ حينئذٍ رايةَ ملك البرتغال مرفوعةً فوق قمة برج الحصن في أزمور قبل سنين عدة عندما كنت صبيًا، وما برحتْ تلك الذكرى عقلي لأن ذلَّ ذاك اليوم حيٌّ بداخلي، فهو اليومُ الذي تبدّلتْ فيه حالُ أسرتي، اليوم الذي تكدّر فيه صفو حياتنا، اليوم الذي رُميتُ فيه بعيدًا عن بلدي. وها هو التاريخُ يعيد نفسه في أرضٍ أخرى ومع أناسٍ آخرين، فلا عجبَ إذ وجدتُ الفزعَ مما هو آتٍ يتمكن مني.

***

وفي صباح اليوم الذي يليه، وقع ما كنتُ أخشى وقوعَه بعد أن تناهى إلى أسماعنا صوتُ جلبةٍ واضطراب وراء مخزن القرية. فقد أمرني سنيور دورانتس أن آخذ من أطراف شعر رأسه الأشقر الغزير بعض الشيء، كما أنّ لحيته نمت وطالت، بيد أنه لم يأمرني بحلقها، لعلّه أحسّ بأنّ من الممكن أن يتخلّى عن مظاهر التكلّف بالنظافة طالما أنه وصل حدود الإمبراطورية، ولعله أطال لحيته لاستطاعته، ولعلمه أن الهنودَ لا يستطيعون كما سمعنا عنهم. والحق أني لم أسأله عن السبب، بل قد استشعرتُ راحةً أن تخففتُ من عملي. أقولُ إننا كنّا على تلك الهيئة إذ سمعنا صياحَ العسكر، فهبّ سنيور دورانتس واقفًا، والفوطةُ البيضاء ما تزال منوطة بعنقه، وقَطَعَ القريةَ راكضًا ليستطلعَ الأمر، وتبعتُه أنا والمقصّ الإشبيلي ما يزال في يدي، فعلمنا أن العسكر عثروا على بضعة هنود يختبئون وراء الشجر، وأنهم اعتقلوا منهم أربعةً.

وكان الأربعةُ كلهم رجالاً، وكان الأربعة كلهم عارين. ولقد رأيت هنودًا من قبلُ في جزر كوبة وجزر لا إسبانيولة حين أرسى الأسطولُ لابتياع المؤنِ، ولكنّي لم أرهم عن قربٍ قبل ذاك الحين. ولم أعتد رؤيةَ رجالٍ يمشون وأجسادهم مكشوفة دون حياء ولا خجل، فلم يكن مني إلا أن شَخَصَ بصري بهم. وكانوا طوالاً ذوي بسطةٍ في الجسم، وبشرتهم بلون التربة بعد استسقائها بماء المطر، وشعورهم مسترسلةٌ مدهونة، وعلى أذرعهم اليمنى وسيقانهم اليسرى وشومٌ على أشكالٍ لم أفهمها. وكان في عين أحدهم غمشٌ، فذكّرني بعمّي عمر، وظل هذا يطرف بعينه مرارًا يحاول أن يمعنَ نظره في آسريه. أما الآخر فكان يتطلع حوله في القرية يقدّر ما اختلف فيها منذ وصولنا؛ ومن ذلك الصليب الضخم المنصوب بجوار المعبد، وراية الحاكم الخافقة فوق ساريةٍ في الميدان، والخيولُ المربوطة بالأعمدة التي ركزوها في أرجاء القرية. وإنّ القصصَ التي سمعتُها عن الهنود جعلتني

أظنّهم مخلوقاتٍ عجيبةً لا مثيل لها سوى الجنّ الذين ينفثون نارًا، غير أنّ أولئك الرجال بدوا لي مأموني الجانب مغلوبين على أمرهم، ليس كمثل الجنود القشتاليين المحيطين بهم، وقد أحكموا وثاقهم وقادوهم إلى الحاكم نارفاييز.

وأخرج الحاكمُ من جيبه الحصاةَ التي وجدُتها وبسط كفَّه يريهم إياها، ثم سألهم عنها. أين وجدتهم الذهب؟

فلم يشح الأسرى أعينهم عنه، ونطق اثنان منهم بلسانهم. وما تعلّمتُ بعد ترتيبًا للأصوات التي تخرج من أفواههم، ولا أين مبتدأ الكلمة الواحدة أو منتهاها، مع العلم أنّ نشأتي في أزمور وهي مدينة تجارية قد غرستْ فيّ حبَّ ألسنِ البشر ويسرًا في تعلمها. ولا أقصد من ذلك التفاخرَ والله، فكنتُ بطبيعتي تواقًا إلى معرفة لسان الهنود مع عدم احتوائه على أيٍّ من الخصائص التي تعينني على تعلم لسانٍ لم أعهده من قبل، كالأصوات المتشابهة، أو الكلمات المشتركة، أو النبرات المماثلة. ولكنّي عجبتُ لّما هزّ الحاكمُ رأسه كمن فهم مقصد كلام الهنود تمام الفهم ووافقهم الرأي.

ثم أعاد الكرّةَ بسؤالهم: أين وجدتم الذهبَ؟ والجنود من ورائه ينظرون وينتظرون. والطيورُ تغرّد فوق أغصان الشجر وتصدحُ بغنائها لا مباليةً بالقيظ الخانق، وأمواجُ البحر تهمهم من جهة الشاطئ، وشممتُ الدخانَ مع النسائم، فقد أوقد أحدهم نارًا لطبخ آلمويرزو[1]. فكان جوابُ الهنود للحاكم بأن أعادوا ما قالوه، ولعلّك تظن أنّي واثقٌ أن ما ردّوا به كان جوابًا، والصحيحُ أني لا أجزم بهذا القول، فربما كانوا يسألون الحاكم سؤالاً، أو يطلبون مبارزته، أو يتوعّدونه بالهلاك إن لم يطلق سراحهم.

1- الغداء

فأنصتَ الحاكم بحِلْمٍ لإجاباتهم، ثم التفت إلى حاجبه وقال: احبسهم في مخزنِ الطعام واجلب لي السوط.

ورجع سنيور دورانتس إلى مقعده فتبعتُه، ولم ينطق أينا بكلمة، وانصرفتُ إلى قص شعره. ولما فرغتُ ناولته مرآةً صغيرة ورفعتُ أخرى وراء رأسه، فرأيتُ وجهينا على المرآتين المتقابلتين، ورأيتُ الرضا مرتسمًا على وجه مولاي، وهزّ رأسَه مستحسنًا وهو يقلّب وجهه ذات اليمين وذات الشِمال. وكانت لحيته تحجب ندبةً على خده الأيمن، سمعتُه مرةً يحكي لضيوفه على مائدة العشاء أنها أثرُ جرحٍ أصابه عندما شارك في إخماد ثورةٍ ضد الملك قبل أعوام في قشتالة. ولقد عوّدني الرق على أن أحجبَ ما بباطني كيلا يظهر على وجهي، ولكنّي رأيتُ في المرآة في ذلك اليوم عينيّ تفيضان قلقًا، وأخذتُ أحدّث نفسي: أنّ الفضول دفعني لأتحقّق من نوعِ شباك الصيد التي يستعملها الهنودُ، وأني لم أكن بفعلي أقصدُ البحثَ عن الذهب، ومع هذا فإنّ الحصاة التي وجدتُها أفضتْ إلى جلد أولئك الرجال الأربعة، رجال ما ضرّوني في شيء، وها أنا ذا وسيّدي معي نصمّ آذاننا عن صراخهم الذي انقلب عويلاً طويلاً يرتجف بالألم، حتى سمعتُ صداه يتردد في روحي، وما لبثوا غير قليلٍ حتى ساد الصمتُ ولم يقطعه إلا فرقعاتُ السوط المخيفة.

وبينا أنا أعاون سنيور دورانتس على انتعال حذائه، سمعتُ أخاه الصغير دييغو، وهو فتى في السادسة عشرة أو السابعة عشرة، يستعلم منه عن لقاء الحاكمِ بالهنود. وشتّانٌ بين دييغو وسنيور دورانتس، حتى إن المرءَ ليعجب من قرابتهما بالدم. فالصغيرُ حييٌّ سليم الطويّة يتخيّر رفاقه بعناية، والكبيرُ كثيرُ التجاسر شديدُ المكر متعجلٌ بالمحبة والبغض. ورغم هذا فدييغو يحتذي مسلكَ أخيه الكبيرِ ما استطاع. فكان طوقُ قميصه غير مزرورٍ، ويميل خوذته إلى الوراء كجندي أضناه النَّصَب، وقد حاول إطلاقَ لحيته

وإن لم يجْنِ من محاولته إلا خروجَ رقعٍ متناثرة من الشعر على خديه. سأل دييغو: متى تعلّمَ دون بانفيلو لسانَهم ياَ أخي؟ أزارَ لا فلوريدة من قبل؟

رمى سنيور دورانتس أخاه بنظرة هزلٍ، وإن أجاب على الفور عن سؤاله لأنه لم يجد في ذلك سوءًا. فقال: هذه هي المرةُ الأولى التي ينزلُ هذه الأرض مثلنا، ولكنّه داهيةٌ خبيرٌ في أمور المتوحشين، ويعرف كيف يجعلهم يفهمونه، ولن يكلّ حتى ينتزع منهم ما يريد معرفته.

ولم أفهم كيف يتأتّى هذا، غير أنّي لم أتكلم لعلمي بأن سيّدي لن يرضَ بأن يشكّ أحدٌ بقدرة الحاكم على فهم الهنود، وقد قالوا في الأمثال: الكلبُ الحيُّ خيرٌ من الأسد الميت.

ثم سأل دييغو: ولكن لمَ يضربهم بالسوط؟

فأجاب سنيور دورانتس: لأن الهنودَ قومٌ كذّابون. أرأيت أولئك الأربعة؟ إنهم عيونٌ بُعثوا ليترصدونا وينقلوا أخبارَنا. ثم حلّ الضيقُ محل الهزل في صوت مولاي، فقام ومرر أصابعه على عنق حذائه الطويل حريصًا على إدخال طرفيّ سرواله فيه. ثم أردف: لن يقولوا الصدق إلا بعدما يُجلدون بالسياط.

***

وجَلَدَ الحاكمُ الأسرى الأربعة إلى أن اقتنع بأنهم لم يكتموا شيئًا، فاستدعى القادةَ كي يجتمعوا ذلك المساء. فاجتمعوا في أكبر دارٍ في القرية، وكانت معبدًا أو مكانًا شبيه به يدخله مئة رجلٍ ولا يزدحمون فيه. ولم يدعُ الحاكم إلا ثلةً من الخواصّ رفيعي الشأن، وهم: مبعوث البابا، وخازن الرحلة، وجابي الضرائب، والكاتب، وقادة المراكب ومنهم سنيور دورانتس. وقد أزال الخدمُ عند الأصيل تماثيلَ من خشب لنمور سوداء طُليت عيونها

بالأصفر، وتحمل بين أيديها محاجن حربٍ وطبولٍ أخالُهم يستعملونها في شعائرهم الكافرة، فكان المعبد ساعةَ اجتماع السادة خاليًا، وأعجبني منه سقفُه المزخرف بصدف البحر المتراصّة فانعكست الأنوار عليها.

ثم قَعَدَ القادةُ الإسبان واحدًا واحدًا على مراتبَ هنديةٍ دائرةٍ بطاولة عريضة، غطّاها حاجبُ الحاكم بقماش أبيض، ووضع على طرفيها شمعدانين. ثم أخذ الحاجب يقدّم الطعام، وكان سمكًا مشويًا وأرزًا مطبوخًا ولحم خنزيرٍ مييّس وفاكهة طازجة ومييّسة من مخزن القرية. وقد أدركني بمرأى الطعام جوعٌ أشدُّ مما أدركني في ركوب البحر، وليس لي إلا أنْ أنتظرَ إلى ما بعد فراغِهم من وليمة العشاء حتى آكلَ نصيبي اليسير.

وأعلن الحاكم سنيور نارفاييز أمام قادته أنّ قطعةَ الذهب قد جُلبت من مملكة غنيةٍ اسمها أبلاتشي، وأنها على مسيرة أسبوعين شمال هذه القرية، وأنّ حاضرتها تملكُ من الذهب الشيءَ الكثير، وكذا من الفضّة والنحاس ومعادن نفيسة أخرى، وتحيطُ بالمدينة مزارعَ ذرةٍ وبقول شاسعة، ويسكنها أناسٌ كثيرون، ويجري بمقربةٍ منها نهرٌ يمتلأ بالسمك من كل شكل ولون. وقال الحاكم إنّ قولَ الهنود، والذي سجّله سنيور ألبانيز بطلبٍ من الحاكم، جعله يجزمُ بأنّ ثراءَ مملكة الأبلاتشي يضاهي ثراء موكتيزوما[1].

فوقع عليهم القولُ كضربةِ البرق، ورأيتُ العجبَ على جملة وجوه الحاضرين، ولا أنكر أنّي شهقتُ معهم دهشةً، حيث إني سمعتُ حكاياتٍ كثيرة في إشبيلية عن الإمبراطور الغني وقصره المكسّو بالذهب والفضة. فبلغ بي الحماسُ ما بلغ بالقادة أو يزيد، حتى سرحتُ في خيالٍ بعيد. فماذا لو وقعتْ هذه المملكةُ بيد القشتاليين؟ وصار سنيور دورانتس من أغنى رجال هذه الأرض؟ وقد غرّني الأملُ المخادع أنه إنْ صار كذلك، فلربما يسرّحُ العبدَ

1- أحد أباطرة الأزتك.

الذي دلّه على هذا الطريق، إما عرفانًا له بجميله، أو من طيبِ نفسه، أو فرحًا بالمال والعزّ. وكم غرقتُ في بحر الخيال! سوف أرحل عن لا فلوريدة على متن مركب متجهٍ إلى إشبيلية، وأسافر من هناك إلى أزمور، مدينتي التي على حدّ القارة القديمة، وسأرجع إلى أهلي وأرتمي في أحضانهم، وألمسُ طوبَ الجدار الخشن في فناء بيتنا، وأسمع بأذني تدفقَ أم الربيع إذا جرى فيه فائضُ مطر الربيع، وأقعدُ على سطح بيتنا في ليالي الصيف الدافئة، والهواء مطيّبٌ برائحة التين الناضج، وسوف أتكلمُ بلسان أجدادي كما نشأتُ، وأسير على مسالكم بعدما مُنعتُ، وسأعيشُ ما بقي من عمري بين قومي. وما باليتُ ألا أحدَ وعدني بهذا كله ولا عَرَضَه، ونسيتُ في غمرة طمعي وملاحقتي هذا السراب كُلفةَ حلمي على أناس آخرين.

ورفع القادة كؤوسهم صوب الحاكم يشربون نخب الأخبار السارة، فزادها العبيدُ، ومنهم عبد الله مصطفى بن محمد خمرًا (وإنه لعسيرٌ عليّ يا قارئ كتابي أن أعترف بأني صببت لقومٍ ما حرّمَ الله، ولكني ارتأيتُ أن أحكيَ كل ما جرى لي وألا أكتم أي شيءٍ). ورفع الحاكم يديه يسكت الحاضرين ثم قال: لكن ثمّة مشكلة، فالأسطولُ بالغ الضخامة، فيه أربعة كارافيلات، وجليونًا[1]، وستمئة رجل، وثمانون فرسًا، وخمسون ألف رُبعٍ[2] من الأسلحة والمؤن، ولا يمكن احتمالها معنا في هذه الغارة. فقرّر أن يقسم الحملة إلى فريقين متساويين، أوّلهما هي الفرقة البحريّة، ومنهم الملاحون والنساء والولدان والمرضى والمحمومون والمعتلّون، فيبحر هؤلاء محاذين ساحلَ لا فلوريدة حتى يبلغوا أقربَ بلدةٍ في إسبانية الجديدة، وهي مرسى بانكو عند مصبّ نهر ريو دي لاس بالماس، فيرسون هناك وينتظرون. أما الفرقة

1- الكارافيل والجليون: نوعان من السفن ذات الأشرعة.

2- الربع: وحدة وزن قديمة استعملها الإسبان والبرتغاليون وتعادل ٢٥ رطلاً.

الثانية ومنهم صحاحِ الأجسام ممن لهم إطاقة على السير، أو امتطاء الخيل، أو حمل الزواد والسلاح والذخيرة، فيقطعون البرَّ متجهين إلى الأبلاتشي، فيخضِعُونها ثم يبعثون سريّة أقل عددًا للقاءِ فرقة البحر. ودعا الحاكم قادتَه إلى تخيّر أفضلِ الرجال ممن صاحبوهم على متون سفنهم.

فبُهت القادة كأن على رؤوسهم الطير، وما لبثوا أن تكلّم عددٌ منهم في آنٍ واحدٍ محتجين على هذه الخطة، وكان أعلاهم صوتًا رجلاً في مقتبل شبابه يعدّه مولاي أقربَ أصحابه إلى نفسه يُدعى سنيور كاستيو. وقد انضمّ إلى الحملة في آخر لحظةٍ بعدما سَمِعَ عنها في وليمة عشاء في إشبيلية. ولكاستيو صوتٌ ذو غنةٍ، فيتمثل لمن يسمعه كصوت طفل، وله بنيةٌ هزيلة تحسبه فتى لم يبلغ الحُلُم. وأذكرُ أنه قام من مقعده وبيّن مخاطرَ إرسال السفن كافةً والمؤن معها إلى مكانٍ، وارتحالنا نحن إلى مكان آخر في غارةٍ متوغلين في البرّ، وقال إن لا خريطة معنا، ولن تكون لنا وسيلةٌ للاستزادة من المؤن إن طال المسيرُ عما نعدُّ له، بل إن ربابنةَ السفن مختلفون في تقدير المسافة إلى بانكو. وكان سنيور كاستيو يقول رأيه بلا معاداةٍ ولا مطاولة، أما المعترضون الآخرون من القادة الذين احتجوا ثم سكتوا فقدّموه للكلام باسمهم.

فأجاب الحاكمُ سنيور نارفاييز بطيب نفس: صحيحٌ أننا لا نملك خرائط، ولكن معنا الهنود الأربعة، وسوف يعلّمهم الآباءُ لساننا فيكونون لنا أدلاء وتراجمة، أما طولُ المسير فقد رأيتُ قلّةَ سلاح المتوحشين، فلن نلبث طويلاً إذًا حتى نقهرهم. لم يكن الحاكمُ مرتديًا درعه تلك الليلة بل قميصًا أسود، وكان يرفع أكمامه بين الفينة والأخرى ثم ينزلها. وقال: فلنناقش الآن كيفية تقسيم أعدادنا.

مسح سنيور كاستيو بيده على شعره الداكن الكثّ، وهي عادةٌ عنده تفضح اضطرابَه، ثم قال: العفو منك يا دون بانفيلو ولكنّي لا أرى بعدُ

صوابَ إرسال السفن بعيدًا عنّا والربابنةُ لّما يتفقوا على دقةِ تقدير المسافة بيننا وبين إسبانية الجديدة.

فكان ردُّ الحاكم أن قال إننا لسنا بعيدين عن بانكو، وإن كبيرَ الربابنة قدّر بأنّ المرسى على بعد نحو عشرين فرسخًا من هنا، والربابنةُ الآخرون يقولون إنها خمسةٌ وعشرون، فلا أرى أنّ الاختلافَ عظيمٌ.

فأنتَ إذًا ترى أن نرسل المراكبَ بلا تأكّدٍ ولا تثبّت؟

فحدج الحاكمُ سنيور كاستيو نظرةَ حنقٍ من عينه السليمةِ وأجاب بأنّ هذا هو ما يراه حتمًا.

وماذا إنْ ضلّتْ السفنُ في طريقها إلى المرسى؟ ولقد وَضَعَ بعضُنا أموالاً طائلة في تسيير هذه السفن، ولا نبتغي خسارتَها.

أتحدثني عن تكاليفِ المراكب يا كاستيو وأنا الذي وضعتُ كلَّ ما أملك في هذه الحملة؟ ثم أجال الحاكمُ بصره فيمن حوله متحيّرًا. إن خطتي بسيطةٌ أيها الكرام. سوف نشدُّ الرحالَ إلى مملكة الأبلاتشي بينما تنتظرنا السفنُ في مرسى آمنٍ يحرزُ منه الملاحون أيَّ مؤنٍ يحتاجون إليها. وقد فعلتُ مثل هذا في حملتي في كوبة قبل خمسة عشر عامًا. وابتسم الحاكم ابتسامةَ حنينٍ لأمجاده التي مضت، ثم خصَّ سنيور كاستيو بنظرةٍ وقال: عندما كنتَ رضيعًا لم تزل.

فانقلب وجه الشاب وتضرَّج حمرةً ثم قعد.

وإن بدتْ خطةُ الحاكم للقائدِ الشاب جسورةً تنقصها الحكمةُ، فإني أعلمُ يقينًا أنها خطةٌ محكمة. وقد جرّبها إرنان كورتيس[1] قبل بدء رحلته إلى تينو شتيت لان لسلبِ ثروات موكتيزوما بأن أغرقَ سفنَه في مرسى فيراكروز،

1- مستكشف إسباني ومحتل مملكة الأزتك

وقبل سبعة قرونٍ أحرق طارق بن زياد مراكبه على سواحل إسبانية. فمن العدل القولُ إنّ خطةَ الحاكم سنيور نارفاييز تمتاز بالحذر، لأنه ينوي إرسالَ السفن إلى أقربِ ميناء برسم انتظار قدومنا والتزوّد بالمؤن، فلم أستصعب الأمرَ كسنيور كاستيو، بل إنّ بعض البغضِ داخلني تجاهه لحُجَجِه التي تعطّل رحلتنا إلى مملكةِ الذهب، وترجئ تحقق حلمي بالحرية.

غير أنّ سنيور كاستيو التمس النجدةَ من سنيور كابيزا دي فاكا الجالسِ أمامه وسأله: ألا تراها مخاطرةً نحن في غنى عنها؟

وسنيور كابيزا دي فاكا هو خازنُ الحملة، والمتولّي تحصيل خراج الملك من أي ثروةٍ نجدها في لا فلوريدة. وسرتْ شائعةٌ أنه من المحظيين عند الحاكم، فهابه جميعُ الرجال وإن تناولوه بالتنابز والسخرية من وراء ظهره بسبب اسمه العجيب، فكانوا يسمّونه بكابيزا دي مونو بسبب أذنيه البارزتين كأذني قرد[1]. شَبَكَ كابيزا دي فاكا أصابعه البيضاء الملساء ذات الأظافر النظيفة. يدا سيّدٍ ذو شرف. وقال: ثمةُ مخاطرة، والمخاطرة حتمًا واقعة، لكنّ الهنودَ في هذه الأرض يعلمون بوجودنا الآن ويتعيّن علينا المسيرُ على الفور قبل أن يحشدَ ملكُ الأبلاتشي جيشه لقتالنا، أو يعقد تحالفًا مع القبائل المجاورة. فلن يحسن بنا تضييع فرصةِ فتح الأبلاتشي وإدخالها في حرز جلالة الملك. وكان كلامُ سنيور كابيزا دي فاكا مصطبغًا بفكرٍ نبيل مترفع لا تشوبه صغائر الأمور، كالنظر في حال السفن التي ستعيدنا إلى بلادنا. فأومأ بعض القادة لأن الخازنَ رجلٌ حكيم عليم ذو تجربة، وله حظوة عند الرجال.

احترق الشمع حتى طرف ذبالته، وعلى ضوئه المتقطع أنزل مبعوثُ البابا نطاقَ ثوبه أسفل كرشه وبدأ الكلام، فقال: إنّ هذه الرحلة صعبةٌ منذ

1- يعني اسم كابيزا دي فاكا بالعربية (رأس البقرة)، أما كابيزا دي مونو فتعني (رأس القرد).

بدايتها؛ فالسفر من قشتالة، واكتراءُ ربابنة عليمين بشؤون الملاحة في بحار الغرب، وتهيئة السلاح والخيل، كل ذلك أخذ من أعمارنا نحو سنة كاملة. ولقد خسرتْ الحملة من رجالها الكثير، إثر الفرار أو بفعل المرض، وإنه لإثمٌ مقيت أن نصل لا فلوريدة ثم نرجئ أمر الرّب أكثر من ذلك. وكلما عجّلنا بإيجاد أبلاتشي وإنشاءِ مدينة نصرانية صالحة كان توفيقُ الإله ورضاه حليفَنا.

حلّ الصمتُ على المجلس كله، ثم تنحنح القائدُ سنيور نارفاييز وقال: أريدُ مَنْ أؤمّره على السفن في مسيرنا نحو أبلاتشي، فإن لم يرد كاستيو خوضَ الغابات...

لم يدارِ الحاكم إهانتَه في عرضه، فقام سنيور كاستيو متأهبًا للذود عن شرفه بحزمٍ وقال: دون بانفيلو، لا...

لكن سنيور دورانتس أمسكَ مرفقَ صاحبه يقيه من زلّاتِ لسانه التي كادت تودي بصيته، وقال: بل سوف يذهبُ معنا.

فأرسلَ الحاكمُ المراكب بالبحر إلى مرسى بانكو، وقاد قافلةً فيها القادة والأجناد، والآباء والمستوطنون، والحمّالون والخدم متوغلين في قلب أحراش لا فلوريدة. مسيرةٌ طويلة من ثلاثمئة رجلٍ يبحثون عن مملكة الذهب.

بدأنا مسيرَنا في أرضٍ منبسطة كثيفة الشجر لا تكاد الشمسُ تتغلغل بينها، وإنْ تسلّل نورها بين التعريشات المتشابكة نرى لونًا أخضر باهتًا أو أصفر واهيًا. وإن كتمتْ الأرضُ الناعمة حوافر الخيل، فإنّ غناء الجند العالي، بأصواتهم الخشنة وصرير دروع القادة، وقعقعة الأدوات داخل أحمال المستوطنين تعلن عن اجتياز قافلتنا للسهول الخضراء. وما أنْ نلج من بين الشجر حتى نجدُ مستنقعًا راكدًا أمامنا، تحيط به الجذورُ المكشوفة وتظلّله الفروعُ الرطبة. وكلما خضتُ مستنقعًا خرجتُ والوحلُ الرمادي يغطّي

ساقيّ، ويتخلل بين أصابع قدميّ، فتكاد الحكةُ تذهب بعقلي.

وبينما كنا نجتاز مستنقعًا كبيرًا سمعتُ عبدًا اسمه أوغستينو، وهو رجل مثلي رحل به الطمعُ والظروفُ من أفريقية إلى لا فلوريدة، سمعتُه يطلب العونَ في زكيبةٍ من القنّب ثقيلةٍ كان يحتملها فوق رأسه. فمشيتُ نحوه مارًا بجوار زهور بيضاء انتشيتُ بعبيرها. وارتفعتْ فقاعاتٌ من الماء حولنا، وكأنّ الماءَ يستنشق نفسًا بريحه، وبينما يداي ممدودتان أقصد أخذَ كيس القنب، إذ بوحشٍ أخضرَ يثبُ من تحت الماء وينهشُ أوغستينو. فسمعتُ عظام المسكين تنقصم، ورأيتُ الدم ينفجر على الماء حولنا، وأوغستينو يُجر تحت الماء وهو يصرخ. فخرجتُ من المستنقع جريًا كأسرع ما تحتمله ساقاي، وقلبي يرتجف بخوفٍ عظيم ما شعرتُ به مذ كنتُ صبيًا أسمع حكايات أمي في أمسيات الشتاء، عن الغيلان التي تسرق الأطفالَ الذين يجسرون على ولوج الغابات. ولما وصلتُ الضفّةَ سقطتُ على ظهري، ورأيتُ الوحش يختفي وهو يضربُ الماء الموحلَ بذيله.

وما كان في لسان القشتاليين ولا في لساني اسمًا لذاك الحيوان، فصرنا نسميه حيوانَ الماء ذا الحراشف، وهو اسم ثقيلٌ لن يستسيغه الإسبانُ بعد أن ضمّوا لا فلوريدة تحت جناحِ دولتهم، فتراهم يسمّون كل شيءٍ حولهم باسمٍ جديد من لغتهم، وكأنهم خلقوا هذا الخلقَ، تعالى الله أن يتشبّهوا بشيء من صفاته. ورجع الحاكمُ إلى ضفة المستنقع وسأل: عبدُ مَنْ ذاك، وما كان في كيس القنب؟ فأجابه أحدُهم: هذا عبدٌ مملوكٌ لرجل من المستوطنين، وفي الكيس قدورٌ وصحاف وملاعق. همهم الحاكمُ بردٍ وعلى وجهه سيماء الضيق، ثم رفع صوته وقال: سيكون اسمُ هذه الدابة إِل لغارتو لأنها تشبه العظاءةَ العملاقة.[1] وأنّى بنا نسيانُ اسم ذاك الشيء؟ حتى كاتب الرحلة لم

1- إِل لغارتو كلمة إسبانية وتعني السحلية

يهتم بتدوينه.

ولم يكن إِل لغارتو العثرةَ الوحيدة في مسيرةِ الحاكم، فالجراياتُ التي قسّمها بيننا لم تكن كافية، وكان أمرُه أن يكون نصيبُ كلّ رجل رطلين من الخبز اليابس ونصفَ رطل من لحم الخنزير، ولكل خادمٍ ومملوكٍ نصف ذلك. فبات الرجال يبحثون أبدًا عن زادٍ يسدّون به جوعهم بصيد الأرانب أو الغزلان، ولكن الحاكم منعَ من كان منهم يحمل القسيّ أو البنادق من التصيّد بها، خشيةَ استنفاد الذخيرة فيما لو قاوم هنودُ الأبلاتشي. ولم أكن أحمل سلاحًا غير عصاي التي أتوكأ عليها، فكنت أهشّ بها عشَّ طيرٍ ما رأيتُ واحدًا وآكلُ بيضه، أو ألتقط ما سقط من ثمر النخيل، وكان أصغرَ وأصلب من تمر بلدي، أو أذوق ثمارَ شجيرات لم أرها من قبل، بعد اختبارها أولاً بأن أمضغَ واحدةً أو اثنتين قبل أن أتجاسر على ازدراد المزيد.

ولم يشعر سنيور دورانتس بأيِّ معاناة، حيث إنه قد تكلّف من ماله في التجهيز لهذه الرحلة، فكان جزاؤه هو وآخرون مثله أنْ كان لهم النصيبُ الأكبر من الطعام. وكان يمتطي صهوةَ أبيخورو، وهو فرسه الأندلسي أشيبُ اللون، لمّاحُ النظرة، أسودُ القوائم، قويُّ المتن ذو جَلد. ويحاول السيد إزجاء الوقت بالحديث مع دييغو أخيه، وإن آثر عامةً صحبةَ سنيور كاستيو، فكم مرةً رأيته يلكز حصانَه ليلحق فرسَ صاحبه البيضاء. أما أنا فأمشي حيثما أَمَرَني سنيور دورانتس، أي وراءه بخطوةٍ واحدةٍ في كل آنٍ. فما كان يرضيه أن يقطع هذه الرياض العجيبة سعيًا لاحتراز نصيبه من مملكة الذهب فحسب، بل أراد شاهدَ عيان على طموحه. وكان يرى حاله في بداية فتحٍ جديد مجيدٍ، فأراد جمهرةً تواكبه بإعجابٍ، وإن كان ما يفعله الآن هو السيرَ لا غير.

وصباحُ ذات يوم، بعد مسيرة نحو أسبوعين، خرجنا إلى نهر عريض

تلتمع مياهه بنور الشمس الوهّاج حتى كادت تُذهِب بالبصر، فإذا ما وقفتَ على ضفة النهر رأيتَ سرعةَ جريانه وصفاءَ مائه، حتى إنّك لتعدّ الحصى الأسودَ في قاعه. فأعلن الحاكمُ أنّ اسم هذا النهر ريو أُسكورو[1] بسبب كثرة أحجاره السوداء. لكنّ الرجال ما توقفوا ولا سمعوا قوله، لأنهم كانوا يصيحون: أغوا! بور فين! غراثيس آ ديوس! ديهاميه باسار أومبريه![2]

ترجّل سنيور دورانتس، فسقتُ أبيخورو إلى الماء وخضتُ فيه أنا لأغسلَ الطينَ الرماديّ عن ساقيّ ونعلتيّ، وظننت أننا سنرتاح على ضفة النهر برهةً، بيد أنّ الحاكم أمر نجّاريه ببناء قوارب على الفور كي ينتقل أولئك الذين لا يسبحون إلى الضفة الأخرى، وكان جملةُ الرجال لا يجيدون العوم. وكان الوقت آخر الربيع والنهارُ طويل، وفيما أنْ أُعدّتْ القوارب وجاوزت الجماعة الأولى النهرَ حتى استحال ضوء الشمس إلى صفرةٍ كلون الكهرمان.

أما الضفةُ الأخرى فهي منبسطة جرداء ينتأ منها لَبابٌ[3] هنا وهناك، ومن ورائها حائطٌ من قصب أخضر طويلٍ تنمو من خلفه الغابة. وهبّ نسيمٌ بارد هزّ أغصان شجر الصنوبر على مبعدةٍ ولفح بدني، فنفذ عبر قماش قميصي الخشن وأنا أحكمُ ربط سراج أبيخورو على ظهره وأمسح على عنقه. والتفّ القادةُ والأجناد سويًا، وهم أولُ من جاوز النهر بالقوارب، والحاكمُ مشغول بحديث طويلٍ مع مبعوث البابا، مميلاً برأسه نحو الراهب القصير، كما لو أنه لا يسمع إلا بإذن واحدة. وسنيور دورانتس يعلّم سنيور كاستيو كيفية ربط درعه ربطًا يقي جلده من الاحتكاك المؤلم. ورجلان يتجادلان في مهماز حصان.

1 - وتعني النهر الأسود

2- ماء! أخيرًا! الحمد لله! دعني يا رجل!

3- القليل من العشب

وإذّ ذاك حالُنا فإذا بجماعةٍ من الهنود تبرزُ من وراء حائطِ الشجر، واجتمعوا صامتين على الأرض المستوية. وكان بعضُهم عراةً، وآخرون يغطّون عوراتهم بجلود الحيوانات المطلية بأشكالٍ زرقاء وحمراء، ويحملون أسلحةً مصنوعة من عظام الحيوانات، ورماحٍ وقسيّ ومقاليعَ من الخشب المصلّد بالنار. وهم مع أسلحتهم وعددهم الذي شارف المئة لم يتعرضوا لنا. فظلّت كلُّ جماعةٍ ترقب الأخرى بفضول طفلٍ يرى انعكاس وجهه في المرآة لأول مرة. ثم امتطى الحاكمُ فرسه برويةٍ وتَبِعَه القادةُ من ذوي الخيل، وسحب الحاجبُساريةَ علم الحاكم من مكان انتصابها في الأرض ورفعها، فخفقَ العلمُ في الهواء.

نادى الحاكم: ألبانيز!

وسنيور ألبانيز هو كاتبُ العدل المكلّفُ في هذه الرحلة، والمتولي حفظ عقودِها وعرائضها، والموكّلُ بتدوين سيْرها خلال الشهور المقبلة. وقد أثار محضرُه ساعتئذٍ، في أول لقاءٍ لنا مع قوم من الهنود، ذكرى أبي الذي كان يحلم أن أصير كاتب عدلٍ مثله، وشاهدًا ومدوّنًا لأهم الأحداث في حياة الناس. فاستشعرتُ أنّ أمانيّ أبي التي نبذتُها بلا خجل ولا أسفٍ قبل أعوام عديدة ما انفكّت تقبض عليّ وتلاحقني حيثما اتجهت، وإن كنتُ هنا في هذه البلاد الغريبة. وإن كنتُ أرى أنّ حلمَ أبي تحقق في آخر الأمر، فها أنا أسجّلُ حكايةَ رحلة نارفاييز لغرضٍ في نفسي.

فأمره الحاكم: قلْ للمتوحشين أن يأخذونني إلى الأبلاتشي. وكان يرى أنّ الكلام مع الهنود بلا وسيطٍ لا يليق بقدره.

فترجّل سنيور ألبانيز، وعلى محيّاه حنقُ خادمٍ أُمِرَ بفعل مذلٍ، ثم تقدم نحو جماعة الهنود، فأشار إلى ما وراءه وقال: هذا هو بانفيلو دي نارفاييز، الحاكمُ المولّى على هذه الأرض بأمرٍ من جلالة الملك المعظّم، ويريد الذهابَ

إلى مملكة الأبلاتشي ولقاءَ حاكمها، لمناقشة أمورٍ ذات أهمية عظيمة للشعبين، ويريد أن تصحبوه إلى هناك.

ولم أدْرِ أصعبُ على الهنود فهمُ أمر الكاتب أم أنهم أبوا طاعته، فقد ظلوا صامتين. وفتّشتُ بينهم عن قائدهم فلم أعرف إن كان ذاك الرجل المعمّم بطاقيةٍ من شعر الدواب، أم الآخرَ ذا الوشوم الجمّة.

وأحاط سنيور ألبانيز قبضتيه حول فمه ليبلغ صوتُه أبعدَ مدى، وصاح بهم: خذونا إلى مملكة الأبلاتشي. وكان هنديًا منهم قد تقرفص منشرحًا لمرأى الرجلِ ذي القميص الحديدي والقبعة المريّشة الذي يصرخ ويحرّك يديه.

وصاح سنيور ألبانيز ثالثةً: مملكة الأبلاتشي!

وكانت القواربُ في ذلك الحين قد جاوزت النهر بجماعةٍ ثانية من فرقتنا، فنزل منها مزيدٌ من البشر، من الجند والمستوطنين والخدّام والأسرى، فلحقوا بنا دون كلام، فاحتشد جمعٌ كبير وفاق عددنا جماعةَ الهنود.

ثم قال الحاكم: حسبك يا ألبانيز. ونظر وراءه فأمر: إليّ بالأسرى.

تناقل الرجالُ الأمرَ، ثم تقدّم جنديٌّ من الراجلة يسوق الأسرى وراءه. وحيث إني مع مولاي أبدًا في مقدمةِ قافلتنا الطويلة فلم أرَ الأسرى مذ غادرنا بورتيو قرية الصيد. جرجر المعتقلون خطاهم، وتقدّموا جماعتنا واقتربوا من الحاكم بأيدٍ مصفّدة بحبلٍ طويلٍ، ينتهي آخرُه بنطاق الجندي الحارس، وعلى جلودهم خطوطٌ متصالبةٌ من أثر السياط، وقد ضمرتْ جوارحهم من قلةِ الطعام. وكان واحد منهم منكسًا رأسه على هيئةٍ خلتها تخالفُ الطبيعة حتى نظرتُ إلى وجهه إذ بأنفه قد جُدع، والدمُ والمخاط مجتمعٌ على حواف الجَدَعَةِ، والذبابُ يحوم حوله. وما كان بوسعه أن يهشّه لأن يديه موثقتان. فأشحتُ بصري عن منظره المجفلِ، وكرهت في قلبي رؤيةَ رجلٍ على هذه الحال.

ووقف الأسرى بجانب سنيور ألبانيز، فقال هذا لواحدٍ منهم: بابلو، قل لهم أن يأخذونا إلى الأبلاتشي.

وما كاد الفتى الذي سمّاه سنيور ألبانيز بابلو، وقد جُزَّ شعرُ رأسه الملبّد الطويل وغطّت القروحُ كتفيه، يفتح فاه للكلام بلسانه فإذا بحربة تمور الهواءَ من جانب الهنود. فانقلب الجندي الذي كان يقبضُ ذراعَ بابلو على وجهه وخرَّ صريعًا وهو يمسك عنقه، والنصلُ قد نفذ من خلاله إلى الناحية الأخرى. وفغر الجنديُّ فمَه ولكن لم يخرج من جوفه إلا الدمَّ. فأطلق الهنودُ صرخاتِ عويل إيذانًا بالحرب، فشلّني خوفٌ رهيبٌ.

وصاح سنيور ألبانيز صيحةً عظيمة، وولّى مدبرًا يبحث عن حصانه. وهتف الحاكم: آندليه![1]

ووكز سنيور دورانتس فرسَه فتقدّم، وضربني أبيخورو بذيله على صدري وأنا ألتفتُ أبحث عن ساترٍ يحميني، وإن لم يكن ثمة أماكن للاختباء. فحاولتُ الهربَ صوب النهر، لكن فوجًا من القشتالين تقدّم من تلك الناحية، فسدّوا طريقَه عني وأجسادُهم تتكالب عليّ، فما كان مني إلا أن جثوت على ركبتيّ. وأزّت طلقاتُ البنادقِ من فوق رأسي، وأبصرتُ جنديًا عن يميني، فتى لم يتعدَّ الخامسة عشرة أو السادسة عشرة، يرفعُ سلاحه ويطلق النار فأصاب أحدَ الجندِ من قومه. وسمعتُ المحاربين الهنود يتقدّمون من خلفي، وهم يصيحون بهتافاتٍ لا تحتاج إلى ترجمان.

ويسّر الله لي سبيلاً لأحتمي بحِزَم الأمتعة، ومنها صناديق تحوي عدّة النجارة، فأقعيتُ وراءها وظننتُ أنّي آمنٌ. ثم سمعتُ تأوّهَ ألمٍ مكتومٍ، فالتفتُ فإذا بأحد المستوطنين القشتاليين يصارع هنديًا وراء أيكةٍ على بعد

1- أي تحركوا

عشر خطوات من مكاني. وكان بيدِ الأبيض مجرفةً يحاول أن يصيب بها الهندي في أي جزءٍ من جسمه، فأخطأ وعاجله الهنديُّ بضربةٍ من فأسه بترتْ ذراعَ المستوطن من مرفقه تمام البتر، وأتبعها بثانيةٍ على رأسه فهوى الرجلُ إلى الأرض صريعًا وعيناه مفتوحتان.

تلفّت الهندي حوله يبحث عن خصمٍ آخر، فألصقتُ ظهري بلوح الصندوق. وظهر عليه العجبُ حين رآني، أنا الأسود بين البيضان، فتحيّر باختلاف لوني عن لون الآخرين، ولم يكن معي سلاح كما ذكرتُ. فلم يدرِ أيخلّي سبيلي أم يقتلني، فعزمَ على القتلِ، وتقدّم مني رافعًا فأسه فانقلبتُ عن مكاني، وانقضّ عليّ ووزنه يضغط على فخذي، وشعره الطويل يسقطُ على وجهي فيعمي عينيّ. وكان قريبًا مني حتّى إنّي شممتُ رائحةَ عرقه وغضبه الأحمر، ومئزره المصنوع من جلد الحية. فتصارعنا على الأرض أحاول دفعَه عني بأن أصدّه بعقب يدي على فكّه، فزلقتْ كفي على وجهه الأمرد. ولكمني فلكمته، واستوى فوقي ثم قام والفأس مرفوعةٌ بيده، فظننتُ أن ساعتي حلّتْ لا محالة، لكنّ الله عصمني بفضله، وشاء أن تنفذَ طلقةٌ غائرة فيه أطاحت به. ولما سقط الهنديُّ مزّقتْ الفأسُ لحم ساقي، فكان جرحًا خفيفًا أصاب قصبتها. فصرختُ ولا أذكر ما قلتُ وإنما أحسب أني لم أقل شيئًا، بل كانت صيحةَ ارتياحٍ أن نجوتُ من القتل، فأخذتُ الفأسَ من مقبضها وغالبت الخوف، وشددتُ على قلبي وعزمتُ أن أدافع عن نفسي.

جثوتُ على ركبتيّ، واسترقتُ النظرَ من فوق صناديق الخشب أنظر إلى أرض المعركة، فرأيتُ الجنودَ ذوي الدروع يطلقون سهامهم ورصاصاتهم، ورأيتُ الهنودَ يردّون عليهم برماحهم وحِرابهم. ولقد أوقعَ الهنودُ خسائرَ جمّة في صفوف القشتاليين؛ فهذا قشتاليٌّ بخوذةٍ صدئة يترنّحُ من فوق فرسه ويداه تقبضان على حربةٍ اخترقت فخذَه، وآخرُ قد وقع بضربةٍ طوّحها مقلاعٌ، بيد

أن أذى القشتالين بغرمائهم أشدُّ وقعًا. ولا زلتُ أذكر هنديًا من مصارِعِهم قد تناثرتْ أحشاءُ بطنه وهو يشدّها إليه بذراعيه، وآخر يصرخُ ومن فوقه جنديٌ يهشّمُ عظامه بدبوس.[1]

وما كنتُ رجلَ حربٍ وما خضت يومًا معركةً، ومع ذلك فحتى الجاهل يدرك أنّ الكفتين غيرُ متساويتين، وأنّ النصرَ ليس حليفَ الهنود. وشرعتُ أبحث بين النقعِ الثائر عن سيّدي، الرجلِ الذي اتّصل مصيري في الدنيا به. أين هو؟ رأيتُه على فرسه وراء صفِ رماة، يقطع بسيفه هنديًا حتى ترشّش الدمُ من بين منكبيه، فطُرح الرجلُ على الأرضِ ووطئه أبيخورو في طريقه وسيّدُه يقوده نحو خصمٍ آخر. واهتدى بقيةُ الفرسان إلى الوسيلة عينها فشرعوا يدوسون الهنود من قِبَلهم بحوافر خيولهم.

وعندها انطلق صوتُ نفيرٍ فتراجع الهنود. وكانت الشمس قد غربتْ فاستعسر عليّ التثبّت من وجوهِ الصرعى المطروحين على الأرض، واسترشدتُ في سيري بصوت مقارعة الأجنادِ للهنود ورائحة الغبار والدخانِ أكثرَ مما استرشدتُ بالبصر وحده. فحدّثتُ نفسي أنْ يا أرحم الراحمين، ما عساي فاعلٌ في هذه البلاد الغريبةِ، في معركةٍ تسلّطَ بها قومان لا أنتمي إليهما؟ كيف آلَ بي الحالُ هنا؟ وما تزال تلك الهواجسُ تتقلّبُ في عقلي، وجسدي متصلّبٌ لا يرضى حراكًا، فإذا المشاعلُ قد أُوقدت والأسماءُ تُنادى، ثم برز المستوطنون والآباءُ الرهبان من حيثما اعتصموا، خلفَ صندوقٍ أو شجرةٍ أو جسدِ ميتٍ. ومن ورائنا اهتاجَ ريو أُسكورو ودوّى صوتُه وهو يجري إلى مصبّه في المحيط.

1- سلاح قديم وهو عبارة عن عصا غليظة تنتهي برأس مربع أو مستدير من حديد.

2

حكاية مولدي

قالت لي أمي مرةً إنّ قدري هو حياةُ السفرِ. والعلامات التي استدلّت بها على ذلك بيّنةٌ منذ اليوم الذي وُلدتُ فيه. وفي ذلك الحين، كان أبي كاتبَ عدلٍ معتمدًا ذا طموح كبير يناسب صِغَرِ سنّه، ولكن شقَّ عليه أن يكسب رزقه في فاس، وهي التي غصّتْ باللاجئين من المسلمين واليهود الفارّين بدينهم من الأندلس، ومن بين أولئك المهاجرين كثيرٌ من القضاة المعروفين وكتّاب العدل المهرة. فلما نَمَى إلى سمع والدي أنّ مدينة مَلِيلِية سقطتْ بيدِ ملك قشتالة، عَلِم أنّه إنْ عجّتْ فاس بالناسِ شحَّ بها الشغلُ، فعزم على الهجرة هو وأمي إلى أزمور في الجنوب حيث وُلدَ وحيث يقطنُ أخواه، وحيث يستطيع أن يركنَ إليهما وقتَ العوز دون أن يردّه الحياءُ.

غير أنّ حكاية مولدي بدأتْ قبل أنْ أُبْصِرَ الدنيا بأمدٍ طويل، بدأتْ بسقوط إمبراطوريةٍ ونهوض أخرى، بل أجزمُ أنّها بدأت كألف حكايةٍ غيرها في فاس.

كانت أمي هنيّة أصغرَ أشقّائها التسعة، وهي الابنة الوحيدة وقرّةُ عينِ أبيها. فلمّا بلغتْ الخامسة عشرة وافق جدّي أنْ يزوّجها تاجرَ سجّادٍ غني يحسبُ أنه خيرُ ضمان لها من الخطوب. لكنّ التاجر مات بعد ثلاثةِ أشهر في شجارٍ نَشَبَ بينه وبين مخازنية السلطان.[1] أما زوجها الثاني فكان حائكًا طاعنًا في السن حكيمًا، مات بالحمى ولمّا يتم الحولُ على نكاحِهما. ولا ريب

1- المخازنية: مفردها مخازني، وهي رتبة عسكرية تخص رجال البلاط الملكي

أنّ الحوادثَ والأمراضَ سنّةٌ من سنن الحياة، ولكنْ ما بدا للناس هو أنّ هنيّةَ نالها منها نصيبٌ كبير في ريعان صباها، فأخذوا يتناولون بالأقاويل عروسَ النحس التي تُوفي عنها زوجان وهي لمّا تبلغ السابعة عشرة بعد. ومع تناقل الكلام، وكثرةِ القيل والقال، زُخرفتْ القصةُ كما يجدر بأيٍّ قصة، فكانت أن صُوّرت أمي بهيئة البِكْر في خدرها، ذات حُسنٍ تتقدم فيه على قريناتها، وفضيلةٍ تُفضّل فيها على أترابها، وفنٌ خرقتْ به المعتادَ من الفنون، وهي عازفةٌ للعود منشدةٌ للشعر. ولكن يا حسرتاه! حظّها في الرجال غير جزيل.

ولمّا سَمِعَ جديّ الحكايةَ كان أوّلَ من صدّقها، رغم أنّ أمي ليست ذاتَ جمال بارعٍ ولا موهبةٍ في الغناء عجيبةٍ. وقد أُسقط في يده لولا أنْ رأى وسيلةً يسيرةً لفكِّ نحسِها، فعزم بدلاً من أنْ يزوّجها من زوجٍ مسنٍ موسرٍ أن يتخيّرَ لها رجلاً شابًا موفور الصحة. وكان جدّي شمّاعًا مزدهرَ التجارة يعرفه الجميعُ، وكان يزوّدُ المارستانَ ومدرسةَ العطّارين وحمّامَ سفارين. وفي صباح بعض الأيام، وبينما جدّي يوصلُ شمعًا إلى جامعِ القرويين رأى والدي محمدًا مستندًا إلى عمود من أعمدةِ صحنه. وكان أبي يريح ظهره المتعب، فبدا لجدي في طلوع الفجر كمتعلمٍ حصيفٍ مجتهد، فأخذ جدي يجاذبه أطرافَ الحديث بينما هو ينزلُ الشمعدانَ النحاسَ ويبدّلُ الشمعَ، فعرفَ أنّ أبي درس الشريعةَ وأنه يبتغي العملَ في كتابة العدل وأنه ليس من أهل المدينة. فكان لهذا القولِ عند جدّي تفسيرٌ عظيمُ النفع له، وهو الآتي: إنّ محمدًا ذو طموح، وإنه لا بد أن يتأتى له وجهٌ من معاشٍ عن قريب، وبما أنّ لا أهل له في فاس فلن يرفضَ السُكنى مع أهل زوجته. فوقع في قلب جدّي أنَ محمدًا هذا هو الرجلُ المناسب لهنيّة.

وإنْ كان أبي طويلاً جسيمًا فإن هيئته لا تفشي خبر علّاته الكثيرة. فقد أصابته الحصبةُ في صغره في أزمور ونجا، وإنْ خلّفته عليلَ الجسم سقيمَ

الصحة، فكان أنْ ناله كل داءٍ ووباء عمّ المدينة من ذلك الحين. فإنْ سَبَحَ في أمّ الربيع أصابه زكامٌ وإنْ كان وقت صيفٍ، وإنْ تسابق وأصحابه في أزقّة المدينة سَقَطَ ولوى ركبته، وإنْ مشى حافي القدمين وخز مسمارٌ إصبعَ قدمه الكبير. وكانت النجارةُ حرفةَ أسرته، غير أنّ أباه لم يشأ أن يعلِّمَه الحرفةَ كما علّم أخويه، ولهذا انقطع محمدٌ للدراسةِ في القرويين وكان ذلك خيرًا له، فالعلم لا يصيبُ طالبَه بسقمٍ ولا جرح.

ولما قابل أبي أبا هنيّة وجد أحدُهما في الآخر مبتغاه. وقد سَمِعَ محمدٌ بجمالِ هنيّة البارع وحذاقةِ مهاراتها فاستبدّ به الفضولُ، ورأى جدّي أنّ حلَّ شؤم بنته بيدِ هذا الشاب المليح. فتلى اللقاءَ دعوةٌ لشرب الشاي، ونظرةٌ خاطفة من وراءِ حجاب، وزواجُ أبي بأمي. وبعد أنْ أفاق أبي من حلمِه، وعَرَفَ أنّ أمي ليست شهرزادَ التي خالها، توكل على الله ورضي، فأتمَّ دراستَه، وكان ما بين نوازلِ الزكام والحمّى والإعياء يسعى لكسب رزقه. وتنبّه حينئذٍ إلى انتشار الغرناطيين في المدينة، وكان لهم فوق المهارةِ والدراية في كتابةِ العقود عَجبُ الغرباء وجِدّتهم بما لم يكن لدى أبي، فأقبل الناسُ عليهم. وعقب سقوطِ مليلية تحت حكم ملكِ قشتالة، عَزِمَ العودةَ إلى أزمور ومعه أمي الحبلى بي، فأوغر صدور أصهاره الذين وجدوا بعد حينٍ أنّ أبي لم يكن عنترةَ زمانه، كما خالوه هم.

فسارا في رحلةٍ طويلة إلى أزمور، أبي راجلاً وأمي فوق حمارٍ أشهبَ يحمل على ظهره خُرجًا كان هديةً لها يوم قِرانها. ولحقتْ بهما طوال الطريق غيومٌ نشاصٌ حتى وصلا الساحل، كأنها تطردهما من طرفِ البلاد إلى طرفها الآخر. وكان خريفُ تلك السنة قد حلّ باكرًا، والبردُ المخاتل هبَّ على استحياءٍ كغير عادته، والمطرُ ينزل وابلاً حتى أعاقَ مسيرهما، فلم يبلغا منبعَ أمّ الربيع إلا عصرَ اليوم الثالث. وأكاد أراهما يبصران مناراتِ أزمور

الإحدى عشرة في الضفةِ المقابلة كأنها عمالقةٌ تعظّم مقدمَهما، ووالداي بسبب المشقّة يتوقان للوصول إلى دار عمّي، فيتنعّمان بدفء الكانونِ ويتناولان حساءً ساخنًا يصرف عن جسديهما المنهكَين البردَ. فانتظرا تحت ظلٍّ شجرة تينٍ مقدمَ المعدّية. وبدأتْ أمي تشعرُ بشيءٍ من الاضطرابِ، غير أنّها لم تردْ أن ينشغلَ بالُ أبي فكتمتْ ما بها، قاطعةً بأن مخاضَها لن يحينَ إلا بعد شهرين.

وجرتْ العادةُ ألّا تأخذَ مجاوزةُ النهرِ وقتًا طويلاً، ولكن ما أنْ كفّ أبي وباقي المسافرين عن مُساومةِ أجرةِ عبورهم واحتمالِ أمتعتهم حتى كان النهارُ في آخره. ولما تأهّبتْ المعدّية للمغادرة وَصَلَ خيّالان من البرتغاليين يجرّان وراءهما أسيرةً. وكانت مدينة أزمور واقعةً تحت نياطِ الاحتلال بعهد مانويل الأول منذ بضع سنين، فما كان أحدٌ من المسافرين الذين أنقضتْ الضرائبُ البرتغالية ظهورهم يحتمل مرأى هذين الجنديين. وزِيدَ للطين بِلةً أنْ رأوا أنّ السجينة من بني جلدتهم، امرأةً نُزع حجابها وقُيّد معصماها بالسلاسلِ، وظهرتْ آثارُ الضرب حمراء متورمة على وجهها وذراعيها.

وكان الجنديان طويلين ذوَي لأمةٍ[1] ثقيلة، بل إنها أثقلُ من أن يحتملاها في رحلتهما. وأما المركب فصغيرٌ لا يزيد عن فلوكتين وُصل بينهما بمنصّةٍ من خشب، يُجرّ بين شاطئيّ النهر ولا يحملُ أكثرَ من اثني عشر راكبًا. وعرف الناخوذة أنه لا بد من نزول دابةٍ من المركب إنْ أراد الجنديان أن يركبا بجواديهما، فطلب منهما أن ينتظرا حتى يعود ثانيةً، لكنهما أبَيَا. فتوسّط والدي في الأمر، لأنه لم يكنْ على المركب إلا دابتان أحدُهما حماره، فخَشِيَ أنْ لو أُضّطر مسافرٌ إلى النزول فقد يكون هو. وقال للجنديين بلسانهما وهو لا يُحسِنُه كثيرًا إنّه هو وأمي قطعًا طريقًا شاقًا طويلاً من قبل طلوع الفجر، وإنّ متاعهما محمولٌ على متن المركب، وإنّ المعدّية ستعود للمجاوزة بهما مرّةً ثانية.

1- اللأمة: الدرع والخوذة

فكان ردُّ الجنديين أنهما مأموران بالرجوع إلى حاميتهما على الفور، وأنّ لهما السبقَ والتفضيلَ على الأهالي، وهم يقصدون بقولهم الوضعاءَ الأذلّاء من أهل المدينة.

وقد بدأتْ الشمس بالغروب، وارتفع أذان المغرب من المآذن على الشاطئ المقابل. وهبّت ريحٌ باردة فرفع أبي قلنسوةَ جلبابه فوق رأسه. وكان رجلاً حليمًا خفيض الصوت، مشهورًا بحذاقته في التفاوضِ فهذا هو سرُّ مهنته، لكنه على حين غرةٍ وعلى غير عادته آثر في ذاك اليوم استثارةَ خصميه. فوضع كفّه الأيسرَ على لجامِ أحد الحصانين، وارتعد صوته وهو غير معتادٍ على الحديث مع جنودٍ، فجادلهما وسألهما: لِمَ يكون لكما حق المجاوزة أولاً؟ وأيُّ ذنبٍ اقترفته هذه المسكينة؟ لم هي مقيّدة؟

فأجاب أحد الجنديين: كيف تجرؤ على سؤالي؟ وسلّ سيفَه وضَرَبَ كتفَ والدي صامًّا أذنيه عن رفيقه الذي هتف: تمهّل... على رسلك.

فسقط أبي على الأرض، وجَرَتْ أمي إليه من مكانها في المركب وهي تصرخ، والجنديُّ يعيد سيفَه إلى غمده. ركعتْ أمي عند والدي وهي تولول: سيدي محمد! أصابك يا سيدي محمد؟

ومن شقٍ حادٍ على جلباب أبي الأسود نزَّ الدمُ الأحمر، واجتمع المسافرون وصاحب المركب والناخوذة حولهما، ينصحون ويطقطقون بألسنتهم ويحوقلون، أو يتدافعون ليروا الطريح.

يجب أن نجاوز به النهرَ الآن.

أَسنِدوه إلى شجرةِ التين.

أزيحوا عمامته فربما يضيقُ بها.

اسقِه ماءً ليشرب يا أخي.

وما انتفاعه بالماء؟! الرجلُ ينزف دمًا ولم يغشَ عليه من تعب الصوم!

أنا أحاول أن أنفعه، ولستُ كغيري واقفًا بلا حيلة!

وضغطتْ أمي بكفّيها موضعَ الجرح، وطلبتْ أن يناولوها شمعًا من قُفّتها كي ترى، فقد أرسل جدّي رحمه الله وأسكنه فسيح جنانه معها في الطريق شيئًا من عمل يده. وإذْ ذاك رَبَطَ الجنديُّ البرتغالي غير مبالٍ جوادَه بوتدٍ، وشرع يجرُّ الحمارَ يحاول إنزاله من المعدية الصغيرة، إلا أنّ الحيوانَ المسكين حرّك أذنيه الطويلتين، وقلّب رأسه يمينًا وشمالاً ولم يتحرك قط. وهتف الجندي بصاحبه: تعال فساعدني. وجرَّ الرجلان بحزامٍ في أيديهما الحمارَ إلى الأمام، والمسافرون متشبثون به من سرجه، وهم يصيحون: أتقتلون رجلاً ثم تسرقون حماره؟ وبينما هم كذلك كان صاحبُ المركب يفتّشُ خُرجَ الحمار ليعود لأمي بالشمعِ الذي أرادته.

ولا بد أنّ الجلبة جعلت الحمار ينفرُ لأنه أخذ ينهق بأعلى صوت، فبدأ الحمارُ الآخر الذي على متن المعدية ينهق كذلك استجابةً للأول، وإن لم تكن تعرف فإنّ صوتَ الحمير عالٍ مزعج، حتى إنه ليُسمع من على بعد فراسخَ من مصدره. فإن شاءَ الله أن تكون بقرب حمارٍ بحلقٍ لا عيب فيها فستعلمُ أي ازعاج يسبّبه نهيقه، وهذا ما أحسّه الجميعُ على شاطئ أمّ الربيع الشرقيّ، في مساء يومٍ من أيام الخريف، في عام ثلاثٍ وتسعمئة من الهجرة. فغطّى الناسُ آذانهم من كثرة الضجيج، ولم يسمع أحدًا أمي لمّا قالت إنّ الطَلْقَ أخذها.

ورفع أحدُ المسافرين حجرًا ثقيلاً فرماه على الجنديين، وربما فعل ذلك تذكارًا لقول الرسولِ صلّى الله عليه وسلّم عن أبي هريرة: إذا سمعتُم صِياح الدّيكةِ فاسألوا اللهَ من فضلِهِ، فإنّها رأتْ مَلكًا، وإذا سمعتم نهيقَ الحمارِ فتعوَّذوا باللهِ من الشيطانِ، فإنّه رأى شيطانًا. فما كان ممن حوله إلا أن فعلوا ما فعله الأوَلُ، وما بين صرصرة الرياح ولجب الحصانين ونُهاق الحمارين

وصياح الناس، كان الليلُ قد حلّ ولم يكن أحدًا يرَ شيئًا، حتى استطاع أحدُ رجال المعدية إشعال شمعةٍ، فرفعها فوق الرؤوس. وانفلت الحصانان من عِقالهما وخبًّا جارّيَن معهما الأسيرة، فخلّى الجنديان سبيلَ رجلٍ كانا يضربانه ولحقا بفرسيهما. وقام المسافرون وهم يفركون رؤوسهم وأذرعهم وسيقانهم وجعًا من رجم المسافرين الآخرين خطأً، أما والدي فما زال طريحًا حيث كان، يرقبُ ما يجري بغضبٍ عقيم ملجوم.

وأمرَ رئيسُ المركب الجميعَ أن يصعدوا إليه دون إبطاءٍ وقبل أن يرجع الجنديان البرتغاليان. فاحتمل المسافرون أبي على متنه وأقعدوه بحرصٍ قرب أمتعته، ومَشَتْ أمي في مشقة وهي تهتف بالرجل صاحب المركب: أسرع بالله عليك، سيخرج الطفل.

ورُفعتْ المرساةُ وأبحرت المعدية على النهر الداكن كدكنة زيت الزيتون في قارورة. وقد تضاعفت آلامُ المخاض، فقعدتْ أمي على ركبتيها وأخذت تدفع ما برحمها، وسألها أبي إن كانت تحتاج إلى عونٍ، فأجابت: أحتاج إلى أن نصل إلى بيتنا. فكان أن خرجتُ من بطن أمي إلى هذه الدنيا على المعدية التي جاوزتْ بها بين شاطئيّ النهر، وأبي بجوارها ينزف. وأذكر أنها قالت لي إنّها لم تصرخ قط، لأن فاجعةَ العدوان الذي وَقَع على أبي أخرس ألمها.

وبلغنا أزمور، فساعدَنا حمّالٌ على ركوب عربته وأوصلنا إلى البيت، وأمتعتنا تتبع العربةَ على ظهر الحمار. وبينما نحن نجتاز باب المدينة التفتتْ أمي إلى أبي وقالت: أريد أنْ أسمّيه مصطفى، ولم يردّ أبي فقد أُغشي عليه. وحُملنا نحن الثلاثة، أنا وأبي وأمي، إلى دارنا الجديدة. وهرع عمي عبد الله لإحضار الطبيب بعد أن جاء الجيران من جانبيّ الدار للعون، فرفع الرجالُ أبي فوق سريره ليرتاح، وغسلتني امرأةٌ وألبستني ثيابًا، ثم ناولتني أمي كي ترضعني، ونقل الصبيانُ متاعنا من عتبة باب الدار إلى صحنها.

وكان الطبيب يهوديًا اسمه بنيامين الغرناطيّ، قد عَظُم صيته وشهر اسمُه في أرجاء المدينة خلال أعوام قليلة. (ولم يخبر أحدٌ أبي أنّ أَصْلَ طبيبه من غرناطة لأنهم عارفون ببغضه للاجئين). وكان بنيامين هذا يرتدي اللباسَ الأسود المعتاد لدى اليهود، وله لحيةٌ طويلة بيضاء ما خلا خصلاتٍ من الشعر قليلة سوداء. فأزاح الطبيبُ الحائك[1] الذي عصبتْ به أمي الجرحَ، وقصَّ الجلبابَ والقميص بالمقصّ، ورأى أنّ الجرحَ غائرٌ بنفاذِ السيف إلى الناحية الأخرى من جسده، وقطعٌ من الجلد تسبح في بركة الدمِ. ونظّف الطبيب الجرح وضمّده وحذّر أهلَ المريض أنّ أمارات المرض بدأت تظهر عليه، وأشار إلى لوح الكتف وقال: بدأت هذه العضلة تتصلب وهذه أمارة لا تسر ألبتة. ولم يدهش عمّاي من رأي الطبيب، وهما يعلمان أنّ صحة أبي وإصابته بالأمراض السابقة يرجّحُ اعتلالَ صحته وتدهورها من أقلّ عارضٍ. وكان الطبيب يعود والدي كل يوم رغم وابل المطر، وقلقه في كل زيارةٍ يتعاظمُ.

وفي اليوم السابع من عودتنا إلى أزمور، امتلأ بيتنا بالضيوف للاحتفال بمولدي، فتحلّق الرجالُ حول أبي وقرأوا آيات الذكرِ وطلبوا من العليّ القدير أن يبارك فيّ. وأما النساء فاجتمعن حول أمي، وخضّبن يديها وجلبن معهن أحرازًا تحميني من الحسد وتقيني من الأذى. وفي الصباح الذي يليه، أتى الطبيب إلى أبي ليبتر ذراعَه اليسرى. فقضتْ أمي أسابيعًا ترعى زوجها وابنها المتوكلَين بعد الله عليها، وهما بلا حول ولا قوة.

لّما حَكَتْ لي أمي حكايةَ مولدي كنتُ في الخامسة صبيًا ما زلتُ أختبأ في ثنايا قفطانها، أخشى الابتعاد عنها والخروج وحيدًا إلى شوارع أزمور. فكانت تقول لي إنّي مولودٌ على نهرٍ، وتأويل ذلك هو أني جسور غير هيّاب، فلا ضير إن عدوتُ إلى الدكّان لأشتري زيت السراجِ الذي تحتاجه حتى وإن

1- الحائك: لباس أبيض تلتفّ به المرأة المغربية عند الانتقال لمسافات بعيدة

أظلمت السماء.

ولم تحكِ لي هذه الحكاية للمرّة الثانية إلا بعد أعوام، عندما أضمرتْ اليأسَ من أن أتعقّل، وبعدما فقدتْ الأملَ في بقائي بأزمور. قالت إنّ قدري هو حياة السفرِ. وإن كانت تلك نبوءتها، فإن غالب الظن أن نبؤاتٍ أخرى قد تؤّول من حوادث ذلك اليوم، كأن يكون قدري هو حياةِ القتال لأني وُلدت في اليوم الذي قاوم فيه أبي الجنديين البرتغاليين، أو أن قدري هو حياة النجاة من المخاطر لأني نجوتُ من ثورةٍ اندلعت قبيل ولادتي، أو أنّ قدري هو حياة الضياع لأني وُلدتُ لأبٍ عاجزٍ أبتر.

ليتني أراها الآن فأخبرها أنّ كل تلك الأقدار قد وقعتْ في النهاية، وأنّ الله بواسعِ رحمته وحكمته قد بَعَثَ علاماتٍ عديدة، وإنْ كانت هي لم تلحظ منها إلا اثنتين، لرغبتها في تهيئتي ونفسها لما سوف يجري.

***

وعن الأعوام العشرة التي تلت مولدي لا أقول إلا إنها أعوامٌ سعيدة قضيتها في عيشةٍ رغيدة، بل إنها قد تكون أسعدَ أعوام عمري. وسكنّا مع عمي عبد الله وأسرته في بيت قديم غير بعيد عن أبواب المدينة، ذي حيطان مسطّحة بالجير الأبيض وبابٍ أزرق يصدر صريرًا أنما فُتح أو أُغلق. والداخل إلى الدار يشمُّ رائحة الخبز والخشب، ولا يخلو قطّ من جلبةٍ مستمرة مؤنسة، فهذا ينادي صبيًا وهذي تطحن أعشابًا بالرحى، وذاك يرتقي الدرج يطقطق بخفّيه، وأخرى تروي قصةً والأسرة متحلّقة حول الكانون في المساء. وكان عمي عبد الله أكبرَ من أبي بخمسة أعوام، وإنْ كان يعاملُ أبي باحترام وإجلال يُخصُّ به الأخُ الكبير عادةً. أما عمي عمر وهو الأخُ الأوسط بينهما

فقد التحق برابطةِ النجارين، ويسكن معنا أيضًا في إحدى الحجرات الأربعة المحيطة بصحن البيت. وكان متجردًا عزبًا لا زوجة له، وكان هذا الأمر يثير القلق في نفس أمي وخالتي عائشة، فكانتا تتعجبان من حاله أبدًا ومن تمنّعه عن الزواج، وتقولان إنّ غمشَ عينه لا يسوّغ انصرافه عن النساء. فكانت عادتهما أنْ تقع بينهما المشاجرات في مَنْ تغسلُ ثيابه، ومَنْ ترتقُ جلبابه، ومَنْ تطبخ له. وأحسبُ أنهما أدركتا نعمة عزوبته لمّا ضاقَ الحالُ وقلَّ المال.

وصار أبي معروفًا في المدينة بمحمدٍ الأقطع بعد أن قُطعت ذراعُه اليسرى. ولربما تظنُّ أيها القارئ أن كان ذلك معيقًا في كسب رزقه لكنّ العكس هو ما حدث. أَشْهَرَ لقبُه ذكرَه وميّزه عن كتّاب العدل أنّى احتاج الناس إلى خدماته. فكانوا يقولون: أتحتاجُ إلى موثّقٍ لهذا العقد؟ اذهب إلى محمد الأقطع وسيتولى تحريره. أو يقولون: إنْ كنتَ تريد طلاقَ تلك الخبيثة فلا تقصد إلا محمدًا الأقطع، فهو والله كاتمٌ للسر. أو يقولون: لا مفرَّ من مخاطبتك لهذا القاضي الفاسد، لكنْ اجعل محمدًا الأقطع حاضرًا ليسجّل ما يقوله. فعُرف بالثقة والأمانة، ومراعاته إظهار المؤازرة في كل مناسبة تستدعي اشتغاله، فكان يفرحُ في عقود النكاح ويحزنُ في عقود الطلاق، ويسرّ في عقود البيع ويتكدّر عند فض الشراكة. فكان وهذا ديدنه يعرفُ كلَّ رجل في حيّنا، وهو الذي يطلبونه في أهم أيام حياتهم، ويُشهدونه على أخصّ دواخلهم. وكان أبي يعير حمارَه للمزارعين أو التجار، إما بثمن يستعين به على معيشتنا أو بلا ثمن يعينُ به محتاجًا. وكانت أمي تعمل أحيانًا وصيفةً للعروس في حفلات الزفاف الباذخة، وإن كان أبي لا يسمحُ لها إلا فيما ندر، لأنه ينكر مظاهرَ الترف والسرف عند الاحتفال. وأفاءَ الله على والديّ بثلاثة مواليد أصحاء؛ أختي زينب وأخويّ التوأمين يحيى ويوسف. وكان عمي عبد الله الذي لم يُرزق إلا ببنات أربعة يعاملني وأخويّ معاملةَ الأولاد الذين لم يُعطهم. وكنا

على فقرنا وضيق حالنا سعداء.

وعندما بلغتُ السابعةَ من عمري، اشترى لي أبي جلبابًا من أحسن نسيج الصوف في أزمور، واصطحبني لمقابلة الفقيه في المسجد لتعلم القراءة وحفظ القرآن الكريم، حتى يتسنّى لي بعد ذلك التعلم في جامع القرويين، لعلّي أكون كاتب عدلٍ مثله. فكان يقول إنّ أزمور مدينة متنامية مزدهرة، تحتاج إلى مسجّلي العقود وموثّقي الصكوك، فكان يراني في عين الخيال منكبًّا على الكتابة على ضوء الشمع بين الدواة والكاغد. وشدّ ما أثبطَ عزمي تمثّلُ صورتي في خيالي على هيئة موثّقٍ ممتثلٍ، يسجّلُ وقائعَ تجري في حياة أناس آخرين. فكنت أستمع إلى الدروس في المسجد مشغولَ الخاطر، أتساءل لِمَ لا يُسمح لي باللعب في الشارع أسوةً بباقي الأولاد.

وعَظُم ظلمي في عيني في كل يوم ثلاثاء وهو يوم السوق، لأن بقية الصبيان يتراكضون في الأزقة ويطوفون على الدكاكين، ويأكلون الحلواء ويتفرجون على راقصٍ أو حاوي حيّات ويفعلون ما بدا لهم، وأنا جالس في حجرةٍ مظلمةٍ خانقةٍ مع معلّمي. فبتّ أتهرّب من الدراسة لألتهي بأحبّ المتع إلى قلبي وهي زيارة السوق، والنظر إلى المنجّمين والرقّائين والعشّابين والعطّارين والشحاذين. كانوا يعِدُون الناسَ بطفلٍ منصاع أو حياة هنيّة، أو زوج مطواع أو زوجة رضيّة، أو طريقٍ سالكٍ إلى الفردوس الأعلى. أو يمنّونهم بما تشتهيه أنفسهم بقصصٍ يحكونها أو أقدارٍ يتكهنونها، تزيح الغم عن قلوبهم وتستثير همتهم، وتصوّر لهم حياةً ما حلموا بها قط.

وفي أحد أيام الثلاثاء، رأيتُ في السوق خيمةً جديدةً من قماش أسود مغلقة الفرجة، ليست كمثل ما حولها من الخيام. فأخذني الفضول ورفعتُ واحدًا من ذيولها وتسللتُ خفيةً، فوقفت هنيهة حتى اعتادت عيناي الإبصار في تلك الظلمة الحالكة والحرارة الخانقة، ورائحة عرق الرجال المنتنة تختلط

برائحة كروش المواشي المطبوخة التي تفوح من الخيمة المقابلة. ولما استطعت الرؤية أبصرتُ جمعًا من الرجال نحو أربعة وعشرين مختلفي الأعمار والمراتب، فمنهم التجّار ببُردٍ من الكتّان، والمزارعون بجلابيب مرقّعة، واليهود بمسوحهم السوداء. وكانوا متحلقين حول فراشٍ ضيق، يرقد فوقه رجلٌ عارٍ من اللباس ما خلا سروالاً، مضطجعٌ على بطنه كهيئة النائم. وبقربه وقف معالجٌ طويل معممٌ ثاقب النظرات واسع المنخرين، ذو صوت هازج ولكنةٍ كنتُ أصغر من أن أدرك أصلها. قال المعالج: هذا المسكين أمامكم يشكي آلامًا في كتفيه ورقبته، فلا هي بالتي تدعه يقضي حوائجه بالنهار ولا ينام مرتاحًا بالليل. أسألكم بالله أيّ حياة هذه؟ كيف يطيق أيّ رجل صبرًا؟ ألم يقولوا في الأمثال: إن كنتَ سندانًا فاصبر، وإن كنتَ مطرقةً فأوجع؟ سأعلّمكم اليوم ألا ترتضوا أن تكونوا سنادينًا. وسأبدأ بتحضير هذا الرجل للعلاج.

وفرك الرجل يديه فرأيتُ أن إحداهما فيها إصبعٌ زائدة نبتت من مفصل الإبهام، ثم مسح بكفيه على رقبة المريض وكتفيه يدلّكهما تدليكًا شديدًا لحظات غير قصيرة. ولم أكن مصغيًا لما يقول، فجلّ انتباهي كان مسلطًا على إصبعه الزائدة، فكنت أقول في نفسي: أتؤلمه؟ أيستعملها في قبض الأشياء؟ أتيسّر عليه الاغتسال والأكل أو يشقّ عليه ذلك؟ وكنتُ كذلك أتساءل كيف لمعالج يهب الناسَ الدواء ألا يجد دواءً لعلّته؟

ثم أخذ المعالج كأس زجاج فقَلَبَها، وأدخل شمعةً بجوفها حتى سخنتْ، فغمغم باسم الله وأبعد الشمعةَ في سرعةٍ، ووضع الكأس الساخنة على ظهر الرجل، فإذا بالجلد ينتفخ داخلها كعجينة في الفرن. وقال المداوي: إنّ الحجامة تريح آلامك قديمها وحديثها، وتسيّل الدمَ في جسمك، وتزيد همّتك وترجع شبابك. إن سقطّتَ من صهوة حصانك ولويتَ ركبتك

فالحجامةُ علاجك، وإن زلقتَ على أرض الحمّام وكسرتَ ظهرك فالحجامةُ علاجك، وإن احتملتَ صناديق في الميناء والتوى كتفيك فالحجامةُ علاجك. فاكتسى ظهر المريض الأسود بالكؤوس الحامية، كبروج صغيرة متباينة الألوان، وما تحرّك الرجل وما اشتكى قط رغم شدّة الحر في الخيمة، وهذا ما فسرّته على أنه بشارة خير. ولّما أخذ المعالج يرفع الكؤوسَ رأيتُ دوائرَ منتفخة في أماكنها على ظهره.

وحلّ الصمت على الخيمة، والجمع يرتقب رؤية أثر العلاج على المريض. فأخذ نفسًا عميقًا وتحرك كمن استيقظ من غشيةٍ طويلة هانئة. فلما جلس رأيتُ أنه بذراعٍ واحدة، وقبل أن ألتفّ على عقبيّ وجدتُ نفسي أنظر إلى وجه أبي وهو ينظر إليّ، وكلانا أخذتنا الدهشةُ من رؤية الآخر في هذا المكان. ومدّ المعالج كأس ماء لأبي وأمره بشربه، فأبعد أبي الكأس عنه وأمسك بتلابيب جلبابي، وشرع يضربني بيده وبقدمه حتى وصلنا المسجد. فلما تسلّمني الفقيه من يده جَلَدَ باطنَ قدميّ بالعصا حتى تورّمتا جزاء تركي الدرس. وكان هذا هو نهج والدي في تربيتي، فالسنون التي قضاها في طلب العلم في القرويين غرست في نفسه حبُّ التعلّم وضبطُ النفس وسلامةُ الدين. فكانت أمي تروي ظمأي بالقصص والحكايات، ما كان صدقًا منها أو مختلقًا، أما أبي رغم حبه لي فكان لا يكلّمني إلا ليصوّب خطأي أو يرشدني، فتعودت السكوتَ بمحضره. وكان يستصحبني معه أينما ذهب للقاءِ ذوي المصالح، وهو بفعله ذاك يظن أنه يشفيني من حب السوقِ، ويغرس فيّ حبُّ القانون.

وما زلت على عهدي ساكتًا، والسكوت علّمني أن أُبْصِرَ ما حولي، والسكوتُ حجبني عمن يتكلم. ومرّت الأعوام وأنا أرى أبي يوثّق عقود الناس، وبدأت أفكر كيف يكون حالي لو كنتُ تاجرًا غنيًا، لا كاتبًا كريًا.

3

حكاية الوهم

ودُفن القشتاليون الثلاثة الذين قُتلوا في معركة ريو أُسكورو تحت ضوءِ الهلال الأعجف، في شعائرَ أقامها مبعوثُ البابا. ورفع الراهب العجوز صوته كي يُسمع فوق صوتِ الجنادب التي تختفي بين الحشائش، وقال: أَيَا أخوتي، كان هؤلاء المؤمنون الشرفاء مخلصين الدين للإله ربّنا، أولياءَ للمعظّم ملكِنا، وفي سبيل خدمتهما جاؤوا إلى أرضِ الهند. وهم إنْ قضوا نحبهم بيدِ العدو فإنّ شجاعتهم وتضحيتهم باقيةٌ أمد الدهر. وتكلّم المبعوث بصوت فيه رتابةٌ واعتيادُ من قَضَى جلَّ عمره في أصقاع الدولة البعيدة، حيث الموتُ شديدُ الإرعاد كثيرُ الارتياد.

وكانت أنظار الآباء من حوله تنضحُ بالذعر، وعلى الأخصّ راهبٌ يرجّح مجمَرَة البخور، وهو فتى نحيف يُدعى بالأبِ أنسيلمو. وأنا أتذكّر الأبَ أنسيلمو جيدًا، لا بسبب ما جرى في جزيرة الشؤم فيما سيلي ذكرُه فحسب، بل كذلك لصورته التي تختلف عن بقيّة إخوته ذوي المُسوح الداكنة. فكان أصغرَهم سنًا وأطولهم قامةً، ذا شعر كثيف بلون الجزر يحيط بهامته المحلوقة، وكان مبتلىً بتأتأة أثقلتْ لفظَه تأتي على غير ميعادٍ، وتجعله أضحوكةً للآخرين. وإنْ كانت دعاباتهم مستساغةٌ في غالبها، بيد أنّ نفادَ صبر الناس أحيانًا عند حديثهم معه لا يُوصف إلا بالفظاظة.

ولم أبقَ كي أرى دفنَ الجنود الثلاثة في القبور التي حفرها أصحابُهم على عجالة، لأن أوانَ عشاء سنيور دورانتس قد حان. فاتجهتُ إلى ريو أُسكورو

لأغترفَ الماء، فإذا بي أرى تحت شجرة سروٍ الهنودَ الذين قُتلوا في المعركة، وقد فاق عددهم الخمسة عشرة، قد كُوّمت جُثثهم المنتنة في كُومة سوداءَ، تتفرع فيها أذرعٌ وسيقانٌ مكسورة وملوية في مواضع متفرقة. فخُيّلت لي رائحتُهم كحبل مشنقة التفَّ حول رقبتي فكتمَ أنفاسي. حتى إنّ بعض الأجساد مُثّل بها، فقَطَعَ الجندُ منها الأنوفَ والآذان والأصابع، وعلّقوها بخيوطٍ ذكرىً وعبرةً. ورأيتُ الذباب يحوم حول الجروح والشقوق، يأزُّ أزيزًا مفزعًا لا ينقطع. وقد لاحت لي الكومة بهيئة غولٍ يقبع متربّصًا بمن يمرُّ بطريقه. وكان القشتاليون يتجنّبون الكومة ويسيرون حولها بحرص متناهٍ، دون النظر إليها أو ذكرها، كأنها ستستيقظ بالنظر أو بالكلام.

وقد اشتغلتُ بما أُوكل إليّ من شغلٍ ذاك المساء، وأنا أفكّرُ أنّ الله حفظني من الموت، فلم أُوَارَ التراب غير مغسول ولا مكفّنٍ، ولا متأهبٍ للقاء مَلَكِ الموت، ومن فوقي جماعةُ نصارى يشيّعونني بلسانٍ أعجمي. ولو أنّ المعركة انقضت على غير ما آلتْ إليه فانتصرَ الهنودُ، لكنتُ ملقىً مع الآخرين تحت شجرة السرو، وكان لحمي قوتًا لكل جارحٍ ودابةٍ. وكلا المآلين كريه منفّرٌ. ما حلمتُ بشيء حينها إلا بالعودة إلى وطني ولقاء ربي بين ظهرانيّ قومي. وما وجد النوم إلى عينيّ سبيلاً تلك الليلة. فتقلّبتُ في فراشي قابضًا على الفأس وهي سلاحي الجديد، مصغيًا إلى أصوات غير مألوفة لدوابِّ البرّ على مبعدة، أحاول سدَّ منخريّ عن نتانة الموتى التي فاحت في أنحاء المعسكر.

لمّا بدأ القمر أفوله بناحية الغرب، نهضتُ وأشعلت نارًا كي أحضّر طعام الصباح، ولقيني أولُ الضوءِ واقفًا على شاطئ النهر الذي خالطه الدمُ، أجمع متاع مولاي وأستعدُّ للمسير إلى الأبلاتشي. وكان سنيور دورانتس يحبُّ السفر متخففًا من المتاع، فكانت الأشياء التي اختار إحضارها معه من غراسيا دي ديوس، وهي ملابسه ولحافه وصِحافه، وجِرارٌ فيها مرهمٌ

للجراح، وحاشية قطن لدرعه، ومجموعة أوزان، تدخل كلها في جعبة واحدة أُضطرَّ هذا العبد الفقير إلى ربه أن يحتملها على ظهره. ولكنّ غيره من السادة القادة لم يكونوا بهذا الحصافة، مثل سنيور كاستيو الذي كان يحمل في خُرج فرسه رقعةَ شطرنج ثقيلة، هي أعزّ ما تكون إلى قلبه لأنها هديةٌ من أخيه الذي توفي منذ سنين. وهو لهذا السبب لا يعيرها أحدًا قط، بل يلعب بها مع أقرب أصحابه. أما سنيور كابيزا دي فاكا الخازنُ فقد جلب معه دواوين شعر مجلّدة، فكان متى ما سنح له الوقتُ يفتح أحدَها على أيِّ صفحة، فيقرأ أو ينشد قصائد غارسيلاسو دي لا فيغا[1] يسلي بها بقية القادة. «لمّا أقف فأنظر إلى حالتي، وأنظر إلى أين أخذتني خطواتي...».

ولما استعدّتْ القافلةُ للرحيل أجبَرَ الحاكمُ الأسرى الهنود على السير في طريق مَخُوفٍ يلجُ في الغابة، وأَمَرَهم أن يأخذوننا إلى الأبلاتشي. وتَبِعَهم هو على ظهر حصانه، ومن خلفه فرسانه تقرقع دروعهم في هدأة البكور، ولون الحديد الأسود غريبٌ في خضرة الغابة.

ومع بلوغ الشمس سدّةَ السماء اشتدّ الحرُّ وزادت الرطوبة. ومع ابتعادنا عن النهر بدأت الخيول تثير الغبار بوقع حوافرها فشقّ علينا التنفسُ، فربطتُ خرقةً حول فمي وأنفي، كما يفعل تجارُ القوافل الذين كانوا يجيئون من الجنوب إلى أزمور. كانوا يترجلون عن دوابهم في مكان السوق، ويتنادون أنْ اسقِ الجمال يا فلان أو انصب الخيمة يا فلان، ثم يزيحون أوشحتهم الزرقاء بتأنٍ عن رؤوسهم ووجوههم، فترى لحيةً مصبوغةً أو أنفًا معقوفًا أو وجهًا فتيًا. وكنتُ ورفاقي نركض نحوهم لنرَ ما جلبوا للبيع في يوم السوق. أهي جرارٌ من صبغة النيلة أو زيت الأركان، أم حليٌّ من الذهب والفضة؟ أو لعلّه شيء لا نعرفه ولم نره من قبل، شيء عجيب نتباحث غوامضه ونحن جلوسٌ

1- من أبرز شعراء إسبانيا.

متزاحمون، نقضم حبَّ الشمس ونرى الخيام تُنصب وترتفع. وهكذا هي ذكرى مدينتي تتخاطف ذهني في أوقاتٍ غريبة قلّما أتنبأ بها، وكأن أشجاني ترصّدني. فحاولتُ جهدي طرد تلك الخيالات إلى أغوار عقلي، وأنا أعزّي حالي بأني سأتنعم بها حالما أختلي بنفسي.

وسألني سنيور دورانتس على غرة: أهي طيبة؟ وكان يقصد بسؤاله ثمارَ نخيلٍ لا فلوريدة التي كنت ألتقطُها ونحن نسير، وأجمعها في جيب سروالي لأقتاتَ عليها حين يحين موعد الطعام، وقد اعتاد فمي طعمَها الغريب.

فنحيّتُ الخرقةَ عن وجهي وأجبت: لا بأس بها يا سنيور.

وكان شعرُ مولاي قد نما فبزغتْ شعراتٍ من تحت خوذته، وهو يمتطي فرسَه مستقيم الظهر بلا انحناء، وإحدى قبضتيه ممسكة بالرسن والأخرى ترتاح على فخذه. وقد وقفنا في خلاءٍ فسيحٍ تصله الشمسُ والحرارة، ومع ذلك رأيت الحصانَ يرتعد.

وقال سنيور دورانتس: أذنا أبيخورو مائلتان. وكان سيدي يحبُّ هذا الحصانَ حبًا جمًّا، وهو بحوزته مذ كان فتىً في عزبة أبيه قرب شلمنقة، وبلغ من حبّه أنّه يستشعرُ تقلّبَ مزاجه واختلاف احتياجه. فتنحّيتُ عن ظلِّ سيدي لأتفحّص أبيخورو. وكان حقًا ما قال، فأذنا الحصان منخفضتان.

قال سنيور دورانتس: أتكونُ قد أعطيتَه من هذه الفاكهة التي ما تفتأ تبتلعها؟ وسمعتُ في صوته إنذارًا ووعيدًا.

لا يا سنيور.

ودار سربُ بعوضٍ فوق رأسي، فخلعتُ الخرقة الحمراء المربوطة بعنقي أشرّده عني، فما زاده فعلي إلا عنادًا، كأن تلك الهوام خُلقت من ضلع إبليس، فما انفكّت تعذّبنا بطنينها وقرصها، والرجال يضربون أطرافهم كأنهم من

النصارى التائبين. وكم رجوتُ أن لو كان عندي ليمونٌ وثوم لأصنع المرهمَ الذي كانت تدهنُ أمي جلدي به ليقيني قرص البعوض في أيام الصيف. لكنّ لا شجرَ ليمون في أرضَ الهنود، وإن كثرتْ خيراتُها.

وقال سيدي: قد تعييه ثمارُ هذه النخيل.

لم أعطِه منها سنيور.

وكأنما كرهتْ معدةُ أبيخورو كذبتي فاختارتْ تلك اللحظة كي تقرقر، فنظر سيدي إليّ شزرًا. والحقُّ أني أحببتُ هذا الحصان أثناء رحلتنا في بحر الظلمات، فعزّت عليّ رؤيته طاويًا بعد أن يُنهي نصيبَه من العلف، فكنت أعطيه حفناتٍ صغيرة من ثمار النخيل. وضعتُ أذني على بطنه وراء ضلوعه، فلم أسمع من أصوات بطنه صوتًا يدل على علةٍ.

وقال سيدي: إن جرى لحصاني شيءٌ فسأجلدك.

وتذكرتُ جَلْدَ الهنود وصراخهم الذي ارتجّ له حيطانُ مخزن الطعام في بورتيو. وبينما نحن كذلك إذ تغوّط أبيخورو، فالتفتنا ننظر إلى برازه، ثم قلتُ: برازه ناشفٌ قاسٍ. إنه يشكو قلّةَ الماء لا غير يا سنيور.

وعضّ سنيور دورانتس شفته مطرقًا مفكرًا، فالخيولُ قد أُوردت ماء النهر ولكنّ حصصَها في الماء بعدُ بدءِ المسير محددةُ المقدار لا تزيد، لأن الحمّالين لا يستطيعون نقل كميات كبيرة من الماء، ولا سبيلَ إلى معرفة مسافة سيرنا حتى الوصول إلى مجرى ماءٍ عذبٍ.

فقلتُ: سأجد له بعض الماء.

كيف؟

إن مقسّمَ الجرايات رجلٌ برتغالي. سوف أكلّمه.

فافعل.

وبعد أن التفتُّ نادى سيدي: إستبانكو.

أمرك سنيور؟

احذر أن يمسكوك.

وكان الحاكمُ شديدَ الحرص على تقسيم الحصص، ومن هنا وَجَب الكتمان والحذر. ورجعت إلى مؤخرة القافلة أبحث عن مقسّم الجرايات حتى وجدته. وكان رجلاً في أوسطِ عمره، ذا جبينٍ كثير العرق ولحيةٍ كثة. وما كنتُ أعرفه جيدًا فما كان بيننا غير حديث عابرٍ بحسب اقتضاء الضرورة. فلما بيّنتُ له مطلبي لا بالإسبانية ولكن بلسان قومه الذي تعلّمتُه صبيًا في أزمور، راجيًا أن يقرّبني ذلك إليه فيسعفَ مطلبي، كان جوابُه أنْ سألني: ولمِ أزيدُ نصيبك من الماء؟

قلتُ لك السبب. إنّ حصان سيدي مريض.

وأنت تعرف الأوامر.

قد يموت الحصان في هذا القيظ. أسألك أن ترحمه.

الرحمة من الرب. ما بيدي غير تقسيم الماء.

لكن لا مالَ معي.

معك هذا.

وأشار إلى الفأس التي ربطتها حول رقبتي، الفأسِ الذي أخذتُها من الهنديِّ الذي حاول قتلي. ولم يكن يُسمح لي بحمل السلاح في إشبيلية لأنني عبدٌ، ولكن هنا في بلاد الهنود لم يسألني سنيور دورانتس أن أتخلى عن هذه الفأس المصنوع رأسها من حجر الجير المسنّن ببراعة، حتى إنه يقطع جذعَ

الصنوبر العظيمة بيسرٍ، والمطليّ مقبضها بخطوط بيضاء وزرقاء. فانقبضتْ يدي على السلاح قبل أن تصلَ إليه يدُ مقسّمِ الجرايات. وما كان لي سلاحٌ أدافع به عن نفسي إن هُوجمتُ إلا هو، ولكن عندما تذكرتُ ما قد يحدث لأبيخورو إن مرض، وما قد يحدث لي أنا إنْ مرض الحصان لِنْتُ لمطلبه. فوضع الرجل طرفَ بنانه بحذرٍ على حدِّ الفأس، فلما خدش جلده صفّر في عجب. وقلتُ في نفسي: فليأخذ الفأس إن كان في ذلك ما يشفي أبيخورو وينجيني من الجَلْد.

ورجعتُ إلى سنيور دورانتس، فأبلغته بحصولي على نصيب أكبرَ من الماء للحصان، فاستحسن واستبشر، ولم يسأل كيف تأتّى لي تحقيق هذا النصر، بل اعتدل في جلسته ووجهه ميممًا نحو الشمس وضوئها، فاتّخذتُ مكاني المعتاد، خلفه بخطوة واحدة، أسيرُ في ظله.

***

وقد أَمَرَ الحاكمُ أسراه الهنود أن يدلّونا إلى مملكة الأبلاتشي، فدلونا إلى قرية فيها مساكنَ ذات سقوفٍ من سعف النخيل، موزعةً على هيئة الهلال، ومن وراءها غابةٌ من أشجار الصنوبر على مدِّ البصر. وهي أكبر قليلاً من بورتيو قرية الصيد التي وجدتُ فيها قطعة الذهب. ورأيتُ الرماد في مواقد النار أبيض دقيقًا، وعظام حيوانات نظيفة لا لحم عليها تيبس في الشمس، وخفًا وحيدًا ملقى في وسط الساحة. وامتزجتْ ألوانُ القرية مع شدّة الحر، فاختلطتْ دكنةُ سقوف السعف بحمرةُ مفارش عتبات الدور وخضرةُ الذرة اليانعة في الحقول. وأصابني دوارٌ فوضعت يدي على سَرج أبيخورو لأمنع نفسي من الوقوع.

وتكلّم الحاكمُ سنيور نارفاييز من فوق حصانه وهو يحجب عينيه من وهج الشمس، فقال: فتّشوا القرية. وأعاد حاجبه الأمر هاتفًا كي يسمعه

الجميع. فتّشوا القرية! فانتشر الجند في نواحيها، وقلّبوا المفارش، وتحسّسوا الجلودَ المعلّقة على القضبان، وأدخلوا أيديهم في صِبار الحبوب المحفوظة، وتفقّدوا صهاريج الماء، ونظروا إلى أجواف حِلل الطبخ ولكن لم يجد أحدهم أثرَ ذهبٍ في أي مكان.

وبينما هم يبحثون ربطتُ أبيخورو إلى جذع شجرة، ثم لحقتُ بسنيور دورانتس وسنيور كاستيو وهما يطوفان القرية. فظلا داخليَن خارجيَن من بضع دورٍ حقيرة ليس فيها إلا فُرش مصنوعة من فراء الحيوانات، أو قفف لحفظ الطعام، أو ألعاب صبيان. ثم ولجا أكبر كوخ في القرية وهو المعبد، وله سقفٌ مرتفع وأرضه من تراب، وقد علّم عليها آثارُ أحذية الجنود. وفي نهاية الكوخ وقفت أوثانٌ من خشب، ثلاثة منها بهيئة نسور واثنان بهيئة فهدين. وتدلّى من سقف المعبد على حائطين اثنتا عشرة طاقيّة مزركشة تطابق تلك التي رأيناها في بورتيو.

وسار السيدان ينظران إلى جدران المعبد، يبحثان عما قيمة له، حتى استوقف شيءٌ سنيور كاستيو فتفحّصه. وكان الشيء طاقيةً امتازت عن غيرها، لأنها مزينةٌ بريش الببغاء الأحمر والأصفر، لا بريش الصقر الأسود والأشهب. وزُيّن حزام الجلد الذي يجمع الريشَ في موضعه بخرزٍ وقلائد مرتبة صفًا صفًا. فنزع سنيور كاستيو الطاقية من خيطها الذي يُدلِيها، ثم نادى بصوت فرحٍ: دورانتس! تعال فانظر إلى هذا!

وقطع سيّدي المسافة بينهما في ثلاث خطى طويلة، فلمّا اقتربَ من رفيقه أزال سنيور كاستيو إحدى القلائد بظفر إبهامه، ثم رفعها قرب النور المتسرّب من باب المعبد المنفرج، تحوم فيه ذرات الغبار وتحمل معه رائحة الصنوبر. وسمعنا صهيلَ حصان يأنُّ في تعب.

ذهب؟

قالها سنيور دورانتس قولَ المتآمر همسًا. فتذكرتُ ما جرى مرةً، حين طلب سيّدي من هذا الفقير إلى ربه أن يأتي إثمًا، وهو أنْ أتجسّس على اثنين في خلوةٍ. ووقع هذا في سانتو دومنيغو في جزيرة لا إسبانيولة، حيث أرسى الأسطولُ للتزود بالمؤن في طريقنا إلى لا فلوريدة. فقد طلب الخازنُ سنيور كابيزا دي فاكا لقاءً خاصًا بسنيور نارفاييز، فظنَّ سيدي أن الخازن ينوي أن يحصل على وعدٍ من الحاكم بتكليفه نائبه في الأرض الجديدة. وبينما كان الحاكمُ والخازنُ يتناولان طعامَ الغداء في بهو نزل، قعدتُ تحت شبّاكٍ مفتوح واسترقتُ السمع. وأنا أعلم أنهم لو أمسكوني لأنكر سيدي إحاطته بفعلتي، ولأمشقني بالسوط جزاءَ التجسس على رفاقه الكبراء. وكان يومًا رطبًا أغرّ، فتصببّ ظهري عرقًا، وذبابةٌ خبيثة تقفز بين أصابع قدميّ، ولم أجرؤ على تحريك جسمي ولا حتى إصبع. وسمعتُ الحاكم يشكي صعوبة اكتراء ربانٍ ذي خبرة، وقال إن كلَّ الربابنة الذين كلّمهم لا يعرفون البحار الغربية.

ورمى عظمَ دجاجةٍ من الشبّاك، ولم أتعجب أن رأيتُ فعله، فهذه هي طريقةُ الرجل خسيس الطبع سيء الأفعال. ووقع العظمُ على شجيرةٍ عن شِمالي، فزدّتُ التصاقًا بالجدار الذي استندت إليه. وأجابه سنيور كابيزا دي فاكا أنه سَمعَ عن ربّان اسمه مرويلو يدّعي أنه كان ممن رافقوا خوان بونسي دي ليون[1]، وأن بوسعه أخذنا إلى لا فلوريدة. وظل الاثنان يتباحثان أمر اكتراء هذا الرجل مرويلو، فلا سمعتُ سنيور كابيزا دي فاكا يسأل الحاكمَ توليته نيابة الحكم ولا وعده الآخرُ شيئًا، وإني عندما قصصتُ ما سمعتُ على سنيور دورانتس زادت شكوكه ولم يطمئنّ باله. فسيدي رجلٌ ذو مطامح كثير الاستخوان.

ولم يستطع سنيور كاستيو نزع بقية قلائدَ الذهب بظفر إبهامه لأنها ملصقة

1- مستكشف إسباني.

بالجلد بوضع الصمغ، فناولته سكيني الصدئة. وربّت سنيور دورانتس على ظهري شاكرًا، فأضرمتْ لمستُه جذوةَ الأمل الذي اتّقدت شرارتها يوم وجدتُ حجر الذهب. ولما تعرّت الطاقية من حليّها عدنا إلى الساحة، فألفينا الحاكمَ جامعًا للناس يقول لهم إنه سمّى هذه القرية سانتا ماريّا. وعندما تسلّم القلائدَ من يديّ سنيور كاستيو المضمومتين تفحّصها بأن رفعها إلى نور شمس الظهر الحامية، ثم بصق بلغمًا من فمه وقال: هذا ذهب.

ومررّتْ أيادي الجمع الواقفين حول الحاكم من قادةٍ ورهبان القلائدَ فيما بينهم. وطارت بعوضة فدخلت أذنَ سنيور كابيزا دي فاكا فصفع نفسه، وأمال رأسه يمينًا وشمالاً كي يخرجها، ولم ينخفض بصره قط عن قلائد الذهب التي كان يقلّبها بين أصابعه. وتكلّم مبعوث البابا فحثّ على تحطيم أوثان الكفر في المعبد. ثم قال الحاكم بصوت ثابت: أوَجَد أحدٌ آخر منكم ذهبًا؟ فسكت القادة وكل ينظر إلى الآخر، وقال رجل إنه وجد رأس سهم من ذهب، وآخر قد وجد شيئًا كالحلق الصغير لكنه من فضة، ولم يجد أحدٌ ذهبًا بالقدر الذي وجده سنيور كاستيو. فقال الحاكم: فهذا إذًا كل الذهب. ثم تنحنح سنيور كاستيو وهمّ بالكلام لولا أن رفع الحاكمُ يده يسكته، وأمر مغضبًا باستدعاءِ نجّارٍ وإحضار أحد الأسرى إليه. وأخذ الحاكم مطرقةً ومسامير من النجّار، ويُدعى آلفرو فيرنانديز هو رجل برتغالي أعرج ذو لحية عظيمة، ثم أَمَرَ اثنين من أجناده أن يكبّوا الهنديَّ على وجهه باسطًا يديه أمامه كرجلٍ يسجد.

قال الحاكم: أنصت إلي، أهذه الأبلاتشي؟

فأومأ الأسير أي نعم، وكان نحيلاً طويل الذراعين والساقين، وعلى كتفه الأيمن وحمةٌ بشكل دائرة.

ثم تقرفص الحاكمُ أمام الرجل ينظر إلى عينيه وأعاد: هذه الأبلاتشي؟

وأومأ الأسيرُ مرّة أخرى، وبدت لي عيناه كجُبّين مظلمين يعظم فيهما الأسى.

هذه ليست الأبلاتشي. لا ذهبَ هنا إلا اليسير.

وتردّد الرجلُ ثم ما لبث أن أومأ ثالثةً.

أتصدقني القول؟ قالها الحاكم وهوى على بنصر الرجل بالمطرقة.

فصرخ الرجل صرخةً عظيمة وسحب يده، إلا أن الجنديين الممسكين به أحكما قبضتيهما عليه فثبّتاه أرضًا، والدم يسيل من الظفر المهشم والمفصل المنكسر.

أما فيرنانديز النجّار الذي جعلَ الحاكمُ أدواتَ شغله مطاحنَ لعظام البشر، فاستدار نحو الأكواخ وابتعد، وأما القادة فكلهم واقفون ينتظرون إجابة سؤالِ الحاكم. أين الأبلاتشي؟

وليتني أقولُ الحقَّ إن قلتُ إنّي استبسلتُ فاعترضتُ. ليتني توسلتُ ورجوت الحاكمَ أن يخلّي سبيل ذلك المسكين. ولكن الخوفَ عقد لساني، وقد قلت لنفسي: أنت عبدٌ الآن، ولستَ منهم، وليس بمستطاعك التدخّل بين الإسبان والهنود.

وسحق الحاكم إصبعًا ثانية غير مبالٍ بالدم الذي خطّ التراب. وغمغمت في أذن سيدي أن يأذن لي بالذهاب لتحضير طعامٍ يأكله، والنيةُ أن أبتعد قدر ما وسعتُ عن الساحة، وأن أُعميَ بصري وأصمّ سمعي عما يُفعل بالسجين. غير أن سنيور دورانتس لم يسمعني، أو أنه سمعني ولم يردْ إجابتي، فحاولت مرّةً ثانية بصوت أعلى. سنيور... فالتفتَ سيدي تجاهي أخيرًا، ولمّا همّ بالرد هتف رجلٌ: دون بانفيلو، أرجوك.. أرجوك.. وكان ذلك الراجي الأب أنسيلمو أصغرَ الرهبان، وكان منكفأً في وقوفه كمن حُمّل أحمالاً ثقيلة حتى

كاد يقع. ولما رأى أعينَ الناس مسلّطةً عليه ذعر الفتى، واحتدّ صوته فأخذته التاتأة. تـ تـ تـ توقف أرجوك، هذ ذ ذا الرجل لا يعـ عـ عـ عرف شيئًا.

حدج المبعوثُ الأبَ أنسيلمو نظرةَ تقريعٍ، فعضَّ الراهبُ أحمرُ الشعر شفتيه كأنها ليمنعهما عن قول المزيد، وانقلب وجهُه الذي حرّقته الشمسُ أحمرَ حياءً وغيظًا، ثم أطرق بعينيه ينظر إلى نعله كطفلٍ أدّبَه معلّمُه. ولم يبدّدْ صمتَ المكانِ إلا صيحةُ حيوانٍ غريب، لا أدري أهو دابة أم طير، أتتْ من ناحية قريبة من القرية، وكلُّ القادة ينتظرون ردّ الحاكم.

واستقام سنيور نارفاييز على مهلٍ وهو يدلّك ركبتيه المتصلبتين، ثم ناول حاجبَه المطرقةَ وقال: أعد الأسير إلى حبسه.

***

وطال التحقيق وأسئلته أيامًا عديدة في كوخ خاص أُعدّ لهذا الغرض. والحاكم سنيور نارفاييز رجل صبور يؤثر التأنّي، فكان يستجوب كل سجين بمحضر قائدٍ من قادته، ثم يقارن إجابات السجين بأجوبة المساجين الآخرين، وبعد أن يسألَ الستةَ جميعًا يعيد الكرّةَ ليرى صدق أقوالهم، وما إذا قد وقع في شهاداتهم تبديلٌ. وأنّى عاد الحرّاس بسجين إلى سجنه، يخرجُ مبعوث البابا وأحد رهبانه، فيمضي الأوّلُ إلى الحاكم يستعلم منه عما عَرَفَ منه، وينصرف الآخر إلى الهنديِّ فيغسل جروحه ويضمدها بقطع قماش.

فكُفيتُ مرأى التعذيبِ لبضعة أيام، وإن كنتُ أسمع صراخهم. فبينما أنا أكنسُ الكوخ الذي استولى عليه سنيور دورانتس، وبينما أنا أجمع حبّاتِ الذرة لتحضير طعامه، وبينما أنا أغسلُ ثيابه بآخر قطعةٍ من الصابون القشتاليّ، وهذه من أشغالِ النساء التي صارت من نصيبي بسبب رِقّي، ولطالما تمنّيتُ الخلاص منها، أقول إنه كان لديّ من الوقت الطويل ما جعلني أتصوّر

آلامَ الأسرى. وأنا أعلمُ من غيري بأوجاع الجَلدِ، وعناءِ التمرد، وضعفِ الحجّة بالبراءة، حتى إنّك لا تلقَ إزاءها إلا غضبًا أعمى وأعظم، وزيادةً في ضربات السياط التي لا تُلجم، سوى بالاستسلام التام والاذعان المطلق. وعلى رقبتي ندبةٌ من كعبِ حذاء سيّدي الأول، وكان رجلاً يعرفه الناسُ في إشبيلية بحسن الخلقِ والجود والورع. وإنْ كان سنيور دورانتس لم يضربني قطّ فلا يعني هذا أنه لن يفعل، بل يعني أنّي أفلتُّ من سخطه حتى الآن.

وقد دهمني الاضطرابُ مدة يومٍ ونصف يوم، حتى استجمعتُ شجاعتي فدفعتُ بشيءٍ من الزاد إلى الهنود. واخترتُ ألا أعطيهم حبوبًا ولا ثمارًا لأني خشيت أن يجد الحرسُ جوزةً واقعة أو ثمرةً ساقطة، فيسألون السجناءَ عن مصدرها. فهرستُ ذرةً بالهاون وصنعتُ خبزًا يابسًا، ثم خبّأته لحين ذهاب الحارس إلى الخلاء.

كانت ليلةً حالكة الظلمة، لا برد فيها ولا حر، ولا نور ما خلا ما أسفرته المشاعلُ المنصوبة بطول الطريق المؤدّي إلى النهر. فانسللتُ إلى دار الحبسِ وسمعت حركةَ مسجونيها، وشممت رائحتهم قبل أن تتبيّن عيناي هيئاتهم في الظلام. فأما اثنان منهم فمستلقيان على مفارش في أقصى الكوخ، راقدَين أو يُظهران الرقاد، وأما الآخرون فمتقرفصون حول بعضهم. ولما رآني الرجلُ الذي كُسّرت أظافره في ساحة القرية أضعُ يدي في جيبي رَاعَه ذلك وارتدَّ إلى الوراء، وأخرجتُ قطعَ الخبز فدسستها بين يديه المضمدتين. ولما رأى الآخرون ذلك اقتربوا ومدّوا أيديهم يريدون الخبز. ووددتُ لو أني أتحدث بلسانهم، لكنّ ذلك لن يكون إلا بمخالطتهم وتعلّمه منهم. فكان الصمتُ في ذلك الحين لساننا الوحيد.

ولا بدّ أني بدوتُ لهم غريبًا، لستُ المحتلَّ الغازي بل عبده الذي هوّن مصابهم بزادٍ يسير. ولربما ظنّ أولئك الأسرى بي خيرَ الظنون وأنّي رجل

خير وصلاح، فإنهم لم يعلموا أني كنتُ يومًا من الأيام نخّاسًا. أنّي بعثتُ ثلاثة رجالٍ إلى حياة الذلّ والعبودية دون أن يرفَّ لي رمشٌ. ولكن بعد أن صرتُ مملوكًا وعرفتُ الخزيَ بتّ أكره أن أُوقِعَ بأحد أذيّةً، وإن كان دون قصد. فكان ما وجدُته، وهي قطعة الذهب، هو ما سلّط على هؤلاء مَلَك جهنم سنيور نارفاييز. وكانت أجسامهم تغطّيها الكدماتُ، على وجوههم وصدورهم وأذرعهم وسيقانهم. أيعرفون مكانَ مملكة الأبلاتشي؟ أتراهم سيخبرون الحاكمَ بمكانها؟ لو كنتُ أتكلم لسانهم لنصحتهم أن يقولوا للحاكم ما يعرفونه، فهو رجل جبّار لن يكفَّ إلا بعد نيل مراده. لكنّ الكلام هجرنا تلك الليلة. فانطلقتُ في استخفاءٍ، والتجأت إلى فراشي خارج كوخ سنيور دورانتس وأنا أدعو الله أنّ أحدًا لم يرني.

***

ولما لم أنم جيدًا تلك الليلة وكنتُ شديدُ النعاس في الصباح، فقد غفوتُ تحت ظل شجرة بلوط، والجوُّ دافئ مع هبّة نسمة رحيمة. وبالقرب مني كان سنيور دورانتس يلعب الشطرنجَ مع سنيور كاستيو، وكلما أحرز أحدهما فوزًا هتف جذلاً فأفزعني من نومي. سمعتُ سنيور دورانتس يقول، وهو يحرّك حصانه على رقعة الشطرنج: فزتُ عليك يا غوردو،[1] وهذا لقبٌ أطلقه سيّدي على سنيور كاستيو يغيظُ به صاحبَه الذي كان في الحقيقة شديدَ النحافة.

ومولاي رجلٌ نُبزةٌ له في ذلك براعةٌ، فكان موتشويلو[2] لقبَ سنيور ألبانيز بسبب عينيه الغائرتين. وزناوريا[3] لقبُ الأب أنسيلمو المسكين

1- السمين.

2- البومة.

3- الجزر.

بسبب شعره الأحمر. وكان كابيزا دي مونو أحدَ ابتكارات سيّدي أيضًا، وإن لم يجرؤ أنْ ينادي الخازنَ بهذا اللقب في وجهه. أمّا أخوه فكثرت الألقابُ التي سمّاه بها؛ مثل شاتو[1] بسبب أنفه الأفطس، وفلاكو[2] بسبب كرشه، وإل تيغري[3] بسبب خجله وخوفه.

وحكّ سنيور كاستيو ذقنه مبالغًا كأنما حيّرته لعبةُ خصمه، ثم ضرب قلعته ورمى الحصان، وصاح بفرح طفوليّ: وماذا تقول الآن؟ غير أنّ النوم هجرني تمامًا لما أبصرتُ سنيور نارفاييز راجعًا من كوخ الحبس، وكان على غير عادته وحيدًا دون حاجبه، يرتدي صدارًا أحمر وحذاءً لامع الجلد رغم الغبار. فقال باسمًا بودٍ: بوينوس دياس،[4] وتركنا فمضى في سبيله، غير أنّ سنيور كاستيو قام من مكانه ونادى: دون بانفيلو، أتسمح لي بالكلام؟

فرماه الحاكمُ بنظرة قاسية، وهو إنْ كان رائقَ المزاج يبثّ التوجّسَ برقعة عينه السوداء، أما عندما يتكدر فإنّ الرعبَ منه يتضاعف. ما الأمر يا كاستيو؟

لاحظتُ يا دون بانفيلو أنّ نهر ريو أُسكورو ذو تيارٍ شديد.

أجل، وقد جاوزناه ولم نغرق.

أجل. ولكني فكرتُ.. فكرت أنه لو كان رافدًا من ريو دي لاس بالماس أو كان هو ريو دي لاس بالماس نفسه، فباستطاعتي أخذُ جماعةٍ من الرجال واتّباع النهر حتى التقائه بالمحيط. وسوف نبحثُ عن مرسى بانكو، فنبلِغ بحّاري سفننا بموضعنا ونتزود منها بمؤنٍ لمسيرتنا.

1- المستوي.
2- النحيل.
3- النمر.
4- صباح الخير.

وكان ردّ سنيور نارفاييز يجمع بين التكذيب والسخرية. أتريدني أنْ أضيّع من مؤننا على قلّتها كي تجلب المزيد من المؤن؟

وكان مما استغلق عليّ فهمه سببُ استهزاء الحاكم بسنيور كاستيو الشاب، وهو الذي يسعد دائمًا بآراءِ قادته، ولماذا لا يغضبُ سنيور كاستيو من هذا الاستفزاز. فهو إمّا لا يعي هذه المعاداة أو أنه لا يودُّ الردَّ بالمثل. أو ربما كان السبب صغر سنه، فهو لمّا يتعلّم تلقيَ أوامر أولئك الأرفع منه بالاحترام والخضوع. فقال سنيور كاستيو: إنّ الأمر أهُم من تضييع المؤن يا دون بانفيلو.

كيف يكون أهم؟ سوف نعودُ إلى المرسى بعد أنّ نبلغَ الأبلاتشي، وليس قبل ذلك.

مرّر سنيور كاستيو يديه في شعره، والتفتَ إلى سنيور دورانتس الذي كان جالسًا على مرتبةٍ هندية قرب رقعة الشطرنج. والحقُّ إنها رقعةٌ بديعة الصنع من الأبنوس والعاج المصقول حتى التمعَ سوادُها وزَهَا بيضاها. وسارعتْ الريحُ هبّاتها فاهتزّت فروعُ الشجر من حولنا وتمايلت الظلالُ على الأرض.

ووقف سنيور دورانتس وقال: ما يريدُ كاستيو قولَه إنّه من المستحسن رسم خريطة تحفظ طريقنا من السفن وإليها كلما ابتعدنا عن الساحل.

سأل الحاكم: وإن لم يكن ريو أُسكورو رافدًا من ريو دي لاس بالماس؟

فأجاب سنيور كاستيو: سيؤدي بنا النهر إلى ميناء على كل حالٍ. فيمكننا أن نتركَ رسالةً على الشاطئ، أو إشارةً تدلّ على موقعنا. يمكننا أن نربط علمًا بسارية مثلاً كي تراه كلُّ سفينة تعبر. وهذا مجرد احتياط.

لا بأس. خذ خمسةً وعشرين رجلاً واقصد المرسى. وسنظلّ نحن هاهنا في هذه القرية أيامًا قليلة لحين انتهائي من الاستنطاق.

ثم تَرَكَنا الحاكمُ، فعاد سنيور دورانتس إلى لعب الشطرنج مدمدمًا: بافو ريال[1]. وهذا لقبٌ أطلقه سنيور دورانتس على سنيور نارفاييز بسبب اعتناءِ الحاكم بمظهره كالطاووس.

ولم يكن لي لقبٌ عند سيّدي. فاللقبُ اسم تمازح به أحدًا بداعي التفكّه أو الود. فكان سيدي يناديني بأسماء مجرّدة من الهزل مثل: إِل مورو، وإِل نيغرو، وإِل آرابي.[2] وفي معظم الأحيان لم يكن يناديني بأي اسمٍ ألبتة. ولِمَ يفعلُ وأنا خلفه أبدًا؟

1- طاووس.

2- المغربي، الأسود، العربي.

4

حكاية أزمور

قالت لي أمي يومًا: اصغِ، فسأحكي لك حكايةً.

وأتذكّر أنها كانت جالسةً على كرسي تقشّر اللوبيا في آنيةٍ محشورة بين ركبتيها، وفوق الكانون بجوارها كتفُ ضأن يأزُّ شحمه في ماء الحلّةِ، وهي بين الفينة وأختها تقلّب اللحم بمغرفة طويلة. وأتذكّر ظلها الذي تمايل على جدار المطبخ، وعلى الجدار انتظمتْ قواريرُ الزيت، وعلى الأرض زُبُل القمح والشعير. ومن بيننا أخواي التوأمان يحبوان، وأختي زينب تلتُّ عجينَ الخبز، وغطاءُ رأسها ينزلق على شعرها كلما ضغطتْ بيديها أو أرخت. وكنتُ قاعدًا أتدفّأ بقرب النار إلى أن تنتهي زينبُ فآخذ الأرغفةَ إلى فرن الحيّ.

وأتذكّر الضوءَ المنحسر لأن الزمان كان ظُهرَ الشتاء، وقد قطعتُ صحن الدار المبتلّ بماء المطر راكضًا بخفيّ متجهًا إلى المطبخ من حجرة أبي، تائقًا إلى دفء الكانون قدر اشتياقي للجلوس مع أمي. كنتُ قد أغضبتُ أبي ذلك اليوم لهجري دروس المسجد لأجل ملاهي السوق، وقد أبلغه جارُنا موسى برؤيتي هناك، فأخذ يستفسر مني عن الدروس، وعَلِمَ أنّي لم أحضر الدرس. فنظر إليّ نظرةَ سخط مكتوم، فكانت والله تلك النظرة أشدّ وقعًا عليّ من ضربه. وقد كفّ أبي عن تأديبي بالضرب مذ بلغتُ الثالثة عشرة، وقد استطالت قامتي حتى ناهزتُه طولاً، فكان بمواجهة عنادي ورعونتي يكتفي بهز رأسه.

قالت أمي: مصطفى..

وأتذكّر أني لم أجبها. كنت أجلس متقرفصًا، أسندُ جبيني على ركبتيّ. ما كانت حياة العالِمِ التي شَقِيَ أبي ليكرمني بها ترضيني، فما فيها مخاطر السوق ولا عجائبه ولا متعه. وكنتُ أشعر بالذنب لأني لستُ راضيًا وأنّي لن أرضيَ والدي عني أبدًا.

فقالت أمي ثانيةً: مصطفى..

وأتذكّر أني رفعتُ رأسي. فرأيتُ وجهها الذي شاخ، وعينيها اللتين تبرقان بنفح الطيبة. وأتذكّر أنّ أخي يوسف قد أحسّ بحزني، فحبا تجاهي ورفع أصابعه في الهواء يرجوني أن أحمله. فرفعته فوق ركبتي، وناولته أصابعي يعضّ عليها بأسنانه التي ما نبتت بعدُ.

قالت أمي: اسمع. كان يا ما كان، في سالف العصر والأوان، عاش إسكافيٌّ قليل ذات اليد ماتت امرأته بعد وضعها بنتًا أعقبت ولدين. فأخذ الأبُ الولدين ليعيناه في شغله، وترك البنتَ عند عمّتها الحائكة. فعلّمتْ العمةُ ابنةَ أخيها المهنةَ ودقائقها؛ كيف تختار القماش، وكيف تنتقي الخيوط، وكيف تمزج الألوان، وكيف تخفي قطبةً سيئةً وراء أخرى ملتفّة. وما كان أعظم من ذلك أنّ العمّة علمّت البنتَ كل أنماط التطريز التي توارثتها أسرتُها جيلاً بعد جيلٍ، أنماط محفوظة في الذاكرة لم يُعهد بها إلى رقٍ قط. والتمع نجمُ البنت وشهرت شهرةً واضحة الإشهاد في أرجاء مملكتنا الميمونة، فما أن بلغت الرابعة عشرة حتى فاقت معلّمتها حذاقةً. حتى كان ذلك اليوم الذي قَدمتْ من قصر السلطان فرقةٌ من العازفات يطلبن منها خياطة قفاطين لهنّ.

وشرعت البنتُ في الحياكة. فتخيّرتْ حريرًا بلون الكُحلِ، وطرّزت عليه أنجمًا مثمّنة بخيوط فضية، فكان القماش كليلةٍ التمعت نجومُها. وهي، أي البنت، تأملُ أن تزدان العازفات بقفاطينها، ولكن كلما تفكّرتْ بقصر السلطان زاد فضولُها. ما شكل القصر؟ أحقًا ما قالته العازفات إنّ رخام

صحنه أصفى من المرآة الصقيلة؟ هل استغرق اثنان وتسعون حرفيًا ونقّاشًا عامًا كاملاً في زخرفة سقوف حجرات الضيافة فيه؟ أتتعلق كروم العنب على حيطان ساحته فيأكل الضيوفُ ما شاءوا منها؟

ووقعت روايات العازفات على مسمع البنت التي لم تعرف في حياتها إلا التطريز والحياكة كحكايات من ضرب الخيال. وظلّ إبليسُ الرجيم يغويها والفضولُ يسهدها، فكان أن صنعت في استخفاء قفطانًا زائدًا لنفسها. ولمّا جاءت العازفات يأخذن ثيابهن، لبستْ البنتُ القفطان ولحقتهم إلى قصر السلطان.

وآهٍ ما أصدق قول العازفات! فقد خلب القصر وبهاؤه لبَّ البنت، وشخصت عيناها في أركانه. لم ترَ في المدينة من قبل قط مثل قبابه الهائلة، وسجاجيده الملونة، وزخارفه الباذخة. والضيوف جالسون على أرائك وفرش، ويدور عليهم خدّام بصحافٍ من الطعام الشهي. وبينما البنتُ غائبة العقل مسلوبة اللب بما تراه فإذا بالسلطان يدخل ديوانه. وكان السلطان مهيبًا جليل المنظر كما يليق بالحاكم، يرتدي عمامة سوداء وجُبةً خضراء سابغة. وجلس على عرشه، وفرقع أصابعه يأمرُ بالخمر والعزف.

فتقدّمت العازفاتُ إلى وسط المجلس، وخطفتْ القفاطين البديعة أنفاسَ الجميع، وإن لم يكرمها السلطان ولو بنظرة. ثم تناولتْ كلُّ عازفةٍ آلتها؛ الناي والكمبري[1] والكمنجة، وامتثلت البنت ففعلتْ كفعلهن وتناولت العود. وما كانت تعرف عن العزف والمعازف شيئًا، ولم تدرِ أنها إنما أخذت أصعبَ آلة. وما أن بدأ أهلُ الطرب بالنقر حتى قطّب السلطانُ حاجبيه. من يجرؤ أنْ يعزفَ بنغمٍ ناشز في قصري وبمحضري؟ بل إنّ العازفات أوقفن العزف ونظرن إلى البنت التي بلغتْ بها البلاهةُ أن وقع خمارها وهي مستمرةٌ

1- آلة وترية إيقاعية.

في نقر الأوتار.

فاجتمع عليها مخازنية السلطان، وركلوها وضربوها الضرب المبرح وطردوها خارج القصر. وعادت البنت إلى دارها مقطّعة القفطان حافية القدمين مهشّمة اليدين. فتلقّتها عمتها وتعهدتها رعايةً حتى تُشفى، بيد أن التجبير لم يقوّم أصابعها، فما استطاعت بعدها قط أن تصنع تطريزها الذي أذاع شهرتها.

وانتهت قصةُ أمي. وأتذكّر أنها أنهت تقشير اللوبيا ورمتها في حلة الطبخ، ففاحت في المطبخ رائحةُ اللحم المطبوخ. وقد نام أخي في حجري مؤرجحًا ساقيه على جانبي ركبتيّ، ويده الصغيرة تقبض إصبعي المترطّب بلعابه.

عودتّني أمي على حكاياتها، فكنتُ أجد نفسي أحد أشخاصها. سكتّ أتأمل بحكاية الحائكة والسلطان. هل أنا في مكان الحائكة، فكان الأحرى بها أن ترضى بحرفتها وألا تتطاولَ إلى البعيد عن منالها؟ أم أنّ القصة عن أبي؟ أكان هو في مكان السلطان المنشغل بمتعته فلم يلحظ إبداعَ الحائكة؟ حارت مني الإجابةُ ولكني لم أسألها، فأنا أعلم أنها ستقول إن القصصَ ليست أحاجي، وليس لها إجابات بيّنة. لكن المؤكد أنّ الهم الذي كان يقبض صدري قد انجلى، لأن حكايات أمي كانت تسلّيني وتخفف همي وتنسيني كمدي.

قلت لها إنّ عندها لكل مقام قصة (وقد كان قصدي ثناءً مسترًا بشكوى). فردّتْ أن ما من جديد حدث لأيٍّ امريء من نسل أبينا آدم. كل شيء كان، وكل شيء قيل، لكن من يملك السمع فيعي ما في القصص؟

أتذكّر أن زينب غسلت يديها من آثار العجين في آنية ماءٍ، ثم احتضنتْ يوسف بين ذراعيها وقالت إنّ الخبزَ جاهزٌ. لكن عقلي كان مشغولاً بالبحث

عن الحكمة في قصة أمي. فإن كان حالي كحال الحائكة، ففيمَ أنا بارعٌ؟ أأنا ماهر في كتابة العدل أم في شيءٍ آخر؟

أتذكّر أني احتملتُ صينية الخبز، ورفعتُ قلنسوة جلبابي فوق رأسي وخرجت إلى الشارع. وكان المغرب قد حلّ والسماء أظلمت، ولمّا يأتِ دورُ شارعنا في طواف شاعِل القناديل، فاستنرتُ في طريقي بنور مشاعلِ الدكاكين المفتوحة. ومرّ بي جنديان برتغاليان يتخاصمان بلسانهما. وفي جيبي المالُ الذي أعطتنيه أمي، وإن كنت في غير حاجةٍ إليه، لأني قد اتفقتُ مع الخبّاز على كنس مخبزه، مقابل طبخ خبزنا في فرنه. أما دراهم أمي فسآخذها معي إلى السوق يوم الثلاثاء.

***

ولو قيل لأبي أنْ يحدّثَ قومًا بقصة بتر ذراعه، فإنه لا يختم حديثه إلا بقوله إنه لم يندم قط على مقاومته طغيان البرتغاليين. وقد جدّد العهدَ بتكرار قوله هذا حين أعلن المنادون في المدينة ظهر يومٍ في عام تسعة عشر وتسعمئة من الهجرة أنّ حاكم أزمور أبى دفع الجزية للنصارى.

وعندما أبلغتُ أبي النبأَ، كان يجلسُ في ظل شجرة الرمان في صحن دارنا، فبلج وجهه واستبشر، وسحب نفسًا من الجبوق[1] وانتشى بالكيف هنيهاتٍ، ورفع رأسه فأخرج من فيه دخانًا أبيضَ. وما عهدتُ أبي قط يبدي متعته من شيء ولا حتى انتشاءه بالتّبغ. فجلستُ إزاءه متّكأً على بلاط الحائط وأخذت أنظر إليه.

اسمع مني يا مصطفى... وأنشأ يسرد حكايةَ اليوم الذي فَقَدَ فيه ذراعه، وهي عينها حكاية مولدي التي قصّتها عليّ أمي، غير أنّ حكاية أبي انتهت

1- الغليون

بقطع ذراعه وغَشَيَانِه. ابتسم ابتسامة مريرة، وأشار بالجبوق صوبي وقال: إنّ هذا البلد يا بنيّ مبتلى بالقشتاليين في الشمال والبرتغاليين في الغرب، ولئن كان في ذلك إخراج الغازين لأقدّمن ذراعي الأخرى راضي النفس.

وأتذكر استخفافي بيمين أبي (قولُه وعضوُه)، وظنّي أنّ ما ذاك إلا تجاسر عالمٍ ما جرّب الحربَ قط. ومرّت أسابيع وأنا أرى تحوّل أبي رجلاً آخر؛ فأصبح لا يساوم مستخدميه، ولا يسألُ عن حضوري دروس المسجد، وقد أنجاه الله جلا وعلا من نزلة زكامٍ كادت تودي به، من عدوى انتقلت إليه من يحيى أخي، وكان كذلك لا يعجّل بقصدِ المسجد لصلاة التراويح بل يلبث معنا بعد العَشاء. وكنتُ أتساءل: أكلُّ هذا لأن الحاكم امتنع عن إعطاء البرتغاليين؟ وكان أبي وعمّاي يدفعان الضريبة متى طُلبت منهم، وإن فعلوا ذلك على مضض. فدكان عميّ مزدهر، وقد صاهر كلُّ أبناءِ عمي ذوي الحسب والنسب، وقد خُطبت زينبُ في ذلك العام لحدّاد حاذق. واسم أهلي محمود السيرة معروف في أزمور كلها. أما كان هذا يكفيه؟ وما أدراني وأنا في الخامسة عشرة أنّ ثمة ما هو أعزّ من العيش الرخي والشهرة الطيبة؟

ولما ظهرتْ في أفق أزمور الأزرق خمسمئة كارافيل برتغالية ما خفتتْ حماسةُ أبي إلا قليلاً. ورأينا من سطح دارنا اقترابَ السفن من الساحل، وأشرعتها البيضاء كقطع القطن طافية على ماء البحر. فأرغى أبي وأزبد على عادته: إن أرادوا حربًا فنحن لها. لكن أفواه مدافعهم ظلّت مطبقة أيامًا، فعلمنا أن البرتغاليين اختاروا طريق الحصار، وكان علينا نحن العيش في حياةٍ برزخية.

وجلستُ مع أبي وعميّ للعشاء تلك الليلة، واتخذتُ مقعدي حول طاولة النحاس الموضوعة في ركنٍ ظليل في الفناء. وكان يوسف ويحيى قد بلغا من العمر ما يجعلهما يأكلان الطعامَ مع الرجال، ولكنهما تأخرا بالحضور، فلمّا

أقبلا كان يحيى يحمل الدورقَ ويوسف يحمل الفوطة، وهما يتجادلان أيهما يصبُّ الماء على أيدينا.

فصاح يوسف: أنت صببتَ أمس.

فردّ يحيى: ولم أسكب قطرة منه على الأرض.

أنا لا أسكب أبدًا.

بل تفعل.

فأنّبتهما بقولي: لا تتشاجرا! يوسف، ستصب أنت الماءَ غدًا إن شاء الله.

فغسلنا أيدينا واحدًا واحدًا، وفرّقتُ بين أخويّ كيلا يعودا إلى النزاع، فأجلستُ يوسفَ عن يميني ويحيى عن شِمالي.

وسمَّى عمي عبد الله ومدّ يده إلى صحن الكسكسو، والبخارُ يتصاعد من الدجاج والجزر في وسطه بروائحَ زكيةٍ تفتح الشهية. وبدأنا نأكل، وأبي يتكلم عن حصار الميناء، وأنا أقطّع اللحم قطعًا صغيرةً كي يأكل أخواي. وقال أبي: يودّ البرتغاليون أن يُبقُوا أزمور في حكمهم مرةً ثالثة، لكننا سنهزمهم. وسترون.. ورفع سبابته في الهواء وتناثر منها ما تعلّق من الكسكسو. فنظر عمي عبد الله إلى أبي بنظرة التغاضي والمجاراة التي كان يخصّه بها، ولكنه لم يستطع كتم السؤال، فقال: كيف سنهزمهم؟

بجنودنا.

جنود مَن؟

بجنود الحاكم.

يا أخي، ليس للحاكم جنودٌ قادرون.

فسكت أبي يفكر، ثم أسند ظهره إلى الحائط وقال: سوف ننضم نحن إلى جيش الحاكم.

من سينضم إلى جيشه؟

فأجاب بحُميّا النخوة: أنا. وأشار بإبهامه الوحيد إلى صدره.

ماذا تقول يا أخي؟! أنت لستَ مقاتلاً. ولم يقل عمي ذلك بقصد الإيذاء أو الإهانة، ومع ذلك فقد صَمَتَ أبي كأنما أُهين.

فقلتُ أنا لعميّ مدافعًا: أنا أستطيع القتال. وأنتما تستطيعان القتال.

فأجاب عميّ عمر أصغرهما: وبأي شيء نحارب البرتغاليين يا بنيّ؟ لهم من الأجناد ثمانيةُ عشر ألف رجلٍ، ولديهم المدافع والأسلحة والبارود والدروع والخيول، وما لنا إلا عدّةُ النجارة. وما لحاكمنا إلا ثلاثمئةُ رجل فحسب. يجب أن ننتظر أن يرسل السلطان في فاس جيشه.

فتنضّر وجه أبي بالأمل وقال: سوف ينجدنا السلطان بإذن الله. سوف يرسل السلطان من عنده مددًا.

وأنشأ والدي يحكي لنا كيف بعث السلطانُ قبل خمسة وسبعين عامًا وزيرَه يحيى الوطاسيّ لاسترجاع طنجة من أيدي البرتغاليين. فحَشَدَ الوطاسي الجيوشَ من أنحاء الدولة، وأرغم هنري الملّاح على الانسحاب، بل إنه فرض عليه الحصارَ والجوعَ حتى أذعن. فكان ذلك برهانًا على قوة الشكيمة وإقدام جسور مع خطةٍ بالغة اليسر؛ احشدْ الجيوش تهزم المعتدي.

وهممتُ بالرد بيد أنّ يحيى وجد على السماط عظم ترقوة الدجاجة، فمدّ يده أمامي يعطيها ليوسف. فأخذ هذا الجانب الذي أعطاه أخوه وشدّه، فلما

انكسر العظمُ كان جانبُه هو الأقصر.[1] فوضعها على الطاولة صامتًا وعيناه تنظران إلى الأمام متجاهلاً ابتسامة يحيى المتشفيّة. وكان يوسف عذبَ الطباع خالصَ الضمير أبدًا، وهذا ما يوقِعُه في حبائل توأمه.

ورفعتُ رأسي أنظر إلى وجه أبي. ورأيتُ الأملَ يسطع مشرقًا في وجهه، فلم أحتمل إبلاغَه بالأقاويل التي سمعتُ في سوق الثلاثاء، بأنّ السلطان قد بعث جيشه لإخماد ثورةٍ في الجنوب. وقد أوقف حصارُ الميناء كل تجارةٍ مع النصارى، وقَطَعَ سبيل الوصول إلى السلع من المخازن على الضفة الأخرى من أمّ الربيع، حتى الدجاجة التي أكلناها حصلتُ عليها من تاجرٍ كنتُ أقضي له حوائجَ من أنٍ لآخر، وإن لم يعلم بذلك والدي المنصرف أبدًا إلى الحديث مع كتبة العدل والعلماء.

وبعد أسبوعٍ شنّ الجند البرتغاليون هجومهم، وما كان لجند الحاكم بهم قِبَلٌ. سقطت أزمور.

وغَدَتْ الحياةُ في عين أبي مكفهرّة ونَكَدَ عيشُه. قال: ما كان ينبغي أنّ نولّي أمرنا هذا السلطان الفاسق البرتغالي. وكان يقصد محمدًا البرتغالي، الذي سُمي بذلك لأنه أُخذ رهينةً في صغره وعاش بين البرتغاليين سبع سنين، ثم أُعيد إلى بلادنا بعد أن عقد أبوه هدنةً معهم. فما كان أبي يرتجي كثيرَ خيرٍ من رجلٍ اسمه محمد البرتغالي، ولا له ثقة بقدرته على حرب البرتغاليين. وفي الشهور التي تلت، شهدتُ أنا وأبي عاجزيَن لا حول لنا ولا قوة بناءَ حصنٍ في طرف أزمور، حَجَبَ أفقَ مدينتنا عن أعيننا وراء جدران شاهقة، وارتفعتْ على برجها رايةُ الملكِ الكافر بيضاء ذات درعٍ حمراء، وأُلزمنا دفع الضريبة.

1- هذه إحدى الممارسات القديمة للتمني، حيث يمسك شخصان طرفيّ ترقوة الطائر فيتمنيان، ثم يشدّان حتى تنكسر، ومن كان الجزء الأكبر من نصيبه تحققت أمنيته.

وكان قول أبي دائمًا: الصبر، فسوف يرحلون. لا بد أن يرحلوا.

وكان أبي في قوله مصيبًا.

رحلوا حقًا، وإن لم نكن أنا وهو حاضرِين لنشهد رحيلهم.

***

وقد غشي والدي صمتٌ حزين ذو انكسار بعد معركة أزمور. فكان يدخل ويخرج من بيتنا الذي يعجّ بالصخب متدثرًا بالصمتِ مشتملاً بعباءةٍ من الكتّان الأبيض، حائر الذهن في أفكارٍ ما شَارَكَنا بها قط. ولم يكن شيءٌ يدخل على قلبه السعادةَ؛ فدعوةٌ من لدن جدّي لزيارة فاس لم يقابلها إلا بهزّةٍ من رأسه، وقصعةٌ من حبّ الرمان المنثور كالياقوت والمرشوشُ بماء الورد يتركها غير ممسوسةٍ بجانب الجبوق، وحَلْقُ شعره عند الحلّاق لا يستوجب ابتسامةً من شفتيه، وقميصٌ ليّن جديد بخيوط فضةٍ وأزرار من المخمل الأسود يلبسه على عجل كما يلبس أي قميص خَلِق. وكذلك لم يكن شيءٌ يغيظه؛ لا مشاغبة أخويّ، ولا شناعة طبخ خالتي عائشة، ولا ضرب أختي على الدفوف. فما رأيتُ أقسى وأمرّ على المرء من رؤية الأبِ منكسر الخاطر، لكني كنتُ صغيرًا لا أفكر بغير نفسي، فلم أفهم ماذا تبدّل من حاله.

وعلى الرغم مما كان من قلّة حضوري وضعف أدائي فقد تعلّمتُ أخيرًا، وبعد جهدٍ، قواعدَ النحو وحفظتُ القرآن كتاب الله. وقد رأى الفقيهُ أنه حان أوانُ ختم دروسي في المسجد. ولربما سئم مني، فقد كنتُ أكبر الطلبة سنًا، وكل من هم في عمري أتمّوا دراستهم منذ وقتٍ طويل، وصاروا من أهل المهن. ومهما كان السببُ فقد بلغتْ سعادتي أقصاها يوم انتهيتُ من الدروس، ورجوتُ أن يدخل الاحتفال بختمي السرورَ على نفس أبي. وأتذكّر أنه كان يوم ربيعٍ، وفي الريح عبق الأرض المرتوية بالغيث. وكنتُ

واقفًا بباب المسجد ومن حولي الفقيه معلّمي ورفاقي طلبة المسجد، ننتظر أن يأتي عمي عمر بالفرس، وكان فحلاً أبيضَ اكتروه لهذه المناسبة وزيّنوه بأكاليل الزهور. فامتطيتُ صهوته وقادوني في شوارع المدينة الملتوية، والأقارب والأباعد يهتفون ويهلّلون، حتى بلغنا دارَنا حيث كان أبي في انتظاري. ومن خلفه كان البابُ الأزرق مشرعًا على مصراعيه، فأبصرتُ جمعًا من ضيوفنا وجيراننا يحتشدون بفناء الدار، والرجال يهتفون مهنئين والنساء يزغردن وأنا أنزل من فوق الحصان. فدخلتُ حجرة الضيافة وجلست على مرتبة رفيعة ومن حولي الضيوف.

بارك الله فيك.

أطال الله في عمرك.

واللهِ إنّي لأتذكر يوم وُلدتَ.

أنا من حمله إلى البيت في ذلك اليوم.

انظروا كيف كبر الفتى!

صار عالمًا.

اتلُ علينا شيئًا من الآيات يا ولدي.

وقدّم أبي الكعكَ والحلواء للضيوف، ورَقَصَ عندما عُزفت الكمبري، ومع ذلك فإنّي رأيتُ أنه فقد جزءًا أعظم وأغلى من ذراعه، وكأن ذلك الجزء أُقتطع منه بمدية حادة. وأمسى متفكرًا سارحًا طوال وقت الاحتفال، وما استفاق إلا بعد أن غادر الجميع وذلك ليسألني عمّا أعتزم فعله في حياتي. وكنا وحيدَين، وقد رافق عمّاي الفقيهَ إلى بيته، وأمّا أمي وخالتي فتغسلان أواني المطبخ. ومن حولنا صِحافٌ خالية، وكؤوس فارغة، ووسائد مترامية على الأرض.

فقدّمت لأبي الإجابةَ المرضية التي يتوقعها مني، فقلت: سأفعل ما تأمرُ يا أبي.

لكن قل لي يا بنيّ، أي شيء تريد فعله؟

ولمحتُ رفقًا في سلوكه ولطفًا في عينيه، فقلت مجترئًا: أودّ أن أصير تاجرًا يا أبي.

تاجر؟

ولو أنّي قلتُ إنّي أودّ أن أصير خادمَ حمام أو عازفًا في الطريق لما ذُهل أبي كما ذُهِلَ بميلي إلى التجارة. فقد فغر فاه وحار في الكلام. وقد قالوا في الأمثال: فليكن غرقك في بئرٍ عميقة لا بركةٍ ضحلة. قلتُ: يروقُ لي العملُ في الأسواق يا أبتاه، ويستهويني إقناعُ التجّار للناس أن يشتروا الخيوطَ التي يغزلون، أن يشتري أحدٌ شيئًا هو في غير حاجة إليه، وعروض البيع والمساومة والاتفاق؛ والأخذ والعطاء، والشد والارتخاء بين البائع والمشتري، هذا يا أبي ما يسرّني فعله.

يا بنيّ، إن حياةَ الكاتب حياة كريمة، والكاتب يعمل بأحكام تنزّلت من لدن العلي القدير وسنّها الرسول صلى الله عليه وسلم، وأنت في خدمة أهل مدينتك ما استطعتَ. وتكتسب مالاً طاهرًا يعيلك وأهلك.

قلت: إن الكتابة عملٌ شريف لا ريب.

ولكنك تأبى إلا أن تكون تاجرًا.

نعم.

فلِمَ لا تعمل مع عمّيك في النجارة؟

لا رغبة لي في النجارة يا أبي.

وطال حديثُه معي يومئذ. فنصحني بالعمل إما كاتبًا أو نجّارًا، ففي الكتابة إذكاءُ الفطنة وفي النجارة إشغالُ اليد، أما التجارة فليس فيها منهما شيء. وأنذرني أنّ التجارةَ تفتحَ باب الطمع، والطمعُ ضيفٌ ثقيل ما يلبث أن يجرَّ أهلَه إلى الدركِ الأسفل. وإنه ليحسنُ بي أن أتخيّر صنعةً حذقها أهلي من قبلي، وهي شرف ورفعة لي ولهم.

ولكن رجاءه وقع في أذنٍ صمّاء. وما كانت له قوةٌ يذعنني بها لطاعته، فأسقط في يده وأيس من إقناعي. فطلب أبي من كاتبٍ صديق له كان يعمل لدى آل الديب المعروفين أن يقدّمني لهم. وكان أبناء الديب أشهر التجار في المدينة، وهم من نسل مهاجرين من البرتغال، فكانوا يفقهون لسانهم ويعرفون طباعهم. وكانوا يختزنون السلعَ التي يشترونها من النصارى ويبيعونها للمسلمين في دكالة، ويختزنون السلعَ التي يشترونها من تجار المسلمين ويبيعونها للنصارى. فكانت المحاصيلُ من شعير وحنطة وغيرها مما يُزرع في دكالة يُنقل إلى البرتغال، وتُعوّض أزمور عنها بالزجاج والقطن والسلاح.

وتعلّمتُ خلال أعوام قليلة كيف أحفظُ الشمعَ من الحرّ وكيف أقسّمه، وكيف أميّز بين الكتّان الانكتاري والكتان الفلاندري،[1] وكيف أنقل زجاجًا من طرف المدينة إلى الطرف الآخر دون كسره، كيف أختار النسيجَ الذي يروج في البرتغال أو إسبانية، وكيف أزيلُ أثرَ البارود من السلاح كي يبدو جديدًا، وكيف أحصل على أفضل سعرٍ لأي سلعة أبيعها. فتلقيّتُ منهم أصولَ الحرفة وأسرارها حتى صرتُ شريكًا ذا ثقة من شركاء الديب، أكسب من السمسرة ما جعلني ثريًا. فجعلتُ موقد نارٍ في أكبر حجرات البيت، واشتريتُ أحسنَ السجاد وأبدعَ طيافير الفضة. ودفعتُ تكاليف

1- الانكتاري هو الإنجليزي والفلاندري هو البلجيكي حاليًا.

زفاف زينب.

وأحسستُ أنّ حلمي تحقق، وأني صرتُ الرجلَ الذي تمنيتُ أن أكون، رجلاً ذا سطوة وجاه، رجلاً يتنازع كتّابُ العدل ليوثّقوا عقوده. ولكن مرّ الزمان، واشتدّت عليّ فتنةُ المكسب والربح الكثير. فما كان همي سوى سعر الأشياء وتناسيت قيمتها، وما دمت أبيع ما عندي بأعلى سعر فلا أبالي ما الذي أبيعه، سواءً كان زجاجًا أم حبوبًا، شمعًا أم سلاحًا أم... اللهم أني أسألك العفو والعافية مما إلتُ إليه. أم عبيدًا.

***

أغواني بيعُ العبيد في صباحِ يومٍ من أيام الربيع، بينما أنا أساوم رجلاً بسعر سبعة أحمالٍ من القمح في طريقها إلى لشبونة. وقد جلب الفلاحُ الذي باعني الحبَ، وكان رجلاً في أوسط العمر طويلَ الوجه رقيق الشفتين يقرأ فيهما المرءُ جشعًا، جلب معه ثلاثةَ أرقّاء صاروا في حوزته ورثًا عن عمٍ طاعن في السن. رفع الرجل القلنسوة وحكّ رأسه، فسألني: أتعرف من يشتريهم؟ أما لسانه ففيه لكنة عرفتُ منها نشأته في ريف البلاد، شرق خنيفرة.

ولماذا تريد بيعهم؟

فأجاب: وما أصنع بهم؟ وهم لا يقومون بعمل الزراعة لكبر سنّهم. ولكن هذا الذي تراه أمامك يجيد صنعَ النعال، أما الآخران فيحذقان شغل الحديد.

وكان للإسكافيّ حدقتان صغيرتان ثقيلتا الجفنين لا توليان الدنيا اهتمامًا، أما الحدّادان فكانا ينظران إليّ بعيون مناشدة صامتة، وأنا أدسُّ يديّ في كل شوال قمح لأقدّر جودته. والشمس قبالة وجهي، وشعاعها كالسياط يلهب جلدي، ويندّ العرق من صدغيّ كالسيل المنهمر. وجلبة السوق تطنّ في

أذنيّ؛ عربات تصرصر، وباعة يتجادلون، وسقاة يدقّون الأجراس.

ماذا قلتَ؟ أبيعُ الثلاثة بخمسة وسبعين.

فكففتُ عن تقدير الحبّ ورفعتُ رأسي، أتفرّس بصاحب الحبّ نفسه الذي خطّ الشيبُ لحيته، حاملاً حزام قِمطرٍ من جلد بيديه، كأنما يخشى أن ينشله سارقٌ. أيودُّ حقًا أن يبيع ثلاثة أرقاء مهرة بهذا السعر البخس؟ ألا يعلم ما قيمتهم؟ والبرتغاليون يشترون العبيدَ بالمئات من كل مدينة لهم فيها تجارة في البلاد. بل إني أضمن أنه إن قصد الميناء ليبيعنْ الثلاثة قبل حلول الليل. ولِمَ لا يعتقهم لوجه الله، فيرجعون إلى أهليهم ويعيشون في كنفهم؟ فتحتُ فمي أريد أن أعظه وأنصحه بإعتاق رقابهم، ولكن كان ثمنًا ما نطقتُ به. قلت: ستون للثلاثة جميعهم.

كان كسبي من تلك البيعة مئةً وخمسين ريالاً، وهذا أعظم كسبٍ جنيته من بيعة قط. واستعجبتُ من الربح اليسير الجزيل. وإن كان راودني شيءٌ من تبكيت الضمير فقد أخرستُه بأن حدّثتُ نفسي أني لم آتِ شيئًا لم يأتِهِ أحدٌ من قبلي. وسلطان مملكتنا، وحاكم إمارتنا، وأعيان مدينتنا كلهم يملكون الأرقّاء. وأعرضتُ عن أمر رسولنا عليه الصلاة والسلام حين قال إنّ كل المؤمنين إخوة، وأن لا فرق بينهم إلا بالتقوى وصلاح العمل. وبلا مبالاة ولا تروٍّ، سلّمتُ أولئك الثلاثة إلى يد الحياة الذليلة وزججتُ بهم في سجن الذلّ والهوان، ثم رحتُ خليَّ البال إلى حانوتٍ كي أحتفل.

***

وذات يومٍ من أيام الصيف بعد حينٍ، دخلتُ البيت فرأيتُ أمي منكبّةً على حياكة ثوبٍ، وكنت قد قضيتُ يومي ما بين إيصالِ بضاعة قدرها اثنا عشر حملاً من الشعير إلى الميناء وتسجيلها، حيث ستُنقل إلى بورتو، لكنني

قضيت شغلي باكرًا على غير المتوقع فانصرفت ظهرًا إلى البيت، وكانت عادتي أن أسمر خارج البيت ولا أعود إلا ليلاً. وإنّ أشدّ ما يسرني في تلك الأيام هو السير في الطريق من الميناء إلى دارنا. فشوارع أزمور تضجّ حركةً في الظهر. هنا رجال يبيعون الحمّصَ المقلوّ والحلزون المطهوّ من عربات تصرّ بأثقالها، جشّتْ أصواتهم من النداء بأثمانها، وهناك نسوة يجلن السوق بقفاف من حصير أو أقمشةٍ من كتان، يعرضنها على كل مارٍ بيدٍ واحدة، ويحكمن بالأخرى إمساكَ أطراف حوائكهن ألا يسقطن، ومن بينهم يتردد الأطفال إلى نافورة الماء ومعهم أباريق. لقيتُ عندئذٍ معلمي الفقيه فسألني عن صحة أبي.

بخير والحمد لله.

أبلغه سلامي.

بإذن الله.

وما أن مشيتُ بضع خطوات حتى استوقفني صائغُ الفضة، وقال ممازحًا: ما أبدعَ القميص الذي عليك! وأخرج السواك من فمه وبصق في مستنقع وحل عن يمينه، ثم قال: احذر أن توسخه إنْ جرّبتَ أن تعمل بيديك، لا بلسانك. فضحكتُ، وقلت: إن كنتَ تريد القميص فسأبيعه لك.

وأكملتُ سيري نحو البيت فمررت بالخبّاز، وهتف ينادي: مصطفى، هلا أعنتني على حمل هذه؟

أمرك. ورفعتُ القفافَ على عربته.

وظهر فجأةً طفلٌ يسأل حاجةً. أعطني قرشًا يا عم.

فقلتُ: ابتعد يا فتى.

ووصلت الدار فأغلقت الباب ورائي وقصدتُ الفناء. رفعتْ أمي رأسها تنظر، وأمامها نسيجٌ أصفر معلّق على قوائم المِنْسَج مشدود عليه، ويدها مرفوعة في الهواء تمسك بإبرتها، أما خنصرها فمحكمةٌ شدّ الخيط. كانت تجلس ممددةً قدميها أمامها، ولأمي قدمان صغيرتان كقدمي طفلة، وقد اصطبغ أخمصُها بحمرةٍ باهتة من الحناء. وبقربها دورق ماءٍ وطبق تينٍ، وهو آخر نهار ذاك الصيف.

قلت: السلام عليكم.

وردت: وعليكم السلام يا بني.

وصببتُ لنفسي ماءً من الدورق، وانتعشت بطعم قطع الليمون فيه. جلستُ إزاء أمي وسألتها: أرجع أبي؟

أبوك لم يبرح البيت. إنه نائم في حجرته.

ولكم أحزنني أن سمعتُ ذلك. ولقد كان أبي ذات يومٍ أكثرنا نشاطًا وعملاً. كان يستيقظ قبل صلاة الفجر، ويعتكف في حجرة يكتب الرسائلَ والعقود، ثم يهرع للقاءِ القضاة ومستخدميه لحين المغرب. ولكنّ أشغاله في الآونة الأخيرة باتت أقلَّ، وغفواته أطول. فكان ينتابني إحساس بالذنب خوفًا من أن أكون سبب تبدّل حاله وسوء مزاجه أبدًا، وتمنيتُ أن لو كان بيدي أن أنتشله من ذلك الحال. أأشتري له جبةً جديدة من حرير؟ أو خفين آخرين من أفضل الجلود؟

سألت أمي: أين الصبيّان؟

فوق على السطح. لماذا عدتَ باكرًا؟

جاء الموكّلُ بالديوان على موعده، لأول مرة. (كان الرجل قد وُلي وظيفته حديثًا، ولمّا يتعلم من رفاقه أن يرجئ مرور كل سلعة إلى أن يقبض رشوةً.

لكني لم أذكر لأمي هذا، فهي مثل أبي لا تحبُّ سماعَ أخبار تجارتي). وسألتها: ماذا تصنعين؟

نطاقًا لبنت موسى.

أما موسى فجارنا منذ أعوام كثيرة، صَنْعَته إصلاحُ الأحذية، ومتعته تحريك الأحناك. وهو لا يبرح دكّانه على زاوية الشارع ومع ذلك فهو يرى كلَّ شيء ويسمع كلَّ خبر. يرى الصبيَّ الذي سرق الرغيف، والمرأةَ التي انسّلت خفيةً من بيتها، والإمامَ الذي اشترى زِقًا من الخمر. ويسمع خبرَ الخصومة بين الأخوين، والرشوةَ التي قَبِلَها قاضٍ، والجاريةَ المختبئة في دار أحدهم. وهو أولُ من يشمُّ رائحة الطبخ في نهار رمضان. لما كنتُ صبيًا أميل كغيري من أقراني إلى عصيانِ أبي وأوامره الكثيرة كنت أخشى موسى هذا، أمّا وقد كبرتُ فصرتُ أكنّ له البغضَ.

قالت أمي: اقترب موعد زفافها.

مَن؟

قلت لك.. بنت موسى. هذا النطاق لثوب زفافها. وأنت... متى ستتخذ زوجةً؟

وكنتُ قد تناولتُ تينةً من الطبق وقضمتها لحظة أحسستُ بنظرات أمي مسلّطةً على وجهي. ولما كان الحنانُ ما أراه في عينيها متى ما نظرتْ إليّ، فإني تعجبّتُ لما رأيتُ فيهما في تلك اللحظة توبيخًا وتقريعًا. أتراها سمعتْ عن اختلافي إلى البيتِ الأحمر في طرف المدينة؟ لا.. الأمر مستحيل. أنا لم أذهب إلا مرتين أو ثلاثًا، وذلك بعد رجاءٍ شديد من أحد التجار، وكان قد قَدِمَ من منطقة الشاوية بحملٍ ممتاز من القمح، وأراد أن يتنعّم بالمتع التي تقدّمها أزمور. وأنا لستُ أبي، وليس لي رادعٌ يجعلني أنهى نفسي، فذهبتُ مع الرجل.

لكني سترتُ على نفسي ولم أجاهر، اللهم إلا إذا رآني أحدٌ كجارنا موسى فأبلغ أبي. والله إنها القاضية من ولدٍ خالف تربيته وانحرف عن الطريق. فتأكد لي حينها أنّي سببُ كآبة أبي هذه المرّة، فغمرني الخزي والصِغار.

قالت أمي: مصطفى... وحطّت نسيجها على الأرض. أجبني. متى ستتزوج؟

قريبًا إن شاء الله.

لكن معظم الرجال الذين في عمرك قد تزوجوا. بل إني سمعتُ من أبيك أن ابن الفقيه سيُرزق بطفل ثانٍ...

طفل؟

نعم، طفل. ومال الأطفال يا بني؟

لا عيب فيهم.

لو كنتَ تدرس لا تزال لصبرتُ وما أمرتك بالزواج. لكن أنت تعمل وتكسب رزقًا، وتستطيع أن تعيل زوجةً وتطعم أطفالاً...

أماه.. أريد أن أعتني بكِ وبأبي.

بل بنفسك اعتنِ. وسأقول لأبيك أن يسأل من يعرف عن بنتٍ تلائمك.

لا. أبي ليس بخير، ولا أريد أن يشغل فكرَه بي. سنتكلم في أمر الزواج عندما يتحسن حاله.

وهمّت أمي بالرد، لولا أن يحيى ويوسف أتيا جريًا عندما سمعا صوتي، وكان يقهقهان ويتسابقان فقطعا حديثنا. وصاح يحيى: مصطفى! انظر إلى السيف الذي صنعتُ يا مصطفى!

وردَّ يوسفُ ساخرًا: أنت الذي صنعته؟! ومن الذي صنع له مقبضًا؟

فقلت: اخفضا صوتيكما فأبي ما زال في مضجعه. ونظرتُ إلى باب حجرته المغلق. ولم أحسّ بحركة أحدٍ في الداخل. فقلت لأخويّ: فلنخرج بعض الوقت وندعه يستريح.

فركض الصبيّان إلى الباب قبلي، وهما في جدالهما هزلاً مستمران، وأنا في حيرة من أمري كيف أعيد لأبي مسرَّته. فإذا بإلهام يقع في خاطري كأنما رأيتُ ضوءَ الشمس في عتمةِ الليل. وعزمتُ أن أشتري لأخويّ جلبابين جديدين، وآخذهما للقاء فقيه مسجدنا. ولئن كنتُ قصّرتُ في حق أبي ولم أكن ما رامَه، فإنّي واثق أنهما سيكونان كما شاء؛ رجلان من أهل العلم والصلاح.

5

حكاية المسير

وبينما سنيور كاستيو مع الرجالِ غائبين يبحثون عن الطريق إلى مرسى بانكو، عكَفَ الحاكمُ على استنطاقه للهنود الأسرى، مثابرًا على سؤاله عن مكان مملكة الأبلاتشي. فبَقِينا في سانتا ماريّا أسبوعًا مرّت ساعاتُه ثقيلةً طويلة، وما كان لنا سوى الانتظار. ولما تحينُ غداةُ اليوم أو عشيّته وتقلُّ شدة القائلة، يخرج الجنودُ من أكواخهم يتسلّون كيفما شاءوا؛ فمنهم من يقايض غنائمه، ومنهم من يلهي نفسَه بأوراق اللعب. أمّا سنيور كابيزا دي فاكا فيظلّ ينشدُ من دواوينه أشعارًا، وأمّا سنيور دورانتس فيستمع للمستوطنين وهو يعزفون الكمنجة، وأما دييغو فيمضي مع الأب أنسيلمو في نزهات طويلة في الغابة وراء القرية. وكان الراهبُ يحبُّ جمعَ أوراق الشجر في هذه الأرضِ البكر، فيضغطها بين صفحات دفترٍ، ويدوّن تحتها وَصْفَها وسِماتِ شجرها. حتى عثر الأبُ أنسيلمو ودييغو ذات يومٍ على مصائدَ هنديةٍ مخفيّة في الغابة، وقد وقع فيها طيران غريبان، لهما عنقان زهراوان ذوا غباغبَ متدلّية، وكان أحدهما أنثى صغيرة الحجم، أما الآخر فذكرٌ ضخم ذو ريش ملوّن ما بين الداكن والأخضر وغيرهما.

ولّما قدّمتُ لسنيور دورانتس ساقَ أحدهما مشويةً للغداء، سألني من أين لي هذا اللحم. وكان قاعدًا على كرسيٍّ خارج كوخه، فأخذ الصحن من يديّ متعجّلاً وقد أضواه الجوع.

من أخيك يا سنيور.

إل تيغري اصطاد هذا الطائر؟

عثر عليه في مصيدة للهنود في الغابة.

فضحك سيدي وقال: الآن تبيّن الأمرُ. فإنّ دييغو ليست صيّادًا.

يا لدييغو المسكين! مهما حاول أن يعظّم شأنه عند أخيه يخيب مراده. لماذا لا يوليه مولاي أيَّ احترام؟ إنّ هيئة سنيور دورانتس أكبرَ من دييغو بسنين عديدة، فربما لم ينشآ معًا، غير أنّ هذا ليس سببًا كافيًا للوحشةِ الواقعة بينهما. آه لو بيدي أن أكون مع أخويّ! قد بلغا السابعة عشرة الآن. شابّان يترعان من كأس الشباب، وإنْ كانا في عين خيالي الصبيين اللذين يعدوان ضاحكين، فيستقبلاني متى ما رأوني ألجُ بيتنا. وكنتُ قد أقنعتُ نفسي أنّ تضحيتي كانت لينجوا من العذاب الذي أذوقه الآن، بل إنّ خيالي ليجرؤ أحيانًا فيتصوّر أن التوفيقَ كان حليفهما. أتراهما التحقا بجامع القرويين فصارا ما تمنّاه أبي؟ أم أنهما نبذا حياةَ العلم، فتعلّما حرفةً عند عميّ أو عند معارفَ لهما؟ لا سبيل لي لمعرفة ما اتفق لهما، لكن شوقي لاستطلاع نبأهما، وتوقي لرؤيتهما كانا المسيّرَين لجميع أفعالي تلك الأيام. ولهذا كنتُ أبصر وأسمع، فأختار ألا أرى أو أفكر.

سألني سنيور دورانتس: وأين دييغو الآن؟

راح مع الأب أنسيلمو.

مرةً أخرى؟

قصدا النهرَ.

أحَفِظَ ولو قطعةً من هذا اللحم لكاستيو؟

منذ رحيلنا عن إشبيلية وأنا أرى سنيور دورانتس يُعنى بسنيور كاستيو

برفقٍ أخويٍّ ما لا يَصرِفُ عُشُرَه إلى دييغو أخيه من لحمه ودمه. وقد رأيتُ مرةً سنيور دورانتس يُخرج من خُرج فرسه قفازًا زائدًا بعدما اشتكى سنيور كاستيو من فتقٍ في قفازه الأيمن، وأخوه يرى ويسمع، ويداه عاريتان تمسكان بقَرَبوس سرجه.

لا سنيور. أَمَرَ بتفريق اللحمِ كله على الحاضرين.

قل له يتفقد المصائدَ غدًا.

وانتظرتُ إلى أن فرغ سنيور دورانتس من الأكل لأصيب شيئًا من طعامي. وكنتُ قد حفظتُ لنفسي بضعَ قطعٍ لأذوق لحم الطير الغريب، وإنْ واخيت الحذر ألا يلحظ سيدي، فيوبخني لأخذي من اللحم دون إذنٍ. وفي الساحة وضع أحدُ الجنود على رأسه طاقيةً ذات ريش أخذها من المعبد، وطلب من صاحبٍ له أن يحكِمَ ربطها. ثم مشى مختالاً متمايلاً متخصّرًا كفعل النساء، ورفاقه يضحكون ويهتفون. وفي الناحية الأخرى، جماعة من مستوطنين يلعبون بالورق الإسبانيّ، ويصيحون بالأعداد كلما فاز فريقٌ منهم. الصبرُ يا مصطفى، ثم الصبر. سوف نترك هذه القرية قاصدين الأبلاتشي، حيث سنعثر على الذهب، وأذكّر سيدي بفضلي في حسن طالعه.

***

برز سنيور كاستيو ورجاله من الأحراش بعد أيام. وكان حالهم يُرثى لها، ثيابهم موحلةٌ ملتصقة بأجسادهم، ووجوههم ممتقعةٌ من قلّة الطعام الذي خصّصه لهم الحاكمُ في رحلتهم. وبين ذراعيّ جندي صغير السن مالت ساريةُ العلم جانبًا، كأنما لم يقدر على حملها قائمةً. وسار الرجالُ في جماعات متمهلين حتى وصلوا إلى ساحةِ القرية. واحتشد الجميع ينظرون إليهم وهم ينزلون من ظهور الخيول، ثم توالت الأسئلة: هل وجدتم المرسى؟ أرأيتم في

طريقكم أثرَ مدينةٍ؟ أين الفأس التي استعرتَ يا رجل؟

ورفع سنيور كاستيو يده ليسكت الحشدَ، وظهر من الغمِّ على وجهه أنه لم يجلب معه أنباءً مطمئنة كما تمنّى. قال محدِّثًا رفاقه القادة فقط: اتّبعنا ريو أُسكورو حتى بلغنا المحيطَ، فلم نجد إلا خليجًا واسعًا ضحلاً لم يرتفع ماؤه أعلى من خاصرتي.

نزل الصمت على رؤوس الرجال. وخلع سنيور كاستيو خوذته ومسح على شعره. ثم سأل دييغو: ماذا تقصد بقولك هذا؟

أقصدُ أننا لا ندري أين المرسى. أقصدُ أننا تائهون.

فردّ دييغو: هدئ من روعك ولا تدع الفزعَ يحكمك.

إنما قلتُ الحق.

فارتفع صوت رجلٍ: لا. بل إن ما قلتَه ليس الحق. وكان المتكلم الحاكمُ سنيور نارفاييز، فانشقّ الجمع ليمرّ، ووقف في المنتصف. كان يرتدي قميصًا أزرق وسروالاً ناصع البياض شديد النظافة. ويروق للحاكم امتلاك الأسماع والتلاعب بها بالنعق بخطبٍ حماسية، فكان لكلمته وقعٌ أَخرَسَ كلَّ الرجال، وجعل أعينهم معلّقةً به وحده. فأخذ ينظر في وجوههم برضا فيه كِبرٌ وهزلٌ، ثم قال: اصغوا إليّ يا رجال. لقد عرفتُ من الأسرى أنّ الأبلاتشي ليس اسم المملكة فحسب، بل هو اسم حاضرتها كذلك. كحديثنا نحن القشتاليين عن ليون، فنحن إمّا نعني المدينة أو إقليمها. فأبلاتشي كذلك هي المملكة بأسرها والمدينة بعينها. ولأجل ذلك التبس على الأسرى حين سألتهم عن مكان الأبلاتشي، بيد أنهم أكّدوا لي أنّ ما سمعناه عن مملكة الأبلاتشي هو الحقيقة؛ ففيها من الذهب القدر العظيم، ومن البساتين الشيء الكثير، ومن البشر الجمع الهائل. ونحن في هذه اللحظة نازلون في إقليم الأبلاتشي، ولمّا

نصل مدينة الأبلاتشي بعد.

وكان الحاكمُ لا يجد غضاضةً في مخاطبة الجند الوُضَعاء بطريقتهم، والتباسط في الحديث معهم، والضحك على دعاباتهم الفجّة، بل إنه لا يتعالى عن المزاح كما يمزحون. فأحبَّه الرجالُ وأذعنوا له السمعَ والطاعة، وإن لم يوافق ما يقوله هوى في أنفسهم. أما سنيور كاستيو فلا يُخفي في كلامه تعاليَ الكبراء الأشراف، فيجهر بالحرف المهموس ويتفاصح بالألفاظ أمامهم، كمنشدِ الشّعر بين يديّ الملك. بل إنه فوق ذلك لا يخاطب الجندَ أنفسهم قط، فعُرف بتكبّره وإن كان سليمَ النيات.

وانظروا هنا. رفع سنيور نارفاييز عقدًا هنديًا هائلاً ثقيلاً كالذي يرتديه امرؤٌ ذو رفعة. والعقد مصنوع من أصداف بيضٍ غاية الصغر كأنها خرز، وواسطة العقد تميمةٌ ذهبية بحجم بيضة الدجاج. وقال: عثر حاجبي عليها بين الأشجار على بعد ربع فرسخ من النهر.

وأدخل الحاجبُ إبهاميه في حِلَق حزامه والفخر ينفخ صدرَه. وهتف الرجال فرحين وتعالت صيحاتهم، فكان مما اتفقوا عليه هو البحث في تلك الناحية من النهر بحثًا دقيقًا. لكن سنيور كاستيو قاطع كلامهم بسؤال.

وكم تبعد مدينة الأبلاتشي؟

وأجاب الحاكمُ: نحو عشرة أيام أو أقل. لا يمكن تقدير الزمان على وجهه الصحيح من قول الهنود، فهم لا يعرفون تقديرَ الوقت كما نعرفُ. وقد لبثنا في هذه القرية زمنًا أطول مما ينبغي. حان وقت إكمال المسير.

وكيف نرجع إلى السفن؟

كما قد قلتُ يا كاستيو. نُغِيرُ على الأبلاتشي، ثم أرسلُ فريقًا من الجند إلى الساحل فيحاذونه حتى يبلغوا مرسى بانكو.

***

فقاد الحاكمُ سنيور نارفاييز الرَّكبَ والمشاة، وما تحدّث مع قادة حملته طول المسير، وآثر تلقينَ الأوامر إلى حاجبه المتتبعِ خطاه ماشيًا. وقد كان باديًا عليه الاستياء من سنيور كاستيو لإلحافه عليه بالعودة إلى السفن، لا سيما أن رحلة السيدِ الشاب القصيرة لم تخمدْ شرارةَ الشك في قلبه. فصار بصرُ الحاكم شاخصًا في الأفق أبدًا كأنه ينتظر مرأى الأبلاتشي في طرفة عينٍ، ولم يشأ أن تغيب عنه. أما القادة فغشيهم صمتٌ، مفكرين متلهفين إلى بلوغ المدينة. وكلما توغّلنا في الغابات كَفَّ الجنودُ عن الغناءِ والناسُ عن الحديثِ.

وبينما كنا نستريح من حرِّ الهجير يومًا، سمعتُ لحنًا مطربًا يأتي من بعيد، أحسبُه نايَ عازفٍ أو أكثر. فخطر لي كلامُ رجلٍ من أرباب الدولة، عجوز قشتالي قضى شطرًا من سنيه في لا إسبانيولة، وكان ضيفًا كثير الزيارة لمقصورة سيدي خلال رحلتنا في بحر الظلمات. قال إنّ الهنود في هذه البلاد لا يفقهون في الفنون شيئًا، وإنهم يعزفون ألحانًا متوحشةً غايةً في الرداءة، كتلك التي تخرج من نقر الطفل على الطبل. وليس لهم من الرسم والنقش والنحت والعمارة بأي هيئاتها أو صفاتها إحاطةً ولا حذاقة، ولا بأيّ من معالمِ الحضارة التي نعدّها نحن القشتاليون من مسلّمات الحياة المدنية.

ودنا صوتُ الألحان منّا وجلا. وغمرتني بهجةٌ فقلتُ: سنيور، ووضعت يمناي وراء أذني وأشرت بالأخرى تجاه الأشجار في طرف المعبر، فاتّسعتْ عينا سيدي واستدار صوب العزف. ثم هبّ الحاكم واقفًا وقد بلغ الصوتُ سمعه. ورفع آخرون رؤوسهم، فأحجموا عن الكلام وتناول الطعام.

وبرزت إزاءنا من وراء أشجار الصنوبر جماعةٌ من عازفي الناي نحو عشرين ونيف، يسيرون اثنين اثنين، ويعزفون أنغامًا جميلة على ناياتٍ يصل طول الواحد منها الذراع. وشعرت أن وقع تلك الأنغام أصيلة من تراث

أجدادهم، وأنها من الألحان التي تُضربُ في احتفالٍ عظيم أو اجتماعٍ جليل، ليست ألحانًا يتسلّى بعزفها الناسُ وهم حول موقدِ النار مجتمعين. وكلُّ العازفين طوال القامة يناهزونني طولاً، وهيائتهم مختلفة عن هيئة الهنود الذين رأيتهم من قبل، وعلى عوراتهم جلود مدبوغة مخيطة وملونة بنقوش كثيرة حسنة. ولما خرج آخرُهم من وراء الأشجار وقفوا جميعًا صفًا واحدًا، ثم برز من ورائهم زعيمهم محمولاً على كتفيّ خادمٍ، فعرفتُ أنهم حاشيته التي تمهّد لمحضره. وكان شعره طويلاً مرفوعًا في عقدةٍ عاليةٍ في قمة رأسه تنتهي بريش أحمر، وقد غطّت الوشومُ الزرقاء جسده، ومن ورائه اكتمل الجمع بحاشيةٍ من الرجال والصبيان.

وظننتُ أول الأمر أننا صادفنا قبيلة الهنود هذه، وإن كان من الأرجح أنهم قد راقبونا ونحن ندخل أرضهم، فجاءوا بحثًا عنا. وكذلك حسبتُ أن الحاكم سوف يقدّم الكاتبَ ليخاطبهم نيابةً عنه، كما فعل لّما التقينا بجيش الهنود عند ريو أُسكورو، أو أن يطلب بابلو أسيره وترجمانه، لكن الحاكم اعتمر خوذته فوق رأسه وتقدّم إلى الزعيم بنفسه خافضًا رأسه محييًا. وانفرطت ريشة نعامة من رباط خوذته فمالت مع ميلان رأسه. فنزل زعيم الهنود وأحنى رأسه المزيّن بالريش محاكيًا تحية الحاكم.

قال الحاكم: بانفيلو دي نارفاييز. ثم أشار إلى كل قائد من قادته الثمانية وقال أسماءهم.

قال زعيم الهنود: دولشانشلن. وأشار كذلك إلى كبراء قومه وسمّاهم.

ثم دسّ سنيور نارفاييز يده في جيبه، فأخرج عقدًا من خرزٍ زجاجي أخضر، أهداه إلى الزعيم منكسًا رأسه بتذللٍ لم يرَه عبدُ الله كاتبُ هذه الكلمات بيديه من قبل قط. وقد أجْدَتْ حركته نفعًا، لأن وجه دولشانشلن قد أشرق بمرأى الهدية البرّاقة. فنزع شملةً من جلد الغزال الملون كان يضعها

على كتفيه وقدّمها إلى سنيور نارفاييز. وبعد أن فرغا من تلك التحيات، قال الحاكم للزعيم بإيماءات وإشارات وبضع كلمات تعلّمها من بابلو أنه ينشد مكانَ مملكة الأبلاتشي.

فأعاد دولشانشلن الكلمةَ، كأنما يودُّ التحققَ مما سمع قبل الإجابةِ، ثم نظر إلى مئات القشتاليين المحتشدين وراء الحاكم في الأرض البراح. وكانوا كلهم وقوفًا، وقد تركوا طعامهم أو استفاقوا من رقادهم، وبعضهم قابضٌ على سلاحه متأهبًا، وإن هدّأ العزفُ روعهم وهدّن خواطرهم. كما أن كسوةَ حاشية دولشانشلن وطريقة تصفيف شعورهم وكيفية دنوّهم منا أثارت في نفوس القشتاليين فضولاً حلّ محل العداء الذي لاقوا به هنودَ ريو أُسكورو.

وأشار زعيمُ الهنود إلى مغربِ الشمس. فقال سنيور نارفاييز ظافرًا: إنها في ذلك الاتجاه. كأنّ لا أحدَ سواه فَهِمَ إشارة الزعيم. ثم أشار دولشانشلن إلى الحاكم أن اتبعني. فالتفتَ الحاكم إلى القادة وخاطبهم لأول مرةٍ منذ أيامٍ: سوف يصحبنا إلى هناك. اجمعوا رجالكم. اؤمروهم بالمسير حالاً.

وسرنا وراء ذاك الزعيم ورجاله ثلاثة فراسخ، وكانت الأشجار في تلك الناحية كثيفة ملتفّة طويلة كالمنارات، لكن الهنودَ قادونا في تلك الأدغال بحذر وعظيم صبر، كمن يسوق حمارًا بغمامةٍ في أزقة سوق مزدحمة. ثم وصلنا نهرًا شديدَ الاتساع عظيمَ العمق، لا يكون عبوره إلا بمراكب جديدة. فاستحضر الحاكمُ نجّاريه فلم يتقدم إلا فيرنانديز الذي قال للحاكم أنّ النهار قد انتصف، وأن العمل على صنع المراكب لن يتمّ قبل حلول الليل.

فقال الحاكم: لا أقبل بهذا يا فيرنانديز. استخدم رجالاً أكثر، أو ابنِ مراكب أكبر.

ليست العلة بقلّة الرجال يا دون بانفيلو. ولا أقدر أن أستخدم رجالاً

أكثر وما عندي أدوات يعملون بها. أستطيع صنع مراكب أكبر لكننا كما قلتُ لن نتمّ العملَ قبل انقضاء اليوم.

كم استغرق صنع المراكب لما جاوزنا ريو أُسكورو؟ أتذكّر أنك أنجزتَ العمل في ثلاث ساعات.

أجل. ثلاث ساعات. لكن شمس اليوم توشك على المغيب يا دون بانفيلو.

وأنا أقول إننا نستطيع الانتهاء من صنعها اليوم.

وكان الحاكم شديد التوق لمجاوزة النهر، وكلنا كنا كذلك، لا نطيق صبرًا ولا مانعًا يؤخرنا عن المستقبل الموعود.

وتقدّم دولشانشلن الذي كان جالسًا تحت ظل شجرة يشاهد الهرج، فعرض على الحاكم زوارقه. ولكن فارسًا من الفرسان واسمه خوان فيلاسكيس، وكان رجلاً منشرحَ النفس يطيب للجند مجالسته لأنه يطربهم بالأغاني ويسلّيهم بالأحاجي، أقول إنّ فيلاسكيس عزم على مجاوزة النهر بفرسه، إمّا لأنه لم يسمع عرض زعيم الهنود أو أنه كذّبه. فقبض على عنان فرسه بيد وبالأخرى أخذ عصا طويلة، ووكز الفرسَ ليخوض النهر، ثم صاح: إنّ النهر ليس عميقًا.

فاصطفّ بقيةُ الفرسان على شاطئ النهر يراقبون خوضَه، وصاح رجلٌ منهم: أرأيتم؟ ما لنا حاجة إلى عون الهنود. ومع ذلك فقط ظلّ مكانه ولم يخض وراء رفيقه.

وتوغل فيلاسكيس في عُباب النهر. والماء كلون الرماد يعكس ضوء النهار وقت العصر، أما من ناحية الضفة الأخرى تحت ظل أشجار السرو فلونه داكن مخضرّ. ونادى الرجل: هلُمّوا يا رجال، وإن لم نكد نتبين كلامه مع

قوة جرية الماء وانزعاجه. ثم زلّت قدمُ الحصان فسقط، وأفلت فيلاسكيس عصاه ولوّح ذراعيه يحاول الثبات مكانه. ورفع الحصان رأسه فوق الماء يحاول أخذ أنفاس من الهواء، ويحاول كذلك تحمّل ثقل فارسه، غير أن النهر ماج عليهما فجرفهما كما يجرف عودًا هشًّا.

وركض الرجال بمحاذاة النهر يصرخون: فيلاسكيس! فيلاسكيس!

وكان سنيور نارفاييز في حديثٍ مع دولشانشلن، فلما سَمِعَ اضطرابَ رجاله هرع إلى النهر وسأل: ماذا جرى؟ أنقذوه.

وبعد سويعات رجعت جماعةٌ من الجند يحملون جسد فيلاسكيس على أكتافهم، ويجرّون الفرس وراءهم. ولم ينطق رجلٌ منّا بكلمةٍ. وانشّق الحشدُ ليمرّ الجندُ حتى بلغوا الحاكم سنيور نارفاييز، كأنهم يقدمون قربانًا مقدّسًا له. ونظر إليهم مسوّد الوجه، ثم التفت إلى حاجبه وقال: ما بالك تنتظر؟ قل للرجال يحفروا قبرًا.

***

وألقى الأبُ أنسيلمو دعاءَ الميت عند القبر مرتعشَ الكلمات متأنيًا. فأبّنَ خوان فيلاسكيس وقال إنه كان رجلاً عالي الهمة، وُلد في قادس وتزوج فيها، وله من الأولاد ثلاثة. وكان جنديًا خدم بلاده بإخلاص في معركة بافيا، وكان محبًا للغناء عاشقًا للشراب... وإن أفرط فيه. فهزّ الجند رؤوسهم مخفين ابتساماتهم. فقال الراهب: أقصد أن أقول إنه كان مثلنا، رجلٌ عادي تعرّض لظروف غير عادية.

وحيث إنّ كلماتِ الأبِ أنسيلمو مختلفةٌ عن كلمات مبعوث البابا التي ألقاها عند نهر ريو أُسكورو فقد كان لها وقعٌ مختلف في نفوس الجنود. وعوضًا عن أن يتقبّلوا موت أحدهم ويسلّموا أن هذه سنة الغزو والاستكشاف

شرعوا يتذمّرون من الحاكم. لماذا لم يُصغِ لمشورة النجار ولم ينتظر انبلاج الصباح؟ لقد استعجل وخاطر لأنه يريد مجاوزة النهر. لو أنه تمهّل لكان فيلاسكيس حيًا.

والحاكم كما قلتُ يحذق مداهنة الجند والتحيّل عليهم، ولذا فقد أَمَر عقب الجنازة بنحر الحصان النافق وتفريق لحمه على كل رجل في الحملة، حتى الحمّالين والعبيد. وكنّا حتى ذلك الحين لا نأكل إلا الذرةَ التي نهبناها من آخر قرية نزلنا بها، فشدّ ما فرحنا بطعم اللحم، وإن كرهنا طريقة وصوله إلى حوزتنا. وأعلن الحاكم أنه سمّى هذا النهر على اسم الجندي المتوفى: ريو فيلاسكيس، فخمد امتعاضهم.

وبعد شروق الشمس جاوز بنا رجالُ دولشانشلن النهرَ بقوارب مطلية ذات رسوم، ومجاديفهم تحرّك الماء ضربًا شديدًا. والماء الصافي يجري سريعًا، حتى إذا لطم الجلاميدَ في قعر النهر ظَهَرَ أعلاه زبدٌ أبيض. والشمس ما زالت في مشرق الأرض والسماء ذات زرقة داكنة، فإذا رأيتَ قمم أشجار الصنوبر امتزجت الزرقة بالخضرة.

ولما همّ الحاكمُ بركوب القارب، اقترب دولشانشلن منه وأشار إلى ريشة النعام. ففهم الحاكم وقال: أتريد هذه؟ ثم ضحك ونتف الريشة المنحلّة من خوذته وناولها زعيمَ الهنود، فجعلها هذا بين الريش الملون في طاقيته، كأنه ملكٌ زاد درةً في تاجه. ثم رفع دولشانشلن يده يودّعنا واقفًا وحوله حاشيته، يرقبون خروج آخر رجل من جماعتنا من مملكتهم.

وما أن قطعنا بالمسير فرسخًا واحدًا حتى أتى جنديّان لرؤية الحاكم يجرّان وراءهما أحدَ المستوطنين. وكان شابًا قد قُبض عليه يسرق قفّة ذرة. وأراد الجنديان من الحاكم إيقاعَ العقوبة عليه. فأجاب الحاكمُ أن الجزاء سيكون من جنس عمله السيء، لكن لا وقت يُصرف الآن في إنزاله، ولسوف يُسجن

عندما نصل إلى الأبلاتشي.

وكان ذلك القول تهويدةً أخذ الرجالُ يرددونها في كل حينٍ، وفي كل مقام. عندما نبلغ الأبلاتشي يُعاقب اللّصُ. عندما نبلغ الأبلاتشي سنهزمُ الهنودَ. عندما نبلغ الأبلاتشي سنجد الطعامَ الكثير والماءَ الغزير. عندما نبلغ الأبلاتشي نستريح. عندما نبلغ الأبلاتشي سنبني مدينةً. عندما نبلغ الأبلاتشي نُرقّى مراتبَ فنكون من كبارِ الجيش. عندما نبلغ الأبلاتشي يكون من نصيبنا شوالُ ذهبٍ واثنان من الفضة. عندما نبلغ الأبلاتشي يُثرى سيّدي. عندما نبلغ الأبلاتشي سوف أغدو حرًّا.

6

حكاية البيعة

وكانت خاتمةُ سعادتنا في عام ثمان وعشرين وتسعمئة من هجرة رسولنا الكريم. كان الناسُ يقولون إنّ تربةَ دكالة غايةٌ في الخصوبة، حتى إن القمحَ الغليظ والخرشف الرقيق يُزرعان بها معًا، لكن المطرَ أُمسكَ عنّا تلك السنة فقلَّ الحصادُ. وحوقل الشيوخ وقالوا إنهم ما شهدوا قحطًا مثل هذا قط في حياتهم. ونزل في أزمور رجالٌ ونساء من كل حدب وصوب؛ أتوا يتدينون مالاً، أو يطلبون شغلاً، أو يبيعون الغنم والبقر وكل كبدٍ لا يملكون ترطيبها. ولاحظ عمّاي أنّ الناسَ كفّوا عن طلب أشغال النجارة، فكانا يقضيان جلَّ نهارهما يكنسان الأرض ويشرّدان الذباب. وما كان إلا قليلاً من الزمان حتى رأينا الأطفالَ يطوفون طرق المدينة يستجدون الناسَ، بطونهم منتفخة وشعورهم شهباء شعثاء.

ولم تطَلْ مصيبتنا البرتغاليين الحاضرين في مدينتنا، فكانوا كما دأبوا ينقلون الذهبَ والصوف إلى بورتو، ويرسلون الحلل المنسوجةَ كالحنبل والكسوة إلى غينية. بل إنّ القحط والجوع اللذين استوليا علينا جعل تجارتهم رائجةً رابحة، لأنّ ثمن الصوف بات بخسًا فكانوا يشترون منه القدرَ العظيم. وقد وقع أمرٌ عجيب في تلك السنة. فقد اضطر الفلاحون إلى دفع أولادهم ثمنًا لّما لم يجدوا مالاً يدفعونه ضريبةً للبرتغاليين، ولا حصادًا يبيعونه في الأسواق. فالبنات اللاتي في سن الزواج يُبَعنَ بربعين من القمح، والصبيان

ضعف ذلك. وقد أقسم صاحبٌ لي يعمل في حصر المكوس[1] أنه رأى ثلاث كارافيلات برتغالية تغادر أزمور إلى إشبيلية، وعلى متنها ما عدَّه مئات من البنات المسخَّرات، إما خادمات أو جوارٍ عند الأعيان. ومن تلك المحن ظهر قولهم: إن تكلّمتْ البطونُ خرستْ العقول.

حتى كان ذلك اليوم الذي عزلني فيه أولادُ الديب عن عملي، وحلّ مكاني عندهم قريبهم وقد نزل أزمور قادمًا من الريف، فأصبحتُ مع جموع العاطلين بلا عمل في المدينة. وكما طار بي الفخرُ بتجارتي إلى السماء، فقد طرحني الخجلُ من خيبتي إلى الأرض. ولم أخبر أحدًا بأمر فقدان عملي، وصرتُ أقضي النهار أطرق أبواب التجار أحاول إقناعهم بمهارتي. ولم أجد عونًا ممن كنتُ أعرفهم وأساوم معهم، فكانوا مثلي واقعين تحت وطأة العطالة والفقر.

وما زاد شقاء الأيام أن تزايد مرضُ والدي، فشقّ عليه طلوعُ الدرج إلى السطح، وكان يحب الجلوس فيه ومشاهدة المراكب في الميناء. وصارت عضلات ذراعيه وساقيه تختلج وتضطرب فلا يقدر على منعها، وإن اشتدّ الانتفاض به تقبض أمي على أطرافه حتى تلين وتسكن. وقد جلبتُ له طبيبين وما عرف أيّهما علته. فلزم أبي البيتَ واعتزل عمله، وضاق علينا العيش بخسارة كسبه وإن كان في ذاته يسيرًا. وصارت أمي تلتمس شفاعةَ مولاي أبي شعيب عند ضريحه كل أسبوع، وصحةُ أبي تزيد في الاعتلال يومًا وراء يوم. وما أن مضى على مرضه أشهرًا معدودات إلا كان جسمه قد تضعضع، فما كان يقوم من السرير ولا يقضي حاجته دون عونٍ منّا.

وكنا ندعو أن تجودَ علينا السنةُ المقبلة برحمةٍ من الله، لكن عام تسعة وعشرين وتسعمئة جاء، والجدب باقٍ والزرع قليل. فهزّ الشيوخ رؤوسهم

1- ضريبة تؤخذ عن البضائع الداخلة والخارجة من المدينة، كالجمرك حاليًا.

هذه المرة وقالوا إن ما أصابنا إنما حصاد ذنوبنا، بجشع الرجال، وفساد النساء، وقلة صلاح الفتيان، والحوانيت التي تسقي الناس خمرًا. وقالوا إنّ الله أنزل علينا عذابه كما أنزلَ الجوعَ على فرعون وقومه. وانطلقت عقائر الأئمة في جوامع أزمور بالخطبِ ما بين لومٍ وتذكير وتثريب، يختارُ كلُّ إمامٍ ذنبًا ما تحدّث عنه أحدٌ قبله فينهر ويؤنّب، وما كانوا يجدون في تلك الأعمالَ قبل ذلك إلا المسرّاتِ والمتعةَ.

ودخلتُ مرةً على أمي وقلت لها: حذّر الإمام اليوم من الإسراف في الزينة.

فردّت: كلنا نبحث عمّن نلومه. وكانت تخلط في حلةٍ ملحًا وكمونًا مع عظام دجاج وماء مغلي، وكان طعامنا في ذاك النهار.

فقلتُ: ألا ترين أنّ التكلّف بالزينة إثم؟ وتذكرت أنّ أمي كانت تفرح باشتغالها وصيفة للعروس في حفلات الزفاف، وأن أبي يبغض مظاهرَ الترف. فخطر لي أنّ الأعوام التي صرفتها في تلقي علوم الدين خلّفت أثرها في نفسي، فهأنا ألومها وأنسى ذنوبي وخطاياي.

قالت: أنا لا أحبُّ لوْمَ الناس كيلا يلومونني يومًا ما.

وسكبتْ بعض الحساء في آنية وحملتْها إلى حجرة أبي. وكان يأبى تناول الطعامِ اليسير، ويأمرها أن تعطيه أخويّ اللذين نحلا نحولاً شديدًا في شهور الصيف. فكانت أمي تجلس قربه كل يومٍ، فتمسك يده وتلاطفه كي يأكل أو يشرب شيئًا، وكان هو لا يفتح فاه قط.

***

وزارنا هادمُ اللّذات في رمضانَ من ذلك العام. فغسلناه وحملنا جسده المسجّى إلى الجامع، وقرأنا على جثمانه سورةَ يس. وما أن حثونا الترابَ على

كفن أبي الأبيض الطاهر حتى نفذت حقيقةُ موته إلى قلبي كطعنةِ الخنجر. فانطلق من جوفي عويلٌ ونواح أفزع عميّ، فأحاطا بي وأمسكاني، ولعلهما خافا أن ألقي بنفسي في قبر أبي. فصارا يصبّراني ويقولان إنّ الموتَ سنةُ الحياة.

وظللت أصرخُ وأضرب صدري حتى احتملوني إلى الدار وأدخلوني من الباب الأزرق، كما احتملوني من خلاله رضيعًا. ولزمتُ دارَنا أربعين يومًا حدادًا، فوالله كأنما روحي خرجت مع روح أبي. وكنت أقطع الأيامَ صلاةً وقراءةً ودعاءً له. وقد قُبض ولم يقل لي قط رأيه في خياري يوم سألني في ذلك اليوم، ونحن جالسان في فناء دارنا بعد الاحتفال، يوم أن فضّلتُ التجارة على حياة العلم. وهو الذي ما قال يومًا كلمة بهذا الشأن لا ثناءً ولا مذمّة، وكان فرحي وفخري بنفسي بالغين فتعمدتُ ألا أسأله رأيه. كنتُ لأعوام أبدي الامتعاضَ من نصحه، والآن لمّا رحل تمنيتُ أن أسمع منه ولو كلمة.

وبعد أن انقضت الأربعين، رجعت زينبُ إلى دارنا ومعها بنتها. وادّعى زوجُها أنه طلّقها لأنها لم تنجب ولدًا، ولكني وأمي نعلم أنه طلّقها كيلا يعيلها وبنتها. أما عمي عبد الله وزوجته عائشة فسكنا في بيت بنته الكبرى، وهي ثاني زوجات رجلٍ غني يعمل في كتابة المكوس، فتركانا نلقى الفقرَ بجيوبٍ خاوية. ولمّا هجر عمي عمر المدينةَ مصاحبًا أحد رفاقه اكتملَ خرابنا وتهدّم أساسنا. فانحلّ عقدُ أسرتنا بعد موت والدي، فحسبته رحمه الله الخيطَ الواهي الذي كان يربطنا طوال تلك السنين، فلما تُوفي انتقض الغزلُ.

وصار في بيتنا يعيش خمس أرواح، جَوْعَى عَطْشَى تكابد لظى العيش، وكلهم أمانة في عنقي. وما استطعتُ إخفاءَ الحقيقة عن أمي أكثر مما مضى. ولكن لما أقررت بما حلّ بي لم تدهش، فقد أورد لها موسى جارنا خبرَ كذبي، كما أنبأها قبل أعوام خبرَ ارتيادي البيت الأحمر في طرف المدينة. وكانت الخيبةُ التي رأيتها في عينيها ضربةً موجعة. وشعرتُ أنّ في هيئتي تمثّلتْ كلُّ

خطيئةٍ أنذرني منها أبي وأمي؛ تاجر بالأنام وخائن للإسلام.

ولأكفّر عن ذنوبي شرعتُ أعيلهم بالطريقة الوحيدة التي أعرفها. فبعتُ السجّادَ والطيافير التي ابتعتها قبل أعوامٍ بدافعٍ من كبرياء. وأعنتُ أمي على بيعِ أساور الذهب، وأختي على بيع الحنبلِ الذي قضت عامين في غزله. وكان المال يكفينا أيامًا أو أسابيع أحيانًا، ثم نقلب بيتنا رأسًا على عقب، نفتّش عن نفيس أو رخيص كي أبيعه أو أقايضه. وكنتُ منصرفًا إلى الصفقات فلم يبلغني نبأ الزلزالِ الذي ضرب فاس حتى رأيت الفارّين منه يحتشدون على ضفة أمّ الربيع وينصبون خيامهم. فزاحمونا في أسواقنا وشوارعنا، إما يطلبون كسب العيش أو يسألون الناسَ عند الجوامع.

وأخذتُ أطوف ممرات المدينة وأزقتها وحاراتها وحدي، كأن نجاةَ أهلي من مصيبتنا كامنةٌ فيها، تنتظرني أن أجدها. والمدينة ساكنة، فقد قُبض على كلابها وقططها منذ أمدٍ، وأُكلت لحومها دون خجلٍ، حتى الفئران ولّت من مدينتنا. كنتُ أتطلع من حولي، أبحث عن أي شيءٍ؛ طعام آكله، أو سلع أبيعها، أو أغنياء أستعطفهم. لكن ما رأت عيناي إلا بشرًا مثلي، وجوههم هزيلة وأجسادهم معوجّة من الجوع والمرض، حتى بدوا كالعفاريت. وقد بلغ بي القنوطُ مبلغًا عظيمًا، والله لو كان في جهنم ما يكفي أهلي الجوعَ وشقوةَ الحياة لدخلتُ بابها راضيًا مسرورًا.

***

شققتُ طريقي بين الحشد المجتمعين على رصيف الميناء. وكان أمّ الربيع ساكنًا، ونور الشمس في الغروب يلوّن ماءه بألوان الظلال، والسماء نمراءٌ. والجنود في مواضعهم يراقبون الخدم والأرقاء وهم ينقلون الصناديق من السفن البرتغالية وإليها. شددتُ على يديّ أخوي خشية فقدانهما بين جموع البشر. أما نفسي فقد فقدتها وودّعتها. وصوت أمي يرجع صداه بآخر كلمات

قالتها لي هذا الصباح. لا يا مصطفى.. إلا هذا.

ولكن القدرَ مكتوبٌ، وقد نبذت نصيحتها كما نبذت مشورة أبي من قبل. قلت: لا أرى سبيلاً أخر يا أماه.

بل إن هناك سبيلاً يا بني. إن الله لا يقطع بعباده السبل، لكن الإنسان يرجو ويأمل.

اللهم سامحني فإني كنتُ أظنها تهوّن عليّ بألطف الكلام وأكذبه. ولا ريب أنها رأت في عينيّ ما يعتمل في داخلي، فأنشأت تحكي لي حكاية مولدي بعينين تترقرق بهما العَبَرات. روتْها هذه المرة كي تحصّن فؤادَها كيلا ينفطر من ألم فراقي، وإنّ الفراق لتخف قسوته إذا ما أوهمتْ نفسَها أنّ رحيلي مقدّرٌ منذ وصولي الدنيا. أنصتُّ لها صابرًا، كما أنصتُّ لحكاياتها كلها، ولما سكتتْ لم أفكّر بالحكاية ولا معناها. بل فكرتُ بقلب أبي الذي مات غير راضٍ عني، وقلت في نفسي لعلّ تضحيتي تشفع لي عنده، وإن لم يكن حاضرًا ليشهدها. ولما نهضتُ لأرحل وقفت أمي عند الباب ومن ورائها نورُ الفناء. وتلك هي صورتها التي حملتها في قلبي كل تلك السنين. كانت تنادي اسمي لما أغلقتُ البابَ الأزرق ورائي.

رأيتُ في الميناء سيدًا برتغاليًا أعرفه، وكان ممن يرتادون دكان عمي فيشتري صناديق أو كراسي أو طاولات لقصره في لشبونة. فناديت: سنيور.. سنيور أفونزو. كان قصيرًا ذا أنف ضخم وفم ضيق، يلبس قميصًا أحمر وسروالاً داكنًا ينتهي طرفيه في جوف حذاء لامع برقبةٍ طويلة، ويمناه تقبض قائمَ سيفه. وإنّي لأعرف ثمن كل قطعة من ثيابه، لو كان بيدي بيعها. فالقميص والسروال مصنوعان من القطن، فلن يكترث لهما إلا عاملٌ أو كاتب، أما السيف فقدّرت ثمنَه بنحو عشرين ريالاً. ولما أدركتُ ما كنت أنوي فعله أردتُ أن أنثني راجعًا، لولا أن أفونزو رآني. وتعجّب الرجل وهو ينظر لي

ولأخوي التوأمين. وأظنه فهم ما أردتُ منه دون أن ينطق لساني. ولم يسألني إن كنت أعلم أيَّ حياة سأعيشها بعد أن تعبر السفينةُ النهرَ، بعد أن ترحل عن أزمور وتحاذي الساحل حتى تبلغ بلاد النصارى. بل سألني: أهذا حقًا ما تبغيه؟

نظرتُ إلى أخويّ. طال شعرهما وتغيّر لونه، وغارت عيناهما جوعًا وخوفًا، فنظرا إليّ غير فاهمَين. قلت: أجل. هذا ما أبغيه.

فقال أفونزو: اتبعني إذن. ولحقنا به فقطعنا رصيف الميناء حتى دخلنا مكتبَ أحد التجار. فنهض عند مرآنا رجلٌ أصلعٌ. وتصافح البرتغاليان، وإن أحنى التاجر رأسه قليلاً احترامًا للسيد. وتكلّما همسًا لحظات، ثم التفتا نحونا. فأشار أفونزو إليّ وقال: وهو يتكلم البرتغالية.

فسألني الأصلع: إيسو إي فيرداد؟[1]

فأجبتُ: سِي. أُترابالي كُم أوس كومرسيانتس بورتوغيس.[2]

وأومأ التاجر برأسه مؤكدًا صدق السيد. وبعصا طويلة أخذ يتحقق من جودة السلعة، فألفى الكتفين مشدودين واليدين قويتين. أما العينان فسليمتان، ولا أسنان مكسورة أو مقلوعة. ثم عَرَضَ الثمن: عشر ريالات. وطالت المساومة بيننا لأني أردتُ أن أتأكد من حصولي على أفضل سعر. ولم أوافق على البيعة إلا عندما رأيت أن التاجر يوشك أن يسحب عرضه، وأن خمسة عشر ريالاً هي حقًا أكثر ما يستطيع دفعه.

كان ضوءُ الشمعة يرتعش في المكتب الصغير حيث سجّلَ الكاتب البيعة، وظلالنا تتحرك على الجدار وراءه. ظلي طويلٌ قلق، وظلا أخويّ قصيران

1- أهذا صحيح؟

2- نعم. كنتُ أعمل مع التجار البرتغاليين.

هزيلان حائران من معنى ما يجري أمامهما، وهما ما جاوزا الثانية عشرة بعد. سألني الكاتبُ عن اسمي، وقد طلع صوته مترفقًا مستكينًا من فمٍ خلا من الأسنان.

مصطفى بن محمد بن عبد السلام الزموريّ.

فتح الكاتب السجلَّ بحركاتٍ متأنيةٍ، وغمس الريشة في دواة الحبر الأسود. مصطفى. خمسة عشر ريالاً.

وتم الأمر. من بين كلِّ العقود التي وقّعتُها، أجزم أنّ أبي لم يكن يتخيل أنني سأوقع يومًا هذا العقد. هذا العقد الذي بعتُ فيه ما لا ينبغي بيعه. هذا العقد الذي قذف بي إلى دنيا غريبة ومحا اسم والدي. وما كنت أعلمُ أنّ هذا أول ما سيُمحي مني.

ناولتُ النقودَ أخويّ. قلت: خذا المال.

كان يحيى أول من فهم الأمر، فاتّسعت عيناه هلعًا. ثم أدرك يوسفُ ما جرى وصاح: لا! ثم أخذ المال من يدي وحاول أن يردّه إلى الكاتب البرتغالي الذي كان يراقبنا بعينين باردتين غير عابئتين، كمن رأى هذا المنظر يحدث أمامه مراتٍ لا تحصى. وفاضت عينا يوسف بالدمع، وهو أرقُّ قلبًا من أخيه، وأخذ يشدّ كمَّ قميصي ويتوسل إليّ أن أرجع إلى الدار معه.

وضممتُ أخويّ إلى صدري. قلت إنني سأرجع إليهم، لا لأنني مصدّقٌ كلامي حينئذٍ، بل لأنني لم أعرف ماذا أقول لهما. لن أسمع جدالهما على الفراشِ بجواري قبل أن أنام أبدًا. ولن أوقظهما لصلاة الفجر أبدًا. ولن أجلس معهما نأكل من الصحن نفسه أبدًا. ولن أراهما يركضان نحوي لمّا يرياني أسير في شارعنا أبدًا. كل هذه وأمور كثيرة... لن أراها. طلبت منهما أن يكونا خيرَ عونٍ لأمي وأختي في غيابي، وأن يبرّا بعميّنا، وأن ينفقا المال في

أحسن وجه. فإن استدام لهم حتى الخريف المقبل فقد ينجون.

وما زلتُ أتذكّر بكاءهما وارتعاشَ أضلاعهما وأنفاسهما الحارة على خديّ. وأنا الآن هنا أفكر وأتعجب: أيُّ قوةٍ تملّكتني فجعلتني أتركهما وأرحل؟! بيد أنّ هذا ما فعلتُ. ولعلَّ بعض الأمور يعجز المرؤ عن تفسيرها.

صعدت إلى السفينة وراء أرقّاء آخرين، وقد أُسِرَ بعضهم في دكالة وسنجانة، ودُفع آخرون من أهاليهم عوض الضريبة البرتغالية. ولكن معظم من كانوا على السفينة، نحو مئة وثلاثين شخصًا، قدّموا أنفسهم طواعيةً، وكلُّ ما أرادوه هو أن يضمنوا ألّا يمرّ يومٌ دون أن يأكلوا طعامًا. وصعدنا كلنا المركبَ. سواءً كنا مُستَرقّين أو مُقايَضين، سواءً باعنا أهلونا أم بعنا أنفسنا، صعدنا كلنا المركب. وقادني جنديٌّ إلى الطابق السفلي، وصفّدني بأغلالٍ تربطني برجال آخرين، وإزاؤنا صف النساء ومن بيننا الأطفال. وفي طرف الطابق مرابطُ الماشية، وفي الطرف الآخر صناديق فيها بضاعة. وفي كل مكان، في كل مكان حولنا، فاحت رائحة العبودية والموت.

7
حكاية الأبلاتشي

أثناء سيرنا نحو حاضرةِ الأبلاتشي كنتُ أزجي الوقتَ بالتخيّل. فجعلتُ أتصوّر دخولَنا إلى المدينة دخولاً عظيمًا، ليس بمهابة دخول طارق بن زياد إلى طليطلة. لا.. لا.. إنّ الأمارات التي رأيناها منذ أرسونا على هذا الساحل لا تبشّر بأمرٍ يماثل ذلك جلالاً، لكنني أرى دخولنا بشيء من المجد والحظ؛ المجد لسيدي والحظ لي. ولم أفلح في الانغماس في بحر تخيلي وإن حاولتُ جهدي، بل أنني أتذكّر أن قلبي يزداد نضبه متى ما عاينتُ أو سمعتُ شيئًا غريبًا، كرفرفة جناحين، أو انقصام عودٍ، أو صيحة طائر مجهول.

وما بين الفينة والأخرى، تباغتنا سهامٌ متراشقة تجبر قافلتَنا على الوقوف. وكانت تلك السهام من أعجبِ السلاح، وهي طويلةُ النصال بالغةُ الحدّة، حتى أنّ أحدها ينفذ في جذع شجرة الصنوبر قدر ذراعٍ. وكلما سارع الجنودُ نحو الأشجار يبحثون عن الرماةِ، أسدلتْ الأشجارُ الملتفة غطاءها فحجبتهم عن أعيننا. وما اعترض الهنودُ طريقنا قط، وما منعونا من التوغل في أرضهم قط، فكان مما أرجف قلوبَنا علمُنا بأن أعينًا تراقبنا، وإن لم ندرِ من هم وكم عددهم.

ولما كان صباحُ أحد الأيام رجعتْ الطليعةُ، وهم اثنان من الأسرى الهنود وجنديٌّ إسباني من كوبة، فأبلغوا الحاكمَ أنهم أبصروا مدينة كبيرة، تفوق في اتّساعها بورتيو وسانتا ماريّا، وأن الأرجح أن تكون هي الأبلاتشي. الأبلاتشي! وسَرَت الأخبارُ من مقدّمة الركب حتى حاميته، على شفاه الجنود

والمتوطنين والمماليك. فأحيتْ الآمال، سرّها وعلنها، مما استعرتْ به قلوبنا مذ سمعنا بالذهب. فلما أمرنا سنيور نارفاييز بالتوقف للراحة نفد صبرنا وثقل علينا الانتظار، والرجال يتساءلون: لم الانتظار؟ أهذا وقت الراحة؟

واجتمع الحاكمُ بمستشاريه؛ مبعوث البابا وكاتب العدل والخازن وكل قادته. وأحاط هؤلاء به وأداروا ظهورهم نحونا فحجبوه عن نظراتنا الفضولية. وقد أمرني سيدي بإعلاف أبيخورو وسقايته، فلم أسمع ما قيل في اجتماعهم تلك المرة. وأتذكّر زرقةَ السماء ونسيمًا عليلاً هوّن حرَّ الشمس. وكانت أشجار الطلح تحيط بموضعنا من كل جانب، ففاح عبيرها على رائحة الرجال والأفراس. وتعجبتُ لما لحظت سكونَ الرجال، فلا هم يتنازعون في شيء ضروري كسكين أو قطعة حبل، ولا يتجادلون في تافهٍ كطاقية. وأظنهم كانوا يتحينون وصولَ المدينة فورًا، لولا تأخيرُ الحاكم بعقد مجلسه بلا حاجةٍ.

وما لبث سنيور دورانتس أن رجع من المجلس وبرفقته على عادته سنيور كاستيو. فقال: أحضر لي شرابًا. فجلبتُ له قربةَ ماء، وقد نفد النبيذُ قبل أسبوع، وأخذ يرشف من الماء رشفًا متمهلاً وهو يرمق الكبراءَ الذين ما زالوا محيطين بالحاكم مستغرقين في الحديث. فإذا بأبيخورو يحمحم خائفًا، فربّتُّ على عنقه والتفتُّ ورائي أفتش عما أفزعه، فلم أرَ إلا شجرةَ بلوطٍ تدلّت أوراقَها من الحرّ. فقلتُ: صه يا أبيخورو، صه.

وصرفت انتباهي إلى سنيور دورانتس، وكان يقضم شفته السفلى التي حرقتها الشمس، ثم يلعق قطرات الدم. فسأل صاحبه: لِمَ اختارَه؟ لِمَ اختاره هو؟ أيّ مهارة أو مزيّة في هذا الرجل محرومٌ أنا منها؟

وتبعتُ نظرةَ الغيرة في عينيّ سيدي، فرأيتها تُلهبُ ظهر سنيور كابيزا دي فاكا. وكان الخازنُ يضمّ خوذته إليه بذراعٍ منثنية، ويشير بيده الثانية نحو صندوق مملوء برصاص البنادق. وكل ما فيه ينمُّ عن حزمٍ؛ وجهه الصارم،

وصوته الثابت، وهمته في إنفاذ أوامر الحاكم. وكان ذاك الجَدُّ ما جعل الجنود يبغضونه وإن لم يغلظ عليهم بالقول قط.

قال سنيور دورانتس مشيرًا بإبهامه إلى صدره في اعتداد: ألا يعلم أني أخمدتُ الثوّار باسم الملك؟

فأجاب سنيور كاستيو بهدوء: وهو كذلك فعل.

وهذا ما أقصده. لماذا فضّل كابيزا دي مونو عليّ، ولدي من الخبرة ما لديه؟

حمحم أبيخورو ثانيةً، فشرعتُ أمسح على جَنْبه، ودنوت من أذنه وقلت: لا شيء وراءنا. وإن ظلّت عيناي تحدقان في الشجر الكثيف تبحثان عن أي شيء.

وقال سنيور دورانتس: ولماذا لم يختَرْ كابتن بانتوخا؟ ذاك رجلٌ تأتمنه على حياتك.. أو كابتن بينالوزا؟ أو حتى تييز؟ لماذا اختار هذا الرجل؟

وكان سنيور كاستيو حتى ذلك الحين يجيب بصوت لا مبالٍ، ولكن بعد سؤال سيدي اصطبغتْ نبراته بمسحةٍ بغضٍ، فقال: أميغو[1].. لقد اختار الحاكم كابيزا دي فاكا لأنه يتفق معه.

يتفق معه في أيٍّ شأن؟

في قطع بلادِ الهنود دون إدراكِ موضع السفن.

ولكن بانتوخا يوافقه الرأي كذلك، ومع ذلك فلن يرحل في المهمة.

مسح سنيور كاستيو على شعره وقال: ربما اختاره لأنه الخازن.

1- أي صديق بالإسبانية

بل إنّ هذا سببًا أدعى لبقائه هنا. فالأمر جدٌّ خطيرٍ على رجل بمكانته. ينبغي له أن يحرس خُمس الملك،[1] لا أن يقاتل للحصول عليه.

لم يرد سنيور كاستيو. واكتفى بخلع قفازيه وحلِّ رباط حذائه. وجرت أنباءُ المهمّةِ المرتقبة على لسانِ الجنود، فاصطفّوا يتزاحمون وينظرون أيهم يختاره الموكّل بالمهمة. فلما طلب سنيور كابيزا دي فاكا عشرةَ فرسان، تطوّع خمسةٌ وعشرون، كلهم يبعدُ الآخرَ عن طريقه. واختار من المشاةِ أربعين رجلاً ممن جاءوا معه في المركب، وحصلت بينهم معرفة. وارتحلوا قبل الآلمويرزو.

***

وبينما سيدي يلعب الورقَ مع صاحبه، أويتُ إلى ظل شجرةٍ، منشغلَ البال بالتفكير بالأبلاتشي. ترى ما شكلها؟ رأينا بورتيو وسانتا ماريّا، فكانتا بلدتين صغيرتين فيهما أكواخ مسقوفة بالسعف، لكن الأبلاتشي هي حاضرة المملكة، ولا ريب أنها فسيحةُ الأقطار، وأن عمارتها ذات فخامةٍ واتساع. أتراها محاطة بأسوار منيعة كالتي أقامها موكتيزوما حول حاضرته، أم أنها أصغر ذات برج أو برجين يرابط بهما الحرّاس، فإن أبصروا معتدين أنذروا أهلَ المدينة؟ والحقّ إني فرحتُ لما لم يُنتخب سنيور دورانتس لتولي هذه الطليعة إلى المدينة، كيلا أخوض غمار ساحة معركة بلا درع ولا سلاح، وإن كنتُ مع هذا أتمنى أن ذلك ما حدث، لأن نصره في المعركة يعني اشتمالي بالحظ والرضا.

وكنت قد اضطجعتُ وتأهبت لانتظارٍ طويلٍ، فإذ بجنديٍّ فوق فرس وثّاب أرسله سنيور كابيزا دي فاكا يصل معسكرنا في الظهر، ويعلن أنّ المدينة قد أُخضعت ولم يقاوم أهلها.

1- هي ضريبة تحفظ للملك حقه في خُمس الثروات والأملاك التي يغتنمها جنوده في الحرب

فانتفض القومُ، واستعدّوا لدخول الأبلاتشي دخولاً يليق بهم. فتقلّد الحاكم وشاحه الأزرق، ونفض الرهبان الغبار عن مسوحهم، وشدّت أكفُّ الجنود قوائمَ سيوفهم أو مقابضَ بنادقهم، وربط المستوطنون متاعهم، وفعل الجمعُ ذلك على عجالة وبلا شكاية.

وحتى الآن، وأنا أكتب هذه الأسطر بعد أعوامٍ مديدة من ذلك اليوم، لا أجدُ كلامًا يصف ما استشعرت به من لهفةٍ وخوف وقلق، ونحن نشرع بالمسير السيرَ الأخير إلى الأبلاتشي. وإننا وإن لم نقطع إلا فرسخًا ونصف فإنها بدت لي عشرينًا. وكانت الأرضُ التي سلكناها ذاتَ رمال كُشفت في أماكن منها لعين الشمس، فحرقتْ سُخنَتُها قدميَّ اللتين لم يقِهما إلا خفّان، ولكنني لم أبالِ. مررنا على بحيرةٍ غير كبيرة سقطت على مائها أشجارُ الصنوبر، وعريشين مشرعين يغلب الظن أنّ الهنود يحتمون بهما وقت رحلات الصيد الطويلة. ثم سمعتُ نفير بوق يعلن دخولنا المدينة.

الأبلاتشي...

ليس فيها إلا خمسون دارًا.

حسبت بيتوهم فارهة، لكنها عادية مصنوعة من القش والسعف، وتتدلى على أبوابها جلودٌ مدبوغة. وهي مصفوفة بانتظام تحت مظلةٍ أشجار متلاصقة، تقيها حرَّ الشمس وتحميها من ماء المطر. وكل دارٍ تكفي لسكنى أسرة كاملة، أي نحو اثني عشر نفرًا. واشتممت في الهواء رائحةَ قرع مطبوخ، لا أدري في حساء أو مرق، وإنّ ما أدهشني أنّي لم أرَ مواقد للنار في المدينة... فكيف طبخوه؟

ولم يكن فيها بئر، مما يوجب أن أهلها يجلبون الماء من غدير أو نهر قريب، فيحتملونه إلى البيوت أو إلى حوض ماء كبير. وفي كل مكان تناثرت حاجات

من حياة أهلها؛ مثل الهاون والمهراس لهرس الذرة، والأوعية وحلل الطبخ، والمَناسِج من خشب وألياف، ودمى وخشاخيش. وفي الجهة الشرقية من ناحية الساحة مكانُ نجارتهم، وفيها تُحفظ قطعُ خشب بأحجام متباينة وعدةُ النّجارة. ومن وراء البيوت بساتين ذات محاصيل خضراء وصفراء وبرتقالية.

ومشينا إلى قلب الأبلاتشي، فوجدنا تلاً كهيئة الهرم الصغير مستوي القمة. وكان فوقه معبد أحسن مما رأينا في القريتين الأوليين، وعليه درج قصير من خشب يصل الصاعد عليه إلى بابين، منقوش عليهما نقوش بديعة توقف المارّ إعجابًا وإبهارًا. وأتذكّر أني لمحت أحدَ الجنود يلتقط إسورة على الدرجة الخامسة أو السادسة، بارتفاع القامة، فيدقق النظر فيها.

وخلف المعبد وقف جنودٌ مسلّحون من طليعة سنيور كابيزا دي فاكا، وقد أسروا نحو ثمانين امرأةً من نساء الأبلاتشي. وهنّ أول ما رأينا من النساء منذ قدمنا إلى لا فلوريدة. وكن يجلسن على الأرض وقد سُحبن من حيثما كان موضع اشتغالهن؛ فبعضهن كن يحملن قفافًا ملؤها ذرة، وبعضهن يحملن فُرشًا يقطر منها طلاءٌ أحمر، وأخريات يشددن إليهن أطفالاً يبكون. ورأيت شعورهن منسدلة بالغة الطول، وهن إمّا يربطنها في ضفائر أو يعقصنها فوق رؤوسهن ووراء آذانهن، وعلى أذقانهن وشم دائرة. وأما العجائز فيلتحفن بملاحف أو جلود غزلان ملونة، وأما الشابات فعرايا ليس على نهودهن وأذرعهن وسيقانهن سترٌ. فتحركت شهوتي على غير توقع وأنا أحدق بهن، فذكرتُ الله وأعملتُ قوةَ إرادتي وأعوامَ عفتي في طلب العلم كي أصرف بصري عنهن. والرجال ورائي يقذفون كلامًا فاحشًا، وإن لم تفهم النسوة ما قالوه، ولم ينهرهم رؤساؤهم.

ورمى الحاكمُ بنظرة عجلى على النساء، ثم ترجّل وأمر بتفتيش المدينة. فانتشر القادة والأجناد ومعظم المتوطنين في ممراتها. وقصد سنيور دورانتس

المعبدَ على الفور، ولحقتُ به نحو التل، وبصري يرتد دون حولٍ مني إلى النساء.

وللمعبد جدرانٌ بالغة العلو وسقف مقسّم بألواح خشب، وهو يسع ثلاثمئةً من الناس، فمرَّ وقت طويل حتى أحطنا بكل نواحيه. وفي الجدارين من الناحيتين الغربية والشرقية ارتفعت منصتان فوقهما زبيلان حمراوان عظيمان، منسوجان من ليفٍ لم أره من قبل. وفي شمال المعبد أصنامٌ من خشب وحجر مزينةٌ بريشٍ ومناقير ومخالب، فبدت كهيئة الطيور الجوارح. وتفحصتُ الأصنام بحرص، وكان سيدي كلما تخلّفت عند تمثال أو سلاح مطلّي بالذهب يسألني: أترى شيئًا يا إستبانكو؟

لكن الحظ لم يحالفني، ولم أجد تمائمَ من ذهب ولا فضة، ولا نحاس ولا أحجار كريمة. لا شيء.

ودام البحث في الأبلاتشي حتى حان من الشمس غروبها. فرجع كل جندي من الموضع الذي فتّشه في المدينة بغنائم ليس منها قطعة ذهب. قالوا إنهم وجدوا مخازن المدينة للشتاء، وفيها غلالُ الذرة والفول والقرع والثمار المتنوعة وبذور حبّ الشمس. وكذلك وجدوا ملاحف من نسيج جيد، وعدّة للحراثة والطبخ، وأسلحة. فأين الذهب الذي أخبر به الأسرى الهنود؟ ولو كانت مناجم الذهب بعيدة، ألا نجد في أي أنحاء المدينة قطعًا منه؟

وانسابت قطرات العرق على وجهي وظهري، والبعوضُ يحوم من حولي وأنا أشرّده حانقًا، كأنّ لا ذا دم تراه غيري، حتى استسلمتُ لها وحوّلت بصري إلى الحاكم، وقد أحاط به قادةُ الحملة وسادتها. وقد وقع على سنيور كابيزا دي فاكا عبءُ محصّلة البحث وهو كارهٌ. فقال متماسكًا: دون بانفيلو، لم نجد ذهبًا. وكان سنيور نارفاييز واقفًا يضع راحتيه على خاصرته وهو لمّا

يخلع درعَه بعدُ. فرمق الخازنَ بنظرةِ غيظٍ ثم قال: هذا مستحيل.

لقد فتّش الجنود كل البقاع. لم يجدوا ذهبًا.

لم يجدوا أي قطعة ذهب؟

لا، ولا حتى نحاسًا.

لكن هذه هي المدينة التي قال الزعيم... ما كان اسمه؟

دولشانشلن.

أجل، هو. هذه هي المدينة التي دلّنا إليها.

هذا صحيح.

وخلع الحاكم قفازيه ونظر إلى المدينة وراء سنيور كابيزا دي فاكا، وقد حلّ المساء عليها. فقال: الذهب في الأبلاتشي.

فأعاد الخازن: لا ذهب فيها.

أدخل الحاكمُ إصبعه تحت الرقعة السوداء التي تغطّي عينه وفركها فركًا قويًا. قال: لقد عرف الهنود بقدومنا. ولهذا لا رجال في المدينة.. هرعوا يخفون الذهب.

وحول ساحة المدينة، تفرّق المستوطنون يوقدون المشاعل، حتى انقلب الليلُ شبه النهار لكثرة الضوء. ونعق بومٌ من بين الشجر.

يا بنيّ... أنشأ مبعوث البابا يحادثه مترفقًا، كأنه يدعو رجلاً إلى التوبة أو يهوّن على أحدٍ مصابه. لا أحسبُ أن الهنود فرّوا كي يخبئوا ذهبًا يا بنيّ. أتُرى لو كان عندهم ذهبٌ كانت مساكنهم من سعفٍ وكان صغارهم ونساؤهم عرايا؟

بدت الحيرة على وجه سنيور نارفاييز، كأنّ الراهب نطق بلسان أعجمي. وقضم كاتب العدل أظافره، وهذه عادة مبعثها القلق اشتدّت عليه في الأيام الأخيرة، حتى صارت أطرافُ بنانه حمراءَ منسلخة. وخلع سيدي خوذته وناولها إيّاي دون أن ينظر إليّ.

ثم قال سنيور كاستيو: لا ذهب..

فأجاب الحاكم مبغضًا: بل ثمة ذهب، وإلا فمن أين للصيادين بقطعة الذهب التي وجدها دورانتس في بورتيو؟ ومن أين أتت التمائم التي وجدتها أنت في سانتا ماريّا؟

وقد استشعرتُ اللومَ في كلام الحاكم، كرجلٍ بريئ غرّته آثار الذهب التي وجدها قادة العسكر. وأحسب أن سنيور دورانتس استشعرها كذلك، لأنه مدّ قامته ووضع يمينه على خاصرته، كالمتأهب للدفاع عن نفسه. وقد أدركنا جميعًا، بقلوب مثقلة، أن لا ذهب في الأبلاتشي، ولا عزّ ومجد. أما مطمحي بالعز لسيدي والحرية لنفسي فقد باء بالخسارة. فثقلتْ قدماي في موضعهما وغشيتْ غمامةٌ عينيّ. وتذكرت تلكم الليلة في أزمور منذ أعوام طويلة، يوم أن وافقت على بيع حياتي لأجل دراهمَ من ذهب. كم مرةً أنذرني والداي ألا أثمّن كل شيء بسعرٍ، لكنني لم أصغِ لهما. وهأنذا، بعد أعوام، أقنعتُ نفسي أنّ حياتي ستُرد إليّ لأنّي أول من وجد الذهب في لا فلوريدة. لكن الحياة لا تُسترد بالذهب، وهذا درسٌ أجبرتني الحياة على تعلّمه مرتين.

وبعد أن تملّكتُ جأشي بلغني صوت سنيور كاستيو الذي قال: لم يجلب الهنودُ الذهبَ من هنا. هذه الأرض بأسرها بَوار.

فنظر سنيور نارفاييز إلى القائد الشاب بازدراءٍ، وقال: وأنّى لك أن تعرف ما بهذه الأرض؟ مذ حللنا وأنت تلحُّ برجوعنا إلى السفن.

فردّ سنيور كاستيو: نحن لا نتكلم عن المراكب.. بل نتكلم عن الذهب. وزاد سنيور دورانتس على كلام صاحبه فقال: أنت مَن قال لنا إنّ الأسرى أخبروك بالذهب. قلتَ إن الذهبَ وفير كالذي وُجد في المكسيك. أكذبوا عليك يا دون بانفيلو؟ أم لم تفهم ما قالوه؟

قال أجدادنا في الأمثال: إذا سقطت البقرة كثرت السكاكين.

لكن سنيور كابيزا دي فاكا تدّخل وقال: لا حاجة للجدال الآن. أرى أن ننزل هنا بضعة أيام، ثم نستكشف المدينة ونواحيها. فلربما وجدنا شيئًا ذا قيمة.

فأومأ سنيور نارفاييز فعدّ القادة هذا أمرًا بالانصراف. ثم استدار سنيور دورانتس ونهرني كأنه لم يدرك وجودي وقال: ما بالك واقف يا مورو؟ اذهب فاسقِ الفرس.

ولقد شعرت بحرارة غضبه ومبلغ خيبته، وكان راضيًا عنّي لما وجدتُ قطعة الذهب، أما وقد خَسِرَ مملكةَ الذهب فأمسى يلومني. يا لحماقتي وأنا الذي كنتُ أنتظر منه خيرًا. أنا أعلم الناسَ بتقلّب رأيه. ألم أره بعينيّ على المركب الذي جاء بنا إلى لا فلوريدة يحابي من له عنده حاجة، ويميل عمن كان يحظيه إن انقضت حاجته؟ لِمَ حسبتُ أنه سيحسن إليّ؟ ربما لأني كنتُ في تلك الأيام أبقي أملي في التحرر حيًا كيفما استطعتُ، غير عالمٍ أنني إنما أعلّق نفسي بحبالٍ واهية.

***

ومن الدار التي اختارها سنيور نارفاييز لنفسه أصدر الأوامرَ بقيّة المساء. فأمر أن يُخلّى عن الجندي سارقِ الذرة احتفالاً بدخولنا المدينة. وأمر بمضاعفةِ حصص كلِّ الرجال من الفاصولياء لمدة ثلاثة أيام. وأمر أن يُجلب إليه كل ما

له قيمة في الأبلاتشي من ملاحف منسوجة وجلودٍ مدبوغة وقفاف وغيرها، ثم يقسّم هو الغنيمة، وإنْ كنّا نعلم أنّ رجاله متلقّون نصيب الأسد. وجعل دارًا كبيرة للرهبان، وثانية لكاتب العدل وجابي الضرائب، ودُورًا لقادة العسكر، ودارًا للمساجين، وثلاثين للجند والمتوطنين. أما النساء والأطفال الهنود فكان المعبدُ سجنهم.

وخلاصةُ القول هي إن الحاكم كان يحاول أن... يحكم.

لكن أوامره لم تهدّن خواطرَ القادة، كما علمتُ تلك الليلة. فقد أُعطي سيدي دارًا هنديّة يشاركه فيها دييغو وسنيور كاستيو ورابع اسمه بيدرو دي فالديفيسو. وقد صنعتُ حساءً بالفاصولياء وشويتُ ذرةً على موقد النار. وكان الموقدُ في وسط الكوخ، ويخرج دخانه من فتحة في السقف، فيتسنى لمن سكنه أن يطبخ الطعام بلا خشية من تقلب الطقس. وكان ذلك من حسن حظي، فلم أحتج إلى البقاء في الخارج معرضًا لقرص البعوض الذي يحوم كغمام، ولا لهجوم مباغت من رجال الأبلاتشي.

وبينما أنا أغترفُ من الحساء وأقدّمه للسادة، كان سنيور دورانتس جالسًا مع أصحابه على مراتب من فراء الثعالب. وجلستُ على بعد خطى قريبة عن القشتاليين مجاورًا الباب ثم شرعتُ بالأكل. وكانت العادة أن آكل وحيدًا بعد أن يفرغ سيدي من طعامه، لكننا كلما توغلنا في أرض الهنود قلّت عنايةُ سيدي بأصول الخدمة والضيافة. ثم إنّي لو قعدتُ خارج الدار وأصابني سهمٌ من الهنود، فمن يعدّ طعامه؟ ومن يعلف فرسه ويغسل ثيابه؟

سأل دييغو: كم سنلبثُ هنا؟ أقال الحاكمُ كم سنلبث؟

فأجاب سنيور دورانتس: لا. يريد أن يستكشف النواحي حول المدينة، وإن كنتُ واثقًا أنه لن يجد شيئًا. ينبغي أن نبحث عن مراكبنا الآن قبل أن

يفوت الأوان.

قال دييغو: لم يفت الأوان.

كيف تقول هذا يا شاتو؟ ألا تعرف أي مصيبة نحن فيها؟

أقصد أنّ عليك التعلّق بشيء من الأمل.

فهزّ سنيور دورانتس رأسه، وقد نفد صبره وأمله، كما نفد الخمر واللحم المجفف، وقال: حاولت أن أكلّم الحاكم لكنه رفض الإذن لي. قال إنه يود تناول عشاءه في هدوء.

لكن الهدوء اختار أن يتخلّى عنا. فبعد أن فرغنا من العشاءِ، وكنّا جالسين أو مستلقين نستريح، فإذا بصراخِ امرأةٍ يقضّ راحتنا. ولّما كنتُ أدناهم إلى مدخل الكوخ رفعتُ طرفًا من الجِلد المنسدل أستطلع الأمر، ولمحتُ جندًا يجرّون نساءً من المعبد، والنساءُ يحاولن خدش وجوه الرجال وشدّ لحاهم، حتى أحكم الرجال إمساكهن بلا عناء. ورأيت أحد القشتاليين يرفع صبيّةً عن الأرض ويرميها على كتفه، كما يرفع الرجل شوالَ حنطة، فيركض بها إلى داره.

قلت: سنيور.. انظر.

وسحب سيدي الحجابَ فأتم فَتحَه ليُريَ رفاقه ما يجري. والظلام شديد لولا ضياءُ المشاعل التي نُصبت على طريق جُعل ليقضي الرجل حاجته. فكنا نرى شخوص الرجال ولكن لم نتعرف وجوههم.

وسأل دييغو: مَن هؤلاء؟

فأجاب سنيور دورانتس: ليسوا من رجالي.

وما أدراك؟ رجال مَن هم؟

رجال الحاكم.

فالتفتتْ أعيننا نحو الدار التي اتّخذها سنيور نارفاييز لنفسه. وكان موقدُ النار بداخلها متقدًا والدخان يخرج من فوهة سطحها خيطًا واحدًا. وظهر حاجبه لدى الباب ثم ما لبث أن اختفى، ولم يتحرك شيءٌ قط.

وسأل دييغو: وما أدراك أنهم رجالُ الحاكم لا رجالك؟

فأمر سيدي: إستبانكو، اغلق الستارَ. فأفلتُّ طرفَ الجلد المدبوغ، ورجعتُ مكاني. وجعلتُ يديّ في أذنيّ أصمهما عن صراخ النساء، وإن كان فعلي دون نفعٍ. فأغلقت عيني، وتراءتْ لي صورةُ رامة الله وهي تئن وتنوء بثقل القشتالي الخسيس فوقها. تذكّرتُ باطنَ قدميها الموردين، والعارَ الذي جلّل محياها. كم أقضّتْ هذه الصورة مضجعي، وكم علّمتني أني لا أملك إلا الغضب الكظيم. وفي هذه البلاد، ونحن في نهاية المعمور، ما زال هذا العبد الفقير إلى ربه وحيدًا أعزلَ بلا حولٍ ولا قوة. فبتُّ أنبّش بمخزن ذكرياتي السعيدة التي كانت لي السلوى في رحلتي إلى إشبيلية، ثم رحلتي إلى لا فلوريدة. أردت لذكرياتي أن تصير ملاذي في منفاي، في هذه الأرض المشؤومة. لكن شقّ عليّ استحضارها، كأنما صرت عاجزًا عن استعادةِ الأماكن والأزمان كما أحبُّ وأهوى، كأنما الماضي الذي عشته ليس ملكي، كأنّ الماضي كسرابٍ يختفي كلما دنوت منه. والأدهى من ذلك أني بتُّ أخاف الغدَ، لأنه قد لا يأتي بحريتي. فليس لي إلا الحاضر، هذا الحاضر التعس.

وسكتتْ بعد حينٍ صرخاتُ النساء، وهبط سكون جديد على الأبلاتشي. ففتحت عينيّ. وأبصرت سيدي يقلّب الحطب بعصا، ثم يكمل حديثه حيثما انقطع فقال: سوف أسأل الحاكمَ صباحًا...

وانقطع حديثه مرّةً ثانية بلجّةٍ من أصوات الطبول عظيمةٍ تصدر من

ناحية المعبد، حيث أُحتجزت النسوة وأطفالهن. فبدأ الصوتُ متمهلاً، وارتفع ثم ارتفع، حتى بلغ كل أركان المدينة. وصدحت أصوات النساء الهنديّات حتى طغت على صوت الطبول، ينتحبن ما وقع لأخواتهن بأيدي المعتدين. وزادتِ حدّة صيحاتهن ثم انخفضت، فكانت صيحةً طويلة متّصلة، مكروبة متوجعة. كان اجماعًا بينهن بالألم الواحد، وما كان أحدٌ في المدينة ينكر أنه سمعه. قد أشهدننا على رزيئتهن، وإن كان منا مَنْ أصمَّ أذنيه وأعمى بصرَه.

***

بينما أنا أجمع خشبًا في الصباح إذا بمستوطن مذعور يصيح: إنديوس! إنديوس أيّا![1]

ودخل المدينةَ حشدٌ من رجال الأبلاتشي، بلغ عددهم نحو مئة يحملون القسيّ والرماح والفؤوس. وأتذكر أني تساءلت كيف استطاعوا مجاوزةَ الحرّاس المنتصبين عند مدخل المدينة. (ربما غشي الحرّاسَ النومُ. وكان المسير الطويل عبر الأدغال في قيظ الصيف جعل الجنودَ ومعظم الرجال يشكون النَّصب، ولم تزدنا خيبةُ خواء المدينة من الذهب إلا قهرًا ونعسًا). فتقدّم مقاتلو الأبلاتشي عبر الساحة يعاينون أمارات الغزاة حولهم، فهذه خيول ملجومة إلى الأعمدة، وتلك صناديق فيها أدوات غريبة، وهؤلاء البيضان واقفون عند أبواب دورهم.

فرميتُ الخشبَ، وهرعت إلى الدار حيث يرقد سنيور دورانتس متمددًا بين أصحابه. هززته وقلت: سنيور.. عاد الرجال الهنود. فهبّ واقفًا. وإن كان شعره أشعث وقميصه مفتوحًا من أثر الرقاد فإن عينيه كانتا في أشدِّ

1- الهنود! الهنود هناك!

اليقظة، فأعنتُه على وضع درعه. ولم يكن لي درعٌ يقيني، حتى ولا ثوب من قطن ثقيل منسوج كما اتّخذ بعض المستوطنين لأنفسهم. وما منعني ذلك من الخروج معه وأصحابه إلى الساحة الصغيرة التي ضاقت بالرجال، ومن كل دارٍ برز الجنود والمستوطنون يحملون أسلحتهم. ثم خرج الحاكم من داره مرتديًا درعه، دون خوذته ولا وشاحه الأزرق، ورقعة عينه السوداء غير ثابتةٍ بموضعها.

وتقدّم الحاكم منهم، فتقدّم رجلان من الأبلاتشي. أما الأول فيضع طاقيةً من فرو حيوان مصبوغ، ويحمل رمحًا طويلاً تَزيّنَ نصلُه بالريش، وله عينان ضيقتان لمّاحتان، وندبة طويلة على طول ذراعه اليمنى. وأما الآخر فأصغر سنًا وقد شدّ على صدره قوسًا. فإذا تكلّم أحدهما سكت الآخر، فإذا سكت الأول بادر الثاني بالكلام، وكلامهما تهديد ووعيد. ولما كان مقدمهم مباغتًا فلم يُجلب بابلو الترجمان الهندي من حبسه. ووقع في خاطري أننا لا نحتاج إلى ترجمان كي ندرك ما يريدونه؛ نساءهم وأولادهم وبيوتهم.

وتكلّم الحاكم فقال بصوت ثابت النبرات: أنا بانفيلو دي نارفاييز.

وحدجه الهنديان بنظرة نافذة دون أن يطرف لهما جفن. إن كان الحاكم يترقب إعجابهما أو خوفهما من بعد أن يعرفا من يكون فأنا أقول إنهما لم يكترثا ألبتة. فأعاد الحاكم نطقَ اسمه مشددًا على كل حرف: بان-في-لو-دي-نار-فا-ييز، ثم أشار إليهما بسبابته. وكان ينتظر من زعيمهم، وهو الذي يغطي رأسه بشعر حيوان مدهون بالأحمر، أن ينطق اسمه كما فعل دولشانشلن. لكن هذا الزعيم عندما تكلّم فإنه أطال الكلام، بما أيقنّا أنه لم يقل اسمه فقط، وهو إذ يتحدث معنا فإن يده اليسرى التي تحمل رمحه ترتفع وتنخفض مع وقع زجره.

فسأل سنيور دورانتس الحاكمَ: أتفهمُ ما يقول؟

فأجابه الحاكم: أريد أن يقول اسمه. لكنه لا يفهمني.

ربما قال كلامًا آخر.

إنه سؤال يسير يا دورانتس. ثم أشار الحاكم بإصبعه إلى الزعيم مرّة أخرى. ما اسمك؟

فقال زعيم الهنود كلامًا. بل إنها كلمة واحدة، أو أنها بدت كلمةً واحدة لقصرها.

وسأل سنيور دورانتس: ماذا قال؟

أجاب الحاكم: كماشا.. أم كاميشا؟ كوماشا؟

فقال سنيور دورانتس: قال شيئًا من ذي القبيل. لا يهمُّ ما قال.. ماذا سنفعل الآن؟

ثم رفع كماشا رمحَه في الهواء، ورأيتُ أنّ لها نصلاً من عظام وخشبٍ مسنن. فامتدّتْ أيدي الجنود إلى سيوفهم وبنادقهم، مستعدين لسلّها ورفعها متى ما لاحت بوادر القتال. بيد أنّ كماشا ضرب الأرض برمحه ضربةً قوية، فإذا بسربٍ عظيم من فَرَاشٍ لم أرَ شبيهًا لها لا في بلاد البربر ولا في قشتالة يطير فوق ساحة المدينة. ولتلك الفراش أجنحة برتقالية عريضة بعروق سوداء ونكات بيضاء. فكان من عجائب ما اتفق ظهور مئاتِ الفراش في هجرتها قاطعةً الأبلاتشي عندئذٍ، فكأنما استجلبها الزعيمُ لمّا ضرب الترابَ برمحه. وغشيتنا رهبةٌ ألجمتْ ألسنتنا.

وما لبث الحاكمُ إلا قليلاً حتى عاد إلى السؤال. فنزع من خنصره خاتمًا ذهبيًا، ورفعه ليُريَ الزعيمَ أنه يبحث عن مكان هذا المعدن في هذه الناحية. لكن كماشا ونائبه لم يأبها بالخاتم قط، بل أصدرا صيحاتٍ عظيمة ردّدها المقاتلون من ورائهما.

رجوتُ في سرّي: ردّوا نساءهم إليهم... ردّوا نساءهم إليهم...

فاستدار سنيور دورانتس نحوي وسأل: ماذا تقول يا مورو؟

وما أدركتُ أني نطقت الكلام، فأخذت أنظر إلى وجه سيدي المتعجب غير فاهمٍ، حتى تدخّل دييغو وقال: دون بانفيلو.. ردّوا نساءهم إليهم. هذا ما يريده زعيمهم.

وادّعى الحاكم أنه لم يسمعه. ورأيت فراشةً تحطّ على ذراعه تحت صفيحة الحديد التي تحمي مرفقه، لكنه لم يشعر بها. فمدّ يده بخاتم الذهب وقرّبه إلى عيني كماشا، كأن الزعيم أعشى. وأغضبتْ وقاحته رجالَ الأبلاتشي، فرمى أحدهم رمحًا اخترق أحد الدور من بابها المفتوح.

وهتف حاجب الحاكم: إنّه يهددنا!

فكأنما كان هتاف الحاجب ما أيقظ الحاكمَ من غفوته، فانتفض وأخفض ذراعه ثم تراجع. وبدا لي أنه سيهمّ بالكلام. أكان سيقول خطبةً من خطبه العصماء؟

وعندئذٍ رمى الحاجب سهمًا، فأصاب نائبَ كماشا في كتفه. فارتفع صليل الرماح والسهام، وخرّ من كان منّا بلا درع ولا وقاء على الأرض. ورأيت من مربضي فرسًا تنطرح على جنبها وهي تصهل من الألم، وقد ظهر بياض عينيها وارتعش منخراها. وصهلت الخيول، وأخذت تحرّك رأسها وتشد أعنّتها، تريد تسريح نفسها. أما سرب الفراش فحلّق دون صوت، حتى استقرّ على شجرة صنوبر قريبة.

ومن خلفي سمعت صراخًا ومقارعةً، وسقط بعض الجند قتلى، وفرّ آخرون، وأخذ غيرهم يلقّمون بنادقهم وقربيناتهم بالبارود. ما أعظم قوة هذه الأسلحة الجديدة! ما أن أطلقها الجندُ حتى خرَّ عشراتٌ من مقاتلي

الأبلاتشي صرعى واحدًا تلو الآخر. ومن لم تنُله رصاصةٌ فقد صُعِق واختار الفرار من المعركة، ساحبًا أصحابه الجرحى معه. فخلت ساحةُ المدينة في طرفة عينٍ.

ثم هرع سنيور ألبانيز كاتب العدل إلى جوار الفرس الطريحة وكانت فرسه. فوضع يديه على عنقها يلمس الموضعَ الذي نفذ منه سهمُ الهنود. وكان الجرح غائرًا، والفرس المسكينة تنزف دمًا جمًّا.

التفت الحاكم نحو حاجبه مغضبًا: كان الأولى أن تنتظر أمري!

فأجاب الحاجب: لكن الهنود همّوا بالقتال.

خسرنا فرسًا بسببك.

إنما كنتُ أقصد حمايتك.

فرفع سنيور ألبانيز بصره نحوه وقال: قتلتَ فرسي يا قليل العقل. وكانت عيناه الغائرتان تجعلان مسحةَ الكآبة مزية له، بيد أنهما في تلك اللحظة أنذرتا بلمسةِ جنون وهيجان.

لا، بل قتله الهنود.

وقال الحاكم: ألبانيز.. لك أن تأخذ فرسًا من خيول الأحمال.

وإن كان الكاتب كغيره من الفرسان شديدَ المحبة لفرسه، فما أسكنَ عطاءُ الحاكم سخطه، بل إنّ مما زاد غيظه أنّ الحاكم أمر بنحر الفرس وأكل لحمها. وبينما الحاكم يلتفت إلى الكاتب يهوّن عليه، سقطت كرةُ نارٍ على سقف كوخٍ قريب. ثم انهالت كراتٌ أخرى، فاضطرمتْ النار في عشرة أكواخ أو أكثر، قبل أن نفيق من ذهولنا.

هتف الحاكم: أحضروا الماء! أسرعوا!

ولشدة مباغتتنا بهذا الهجوم فإننا لم نحسن التدبيرَ كما ينبغي. فضاع الوقت حتى وجدنا دلاءً، واصطففنا ننقل الماء من الجباب إلى الدّور المستعرة بالنار. وما أن يُصب الماءُ على السقوف المشتعلة حتى يكتنفنا دخانٌ كثيف خانق فيحرق أعيننا ويعمينا. فتعالى سعالُ الرجال المكدودين، وضربُ حوافر الخيول المفزوعة، ونحيب النساء داخل المعبد.

ثم ارتفعت من بعدها صرخات رجال الأبلاتشي الذين كانوا يحطّمون أبواب المعبد ليخرجوا نساءهم وصغارهم. وانشق نفرٌ من الجند عن صفِّ إخماد النار ليقاتلوا الهنودَ، وظلّ أكثرهم يحاولون إخراجَ طعامهم ومتاعهم من الدور قبل أن تمسها يدُ النار. فعمَّ الاضطرابُ وتمادى الهرج، ولم نسمع أوامر الحاكم ما بين صراخ الرجال وبكاء النساء. فما كان من كلِّ رجلٍ إلا أن يفعل ما بدا له صوابَه حينئذٍ. أما سيّدي فعزم على القتال، وامتطى صهوة أبيخورو رغم الدخان والجلبة وأدار ناصيته نحو الهنود، فشرع يطأ كل من اعترض طريقه.

وامتنعتُ بأقرب ساتر كنتُ بجواره؛ حجرة النجارة. ورأيت على الأرض قطعَ خشب مبعثرة وحبالاً بأطوال متباينة، كأن الهنود كان يبنون شيئًا قبل أن تقطع غارتُنا شغلهم. وعلى الجدار تعلّقت المطارقُ والمناشير والفؤوس على ترتيبٍ حسنٍ، ذكرني بدكان عميّ وغمرني بالأمان. وربما كانت هذه الطمأنينة ما جعلتني أرفع رأسي أنظر فوق الجدار إلى ساحة المعركة. وسمعت أحدهم يهتف: دعوا النساء لهم... اقبضوا على زعيمهم.

وفاجئني قول الرجل، أنفذ سدادُ الرأي إلى عقول المجانين؟ قمت تجاه الصوت، ولم أرَ سهمًا هنديًا يشقُّ الهواء مسددًا لي، فنفذ في فخذي. وكان الألم بالغًا، فكأنما لهبًا تأجج في ساقي، وحبس نَفسي وأطاش عقلي. ولم أدرِ ماذا أصنع، والهنديُّ الذي رماني بسهمه يضع بقوسه سهمًا ثانيًا. فإذا بي أتناول

فأسًا وأقذفه بها، فتناثر على جلدي سائلٌ حار عرفت أنّه دم الرجل دون أن أرى، وخرّ الهندي صريعًا على الأرض.

واتّكأتُ على جدار الحجرة مذهولاً مما صنعتُ، غائبَ العقل من الألم. وأخذ الدّمُ يجري من جرح فخذي أنهارًا حتى غطّى ساقي. وسحبت السهم سحبةً واحدة، فخرج معه قطعٌ من لحم وشعر. وأتذكر أني صرختُ صرختين؛ صرخة ألمٍ وصرخة ارتياحٍ أني من الأحياء.

***

وأَسَرَ سنيور نارفاييز زعيمَ الهنود كي يضمن كفَّ رجال الأبلاتشي إيذائهم عنا، بيد أنهم هاجمونا مرارًا في الأيام التي تلت المعركة الأولى. فإن ذهبنا نجلب الماء من النهر هاجمونا، وإنْ حصدنا الذرة من المزارع هاجمونا، وإن جمعنا حطبًا لمواقد النار هاجمونا. فأمر الحاكم أن نحطّم أصنامَ الخشب التي في المعبد ونستعملها حطبًا للمواقد، وأخذ يبعث الجند بأسلحتهم لجلب الماء من النهر أو لحصاد الذرة، وأقام حرسًا مسلّحين ببنادق وقربينات عند كل مداخل الأبلاتشي.

أما جرح فخذي فعُنيتُ به، وصرتُ أغسله وأضمّده بخرق نظيفة بعد أن أغليها بماء فيه قطع صغيرة من جذع البلوط. وقد رأيت خالتي تداوي به عميّ متى ما جُرحا وهم ينجران. وشكرت الله شكرًا كثيرًا أن بقينا في الأبلاتشي بعدما أصبتُ، وتالله لم أكن لأسير على تلك الساق فرسخًا واحدًا، ناهيك عن الخمسة أو الستة فراسخ التي نقطعها كل يومٍ في مسيرنا. فصنعتُ لنفسي عصًا، وصرت أعرج وأنا أقوم بأشغالي من طبخ وتنظيف وخياطة.

أما بقية رجال الحملة فكانت خسارتهم أفدح. فمات منهم تسعةٌ في المعركة ضد الهنود، وتُوفي ثلاثة إثر جراحهم بعد أيام. ودفنوا في مقبرةٍ صغيرة على

تخوم الأبلاتشي، وقد عُهد لأصغر الرهبان الأب أنسيلمو، وهو الذي صار أثيرًا بين الرجال، بمهمة تأبينهم والصلاة عليهم. وكان من عادةِ الأب أنسيلمو الجلوسَ بين الجنود بعد انصراف إخوته الرهبان إلى دارهم عقب انتهائهم من قُدّاس الصبح. فيعزف على الكمنجة بأصابعه الطويلة ألحانَ الريف والقرى، ما كان منها شجيًا أو مفرحًا. فلمّا يصغي الجنودُ إلى صوت كمنجته، ينسون هنيهاتٍ شقاءهم وتعبهم، وخوفهم ومرضهم، وينسون الذهب المفقود، والطريق المسدود، وتربّص الهنود.

لكن متى ما كفّ العزف وعاد كلٌّ إلى عمله، تذكّر الرجالُ حالهم. فيكثر الخلاف على صغائر الأمور، أمور ما كانوا يبالون بها لمّا كان الأملُ يحدوهم والمسير يشغلهم، فأصبح لها لمّا استقروا أعظمَ شأن؛ مَنْ يسكن في أحسنِ دار؟ مَنْ ينال نصيبًا أكبر من الطعام؟ من يرث درع ميتٍ أو حذاءه؟ فقضى مبعوث البابا جلّ وقته يحكم بين الرجال، ويفضّ النزاع، ويحاول إحلال السلم ما استطاع.

أما الحاكم فكان غيرَ حاضر لهذه الأمور، لأنه منصرفٌ إلى استنطاق كماشا زعيم الهنود، وإخراجِ الطلائع يفتّشون ما حول المدينة. حتى كان ذلك المساء، حين دعا المبعوثَ وقادة الجند للقائه في معبد الهنود. وكان الهواء بداخله باردًا بعد رعود وأمطار دامت طول النهار، فتجدد الهواءُ وولّى الذباب والبعوض. وقد نُصب صليبٌ عظيم من خشب غير أملس على جداره الشّمالي، حيث كان موضع الأوثان. أما القفتان الكبيرتان اللتان كانتا على المنصتين فأُزيلتا، وظلّت علامتان داكنتان مكانهما على الحصير. ولمّا كان الحاكم قد فقد الشمعدانين الفاخرين في أحد المستنقعات التي جاوزناها، فقد وضع خادمه مشاعل من خشبِ لينير مائدة سيّده. وقدّم لحمَ الأرانب المشوي وفاصولياء مطبوخة وذرة حُصدت في ذلك اليوم. وكان الطعام

لذيذًا وإن قلّت أصنافه عما يقدّم بالعادة في مجالس الحاكم السابقة. وبينما القادة جلوس على المراتب ينتظرون أن يشرع الحاكمُ بالحديث، كنت أقف عند الجدار أخدم سيدي، فإما أملأ كأسه أو أبعد صحنه.

ووقف الحاكم. وكان يضع قميصًا رماديًا بليتْ أطرافه واصفرّت، وثمة ثقب في سرواله فوق ركبته اليمنى. قال: أيها السادة، أنبأني زعيم الهنود كماشا أنّ الأبلاتشي مملكةٌ بمدنٍ شتى، ولكن ليس منها أكبر ولا أغنى من هذه التي نزلنا بها، بل إن تلك المدن أفقر وأحقر. ولكن على بعد مسيرة ثمانية أيام في جهة الجنوب مدينةً اسمها آوتي، وهي أقربها إلى البحر وفيها الذرة والفاصولياء والسمك. وإنّي عازمٌ على السير إلى آوتي، فأبعث منها فرقةَ جنود إلى ريو دي لاس بالماس. وكما قلتُ فإنها مدينة ساحلية وبها مخازن وافرة الطعام، فنستطيع البقاء فيها قدر ما نشاء حتى نبعث إلى مراكبنا. ولّما نركبُ سفننا، نبحر بطول الساحل حتى نجد مرسى أفضل من هذا نستقرُّ به.

فدعا الحاكمُ القادةَ إلى إبداء آرائهم. وفكرّتُ أن طلبه المشورة من كبراء الحملة هو أحسنُ ما فيه، وأن رفضه إنفاذ مشورتهم هو أسوأ ما فيه. وهكذا عمّ الصمتُ المعبد، فلا تسمع إلا قعقعةَ الملاعقِ أو صرير السكاكين، حتى كان سنيور كاستيو هو أول المتكلمين كالعادة. فقال: أرى أن رأيك بالرحيل عن هذه المدينة هو الصواب بعينه، لكننا عجّلنا بالدخول إلى الأبلاتشي دون الاحتراز من المخاطر، فلنتعلم من خطأنا ولا نعجّل بتركها دون احتراز ولا حرص.

فأجاب الحاكم: نعجّل؟! نحن هنا منذ ثلاثة أسابيع يا كاستيو.

أنى لنا أن نثقَ بقول زعيم الهنود؟ إنه يريدنا أن نرحل عن مدينته، وسيقول أي قولٍ يعجّل برحيلنا.

إن نائبه قال مثل قوله. وكذلك فعل الخادمُ الذي أُسر معهما. أتراهم أجمعوا على أن يقولوا قولاً واحدًا قبل أسرهم؟ أغاب عنك أني استنطقتهم وهم متفرقون؟

فتلفّت سنيور كاستيو ينظر إلى وجوه مَن حوله يريد من يوافقه الرأي، وهم وإن أيّدوه ما كان أحدهم يجرؤ على قول رأيه الصريح للحاكم، فرضوا أن يتركوا له حبل الجدال والجزاء عوضًا عنهم. فارتفع صوته وقال: إنّ اجماع الثلاثة ليس دليلاً. أنسيتَ أن كل الأسرى الذين سألتهم قالوا إن في الأبلاتشي ذهبًا عظيمًا؟ ونحن الآن نرى كذبهم. أرى أن نرجع إلى الساحل كما رأيتَ، لكننا لن نسير في الطريق الذي أخبر به الأسرى.

فقال الحاكم: لقد أرسلتُ ثلاث طلائع ولم تجد أيها طريقًا أقصر لبلوغ البحر.

ولهذا أشرتُ عليكم ألا نخلّي المراكبَ ونتوغل داخل البر!

إنّ من السهل أن تعيب بخطةٍ لستَ واضعها. بل إنك تعمد إلى مخالفتنا الرأي يا كاستيو مذ أرسينا في هذه البلاد، حتى إنني أخشى أن أحسبك متمردًا.

ارتّج الجمع لسماع التهمة، فأشاح القادة وجوههم عن سنيور كاستيو، كأن الاتهامَ سيدنّسهم. ولم يهرع أحدٌ لنجدته إلا سنيور دورانتس الذي قال: يا دون بانفيلو، إنما أراد كاستيو إبداء رأيه لا غير، كما سألتنا أن نفعل.

وزاد سنيور كاستيو على مضض: ما قصدتُ يا دون بانفيلو منازعتك في سلطتك، والأمرُ أمرك.

فأجاب الحاكم: وإيّاك أن تنسَ أن الأمر أمري.

ولما رُفع نصل التهمة عن عنق سنيور كاستيو تبدّد السكون. فتناول

المبعوث جوزةً من وعاءٍ وسط المائدة، وفَلَقَها بمقبض سكينه.

وقال سنيور كابيزا دي فاكا: إن أسلمَ سبيل للرجوع هو العودة إلى بورتيو والمسير منها إلى الساحل. وقد أخبرنا كبيرُ الربابنة أن المرسى لا يبعد عن تلك القرية أكثر من عشرين فرسخًا.

لكن سنيور دورانتس اعترض: لا.. ليس لدينا من المؤن ما يكفي للعودة إلى بورتيو.

فرفع الخازن عظمةَ أرنب من طبقه كأنه يعرض برهانًا، ثم قال: إن الغزلان والأرانب والطيور وافرة للصيد...

وإن لم يكفِ طعامُ الصيد رجالَ الحملة كلهم؟ أتريد أن ترى ثلاثمئةَ رجلٍ يتنازعون اللحم بينهم؟ إن أردنا الرجوع إلى الساحل بسرعة فإننا نحتاج إلى مؤنٍ تكفينا ستة أسابيع بأقل تقدير.

إذًا ماذا ترى يا دورانتس؟

فلنجد طريقًا أقصر إلى الساحل.

فتبسّم الحاكم وقال: ولهذا أرى أن نقصد آوتي. وهي على مسيرة ثمانية أيام من هنا. اعتصموا بالصبر أرجوكم. فإذا وصلنا إلى السفن حاذينا الساحل حتى نجد أفضل موضع للتوطّن. ولن أنسَ من كان منكم خادمًا لجلالة الملك بولاء.

ونظر الحاكمُ إلى الخازن سنيور كابيزا دي فاكا يقصده بالكلام ويحثّه على تأييده، لكن الخازن ظلّ ساكتًا ولم يرفع عينيه عن طبقه، كأنه يخشى إن أيّد رأيَ الحاكم الجديد فأبدتْ لنا الأيامُ مثالبه أن يناله من اللوم نصيبٌ. وإن لم تجد هذه الخطة عظيمَ استحسانٍ لدى القادة فإنها أهونُ من البقاء في الأبلاتشي التي صار العيشُ فيها غيرَ محتمل. وكيف نبقى في مدينة يريد أهلها

استرجاعها؟ والهنود وإن خافوا البنادق والبارود وانعدمت حيلتهم إزاءها، فإن ذخيرتنا ستنفد يومًا. وعندها كيف سيكون حالنا؟

وختم الحاكمُ المجلسَ بقوله إنه سيدعو السادة والقادة بعد يوم أو يومين، بعد أن يفكّر جميعهم بما ينبغي فعله. ولكن ما أن أشرق صباح اليوم الذي تلاه، وبينما كنا نتناول إفطارنا، بعث الحاكمُ حاجبه يبلغ القادة أنه بتَّ في الأمر ورأى ضرورةَ المسير إلى آوتي. فكان أن سرتُ وراء سيّدي مرّةً لا أعرف عددها، إلى جهة لا أعرف ما هي، ووراء حاكمٍ وإن كانت له عينٌ واحدة يرى بها فإنه أعمى الرجالِ.

8
حكاية إشبيلية

وصبّت في أذنيّ أصواتٌ من حولي، تعلو تارةً وتارةً تنخفض. عبيد مصفّدون يتكلمون بألسنة شتى؛ هذا يسأل عن حال عمٍ له، وذاك يسكّن روع طفل، وأولئك يتنازعون كسرةَ خبز عفنة. وما بين كلمات البشر علا ثغاء الماعز من مرابطها. أما أنا فاشتملت بالصمت كعباءةٍ تلمني وقت تبعثري، وأظنني كنتُ أحاول أن أفهم ما فعلتُه. فكنت أقضي ساعات أفكر بالوقائع التي حملتني من المتكآت الوثيرة وعزف الكمبري في احتفال ختم القرآن، إلى المقاعد الخشب وصليل القيود في الطابق السفلي من الكارافيل هاسنتا، الذي ركبناه فقطع بنا عرض البحر إلى مدينة إشبيلية. وقد كان كلُّ ما وقع بفعل يدي لا بيد بشر غيري، فأنا من قَرّر وعَزَم وفَعَل، دون إكراه ولا إجبار. وأنا مع ذلك متعجّب مما آلت إليه الأمور، وسبحان مغيّر الأحوال. فاليوم تبيع العبيد، وغدًا تُباع عبدًا.

وقد أسكن الجوعَ الذي أضوى جسمي في أزمور خبزٌ يابس يوزّعه البحارة مرةً في اليوم، وحلّت مكان الجوع أحاسيسٌ وآلام ثانية لم يسكت عنها جسدي. فكان رأسي يحكّني من قملٍ بعثه إليّ جاري الجالس بجانبي؛ وكان شيخًا على وجهه أثر الجدري. وأما ملابسي النجسة فالتصقت بجلدي لأني عجزت عن قضاء حاجتي، بأمرٍ من البحارة وتحت أعينهم ودون سابق إنذار، في دلوٍ يمررونه بيننا مرتين كل يوم. وساقاي وذراعاي تصلّبت من الجلوس الطويل في الرطوبة والضيق. وحلقي ملتهب، وقدماي منتفختان،

ومعصماي ينزفان. وفوق كل ذلك فإنّ قلبي قد تولّع شوقًا لأهلي.

أهلي. كلهم رضوا بأقدارهم وسلّموا أرواحهم للمكتوب. أختي التي قضت صباها ترعى التوأمين دون شكوى، ولمّا طلّقها زوجها رجعت إلى دارنا دون اعتراض. وأخواي يقصدان الجامع كل يوم للدراسة كي يحققا حلم أبي الذي هشّمته أنا وناولتهما القطعَ كي يلصقاها. وأمي هاجرتْ مع أبي إلى أزمور، تاركةً أهلها وأحبابها ومدينتها التي لا تعرف غيرها.

أما أنا فكان قدري هو معاندة قدري. ولعلني أتحداه الآن فأجد سبيلاً يعيد إليّ حياتي. وهذا أمرٌ ليس عسيرًا، فأكبر أولاد الديب الذين استأجروني في أزمور قد وُلد لأَمَةٍ، ثم اشترى رقبته شابًا. فلعلّني أفعل هذا. أو لعل سيّدي يرى حذاقتي فيسمح لي أن أشتري حريتي، أو تمسُّ تعاستي شغافَ قلب مسلمٍ أندلسي، فيعتق رقبتي ابتغاء مرضاة الله. ولم أجد ما أغلب به خوفي إلا الأمل، فأوثقتُ نفسي بحباله، فكانت أثقل من أي معدن قُيِّد به بشرٌ.

ولمّا أقنعتُ نفسي بأن عبوديتي لن تدومَ طويلاً، بتّ أدبّر كيفية النجاة منها. فعلّمتُ نفسي تجاهلَ نتن الغائط، وأنين الهذيان، ومرأى العورات. وتعلّمتُ أن أبتلع القيءَ فلا يبلغ حلقي. وحاولتُ أن أتنبّه من قرض الفئران. ولم أنم إلا غلبني تعبي الشديد. وأزجيت وقتي بالإنصاتِ إلى قصص النساء لصغارهن، بعد أن يتركنا الحرسُ وتُقفَّل الأبواب. ففي ظلمة الطابق السفلي أحيتْ النساء عالمًا من نسج الخيال، تحتال فيه البناتُ الداهيات على الغيلان الجائعة، وينجدُ الإسكافيون الفقراء السلاطين الأقوياء، حتى رأيتُ في الحلكة أنيابَ الغيلان ونعال السلطان المطرّزة.

حتى كان صباح يومٍ أُسقطت فيه المرساة وارتجّت ألواح المركب من تحتنا. أصغتُ السمعَ لخطواتِ الأقدام في الطابق العلوي. أهذا كاتب المكوس

يصعد السفينة يحيي الربان؟ أهذا عامل التفريغ يستعلم عن البضاعة؟ ثم فُتح باب الطابق الذي كنّا فيه، فهبّت ريحٌ باردة التقتْ بسخونة خانقةٍ وصمت مرتعب من مئتي نفس. ومرّ البحارة علينا صفًا صفًا، فحلّوا قيودنا وساقونا إلى أعلى.

ولّما بلغت ظهر السفينة أعماني نورُ النهار الوهّاج، فتعثرت في مشيي كالسكران، غير أنّي بعد ثلاثة أسابيع قضيتها في ضيق ذلك القبر المكتوم تقتُ إلى برد النسيم وصحة الهواء، فأبعدت كفيّ عن وجهي. فإذا بإشبيلية تفوح منها رائحة السمك والأغنام، وكذلك رائحة دخانٍ من الميناء، وإن كان هواؤها غير مالح. واقشعرّ جسدي من برد الصباح فلففتُ جسدي بذراعي، مع محاولتي الوقوف ثابتًا على قدميّ. وبعدها فتحتُ عيني.

كان الرجال من حولي ملثمي الوجوه بمناديل ملونة لم تظهر منهم إلا أعينَهم، يحملون عصيّ طويلة يدفعونني بها إلى طريق الخروج. ولما نزلت من سلم السفينة الممدود من حبالٍ، رأيتُ أننا محمولون على نهر واسعٍ مطّرد كأمّ الربيع، وإن اختلف صوت أمواج هذا النهر وهي تضرب جانبيّ السفينة. وعندما سألتُ لاحقًا عن اسم هذا النهر قيل لي إنه الوادي الكبير،[1] فسّرني لفظه العربي، واستقبحت نفسي لأنه ذكّرني بحالي المخزي. ولم يكن لإشبيلية رصيفٌ في مينائها كالذي في أزمور، فاحتملونا على ظهور القوارب إلى شاطئ النهر. والسماء من فوقنا زرقاء صافية، وأنا أرى من السفن حولنا الصواري السوداء والأشرعة البيضاء.

وعلى الضفة وقف رجلٌ يخفي وجهه بمنديل أصفر يفرّق بين العبيد فيجعلهم فريقين؛ الأول فيه الأصحاء والأقوياء والشباب، أما الثاني ففيه العجزة والضعفاء والشيوخ. وبلكزةٍ من عصاه في جنبي، أشار أنْ الحق

1- تُنطق بالإسبانية (Guadalquivir) وهو تحريف عن اللفظ العربي المذكور.

بالفريق الأول. وكان الميناء يضجّ بأصوات الناس من بحارة وعسكر وحمّالين وكتبة، يعجّلون الخطى منصرفين إلى أشغالهم. وأتذكر مما رأيتُ أن رجلين واقفين بجانب صناديق ضخمة كانا يتجادلان، فأمسك أحدهما بتلابيب الآخر. وبيوت المدينة من وراء الميناء بيضاء مربّعة، وأهلوها يستيقظون في تلك الساعة من سباتهم. والعربات تصرصر والخيول تخبُّ على شوارع من حجر. فرأيت في خيالي أبًا في أحد البيوت يجلس للإفطار مع أسرته. وفي بيتٍ آخر، تشرب طفلةٌ الحليب. وفي ثالثٍ، يغلق الأخُ البابَ من خلفه منصرفًا إلى عمله. وفي الميناءِ، أقف أنا كي أُباع مرّة ثانية.

وكما يجمع مزارع بيض الدجاج أو خبّازٌ الأرغفةَ، جمع رجل على وجهه منديل أحمر اثني عشر عبدًا، كنتُ واحدًا منهم، ثم ربط يديّ الواحد منا بالآخر بحبل غليظ، وساقنا بعيدًا عن الميناء. وشقّ علينا السير وطال بعد أسابيع الجوع والفتور. فكلما وقع أحدنا توقفنا لنعينه على القيام، ومع ذلك لم تلفت مسيرتنا التعسة أنظار الناس لا اهتمامًا ولا فضولاً، فكانوا يغدون ويروحون دون توقف. ولما انعطفنا من أحد الأزقّة، رأيت برجًا هائلاً كأنه مئذنة، فسألت الرجل ذا المنديل الأحمر عن اسم ذاك البرج، وقال دون أن ينظر إليّ: الخيرالدة. وقد سمعت عن الخيرالدة منذ سنين، وأن سلاطين الموحّدين بنوه شبيهًا بجامع الكتبية في مراكش، وكنت آمل رؤيته يومًا ولكن ليس على هذه الهيئة.

وبعد أن جاوزنا الخيرالدة وقفنا أمام صرح عظيم، ذي أبواب خشبية وواجهة بديعة الحسن. وبينما نحن نصعد درجات الرخام زلّتْ قدمُ رجل من جماعتنا، فوقع ووقعنا فوقه. وهزّ النخاس رأسه استياءً من التأخير الذي سبّبناه، وقد زاد بطء حركتنا أعباء يومه الشاق. فقام الرجل الذي وقع، وتحسّس بيده سنه المكسورة وشفته الدامية، وشدّ النّخاس الحبل في غلظة

وساقنا نحو مدخل ذاك الصرح.

فأُحضرنا أمام رجل من أئمة النصارى، وكان أبيض مُشربًا حمرةً ذا عينين زرقاوين، يتكلم بلسان عتيق لم أفهمه، ولم أعرف نسقًا للكلمات التي انصبّت من فيه، وإن أصغيتُ إليه كي ألهي نفسي عن التفكير بجوعي وظمأي. وكان الرجل يلبس مِسحًا شديد البياض مطرّز الأطراف. وثمة فرجة وراءه يغطّيها زجاج ملوّن، فاتّخذ الضوء الذي يمر منها ألوانه، فصار أحمر وأصفر وأزرق. وإن كان ديني ينبذ تصوير الأرواح فإني ما استطعت صرف بصري عن المرأة البيضاء التي تحمل طفلاً بين ذراعيها، ومن حولها رجال في أحسن الحلل، كأنهم منصرفون إلى حكاياتهم، ناءون عن دنيانا النجسة، غير مبالين بما يجري أمام أعينهم.

وكنت في أسرتي أطولهم، فاعتدتُ خفض رأسي كلما عبرت باب دارنا، وثني ركبتيّ إن قعدت على الأرض بجانب عميّ. لكني في تلك الكنيسة عالية السقف استشعرت ضآلتي وعجزي، ويداي موثقتان ومربوطتان بعبيد عن يميني وشمالي. وإن حرّك أحدنا يديه أو قدميه ليجد موضعًا أكثر راحة جرّ النخاسُ الحبلَ، فأعاد المارقَ إلى الصف. ثم أغلق القسّيس كتابه ووضعه بحرص على طاولة بقربه. فأومأ إلى النخاس ودفع هذا أول الواقفين في الصف، وكانت امرأة جاحظة العينين واسعتهما. ورفع القسيس كفه ورشم صليبًا على الهواء أمام وجهها وصدرها. فحِرتُ في معنى فعله، وحدقت فيه وهو يكرر ذلك مع كل واحد منّا. ولم أفهم معنى العلامة على أجسادنا إلا بعد زمن طويل. فقد ولجتُ الكنيسةَ وأنا عبد الله مصطفى بن محمد بن عبد السلام الزموري، وخرجت منها وأنا إستبان. إستبان فقط.. غيّروا نسبي وديني في حركة واحدة.

وساقنا النّخاسُ خارج الكنيسة، وغطّى أنفه بمنديله الأحمر كيلا يشمّ

نتن سجنائه، ومشى متعجلاً كمن أضاع من يومه الكثير، فأعادنا إلى الميناء وأدخلنا في حجرةٍ يحرسها كلاب. ولم أجد سببًا لحراسة الكلاب لنا، فقد اشتدّ بنا الجوعُ والتعب فلن نقدر على الهرب ولو أردنا. وانشقّت عنّا النسوة الأربعة فأوين إلى الطرف البعيد من الحجرة. وكابدتُ مشقةً في فهم كلامهن لأنهن يتكلمن لسانًا من ألسنة التامزيغت لا أعرفه، لكني فهمت أنهن بنات فلاحين أضرّ بهم القحط ضررًا عظيمًا. وأخبرني رجلان ممن معنا أنهما من غينية، وأنهما بيعا في سوق النخاسة هناك، ثم نُقلا إلى أزمور ومنها إلى إشبيلية. ولما دنا وقت المغرب أحضر لنا رجلٌ أواني فيها حساء بارد، فسمّى كل منّا اسمَ الله على الطعام بلسانه وعادته ثم التهمناه.

واستلقيت أحاول النوم على حشيةٍ، وأنا أعرف أنها ستصيبني غدًا بطفح في جلدي. لكن النوم هجر عيني. وسمعت صوت الوادي الكبير من بعيد، ففكرت بيحيى الذي لا يعرف العوم رغم محاولاتي تعليمه. ولم يفلح قط في قهر خوفه من الماء، فكان لا يسبح في أم الربيع ولا يخوضه بقدميه. وكم مرة أغاظه يوسف لهذا السبب، وكنت أحاول أن أحميه من سخرية الصبيان به وهم يعومون في النهر، فكان لا ينفك يبكي. فلما وافق الأمرُ موسم تزاوج سمك الشابل، والسمك يطير فوق الماء، حاولتُ أن أصيده كي يرى يحيى صنعي فيجرؤ على الخوض. لكن حراشف السمك الملساء تزلقه من بين يدي فلم أنجح. أترى يعلّمه يوسف ما لم أفلح في تعليمه؟

لم ألمس من تلك المدينة إلا فزعًا واضطرابًا، وإن سمعت صوت النهر الساكن. فتقلّبت في فراشي معظم الليل حتى عرفت ما الذي يجعلها ميتة فارغة، وهو أني لم أسمع بها رفع الأذان. ففي كل أعوام حياتي في أزمور كنت أسمع صوت الأذان خمس مرات في اليوم؛ فصلاة الفجر توقظني من النوم، وصلاة الظهر تؤذن بالأكل والراحة، وصلاة العصر تنعشني بعد

غفوة طويلة، وصلاة المغرب تختم عملي وتوصلني إلى أهلي، وصلاة العشاء تسلّم روحي إلى بارئها. وأنا الآن وحيد في الدنيا. ما بيدي ما أمنع به عَبراتي من أن تجري من عينيّ إلا بدعاء صادق صامت لربي، حتى احتجبت عيناي بلذة الرقاد.

***

داماس إي كابيروس،[1] هذه سلعة حسنة. زنجيٌّ من أزمور، عمره ما بين العشرين والخمسة وعشرين. طويل وعريض الكتفين. هزيل قليلاً لكنكم ترون من هيئته شدة قوته. أسنانه جيدة. ولا تخيفكم اللثة المتلونة، فالمغاربة ينظفون أسنانهم بجذر الجوز، فتترك في أفواههم لونًا أصفر. وماذا بعد؟ دعوني أرى... مكتوب في السجل أنه كان يعمل مع تجار، وأنه يتكلم البرتغالية ويجيد بضع كلماتٍ بلساننا. ثمنه بخس يا سادة... خمسة وعشرون دوقتًا. خمسة وعشرون دوقتًا!

***

وتسارعت أنفاسي خوفًا برؤية منصة النخاس، وإن كنتُ أعلم أني ما وصلت إليها إلا بجنايتي على نفسي. فاختلط صياح الدلّال بضحك الأطفال ونباح الكلاب وطرق المطارق، فكانت أصواتًا متنافرة بدأت قبل وصولي وستظل بعد رحيلي. وكان ثمة عازف يعزف على الناي، لكن براعة الألحان لم تُخفِ شناعة المكان. فصرفت بصري إلى دكان حدادٍ إزاءنا، فانعكس وهج الشمس على صفائح المعدن المنصوبة، فأشحت بوجهي. ونظرت فإذا بطفل في ملابس سوداء يحدق بي، فخلع طاقيته يريد أن يدقق النظر إليّ، فإذا بأمه

1- سيداتي وسادتي.

تعيدها إلى رأسه، ثم تقول ساخطةً: بور ديوس![1]

ورأيت على وجنات كثير من الأرقاء الذين ينتظرون دورهم وسمين؛ أحدهما بهيئة أفعى ملتوية والآخر صليب. فاجترأت على سؤال امرأة أندلسية سمعتها تحادث ابنتها همسًا بكلمات عربية عن معنى وسم وجهها. فنظرت إلى وجهي في عجبٍ وقالت: إسكلافو.[2] ولما أدرت ناظري في جمع السوق رأيت أنه لم يكن على وجوه السود أي وسم. ففي إشبيلية، كان سواد جلودهم، وسواد جلدي، وسمًا كافيًا.

وسِيقَت فرقتي إلى منصة للعرض أمام الناس. كلٌّ منا، مشترون وعبيد، ننظر إلى بعض ونتفرس في الوجوه. فأما المشترون فيبتغون عبيدًا أو إماء يعينونهم على قضاء حاجاتهم؛ إما خدمًا أو أُجراء في مزرعة أو حمّالين أو جواريَ. وكلهم يريدون أحسن صفقة، يريدون الأقوى من العبيد، والأجمل من الإماء، وأصحها بأقل مبلغ من المال. أما العبيد والإماء فيعاينون المشترين، يفتشون بينهم عن السيد الأيسر جانبًا والأقل طمعًا والأرفق عشرةً، وإن كانت تقديراتهم ليس ذات قيمة.

وارتفع صوت الدلّال عاليًا قويًا، كصوت منادي المدينة في أزمور. وجعلت أفكر كم مرةً رأيت العبيد في سوق مدينتي. وما فكرت قط بأولئك الرجال والنساء، وما فكرت قط كيف آلت بهم أقدارهم إلى الأسر، وما اهتممت قط بمَنْ خلّفوا في بلادهم، ومن يشتاق إليهم ويدعو الله أن يردّهم سالمين. بل إني كنت أمرّ فأراهم ثم أمضي إلى شأني، إما أوصل شمعًا إلى تاجر أو أبتاع طحينًا لعشائنا. حتى كان اليوم الذي بعتُ فيه عبيدًا بسبب طمعي في الذهب. ثم صرت واقفًا على تلك المنصة كي أُباع، والناس من حولي

1- رباه!

2- أَمَة

منصرفون إلى شؤونهم غير مبالين بحالي.

وبيع أول رجل في جماعتنا، ذاك الذي زلّ على درج الكنيسة، بأقل من عشر دوقتات. جرّه فلاحٌ قذر الهيئة من المنصة، ورأيت بعين خيالي اشتغاله بأعمال تكسر ظهره، وفَضْلَ الطعام الذي سيُلقى إليه، والزريبة التي ستكون مرقده. وحاولت كبح خوفي. لعلّني أكون أوفر حظًا. لعلّني أنال سيدًا أفضل.

وبدا الامتعاض على وجه الدلال بالثمن اليسير في أولى صفقاته. فشرّد الذباب عن وجهه ونادى أولى النساء الأربعة في جماعتنا أن تقدّمي. فإذا به يرفع ثوبها فيكشف جسدها، ثم يأخذ أحد نهديها في راحة يده، ويصف محاسنها، فأثنى على صباها وسلامة بدنها واستطاعتها حمل الولد. والمرأة متجللة في خزيها، مطرقة ببصرها إلى الأرض، والصبيان في جمع السوق يهتفون ساخرين، والبنات يلمزن ضاحكات. فحمدت الله حمدًا كثيرًا في تلك الساعة أني ما وُلدتُ امرأةً، ولم أنل من الذل ما نالته تلك المسكينة.

أما بعدها فصبية صغيرة كانت تخطّ التراب بعصا قبل بدء المزايدة. وقال الدلال إن فيها أمارات الخادمة النجيبة، فلا هي بالكبيرة فيعسر تعليمها ولا بالصغيرة فيشتغل سيدها برعايتها. ولربما أرادت البنت أن يكون لها شأن في هذه البيعة، فاستقامت على أطراف أصابعها وشرعت تدور وتدور مبتسمةً. فضحك الدلال ونادى بسعرٍ، لكنه أخفضه مرتين حتى رفعت يدَها المرأةُ التي يلبس ولدها طاقية.

وتذكرت على غرة فعلَ التجار في أزمور إذا وصل المدينةَ حملٌ من القطن أو الزجاج أكثر مما يحتاجون إليه. فإنهم كانوا يحفظون السلع في مخازنهم دون إشهارها، كيلا تنخفض الأسعار باستفاضة البضاعة. كانوا يقولون إنه كلما قلّ ما يدفعه المشتري مقابل بضاعةٍ اشتراها زاد استرخاصه لها. وإنّ

الخجل ليدركني وأنا أعترف هنا أني لمّا رأيت كيفية شراء العبيد والإماء الذين سبقوني فإني اعتدلت في وقوفي، وحاولت أن أبدو سليم الجسد خاليًا من العيوب. ثم حان دوري، وصوت الدلال أجش من الصراخ والهتاف. فقال: هذه سلعة جيدة! والحبل قد مزّق لحم يدي، ولكني لم أشرّد الذباب عن موضع الدم كيلا يتنبه الناس إليهما. فرفع مشتريان يديهما، فأخذ الدلال يذرع المنصة ويدور حولي، تارةً يشير إلى كتفي وذراعي، وتارةً ساقي، فيرتفع السعر أكثر فأكثر. فكان الرابح في المزايدة تاجرًا اسمه برناردو رودريغيز، قضى ربي أن أقضي معه الأربع سنوات ونصف من سنيّ التالية. لما صرت في حوزته، سأل الدلالَ أن يفكّ وثاقي. فأنذره هذا أني قد أهرب.

وأجابه رودريغيز: هذا إِل مورو؟ انظر إليه... لن يستطيع الفرار.

***

وكان برناردو رودريغيز في نظر الناس رجلاً حسن الأخلاق. ينصرف إلى عمله كل يوم تلاحقه دعوات طيبة من زوجته دوروتيا، تطلب من الإله أن يبارك فيه. وفي دكانه إن جاءه مشترون شرع يحادثهم، ويسأل عن صحة عمّة فلان، وحال ابن فلان المسافر. وفي باحة بيته المظللة، كان يلاعب أطفاله الثلاثة إيزابيل وسانشو ومارتين، فيدعهم يركبون ظهره وهو يدور بهم حول فوّارة الماء الصغيرة. وفي الكنيسة، كان يغني بصوت حسن، ويُؤمّن آمينًا صادقة كلما دعا القسيس. ولكن كان في رودريغيز عيبان هما غاية القبح، وبسببهما اضطر إلى بيعي. وسوف آتي على ذكر ذلك فيما بعد.

ولد رودريغيز وشبّ في إشبيلية فكان يعرف كثيرًا من أهلها. وظلّ لأعوام طويلة تاجرًا صغيرًا، يكدح في طلب رزقه في دكان ضيّق مثل دكاكين القيصرية في أزمور، وما كان يحتكم على شيء إلا بضع لفائف من مخمل رديء النسج. لكن رودريغيز رجل ذو مطامح، فكان يرقب المراكبَ

المحمّلة بخيرات بلاد الهند الغربية، وهي الأرض التي اكتشفوها للتو في آخر أصقاع الإمبراطورية، ويحلم بالثروة التي تكتنزها. وقد شهد مرةً من برج الذهب[1] أحمالًا عظيمة من الذهب والفضة والأحجار الكريمة مجلوبة من المكسيك، والرجال يفرغون في ثلاثة أيام ما بجوف كارافيل واحد فقط. وفيها من السلع الأخرى الشيء الكثير؛ بضاعةٌ يستطيع الموسر أن يشتري منها ما يشاء: أقطان وثياب منسوجة، ومطرّزات فاخرة، وتحف صغيرة، وأطعمة عجيبة.

فحدث أن لقي رودريغيز يومًا وهو يسير في محلّة إِل أرينال رجلاً اسمه كريستوبال دياز، وكان هذا صاحبه الذي لم يره منذ نحو عشر سنين، عندما كانا حدثين همهما النبيذ الرخيص والنساء الأرخص. فكبرا وهجر رودريغيز حياة اللهو وتعلّم التجارة عند أحد التجار، أما دياز فصار يتنقل بين الحوانيت، حتى شاع أمر فساده فهجر المحلّة. فكان عجب رودريغيز بالغًا أن رآه بعد أعوام في أحسن ثياب، ورأى في مظهره سيماء الجنود. فسأله رودريغيز: أين كنت فيما خلا من السنين؟ فأجاب دياز: إسبانية الجديدة.

وشرع يحدّث رفيقه عن أسفاره إلى جزر لا إسبانيولة وكوبة، وأنه كان من رجال الحملة التي رحلت إلى كماغواي، وأسرت زعيمًا هنديًا يُدعى هاتواي. لكنّ ما شهده دياز من مجازر في بلاد الهند قلبتْ حاله وأعادت إليه صوابه، فعزم أن ينقطع إلى الترهّب في أخويّة الرهبان الفرنسيسكان. وقد حضر إلى إِل أرينال لأنه يريد التخلص من حمل قطنٍ تكفيرًا عن ذنوبه. فابتاع رودريغيز الحِمل بأتمّه بعشرة آلاف مرافيدي، وباعها بخمسة أضعاف ثمنها لتاجر من طليطلة، فكان مكسبه ما أمكنه من المتاجرة بالبضائع الهندية. وكان ذلك

1- بالإسبانية (Oro del Torre): وهو برج حراسة بناه الموحدون على نهر الوادي الكبير لمتابعة دخول السفن التجارية وخروجها.

في عام ثمان وعشرين وتسعمئة من الهجرة. وقد تضاعفت تجارة رودريغيز ونمت، فما إن مرّت ثلاثة أعوام حتى عزم أن يشتري لنفسه عبدًا.

فكنتُ أنا ذلك العبد.

وتبعت رودريغيز إلى بيته في حارة اسمها تريانا، فنادى زوجته لترى السلعةَ الجديدة التي اشتراها. برزت دوروتيا رودريغيز من باب غرفة الطعام، وكانت تلبس قميصًا أسود حاشيته بلون الرماد. فوقفتْ تنظر إليّ والعجب يطل من عينيها الزرقاوين، وسُبحَة طويلة تتدلّى من أصابع يدها اليمنى. فزمّت هذه المرأة شفتيها وقطعت عرض الفناء فوقفت إزائي، ثم غطّت بيدها أنفها بعدما شمّت رائحة ملابسي النجسة. وقالت لزوجها: برناردو... ماذا فعلتَ يا برناردو؟

وماذا ترين إزاءكِ؟

أتستطيع تحمّل ثمنه؟

لم أدفع إلا خمسًا وعشرين دوقتًا.

ما خطبك يا برناردو!

إن كنتِ تقصدين أنه أعيده إلى صاحبه فلا أستطيع.

لكن هذا فمٌ آخر علينا إطعامه.

لا عليك من هذا الأمر.

أتدري إن كان عمّده قسيسٌ؟

نعم تعمّد. واسمه إستبان.

وتريد تركه هنا؟

أجل.. وإلا فأين أبقيه؟

وكيف نجعله معنا والأطفال هنا؟

سأحبسه عندما يحلّ الليل إن كان في ذلك راحة لبالك.

وكنتُ قد أخفضت بصري لما رأيت سيدة البيت مقبلة، لكني ما لبثت أن رفعت رأسي أنظر إليها. فكانت تضمّ يديها على صدرها وتضع ذقنها عليهما، وظلّت تنظر إليّ تراقبني بينما زوجها يجلب لحافًا قديمًا. وأشار إلى خزانة وراء المطبخ.

فقالت له: أخاله خادعًا أفّاقًا.

بل هو جائع.

لا تشتكِ لي إن وجدته يومًا قد سرق مالك.

فزفر رودريغيز في ضيق، وقادني إلى الخزانة التي ستكون حجرتي. وظلّ ذلك الحديث الذي شهدتُه بين الرجل وامرأته يُعاد بينهما كل يوم، بأشكال متغيّرة وأوقات مختلفة. وكان سيدي وزوجته نقيضيّ بعضهما في المنظر والمخبر. فهو جسيم قصير وهي طويلة هزيلة. وهو لا يجد غضاضةً في المخاطرة وخوض المجهول، وهي شديدة الحذر لا تحيد عن طريقها الذي تعرفه. هو رجل طموح وهي امرأة قنوعة. لكنهما على اختلافهما وتباعد أهوائهما وكثرة جدالهما مترابطان متحابّان.

***

وكان انتقالي من الحرية إلى العبودية قدرًا أفظع من المنيّة؛ فهو ولادة ثانية في عالم غامض بعادات عجيبة، وشريعة لا يجوز مخالفتها. فتوجّب علي تعلّم الأمور التي لا يجوز لي فعلها؛ كأن أتحدث بلسان قومي، أو أجتمع مع مماليك

في نزلٍ، أو أجري في الشوارع، أو أحمل سلاحًا، أو أنظر إلى قشتاليةٍ، أو أنام بعد طلوع الشمس، أو أركب عربة، أو أمتنع عن تلبية أمر، أو أقول طرفة، أو أشكو أو أعترض. وغيرها من النواهي التي تزيد كل يومٍ.

وكنت في الصباح أتبع برناردو رودريغيز إلى برج الذهب أو إلى دار التجارة، ثم أنتظره صامتًا بينما يقابل البائعين ويشتري منهم. وكان الشغل الذي يوكلني به كالذي كنت أعمله في أزمور، فوجدت براعتي وإحساني التجارة مفيدين. وكنتُ في أول أيام اشتغالي في دكانه قد وجدت خطأً في سجل الحساب، وتنبّهتُ لفساد حِملين من البضاعة قبل أن يُرفعا إلى العربة. أما في الدكان فكان هو يحصر بضاعته، ويقرر قيمة البيع ويلتقي الباعة، وكانوا تجارًا يفدون من أقصى المدن في الشمال مثل بلنسية. ولكن متى ما انقضى عملي لم أكن أستطيع الرجوع إلى البيت ساعة أشاء، ولم يكن بقية اليوم ملكي أصرفه كما أرغب. فكنت كفرس أو بغل يظل يكدّ حتى يجرّه سيده.

وقال سيدي ذات مساء: توقف عن العمل.

فأجبت: سي سنيور.[1] ثم أخذت أمسح الأرض. فإذا بصوتٍ من ظلام الشارع ومن تحت المطر يقول: رودريغيز.

من هناك؟ تقدّم إلى النور لأراك.

فدخل الدكانَ رجلٌ أشقر في منتصف العمر على خده خالٌ كبير. وفوق كتفيه تعلّق قِمطر من جلد استقرّ على كرشه، وفاحت منه رائحة الخيول. فقال سيدي: هيريره... كم تسرّني رؤيتك! متى وصلتَ؟

مغرب اليوم. تأخرنا كثيرًا في الطريق بسبب المطر.

1- نعم يا سيدي.

وظل الرجلان يتحدثان عن صحتهما وعلاتهما زمنًا قبل أن يسأل هيريره عن جديد البضاعة في الدكان.

فقال رودريغيز: عندي الحرير والكتّان والتفتة. وعندي من المبرد السرجي أفضل صنف. وانظر إلى هذا القطن البديع من بلاد الهند. ألا ترى نعومته؟

كم تريد ثمنًا له؟

عشرين لكل لفافة.

هذا كثير!

ستبيعه بضعف ذلك في شلمنقة.

ألا تعرف تجار شلمنقة؟ لن يشتري أحد قطنًا بهذا الثمن.

بلى سيشترون. هذا القطن لا يَرِدُ إلا من المكسيك. وستبيع كل ما تشتريه قبل عيد الفصح.

إني في ريبةٍ منك أيها الغشاش. أعطني منه قطعة وسأمرّ بك غدًا لأخبرك بما قرّرته.

إستبان، من أَمَرك أن تنظف الدكان؟ أحضر لسنيور هيريره قطعةً.

وحيث إنّ رودريغيز لم يملك قبلي عبدًا، ولم أكن في حياتي عبدًا لسيدٍ قبله، فإن المعاملة بيننا ليست كباقي الأسياد والمماليك. فكان يأمر بالشيء (كأن يأمر أن أتحقق دائمًا من سجلّ الشراء) ثم لا يلبث أن يبدّله (لا تلمس سجل الشراء). وفي بعض الأحيان يسألني رأيي في بضاعة يشتريها، ولكن إن أبديت له رأيي دون سؤالٍ نهرني. وكان يتقلب في أيامه ما بين اللطف والرفق طورًا، والشدّة والقسوة أطوارًا أخرى. حتى لو بعثني لأقضي حاجةً

له فلا يُسمح لي أن أقف ولو هنيهة أنظر إلى غروب الشمس على الوادي الكبير دون أن ألقى منه عقابًا جزاء تباطئي وكسلي.

فحاولت أن أجد الراحة في الصلاة ومناجاة خالقي. وكنتُ مرةً ساجدًا وراء منضدة الدكان ميممًا وجهي شطر مكة شرقًا أصلي العصر. وكنت أدعو ربي أن ينجيني. فأقول همسًا: عونك يا ربي. اللهم إني أسألك أن تردّني إلى أهلي يا أرحم الراحمين. فإذا بحذاءٍ إسبانيٍ غليظ يثقل رقبتي ويكتم همسي، وإذا بوجهي ينسلخ جلده على حجر الدكان، ثم تهشّمتْ جرّةٌ مالقية على رأسي. فقال رودريغيز: قم يا مورو، وإن لم يرفع قدمه من رقبتي. وطفر الدم من رأسي وسال على خدي. ثم أمرني أن أقف، لكني ما استطعت لدوارٍ ارتجَّ له رأسي. فركل جنبي والتويت على نفسي، ثم شدّني من ياقة قميصي حتى جثوت على ركبتي. وزادت إذايته لي يومًا وراء يوم، إلى أن كففتُ عن الصلاة واستعضتُ عنها بدعاء الله في سرّي.

وكنت لمّا أرى أطفال رودريغيز يهرعون للقائه كلما رجعنا إلى البيت أتذكر أمي التي كنت أجدها دائمًا أمامي كلما دخلت من باب دارنا الأزرق. كانت تأخذ الماء الحار الذي أسخنتْه على الكانون فتصبّه على يديّ للوضوء. وأنا أقول: قليلاً قليلاً يا أماه، أو الماء حار جدًا يا أماه. كيف أشتكي شأنًا حقيرًا كذلك؟ عندما كنتُ آوي إلى الخزانة وراء المطبخ ما كان أحد يحييني. ما كان أحد يخبرني أن جارًا زارنا في غيابي، أو يسألني عن سبب إبطائي، أو يؤنبني لأني نسيت شراء الخبز من الفرّان. ما كان ثمة أحد يضمني إليه، وما كان عندي من أضمّه.

وحتى التجارة ما عادت تستهويني بعد زمن. ذلك البيع والشراء الذي كنت أحسبه شغلي وشغفي قبل بضع سنين، والذي من أجله عصيت أبي قد نُزع من قلبي الشغف به. فلم أكن أبالي بالبضائع التي يشتريها سيّدي، ولا

أفرح بسلعة جديدة نتسلّمها، ولا ألاحظ إن وقع خطأ في حصر البضائع. فأخذ سيدي ينعتني بالمتقاعس وقليل العقل والمغربي البليد. ثم اشترى بعد حينٍ عبدًا آخر من أنغولة، وقال إنه سيجعله يمكث في الدكان كيلا يتراخى من قلة العمل مثلي، أنا الذي أرقد في خزانة وراء المطبخ.

***

وقد تخفّفتُ من تعاستي ووحدتي يوم جلب سيدي ألينا إلى البيت. وكان ذلك بعد عام من وصولي إلى إشبيلية، وقد رخص ثمن الأرقاء رخصًا شديدًا ذاك الربيع، فقرر رودريغيز أن يبتاع لزوجته جاريةً تساعدها في شغل البيت وترعى الأطفال. وادّعى أن كل سيدات المدينة يمتلكن جواري يلبسنهن حللاً حسنة ويصحبنهن في جولاتهن في شوارع المدينة أو على شاطئ البحر، كما يستعرض فلاحٌ خيوله الأصيلة. وينبغي لزوجته أن تفعل فعلهن، كي تلتقي نساء كبراء المدينة وتنادمهن.

فكان أن وقفت ألينا حيث وقفتُ أول قدومي على هذا البيت، على بعد ثلاث أو أربع خطوات من شجرة الليمون في الفناء، وسلّمت نفسها لفحص دوروتيا رودريغيز. وكانت ألينا صغيرة الخصر ممشوقة، شعرها مضفّر ووجنتاها بارزتان. ولم يفلح القميص الذي كانت تلبسه في إخفاء ثِقالة ردفيها ولا دقة ساقيها. بيد أنه لم يبدُ على وجهها أنها تعلم ما يجري حولها، فكانت شاخصة البصر إلى الأمام غارقة في يمٍّ أفكارها، كأنها دخولها إلى بيت رودريغيز واقعٌ لشخص غيرها لا لها. ورأيتُ سيدة المنزل تغضّن جبينها وتقول: رباه! ألا ترى الطِمر الذي تلبسه؟

سأجلب لك قطنًا سرجيًا من الدكان.

سرجي؟ لا. حسبها قضيبان أو ثلاثة من القطن العادي.

فليكن.

وأظافرها قذرة.

ما بالك يا دوروتيا؟! أما تعلمين أني جلبتها من مزاد؟

أرجو ألا تكون مريضة.

إنما هي في حاجة إلى اغتسال.

إذًا فلنحمد الله أننا في إشبيلية. هل عمّدها القسيس؟

لماذا تسألين أسئلة تعلمين إجاباتها؟

لأنها سترعى أطفالي كل يوم ويجب أن يطمئن قلبي. سوف أرسلها إلى الأب بورتليمو ليعلّمها الدين هذا الأسبوع.

أفلا تعلّمينها الطبخ أيضًا؟ لا... لا تعلّميها. قد طفح كيلي من اللحم اليابس الذي تطبخينه.

وكانت عادة سيدتي أن تضع إناء طعامي إن تذكرتْ على البلاط الأحمر عند باب المطبخ، ولكن مذ جاءت ألينا وشرعت تطبخ الطعام صارت تواظب على وضع طعامي في مكانه وفي وقته. وكانت عادتي أن أقبع مجاورًا الباب حتى تضعه. حتى أشارت ألينا إليّ مرّةً أن أدخل إلى البيت. فتناولنا الطعام أنا وهي على الحصيرة التي ترقد عليها، تحت شباك المطبخ ذي القضبان. ورأيت على ظهر يدها اليمنى وهي تغرف من إنائها بالملعقة وشمًا صغيرًا بشكل المشط متساوي الأسنان.

ولم نكن نحادث بعضنا في أول الأمر لاختلاف لسانينا، فهي من بلادٍ في الجنوب أبعد من مازاغان، بل أبعد حتى من مغادير، من بلدة صغيرة على ضفة نهر الذهب في سنجانة. لكنها تعلّمت من الإسبانية ما يسّر التعبير بيننا،

كأن أبلغُها بأمر من سيدي أو تخبرني بحاجة أُمرتُ بقضائها. وسألتها يومًا إن كان ألينا هو اسمها. فقالت لا. ثم ترددت وهمست: اسمي رامة الله.

وأجريت لساني بالاسم. رامة الله... رامة الله... رحمة الله... وعجبتُ من تبدّل الحرف العربي بلسان قومها. كنت أحسبه اسمًا غريبًا فظهر أنه من لساني، فاغتبطت وعظم سروري. وقلت لها إن اسمي مصطفى. وقالت: كاسم أبي. وابتسمت لأول مرة، فكشف ثغرها عن أسنان بيضاء مصفوفة. وشع في وجهها نورٌ قلما رأيته على وجه بشر. ثم سألتْ: أتعمل معه في الدكان؟

وقد رأيت منها هذه العادة في الكلام عن سيّدنا، فكانت لا تنطق اسمه قط، بل تقول هو وذاك. ولكن إن لقيتْه في الفناء صباحًا كانت تحييه بسنيور، وإن كانت تنطقها على نحوٍ يخال المرء أنها تشتمه.

وقلت: أنا أعمل عنده، لا معه.

أرأيت مشتريًا هكذا شكله؟ ثم وقفت ومشت في المطبخ محدبة الكتفين كأنها تمسك عصا.

أحدب؟

أجل. وله حفرة هنا. ثم أشارت إلى ذقنها.

تقصدين نونة. لا، لم أرَ رجلاً كهذا. (فأنا كما قلت لم أعد أبالِ بتجارة سيدي، ولم أصرف أي انتباه لما يجري في الدكان). لماذا تسألين؟

ابنتي آمنة... باعوها لرجل كهذا.

ألديك بنت؟

لدي اثنتان.

وكنتُ قد شغفت بها فلم يقع في خاطري أنها لرجلٍ آخر، أو أن كانت لها حياة أخرى قبل وصولها إلى بيت رودريغيز. غير أن الكبر منعني من إظهار حزني لما سمعته. فسألتها: وماذا جرى لابنتك الثانية؟

باعوني وأخذوني إلى مكان بعيد قبل أن أعرف ما اتفق لها.

وغشيت عينيها تلك النظرة الخاوية التي رأيتها فيهما أول مرة. كانت واقفة في ذلك المطبخ، من حولها حلل وأوانٍ، ومن الأرفف تتدلى ضفائرٌ عُقد فيها بصل وثوم، ولكن بدا أن عقلها وجسدها في مكان بعيد. وقد خرجت روحها من بين أضلعها ومن المطبخ، وسبحت فوق تريانا، ثم حلّقت فوق السوق في أعقاب أي أثر لابنتيها. أثمة وجع أقسى من أن تُحرم من فلذة كبدك؟

ولمّا عادت إليها الروح بعد حين، سألتها: وماذا حدث لزوجك؟

فقالت: قتلوه. هجم على أحد البرتغاليين.

فزفرتُ نفسًا كنت أكتمه في صدري دون أن أدري، ثم اتكأت إلى الجدار المبلّط وقلت: إذا رأيتُ هذا الأحدب في الدكان فسأخبرك.

ونظرت إليّ بامتنان لم أرَ مثله في عيني أحد، كأنني قدّمتُ لها أعظم عطاء. وعزمت حينئذٍ على مراقبة التجار بأسرهم لعلّي أظفر منها بابتسامة ثانية.

ولما فرغت من أكل العدس هممت بالقيام، فأخذتْ الإناء مني وقالت: اجلس. لا تقم الآن.

فأخذت أحدّثها عن أهلي بينما هي تغسل الصحاف، وحمدت الله في سري أن أنجاهم من المصير الذي كُتب لي. وهي والله نعمة عظيمة أني لا أتفكر أين هم وماذا حلّ بهم. وفي اليوم الذي تلاه، ولأول مرة مذ جئت إلى إشبيلية، لم يضق صدري بالعودة إلى الخزانة وراء المطبخ.

9
حكاية آوتي

وأصابتْ الحمى مستوطنًا لا أعرف اسمه، وأظنه جزّارًا أو حلاقًا، رجلاً ما تعوّد السير المضني في الحرّ والرطوبة. وكان يتنقّل من فارس لآخر يطلبهم إردافه على خيولهم. أرجوك سنيور، دعني أركب معك. لكن الفرسان أبوا لخشيتهم مما ألمّ به. فلمّا وقع مغشيًا عليه وقد أحدث في ثيابه، أمر قائد منهم أن يُحتمل على أحد خيول المتاع. ووصلنا إلى نهرٍ فطلب المحمومُ أن يُنزل في الماء، لعلّه رام غسلَ جسده أو خفض سخونته، ولكنّ الحمى ما انفكّت تستعر في جسده. وتقطّر الدم من أنفه، فوقع على قميصٍ قد اصطبغ بلون التراب والوحل. وكان يجثم بلا حراك وينظر بلا بصر لكل من دنا منه جالبًا له زادًا، أو داعيًا له، أو ناظرًا إليه يحمد ربه أنّ حظه لم يعثر.

ولعل أولئك الذين كانوا ينظرون إلى المريض فيفرحون بحظهم الوفير مخطئون، فإنّ هذيانه حال بين قلبه وبين الخوفِ من مقاتلي الأبلاتشي الذين اقتفوا أثرنا منذ بدأنا المسير نحو آوتي. وقد بلغت براعتهم في النبالة حتى خلنا قِسيّهم أذرعًا زائدة في أجسادهم يستعملونها دون عناء. كانوا يرمون سهامهم من مسافاتٍ عظيمة فتصيب في مقتلٍ، وكانوا مع هذا أعلم منّا بالأرض التي نقطعها – سهول بسيطة خضراء، ومستنقعات وأنهار وأشجار ساقطة، وحيوانات غريبة.

ومتى ما جاوزنا مستنقعًا مُثقلين بأحمالنا خائفين من إِل لغارتو، هاجمنا الأبلاتشي وألحقوا بنا بالغَ الضرر. وقد قتلوا رجلاً مدرعًا بأن صوّبوا

السهم في حلقه، وهرب حمّال من غارتهم فسقط في النهر صندوقٌ ذخيرة وصندوقان بهما عدة، وأصابوا فرسًا كان يجاوز براكبه المستنقعَ. وأسروا واحدًا من أسرى الهنود الذين أخذهم الحاكم معنا من بورتيو. وإني لما رأيتُ الخوف يغشى الهنديَّ الأسير عرفت أنهم لم ينووا به خيرًا.

ثم كان اليوم الذي وهن من غونزالو رويز صبرُه. وكان رويز هذا مقاتلاً شجاعًا شديد الجبروت. وكان أحد الجنديين اللذين وُكّلا بحراسة الطابق السفلي في سفينة غراسيا دي ديوس خلال رحلتنا في بحر الظلمات. وأتذكّر أنه بعد شهر من بدء الرحلة اتّهمَ فتىً حبيًا أصله من ساحل الذهب، وكان موكلاً بحراسة الماشية، بسرقة زق نبيذ. فوقعا في نزاع عنيف ما لبث سنيور دورانتس أن تدخّل فيه، فأمر بالفتى فقُيّد بالسلاسل ثلاثة أيام، فأوغر هذا الحكم الجائر صدري على رويز. وما سمعتُ منه سوءًا منذ ذلك اليوم، إلى أن أطلق من صدره عويلاً مفزعًا ونحن نسير إلى آوتي فبوغتنا وذعرنا. فاستدار سنيور دورانتس من فوق فرسه ينظر إلى الرجل، وقال مغضبًا: رويز، تمالك نفسك!

ورأيت لوثةَ الجنون تمس عينيّ رويز، فصاح: لا! لن أنتظر أن يصيدني الهنود كالحَجل. وشدّ إليه بندقيته، فانشقّ عن الصف وتوغّل في الغابة وراء الهنود. فنادى سيدي: رويز! عد إلى الصف!

ولم يجبه إلا حفيفُ الشجر. ورائحة الرجل المريض على فرس المتاع تزكم الأنوف. والسماء بيضاء بلا زرقة، والشمس حامية جدًا حتى جعلت آذاننا تطنُّ.

فقال سنيور كاستيو: ألا نرسل أحدًا وراءه؟

وأجاب سنيور دورانتس: لقد عصى أمري.

ولم يتدخل الحاكم في هذا الشأن، فكلُّ قائد مسؤول عن فرقته، وهُمْ الرجالُ الذين سافروا معه على المركب ذاته من إشبيلية. فما كان منه إلا أن نخس حصانه يستحثّه على السير، وسِرْنا نحن خلفه. وما لبثنا إلا ساعةً فإذا بصرخة ألمٍ أرعدت فرائصنا، ثم برز رويز من بين الشجر أعزل، يغطي وجهه بكفين تخَضّبا دمًا. وقد قذفه الأبلاتشي بحجر ففقأ عينه اليسرى، فصار شبيهًا بالحاكم إنما أصغر وأنحف. واجتمع جنود حول رويز، بيد أن سنيور دورانتس هزّ رأسه وأشاح وجهه، ولسان حاله يقول إن احمد الإله أن لم يجرّك حمقك إلى حالٍ أسوأ.

***

وكنا نقضي الأيام في خوفٍ. نخاف الحمّى والهنود وجوعنا. نخاف المستنقعات وسحالي الماءِ وفاكهة الأشجار الغريبة. نخاف ألا نجد آوتي، ونخاف أن نجدها. أما كان المحمومُ أحسننا حظًا، وهو الذي ضاعت منه أسبابُ القلق والخوف؟ فهو إنْ سلّم أمره إلى المرض هان كل أمرٍ آخر عليه. ولربما كان الرجالُ في حملتنا يشتهون هذيانَ الحمى، ولذا فقد سلّموا أجسادهم للمرض. فما كان اليومُ الخامس من مسيرنا نحو آوتي حتى اضطرَّ الحاكم إلى تخصيص خيول لاحتمال المرضى، وقد قارب عددُهم الثلاثين.

وكنت أفكر أحيانًا أن أستسلم أنا أيضًا. فبينما أنا جالس تحت فيء شجرة حَور، وجماعتنا تحطُّ رحلها في استراحة منتصف النهار، سألت نفسي ما قد يحلّ بي إن أصابتني الحمى ومتُّ في هذه الأرض. مَن يغسلني قبل الدفن؟ مَن يقرأ القرآن على قبري؟ مَن يحزن على فراقي؟ قرأتُ آية الكرسي وأعدّتها مرات ومرات، كما كنت أفعل صبيًا متى ما أوجستُ خوفًا أو قلقًا أو حزنًا، وأنا أرجو أن تزيل همّي الآن كما أزالته قبلاً. وشرعتُ أخطُّ الآية بالعصا على التراب كلمةً كلمةً، وكل خطٍ يذكرني بأيامي التي قضيتها في جامع

أزمور، حينما كانت حياتي ملكَ يدي. (**وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَلاَ يَؤُودُهُ**...).

أتحسن الكتابة؟

سألني سنيور دورانتس، وكان متكأً بمرفقه على جذع الشجرة ورائي، ينظر إلى الحروف التي خططتها على الأرض. ولم أكن قد سمعت خطواته فهممت بالقيام، فوضع يده على كتفي يمنعني. وسأل: أين تعلّمتَ؟

في بلدي يا سنيور. في أزمور.

إنّ أقرب أصحاب أبي إلى قلبه كونفرسوس[1] من قرطبة، وكان صانع جواهر. وما زال يكتب في سجلّه بالعربية. وقد حذّره والدي كثيرًا أن المفتش لن يرضى بذلك. لكن شقّ عليه أن يغيّر عادته.

بللت شفتي بلساني، واحترتُ فيم أردّ عليه. وقد علّمتني حياتي في العبودية أنّ هذا الحديث بين العبد وسيده والأسئلة الوديّة قد يكون خطرًا. فكلما عرف السيد عن حياتك زادت في جعبته الحيلُ لتعذيبك فيها بعد دون أن تعي. فلم أتكلم، لعله لا يزيد. فكنّا ساكتين، والنسيم يحرّك أوراق الحَور فتغيّر مواضع النور على الأرض. وسمعنا رجلاً من قومٍ مجتمعين خلفنا ينادي الأب أنسيلمو كي يسمع اعترافًا من أحدهم.

وسأل سنيور دورانتس: فكيف انتهيتَ إلى إشبيلية؟

فأجبت: تلك حكاية طويلة.

فانزلق بظهره على جذع الشجرة إلى أن استوى على الأرض بجانبي، حتى إنّي أشتم رائحة الدهن في شعره (وكان الصابون قد نفد منذ أيام). ماذا

1- تعني المهتدي، والمهتدون هم اليهود الذين تحولوا إلى المسيحية في شبه جزيرة أيبريا.

يريد مني؟ أما كان يكفيه أنّي ملكه يفعل بي ما يشاء؟ وهو الآن يبغي شيئًا ليس لأحد غيري... حكايتي.

وقال: حدّثني بها. أريد أن أعرفها.

وإنّها لذّة القصة أيها القارئ في روايتها. وكانت قدماي منتفختين ألمًا وبطني متضور جوعًا، ومع هذا فما كان باستطاعتي مغالبة لذة سرد الحكاية. فأنشأت أحدّثه عن حكاية مولدي إلى أن انتهيت بحكاية وصولي إلى إشبيلية. وأصغى سنيور دورانتس بفضولٍ وحلم، حتى تخيّلت أنه سيقصّ حكايتي على الناس يومًا، يحكيها لزوجته أو صغاره، فتُخلّد القصةُ وتجري بها الألسن حتى بعد موتي. وسردُ الحكاية مثل زرع البذرة، فيتمنى المرء أن يراها شجرةً وارفةً، ضاربة الجذور في الأرض، سامقة الفروع في السماء. وهذا الزرع مختلف عن بقية الزروع، فلا يعرف زارعها إن مات البذر أم نما. ولّما أخذنا بالسير، وقد اشتدّ بي الإعياء فأمسكت بسرج أبيخورو كيلا أقع، لم ينخسه سنيور دورانتس كي أبتعد.

***

وكانت رائحة الدخان أول ما أدركنا بالاقتراب من آوتي، فأدمعتْ أعيننا وسدّت حناجرنا. وكانت من الشدّة حتى إنها حجبت رائحةَ الأجساد التي لم تغتسل وعرقَ الخيول. فسعل الرجال وغطّوا أنوفهم بالخِرق، وصهلت الخيول وحمحمت، فضربها ركّابها بالسياط كي تكف. ولما دنونا من آوتي رأينا أدخنة سوداء عالية، تغطّي السماء كبروج في جهنم. ورفع سنيور نارفاييز يمينه فوقفنا، والدنيا من حولنا تكتسي بسواد الدخان والرماد. لم ينطق أحدٌ. فلمّا أشار الحاكم إلى الأمام اختلط لون درعه الحديدي بحلكة السواد.

وما كدنا نبلغ آوتي حتى كانت الشمس المحجوبة بالدخان تنحدر إلى

طرف الأفق، وتأخذ معها آخر نور النهار. فلمّا انكشف الدخان كان ما رأيناه صورة من وادٍ في الجحيم، منظرًا مهولاً كالذي يراه المحمومون قبل أن يغمضوا أعينهم. رأينا كل بيوت القرية، وكانت نحو عشرين بيتًا، محترقة مهشّمة الأخشاب مهدّمة السقوف، في تلالٍ من رماد. حتى الطيور هجرت أعشاشها فوق الشجر، وما سمعتُ صوتًا إلا خريرَ نهرٍ على مبعدة لم أبصره بعد.

واحتبس حلقي برائحة الخشب المحروق والفرو المكتوي. ولفحتْ قدميّ سخونة الأرض وإن كنت أنتعل نعالاً، وشقّ التنفس بسبب الدخان. فبلغ بي القنوط نهايته. ولكني وإن كنتُ في غمرة إعيائي، استشعرت شيئًا يشبه الإجلال لقوم آوتي الذين آثروا حرق قريتهم على أن يأخذها القشتاليون. ولربما لو فعل قومي ما فعله أهل آوتي لرحل البرتغاليون عن أزمور وما انتهيتُ إلى حياة الأسر. لكن ما هذا إلا تقديرٌ لما قد يكون، ولن أجني منه إلا العذابَ. فاتكأت على فرس سنيور دورانتس، ولقد احتملتُ ما لا طاقة لي به. لم أدرِ أن هذه ما هي إلا البداية.

وانتشر الجنود في القرية صامتين، دون أن يأمرهم الحاكم بالتفتيش فيها. فأخذوا يقلبون الحطام بعصيّهم، يرجون العثور على أي شيء ذي قيمة. وعاد أحدهم فأبلغ القادة أنه عثر على مخازن كبيرة للفاصولياء في حجرةٍ تحت الأرض، وأن حقولهم ملأى بالذرة والقرع الناضج قرب حصاده، لكن الحاكم لم يلقِ له بالاً. بل أخذ يخبّ في أرجاء القرية على فرسه الأبيض، وعيناه تحدقان إلى الأفق البعيد، كأنه يعدو وراء شيء لا يراه أحد سواه. وظل قادة الحملة ينظرون إليه، والجزع بادٍ على وجوههم. فدنا سنيور كابيزا دي فاكا بحصانه من الحاكم وهمس في أذنه أمرًا. ثم أعلن الخازن أن البقاء في آوتي ليس آمنًا، وأنه يتعين علينا المضي قدمًا إلى النهر.

وسرنا ناحية النهر. كنا كرجال ملعونين يعيشون في خوف وإنكار؛ خوف من الطاعون الذي ينتشر بين رجالنا، وإنكار أن يكون حرق آوتي نذير نحس هو مدركنا في الأيام القادمة. وشرعنا ننصب الخيام وقد أظلمت السماء، وإن لم يكن منّا من يطيق الدخان فإننا اضطررنا إلى إيقاد المشاعل كي نتم عملنا. وكان الرماد يغطينا من الرأس حتى أخمص القدم، فينقلب لونه أصفر بوهج النار، فيجعلنا كغيلان عجيبة الهيئة. حتى رجال الأبلاتشي الذين تبعونا دون كلل منذ عشرة أيام تركونا وشأننا تلك الليلة. فأما الرهبان فعكفوا يرعون المرضى بالحمى، وأما الأجناد فاصطفّوا كي يتناولون أنصبتهم من الذرة، وأما القادة فكانوا يتجادلون بصوت خفيض عن تدبير شؤون الحملة بعد تلكم الليلة.

وقد نُصبت خيمة الحاكم البيضاء لأجله، وبدا من فرجتها فراشه ومنضدته. وعُلّقت رايته على السارية إزاءها، وحُفرت الأرض استعدادًا لإيقاد نار طعامه. ولمّا ترجّل عن فرسه اجتمع القادة حوله، كل متأهب للسؤال وإبداء الرأي، لولا أن رفع سنيور نارفاييز يده يمنعهم من الحديث. وقال: مع ظهور أول النور سنبحث عن المرسى.

فتوسل مبعوث البابا: دون بانفيلو، إن الحمى تنتشر، ولن يقدر بعض الرجال على المسير.

ونزع الحاكم غطاء قربة الماء التي ناوله حاجبه إياها، وتجرّع منها بصوت عالٍ. ونظر إلى ما وراء القادة حيث الرجال مجتمعون في زمر تحت ظلال الأشجار. كم منهم مريضًا؟

فأجاب المبعوث: اثنان وأربعون.

وقال سنيور دورانتس: إن استمر الحال فلن تكفي الخيول كلها لحمل

المرضى.

فبرقت عين الحاكم في ضوء الشفق. لا أحتاج إلا بضعةَ رجالٍ لنستطلع. فليختر كل منكم أصحّ الرجال في جماعته. ثم قطع كلامه بأن مسح أنفه، ونظر في حيرة إلى الدم الذي ظهر على يده.

قال المبعوث: دون بانفيلو، أأصابتك الحمى؟

فوضع سنيور نارفاييز يده على جبينه ثم أبعدها بسرعة.

أنال منك المرض؟

فأجاب سنيور نارفاييز: لا. بل هو زكام. يا دورانتس وكاستيو وكابيزا دي فاكا: أريدكم أن تختاروا ثلاثين رجلاً، فتنطلقون للبحث عن المرسى. أما نحن فسوف نبقى هنا قرب النهر.

ولأول مرة يطيع القادةُ أوامره دون خلاف، بل بموافقة تامة. وكان سنيور كاستيو قد نادى منذ مبتدأ الرحلة بألا يفارق رجالُ الحملة المراكب، ونَصَرَه في هذا الرأي سنيور دورانتس، فلا أحد من القادة يريد أن يجدها الآن فيعود منتصرًا كما يريد هذان الاثنان. أما سنيور كابيزا دي فاكا فآزر سنيور نارفاييز ودعا بضرورة الافتراق عن السفن، ولكن حماسه الآن لإيجادها عظيم، كي يثبت أنها لم تكن مقامرة رعناء بل مخاطرة محسوبة. ولأجل ذلك رأيتُ أن اختيار الحاكم كان حكيمًا. فإن نجحتْ الحملة فإن عناءنا ومصابنا سيطويه النسيان حين يُحكى تاريخ لا فلوريدة، وإن كان الفشل مصيرها فلن يتحمّل ذنب خيبتها لوحده.

***

وسرنا مع الشروق، والندى يقطر من أزهار الماغنوليا، وخلّفنا رجالاً يلتحفون ملاحفهم ويحلمون بالطعام والغوث. وحملتْ الخيول فرسانها وإن

تثاقلت خطواتها وتباطأت أنفاسها. كانت تثير بأرجلها الرمادَ الذي استقرّ على التراب، فما لبث أن غطّانا مرّة أخرى ونحن نتقدم في المسير. ولكن لمّا قطعنا نحو فرسخين هبّت الريح، فتخفف الهواء مما علق به من غبار ورماد. فاسترخت الأنفس وشرع القادة الثلاثة يتحادثون فيما بينهم بود. قال سنيور كابيزا دي فاكا: إذا رجعنا إلى السفن فإني أودُّ أخذ تميمة حظ أعطتنيها زوجتي وقد تركتها يوم أرسينا. وإني لأرجو ألا تكون قد سرقتْ.

فردّ سنيور دورانتس بخبث: عجيبٌ أنك نسيت أخذ هذه التميمة وتذكرت كتب الشعر.

وقد كان بين سنيور دورانتس وسنيور كابيزا دي فاكا خصومة مكبوتة صامتة منذ زمن، فلمّا ألفيا نفسيهما بعيدين عن الحاكم وبقية رجال الحملة كشفا عنها باللمز والتعريض.

أجاب الخازن: غاب عني أن أخذها. لا تتعجب من ذلك.

فردّ سيدي: لم أتعجب، إنما أنا منبهر من عجائب ذاكرة البشر.

أهدتني زوجتي تلك التميمة يوم زفافنا قبل ستة أعوام. ووضعتها في صرّة حرير كنت أحفظها في عدة كتابتي. وقد أقنعني الحاكمُ بالعدول عن أخذ العدّة معي، قال إن كاتب العدل يحمل مع متاعه أدواتَ الكتابة فإن احتجتُ إليها فما عليّ إلا أن أطلبها منه. ولهذا فلم أجلبها معي.

لم أكن أدري أن الحاكم يكترث بما تحمله في متاعك.

الصداقة والولاء. أفلا تجرّبها يومًا؟

حتى الفرس مغمّم العينين وفيّ يا ألفار.

وكانت الشمس قد بلغت سمت السماء والهواء ساكن، والأرض جافة

مشققة. وصهل أحد الخيول، وذابت السماء في الأفق مع البساط الأخضر.

وقال سنيور كابيزا دي فاكا: سوف نجد السفن لا محالة.

فسأله سنيور دورانتس: أتعدُ أم تدعو؟

فأجاب الخازن: لا ذا ولا ذاك. وأنا لا ألوم غيري إن وقعوا في زلات عن غير عمد.

وما كان سنيور كاستيو قد ناصر طرفًا في هذا الجدل، ولكن لما صمت القائدان حاول أن يبدد الخصومة، فقال: لكل واحد منّا هفوات، وأنا أولهم.

ولم يرد سنيور دورانتس ولا سنيور كابيزا دي فاكا، لكن جدالهما قد أخرج ما أوغر صدريهما، فكانا بقية اليوم على ود وتلطف، كأن كل رجل يعرف ماذا ينتظر من صاحبه. فأخذوا يتباحثون أفضل الطرق لاحتمال الرجال المرضى دون نشر المرض بين الأصحاء.

وبلغنا خليجًا واسعًا عشية اليوم، وكان ساكنًا كبركة لا تتحرك فيها إلا بضع أمواج. ونتأ المحار بأشكاله من الماء. ففرحنا بطعامه بعد أن أكلنا من الذرة والفاصولياء ردحًا من الدهر. فكان الرجال الذين يملكون سكاكين صغيرة يفتحون الصدف لمن ليس معه سكين، فنأكل طعام المحار زلقًا دافئًا، ونفرّقه فيما بيننا دون اهتمام بمراتب الرجال أو أنسابهم.

فأنعش الطعامُ الجديد أنفسنا، وسرنا في بكور اليوم الذي يليه نستكشف نواحي الخليج. فكان أن قادنا أولُ درب داخل البر، وهواء ذلك الدرب جاف غير مالح، وأشجاره أطول وأكثر أوراقًا. فتراجعنا خشية أن نلقى هنودًا يقطنون تلك الناحية. ورجعنا حيثما انطلقنا من الخليج، فسلكنا دربًا ثانيًا ودربًا ثالثًا، فقادنا كل درب إلى منفذ من منافذ البحر، ضيقٌ ضحلٌ لا يرتفع ماؤه أكثر من ركبة الرجل. ودأبنا نبحث كذلك يومين كاملين. وكنا

إذا عدنا إلى معسكرنا في الخليج نحدّق في الأفق، لعلنا نرى سفينة.

***

ثم رجعنا إلى آوتي والهم واليأس غالبينا. وما كان أحد منا هنيّ البال، وقد تصاغرت خصوماتنا وطموحاتنا وأحقادنا بعد أن أدركنا مبلغ المصيبة التي طالتنا جميعًا دون تمييز. وأكاد أجزم أنّ كل رجل كان يظن أنه قد سها عن دليل في الطريق يعيدنا إلى السفن التي تنتظر. فلما بلغنا طرفَ معسكر الحملة، وجدنا أحد الرهبان واقفًا وحيدًا منكس الرأس يدعو، وقد نال الوحل من طرف مسحه. وعند موضع قدميه اثنا عشر قبرًا تعلوها صلبان من خشب. سمع الراهب اقترابنا فاستدار ورفع يده كي يحجب الشمس عن عينيه. فتعرّفتُ به الأب أنسيلمو. وتقلّب بصره ما بين سنيور دورانتس ودييغو، ثم قال: مرحبًا أيها القائد، سعدت بعودتكم.

فسأل سيدي: ماذا جرى هنا يا أبتاه؟

فأجاب الأب أنسيلمو: الحمى. لم يستطع بعض المرضى الأكلَ أو الشرب، فماتوا يوم مسيركم.

مَن مات؟

فقدنا أربعة عشر مؤمنًا.

وأخذ الأب يشير إلى كل قبر، ويذكر اسمَ الميّت كاملاً بصوتٍ مكلوم. فسكتنا ونحن نتأمل تلك القبور. فإنّ خسارةَ الرجال بالغرق في مستنقع أو نهر، أو مصرعهم في معركة مع الهنود لا يشبه موتهم بسبب الحمى في شيء. إذا وقعتْ حادثة فإنه يسهل تصريفها إلى سوء الطالع والقدر غير المكرور. وأنت إن نجوت من حرب فإنك تبتدع من الأسباب ما يسوّغ نجاتك: فإما قتالك بجسارة أو صلاح سلاحك أو حسن مخبأك. لكن الموت لا يفرق بين

الناس؛ فيقبض الأمير والفقير، والصنديد والرعديد، والحكيم والغشيم. والمرض يساوي بين البشر، ويوقع في قلوبهم خوفًا لا يتبدل.

وسرنا في موكب متمهل نحو معسكرنا. فرأينا حارسًا يجلس على التراب، عيناه تبرقان كعيني عفريت، ويسدد بندقيته إلى خمسة جنود رُبطت أيديهم وراء ظهورهم. فلما اقتربنا منهم عرف سنيور كابيزا دي فاكا منهم اثنين من رجاله، فسأل الحارس عن جنايتهم. فأجاب: الفرار. قبضنا عليهم وهم يحاولون الفرار بخيولهم في ظلمة الليل.

فكان أول ما سألتُ به نفسي هو: يفرّون إلى أين؟ ونحن لا ندري مكان السفن. ما كان هذا الفرار إلا ثورةَ الهالكين، كالنّعاج التي تفرفر بعد نحرها.

فلما دخلنا المعسكر وجدنا الرجالَ في جماعات صغيرة بطول شاطئ النهر، إما يتحادثون أو يدعون الله أو ينامون في ظل أشجار الحَور والأرز. فأبلغ من راح معنا من الجند نبأً فشلنا لمن بقي، وتناقل الرجالُ الخبر من جماعةٍ إلى أخرى. ثم دفعهم يأسُهم وخيبتهم إلى الارتياب بحسن بحثنا، وأخذوا يتساءلون: أين بحثتم؟ أسلكتم كل درب؟ ألم تغفلوا طريقًا؟

فما نالنا نحن الذين ذهبنا إلى الخليج نستطلع المراكبَ من أسئلتهم وإلحافهم إلا تشكيكًا ببحثنا. ثم توجّه القادة الثلاثة إلى خيمة الحاكم يبلغونه بما وقع في رحلتهم. فنادى سنيور دورانتس: دون بانفيلو، لقد عدنا.

فلم يخرج الحاكم لهم، بل كشف طرف الخيمة وحادثهم من الفرجة. وكان يلبس قميصًا وسروالاً من قطن، دون درع ولا أوشحة.

بدأ سنيور دورانتس بالكلام فقال: لم نجد إلا خليجًا ضحل الماء، ولم نعثر على أي مرسى.

فقال الحاكم: مرسى... وأعاد الكلمة مراتٍ، كأن صوته يخرج من بئر

معطّلة.

وقال سنيور دورانتس: نرى أن نرسل فرقة استطلاع ثانية.

وأضاف سنيور كابيزا دي فاكا: على أن تكون الفرقة هذه المرّة أقلّ عددًا، وأن يكونوا على ظهور الخيل لنستكشف أكبر مساحة.

ولم يرد الحاكم.

واستحثّه سنيور كابيزا دي فاكا فقال: دون بانفيلو؟

فتكلّم الحاكم بصوت خفيض وقال: حاول خمسة من الفرسان الفرار من حملتي.

فقال سنيور دورانتس: نعلم ذلك، فقد رأيناهم وقت وصولنا.

أوتعلمون أيضًا أن الهنود أغاروا علينا في غيابكم؟

لا. لم يبلغنا الراهب بذلك.

وقتلوا أحد الخيول. لن نمكث بجانب النهر. سوف نذهب معكم إلى الخليج الذي عثرتم عليه.

فنظر سنيور دورانتس إلى سنيور كابيزا دي فاكا مفكرًا. إن خليج المحار أكثر أمانًا للرجال من النهر، وخروج الطلائع منه أيسر. فتبدلت خصومتهما اتفاقًا لأول مرة.

***

فلما صدر الأمر أوى القادة إلى مخادعهم، وظللت وحدي. تجرّدت من ثيابي ودخلت النهر عاريًا كما ولدتني أمي. ولو سألني أحد عما أعتزمه لأجبته أني أريد السباحة في النهر، لكن أحدًا لم يسألني لأن لا أحد من الحملة

يبالي. فكل رجل مشغول البال يفكر إن كان سيفرّ من الحمى المرعدة أم لا. وكان الماء باردًا، فشعرت برعشة تسري في جسدي وتسكن وجعي. وحملني الموج بعيدًا عن الضفة ولم أقاوم. فخفتت أصوات الجند حتى لم أسمع شيئًا، إلا صوت أنفاسي هادئًا مطمئنًا كما كان أيام حريتي.

قد سلّمت زمام حياتي لأيدي الناس فأصبحت هنا، في آخر الدنيا، مشردًا خائفًا. وكنت أقول لنفسي أني إنما أُكرهت على ما جرى، وأني من اختار تسليم رقبتي لسيدٍ، فيجدر بي الرضا بقدري. وقد أوهمت نفسي أن خلاصي حاصل من شخص غيري، فإن نفعتُ الناس أنجدوني. أي ضلال كنت أعيشه؟ رأيت أن الوقت حان لأنهي تعاستي وأنقذ نفسي. فهبطت عليّ سكينة روحٍ وجلاءُ فكر ما خبرته من قبل، كأنما وجدتُ إجابةً لسؤال حيرني. فارتاح جسدي وانجلى همّي. وفركت قدمًا بقدم، وشقوق رجليّ تثير القروحَ التي قد ظهرت بين أصابعي.

عندئذٍ أحسست باجتذاب الماء لي بقوة أكبر. فوقفت ورأيتُ أن الماء قد جرفني غاية البعد عن الآخرين حتى لم أكد أتبينهم. ما كان يمنعني شيء من التوغّل بين الأشجار الملتفّة والهرب، فأغدو حرًا كما كنتُ. لولا أني سأغور في مكان مجهول وحيدًا. وأين أتوجه؟ شرقًا نحو الشمس أم غربًا نحو الخليج؟ وما كان أيهما آمنًا لي، وأنا ما أملك زادًا ولا سلاحًا أدفع به الضُر عني. فأنا في أرض الهنود دخيل غريبٌ مثل القشتاليين، ولا أحسبهم يعاملونني بغير ذلك. وإن نجوت في هذه البرية عاريًا وحيدًا، فلن أرجع قط إلى أهلي وقومي وبلدي. بدأت أمشي نحو معسكر الحملة وأنا أقول لنفسي: لا بد من وسيلة أنجو بها. لا بد.

***

وسرنا في الصباح إلى خليج المحار بصمت تام. فالمرضى لا يستطيعون

كلامًا من الحمى، أما الأصحاء منّا فتخيّروا السكوت تسليمًا بقدرنا المحتوم. فقرعت الغابة أسماعنا: ما بين شدو الطيور، وطنين أسراب البعوض وجلجلة الثعابين في الأشجار، وأصوات حيوانات لا نعرفها، حتى رفرفة جناحي جرادة بعد أن حطّت على ورقة. فكانت هذه الأصوات كالصرخات التي تبكّتنا في كل خطوة. فتقدمنا رغم الحر تقدمًا حسنًا، فلمّا تبدّل التراب رملاً توجهت أبصارنا نحو الأفق نرجو رؤية السفن في الخليج. وإن كنّا ندري أن أملنا بعيد التحقق فإن خيبتنا رغم ذلك كانت عظيمة.

وكان الشاطئ فسيحًا، فتسنّى لنا عزل المرضى عن الأصحاء لئلا ينتشر المرض. والطعام وافرٌ بقدر لا بأس به من محار وسرطانات، وأعشاب البحر وطيوره. وفي الناحية الغربية وراء الخمائل كَثُر العشب فرعتْ الخيول منه.

وانتظر نارفاييز إلى أن فرغ الرجال من طعام العشاء، ثم قام فخطب فيهم. قال: أيها الرجال، إنّ بسالتكم وصبركم لمفخرة لقشتالة. ولقد نالنا نصيبٌ من المصاعب مذ أرسينا هنا، بسبب الحر ووعورة الأرض وتدليس الهنود والكذب الذي يجري في دمهم. فهمّ من ضللوني. والصدقُ لا يعرف سبيلاً إلى قلوبهم كما لا يعرف السترُ سبيلاً إلى أبدانهم. وأنا أعلم أنكم شقيتم في هذه الرحلة. فمنكم السقيم، ومنكم المنهك. بل إن منكم من يتمنى أنه لم ينضم إليها.

فارتفعت أصوات الرجال من الخلف: نعم.. نعم.

لكن تذكّروا: إن استيطان إسبانية الجديدة لم يتم في شهرين، بل في عامين. عامان يا رجال! فلو أن أولئك الرجال قد أذعنوا لليأس ما كانت المكسيك تُحكم بالهدى النصراني اليوم. لم ينهزم أولئك الرجال، ولن نذعن نحن اليوم. إنّ لا فلوريدة أرضٌ شاسعة. فإذا وصلنا إلى المراكبِ وتزوّدنا بما نحتاج إليه سوف نبحث عن مكان أفضل نرسو فيه. ولا تنسوا أن من يخاطر ويصمد في

وجه الصعابِ ينل فوزًا عظيمًا.

ولكن كيف نبلغ السفن؟

ولم يكن للرجال في تلك الليلة حديثًا ولا جدالاً إلا عن طرائق بلوغ السفن. فمنهم من أراد المكث في الخليج إلى أن تأتي السفن فتعثر علينا. لكن زادنا من الطعام، مع إضافة المحار والسرطانات، قليل. فماذا نأكل إن تأخرت السفن أسابيع أو أشهرًا؟ ورأى آخرون أن نقطع الأرض سيرًا من الخليج محاذين البحر حتى نبلغ مرسى بانكو. ولكن هذه الطريق عسيرة، لأن كثيرًا من الرجال مرضى ولن يستطيعوا السير مسافة طويلة.

فكفّ الجميع عن الجدال وهو يقلبون الفكر في هذين الخيارين الصعبين. فكان ذلك الشاطئ الذي فرحنا برؤيته قد استحال شِركًا من شراك العالم الجديد، وأننا سنهلك هنا فيه، وإنِ كنا نجلس تحت بساط من النجوم البرّاقة، فتكاد تمد يدك تداعبها وتلتقطها.

فقلت: ثمة طريقة أخرى. فلنصنع قوارب.

والتفتت كل الأعين صوبي. وقد تعوّد القشتاليون صمتي -وأجزم أن قائدًا أو اثنين حسباني أصمًا أبكمًا - فلم يجد أحد ردًا على ما قلته. لكني قلتُ ما قلتُه وأنّى لهم ألا يسمعوا.

فقال كابيزا دي فاكا: لا نستطيع صنع قوارب. إن ذلك...

لكن دورانتس قاطعه وقال: لا. إن إستبانكو محق. قد لا يكون هناك سبيل للرحيل عن هذه الأرض إلا بالبحر. ألم يقل مرويلو أننا على بعد خمسة عشر فرسخًا عن المرسى بطريق البحر؟ فإن أبحرنا غربًا سنبلغه لا محالة. ومعنا نجارون.

فاستدعى نارفاييز فيرنانديز الرجل الذي استعار منه المطرقة ليعذّب

الهنود، وسأله عن ذلك الشأن. فقال فيرنانديز إنه يستطيع صنع قوارب كبيرة قوية تحتملنا جميعًا في البحر، وأن الخشب متوافر حولنا، لكن ذلك لا يمكن حصوله لأنه يحتاج إلى عدّة النجارة، وقد سقطت من أحد الحمّالين في مستنقع يوم هاجمنا محاربو الأبلاتشي.

فقلت: نستطيع أن نصنع عدّة ثانية.

فسأل دورانتس فيرنانديز: فإن كانت لديك عدّة، كم من الزمن تحتاج لتصنع القوارب؟

بحسب عدد الرجال المشتغلين بصنعها.

فقال نارفاييز وقد نفد صبره: بور ديوس! كل الرجال.. كل الأصحاء. كم من الوقت؟

ثلاثة أسابيع... ربما.

ثم سأل كابيزا دي فاكا: وماذا نصنع بالخيول؟

فأجابه دورانتس: لن نأخذها. فهي ثقيلة على القوارب وعليلة لن تحتمل رحلة بحرية ثانية.

فقال كابيزا دي فاكا: ليس عدلاً أن يُطلب من الفرسان هجر خيولهم. فليس لهم إلا خيولهم.

فغضب نارفاييز وقال: أكان عدلاً أن حاول خمسة منهم الفرار من الحملة؟

فأخفض الخازن رأسه ولم يجب، وقد كان اثنان من الفارّين من رجال فرقته.

وقال نارفاييز: إن كنا نريد بلوغ بانكو فكلنا سنضحي بما نحب. وسوف

ينفعنا لحم الخيول طعامًا.

وقد وهنت أجساد الرجال أو معظمهم من التعب والجوع، فما كانوا يقدرون على العمل ساعات طويلة في صنع القوارب، وكانوا في حاجة إلى طعام طيّب يسد جوعهم. وإن كنا جميعًا نحب الخيول ونكره نحر السليمة منها لنأكل لحمها، فإن هذا ما اضطررنا إليه لنهرب من ذاك الخليج.

***

وكانت تلك هي الخطة، بما فيها من مخاطر وعناء وقلة معرفة بما يتربص بنا. وظل نارفاييز صامتًا معتزلاً الجماعة يومين كاملين لم يعطِ لنا الإذن بالشروع. فكان ينقطع للدعاء مع مبعوث البابا في خيمته، ويتناول طعامه وحيدًا، ويسير ساعات طويلة على الشاطئ، ومن ورائه حاجبه وثلاثة من رجاله. فكنت أراه دائمًا متأملاً متفكرًا يزن الاحتمالات ويرجحها: أنمكث في هذا الخليج ونأمل أن تجرؤ المراكب على الدنو من مياهه الضحلة؟ أم نتوغل في البر ثانية نبحث عن المرسى؟ أم نصنع قوارب ونحاول أن نبلغ البحر، فإما نبحر تجاه بانكو وإما يجرفنا الموج حتى تجدنا سفينة عابرة؟ وربما أكون مخطئًا، فلعلّه لا يفكر بطرائق النجاة كما نفكر، بل يتحسر على فشل حملته. أكان يحسد كورتيس، كورتيس المظفر الداهية الذي عثر على ثروات لا تصدقها العين ونال شهرة عظيمة؟

حتى جاء أمر نارفاييز أخيرًا: سوف نصنع قوارب ونبحر إلى بانكو. فسرّ قلبي بأمره، ووجدت ما أكرّس فيه همتي ووقتي. وأحسب أن دورانتس قد كابد من مشقة الرحلة تحت إمرة نارفاييز ما يكفيه، وأنه سينطلق إلى إشبيلية بعد أن نبلغ بانكو. وقد أقسمتُ في سرّي أننا إن وصلنا إلى إشبيلية فإني سوف أجد سبيلاً للعودة إلى قومي بعد أن غبت عنهم خمس سنين. وهذا العزم هو ما بثّ في جسدي روحًا جديدة، فمن القنوط التام ألفيتُ حلم البداية.

وكان في جماعتنا حداد اسمه إيشيفريا من بلباو، ذكر أنه يستطيع صنع العدة التي نحتاجها إن أعددنا له فرنًا وصنعنا له كيرًا. وأمضى إيشيفريا ساعات صباح كامل يبحث في شاطئ خليج المحار عن المكان الأمثل لحفر الفرن، فلما وجده أخيرًا أمرنا بجمع الحجارة للبناء. ولم يكن معنا جلدٌ لصنع الكير، فأوعز إلينا غونزالو رويز، وهو الرجل الذي سمل الهنود عينه، في استعمال جلد الخيل.

فلمّا أتم إيشيفريا صنع الفرن، أمر نارفاييز الجند بتسليم كل معدن. فقدّم الجنود الخُوذ والدروع والزرود والركائب والمهاميز. بل إن دورانتس رمى في النار الموازين المعلّمة التي جلبها ليزن الذهب. وإن أبى جندي تقديم درعه خاطبه مبعوث البابا وذكّره أنه جاء إلى هذه الأرض في سبيل جلالة الملك وقداسة البابا، وإنه لإثم عظيم أن تعصي أمر مبعوثهما في هذه الأرض، وإنك محتفظ بسيفك لا تزال. فما يلبث الجندي أن ينزع درعه ويلقه على كومة الحديد. فأفزع صوت قعقعة الحديد زمج الماء وطيور الطيطوى التي كانت تلتقط طعامها على الساحل، فضربت بأجنحتها وطارت.

وبينما إيشيفريا يصنع الفؤوس والمناشير من الحديد المذاب، كان فيرنانديز النجّار يقود فرقة من الرجال داخل الغابة كي يبحثوا عن الخشب المناسب للقوارب. فاختار منها الصنوبر والأَرز، لأن خشبهما خفيف فيطفو على الماء، وثقيل فيحتمل أوزان الناس. وكان يعلّم جذع كل شجرة يرى نفعها بصليب. فلما صنع الحدادُ الفؤوسَ شرع الرجال يقطعون الشجر، ثم يجردونه من فروعه فيحملونه إلى الشاطئ، فيتولى فيرنانديز شطرها بالطول. ثم يقسّم أنصاف الجذوع إلى خمس مجموعات (فقد أمر نارفاييز فيرنانديز أن يصنع خمسةَ قوارب تحمل الفرق الخمسة التي أتت بالسفن من إشبيلية).

وقد نفدت الحبال التي كانت معنا فلم نجد ما نوثق به أخشاب القوارب،

فأشار كابيزا دي فاكا أن نستعمل شعر الخيل. فكلما نُحر فرسٌ غُسل عرفه وذيله، ثم مشط وجُعل في ضفائر طويلة. فكان عجبي شديدًا لّما رأيت حبالها غليظة. أما المجاديف فصنعت من خشب السرو الذي جُلب من ناحية في الغابة تبعد نحو نصف فرسخ. وأما نُكاثة الحبل فصنعها متوطن إغريقي من عصارة شجر الصنوبر بعد خلطها بورق الشجر فكان عجينًا ثقيلاً، وطلى بهذا القار الألواح.

وحيث إني اشتغلت ببيع الأنسجة في إشبيلية فقد عرضت أن أقص القماش وأخيط منه أشرعةً. فأخذت أجول بين الرجال أجمع الأعلام والملاحف والقمصان والثياب وكل قطعة قماش أجدها حتى المناديل. فتجمّع لدي نسيج مختلف الألوان والأشكال والقماش. ولم أرَ في حياتي أشرعة مثلها قط، فغمر الفخر قلبي. ولّما نشرتُ الشراع الأول فتحرك بفعل الريح أعجبت بصنع يدي.

وقضينا قرابة خمسة أسابيع في صنع القوارب، فكنا نأكل المحار ولحم الخيل. وكان نارفاييز يأخذ رجاله فيغيرون من حين إلى حين على آوتي فيحصدون الذرة الناضجة من حقول القرية. وكنّا نحفظ معظم الذرة التي يجلبونها لتكون لنا زادًا في رحلة البحر. ولم نعرف على وجه الدقة كم سنقضي على السفن حتى وصولنا إلى بانكو، فجمع نارفاييز من محصول الذرة ما يقيم أودنا سبعة أيام.

وكان أول فرس تُنحر هي فرس أحد الفارّين بأمر من نارفاييز، فسلّم صاحبها لجامها للجندي وعيناه تفيضان دمعًا. ثم توالت خيول القادة فرسًا فرسًا، فسيقت وراء صخور كبيرة ونُحرت رقابها. حتى جاء دور أبيخورو المسكين، فسار به دورانتس على طول الشاطئ، ثم أطعمتُه شيئًا من الفاكهة التي يحبها وأوردته النهر ليرتوي، وصرت ألاطفه وأمسح على أنفه ورقبته،

حتى لم يُجدِ تأخير المقدّر، فتناول الجزّار عنانه مني وذهب به وراء الصخور. ثم سمعت صهيل أبيخورو خائفًا مع آخر أنفاسه، وسال دمه حتى اختلط بماء البحر.

وأتممنا صنع القوارب الخمسة مع بدء موسم الخريف. فالرياح قويةٌ مواتية ولّما ينزل المطر. فكان أول مركب لنارفاييز ورجاله المقرّبين، وكانوا أقوانا بدنًا وأحسننا صحةً، لأنهم كانوا يركبون الخيل وينالون أحسن الطعام طوال شهور المسير. وكان لمركبهم أفضل شراع مخيط من راية الحاكم وخيمته، وهما أعرض قماش في الحملة بأسرها. (وأنا أيها القارئ الكريم إذ أورد دقائق الأمور فليس ذلك بسبب غيرتي أو سخطي، بل إنما أحببت تحري الصدق والدقة عن أحوالنا يوم رحلنا عن لا فلوريدة).

وأما القارب الثاني فأمر نارفاييز بأن يكون تحت إمرة آلانزو إنريكس مفتش المال، ومعه مبعوث البابا وثلاثة وخمسون رجلاً. وأما القارب الثالث فأُعطي للقائد تييز ومعاونه بينالوزا مع تسعة وأربعين رجلاً. وأما الرابع فأمر الحاكم أن يكون لكابيزا دي فاكا وألبانيز كاتب العدل ويصحبهما واحد وخمسون رجلاً. أما آخر قارب وهو الخامس فوضع نارفاييز فيه دورانتس وكاستيو وبقية رجال الرحلة، ومنهم عبد الله مصطفى بن محمد.

وكنا قد وصلنا إلى لا فلوريدة رجالاً بمقامات متباينة ومن بلاد شتى، لكن الفرق بيننا تلاشى. وقد تطوّعنا بثيابنا لصنع الأشرعة فكنّا شبه عراة، في هزال وشقاء ولهفة شديدة للرحيل. أما أطماعنا فقد قصرها عذاب المسير في الشهور التي خلت، فما بقي منها سوى مطمع واحد فحسب: النجاة. فاحتملنا القوارب صوب ماء الخليج ثم ركبناها.

وأتذكر، إن لم تخني الذاكرة، أننا أبحرنا في غرة محرم في عام خمس وثلاثين وتسعمئة من أعوام الهجرة. وقفت في مقدمة قاربنا، وكلّي حماس للانطلاق

إلى بانكو أو كوبة، أو إلى سفينة تغيثنا، أو إلى أي قطعة أرض إلا تلكم التي رحلنا عنها. وأمر دورانتس ببسط شراع مركبنا، فنظرت إليه وقرأت في وجهه ما أتحرّق إليه؛ رباه أعنّا على الرحيل عن هذه الأرض التي لم نلقَ فيها سوى الشؤم والبؤس، وما هي إلا ابتلاءٌ يُمتحن به إيماننا وعقاب نكفر به عن سيئاتنا.

10

حكاية رامة الله

كانت تشبهكِ.

ظلّت رامةُ الله تعيد هاتين الكلمتين مرات كثيرة، كأنها رقية تستشفي بها من وجع ممضٍ. وقد رأيت في تصرفاتها ذاك النهار توددًا يفيض من حنايا نفسها يزيد عن المعتاد منها، فكانت تلمس ذراعي وتميل إليّ وهي تحكي ما جرى في يومها. ورأيت كذلك أنها غير حاضرة الذهن، وقد تعطّر المطبخ برائحة الأرز بالزعفران، ولم تقم كي تقلّب ما بالقدر. قالت: والله أني سمعت صاحبة الحمام تقولها. قالت: كانت تشبهكِ.

وما جرى هو أنّ سيدتنا عزمت الذهاب إلى الحمام في سان خوان دي لا بالما. ولم يكن من عادتها قصد الحمامات العامة، لكنها قالت إنها في أمسّ الحاجة إلى الراحة، بعد أسبوع قضته في نزاع متواصل مع زوجها. فدخلتْ الحمام وخلعت ثوبها الأسود وطرحت عنها سوء المزاج، وطلبت من جارية الحمام غسل جسدها ودلكه بالزيوت العطرية. وكانت رامة الله في انتظار سيدتها على مقعد خشبي في الباحة، ومعها إبريق الماء البارد وجفنة البرتقال. وهي تزجي الوقت بتتبع النجوم المرسومة على بلاط الجدران بأصابعها. فعندئذٍ لمحتْ صاحبةُ الحمام الوشم الأزرق على يد رامة الله، وقد رأت وشمًا مماثلاً على يد جارية صغيرة.

فسألتها رامة الله: وشم مثل هذا؟ بسبعة أسنان؟

وكانت صاحبة الحمام امرأةً قصيرة سمينة، ترفع شعرها فوق رأسها ولها

حاجبان عريضان. وكانت تستند بردفها على المنضدة وهي تطوي الفوط بسرعة وبراعة. قالت: سبعة أم ثمانية أم تسعة. كيف لي أن أعرف؟ إنما هو مشط.

متى جاءت إلى هنا؟

قبل أسبوع.

مع سيدتها؟

لا ريب أنها أتت مع سيدتها. أوكنت تحسبين أنها تدخل هذا الحمام وحيدة؟

فسكتت رامة الله. ولما رجعتُ إلى البيت تلك الليلة، حكت لي ما وقع بينها وبين صاحبة الحمام، وهي تكرر كلمتها: كانت تشبهكِ.

ثم إن رامة الله أخذت تسأل عن آمنة كلَّ عبد أو خادم تلقاه في كلِّ مرة تبعثها سيدتنا إلى دكان الجزار أو الخباز أو الخياط أو الإسكافي. وكانت واثقةً أن تلك البنت التي ذكرتها صاحبة الحمام هي آمنة، وإن كان الوشم سمة بنات قبيلتها كلهن. حتى أنبأها خادم أحد الجيران بعد احتفال عيد النصارى بمولد المسيح إنه رأى بنتًا بهذه الأوصاف في مارستان سانتا آنّا، وكانت تحمل قفة طعام لعجوز. فهتفت رامة الله: هي آمنة.. أنا واثقة. إنها آمنة.

قلت: فابعثي لها برسالة.

لا أحسن الكتابة يا مصطفى. ولا هي تحسن القراءة.

أكتب أنا إذًا الخطاب لأجلك. وستعثر هي على مَن يقرأه عليها.

ستعثر على من يقرأ العربية هنا؟ في إشبيلية؟

فقلت: نعم. أحد مثلي.

فكتبتُ الخطاب بأحسن الخط، غامسًا طرف الريشة في صبغة زرقاء على قطعة كاغد سرقناها من السيد. وأملتني رامةُ الله الكلامَ وهي تنظر من وراء كتفي: إلى آمنة من أملكِ. أسكن في بيت في محلة تريانا، واسم السيد برناردو رودريغيز. وهو رجل معروف فإن سألت أحدًا في السوق فسوف يدلّكِ. وأنا في أتم صحة والحمد لله. وأرجو أن تكوني بخير. ابعثي لي مكتوبًا يدلني إلى طريقكِ.

وبأمرها ختمتُ الخطاب: أمك المحبّة.

ونفخت رامة الله على الحبر حتى جفّ، ثم دسّت الوريقة في صدر قميصها. وجلست بقربي على الحصيرة حتى وجدتُ ريح الخزامى في ثوبها. وسمحت لنفسي فوضعتُ يميني على يدها اليسرى، فلم تتزحزح. وجلسنا على تلك الهيئة يدًا فوق يدٍ. وخطر لي أني لم أفكر قط في إرسال مكتوب لأهلي. ولكن ما السبب؟ لعلي خجلت أن أحكي لهم عن حياتي: تبديل ديني، والضرب المواصل، والنوم في خزانة المطبخ. ولعلّي لم أرد أن أزيد حزنهم بغيابي. أو ربما كان التمسّك بروابط الدم شأن تحذقه النساء أكثر من الرجال.

***

وكنت في غشية النعاس ذات ليلة، فإذا بي أسمع قرقعة الحلل والصحاف النحاسية في المطبخ. أدخل لصٌ البيت؟ كنت غائبَ الذهن ما بين اليقظة والنوم فلم أتحرك من فراشي، ولكني لمّا تذكرت رامةَ الله قمت مفزوعًا. فانسللت خارج خزانتي، وليس معي شيء إلا لحافي وقد برمته فكان كالحبل، وأنا أرجو أن أباغت اللص وهو يسرق. وقطعت الباحة المظلمة، وأنا متيقّظ لأي مُعينٍ للص قد يكون مندسًا وراء أعمدة البيت. ثم سمعتُ صوت ضرب المعدن من المطبخ مرة ثانية. وعجبت من ذاك اللص الذي لا يبالي بالجلبة التي يحدثها. ففتحت الباب بطرف قدمي بهدوء.

ثم إنّي رأيت ساقيّ رامة الله الطويلتين ترتعشان في الظلام، وقد جثم من فوقها برناردو رودريغيز. ولمحت باطن قدميها الموردتين يعلوان وينخفضان، ثم يعلوان وينخفضان، ثم يعلوان وينخفضان. وقد سمعتْ صوتَ فتح الباب رغم قرقعة الحلل وتثاقل أنفاس السيد، فالتفتتْ إليّ، وظللنا ننظر إلى بعضنا من وراء ظهره. وكانت النظرة الصامتة بيننا توصل تكذيبنا لما يجري، والغضب والألم والتمرد يفورُ في عروقنا. لكنّ الخوف هو ما انتصر في النهاية، فصرفتْ وجهها الناحيةَ الأخرى، وأخفضتُ عيني ورجعت إلى خزانتي.

ولم تذكر رامة الله لي اعتداءه قط، ولم أشر أنا إليه قط، لكن ما رأيته أقضّ مضجعي تلك الليلة والليالي التي أعقبتها. فكنتُ إذا دخلتُ المطبخ فلمحت ردفيّها حاولت ألا أتصور أصابع سيدي الثخينة تتحسسهما. حاولت ألا أتذكّر شفتيه تقبلان عنقها. وحاولت كل جهدي ألا أتصور ركبته وهي تفرق بين ركبتيها على الحصيرة نفسها التي نتسامر عليها كل ليلة. فكانت كلما خطرت تلك الهواجس في عقلي قلّبتها وخلطتها بأفكار لا تحزنني حتى أنساها إلى الأبد.

ونحن وإن كنا لم نتكلم عن أفعال السيد بها فقد وجدنا وسائل نقتصّ بها منه، كأن تفسد رامة الله طعامَه أو شرابه، أو أوقعُ حملَ البضاعة فتنكسر في طريقي من الميناء. وهي حيلٌ صغيرة نأتيها خفيةً، وهذا انتقام الضعفاء من الأقوياء. وكانت تلك الأفعال تثير سخطه وإن لم تنجح دائمًا في تحقيق ما نريده، بل إننا في بعض الأحيان نلقى جزاءنا بسببها.

وكانت رامة الله اسمًا على مسمى. هي رحمة من الله أرسلها إليّ، وصاحبتي في تلك الدار التي أحادثها بما أشاء، وتعرف ألم الغربة والعبودية مثلي. فهي حين ضربني السيد بالسوط لأني كسرتُ آنيةً عالجتني بوضع الزبدة على

الجروح، ولما قصّتْ السيدةُ شعر رامة الله دون سبب قلتُ لها إنّ هيئتها بدونه أجمل. وراقت لنا صحبتنا، وقد جمعتنا مصيبتنا ووحدتنا. فكنا نتحادث بعد العشاء في المطبخ حديث نديمين طالت العشرة بينهما حتى كان لهما لسان خاص لا يفهمه إلا هما.

وتكلمنا كثيرًا عن تلك الرسالة، ونحن نحسب أنها بلغت ابنتها آمنة، لكنها لمّا تجد من يقرأها لها بعد، أو أنها عثرت على من يقرأها لكن لم تجد من يرغب في كتابة الجواب، أو أن سيدتها عثرت على الجواب فمنعتها من إرساله. لكن كان هذا تخمين محض، كمن ينظر إلى السماء وهي صافية ويحدس متى تمطر.

ومع هذا فقد بقيتُ أرقب ظهور أي أحدب وأنا أشتغل في الدكان.

***

ومرت سنة ثم اثنتان. وازدهرت تجارة سيدي. والسفن تعود من بلاد الهنود محملّة بأعاجيب البضائع كل مرة؛ ريش ببغاء أحمر وأصفر زاهٍ تتزين به نساء أعيان المدينة، ونبات جذري يُدعى بطاطا له طعم غريب يشعر آكله بيبس النشاء، ومطرّزات بديعة النقوش فاقت مثيلاتها من النُسُج. وراجت هذه البدائع في إشبيلية رواجًا عظيمًا، ومع هذا سمعت رودريغيز يتذمر في غير مرة من الضرائب التي فرضتها دار التجارة على كل ما يرد من خارج البلاد. فكان يتساءل بيدين مضمومتين كمن يتضرع إلى ربه: كيف لرجل شريف أمين مثلي أن ينمّي تجارته والملك يوقع عليه هذه الأوامر والقيود؟ وقلّما كان أصحابه يجيبونه، وإن كانوا كلهم من أهل التجارة. فتبيّن لي أنهم لم يكونوا من نفس الرأي، أو أنهم لا يحبون الشكاية مثله.

وإنّ سرّ سطوعِ نجمه في التجارة هو براعته في الإقناع، وكذلك استطاعته

تغيير حاله مع تبدل ظروفه. فتراه يحادث التاجر والملّاح وكاتب الملك والسيد كلٍ على طريقته وبلسانه. وكانوا يستجيبون له جميعهم، وإن لم يخفِ الكبراء هزوهم وامتعاضهم من ذا التاجر الحقير الذي يكلّمهم كأنه واحد منهم. بل إن سنيور رودريغيز شرع في منادمتهم في مجالس لعب الورق ومنافستهم في وضع أمواله رهن المقامرة. وقد رجع ذات ليلة ثملاً من اجتماع كهذا، فأمر زوجته ألا تلبس إلا الحريرَ والتفتةَ، وأن تطرح عنها قمصان الصوف التي تبدي للناس أصل نسبها، ابنة جزارٍ من قادس. فتشاجرا، ثم جثت هي على ركبتيها تدعو، وانصرف هو عائدًا إلى الحانوت.

فلما كان اليوم التالي اشترى سيدي لامرأته سوارًا فضيًا، ولثم يدها وألبسها إياه في معصمها. وأهداها كذلك حريرًا، وصورة مرسومة بألوان الزيت لقديس في دينهم، فكان اغتباطها لا حدَّ له. وظهرت علامات الثراء والترف على تجار إشبيلية، فكان لا يعجزهم إيجادُ سبلٍ جديدة لصرف أموالهم. وكنت وسيدي يومًا سائرَين إلى الحمام، فإذ بعربة تقف بقربنا ووجه صاحبه ماتيو يطلّ من شبّاكها. ولشد ما تعجّب سيدي، حتى أن لسانه انعقد وما كاد يرد على تحية صاحبه. ولما انصرفنا عن ذي العربة قرأتُ في وجهه غيرته واشتهاءه ابتياع عربة لنفسه مثل صاحبه. وكان لبرناردو رودريغيز من الأُجراء والأرقاء ما ينفي الحاجة إلى حضوره إلى المحل كل يوم، فأوكلني فتحه وغلقه. فكثر تردده على الحوانيت مع ندمائه، وتعوّد القمار.

وأتذكر أنها كانت ليلة صيف اشتد حرها. وسمعت صوت عربة بائع الشراب المحلّى تصرصر على الطريق المرصوف بالحجارة. والورد الأبيض يذوي في الباحة، فعبق الهواء بطيبها. أما في خزانتي فلم أجد نسمة شاردة والحيطان من حولي رطبة. وبينما أنا مستلقٍ على فراشي وقد خلعت ثيابي إلا سروالي، فإذا برامة الله تظهر من عند الباب، وبيديها آنيتان فيهما فضل حساء

العدس وكان عشاءنا تلك الليلة.

فعجلت بلبس قميصي وأنا أقول: لو ناديتني لخرجت إلى المطبخ.

فأجابت أن المطبخ أشد حرًا. ولمحت في عينيها بريقًا متخابثًا كعهدي بها كلما نمى إلى علمها خبرًا تريد أن تسارّني به.

فجلسنا على الفراش، وكنت قد صنعته من قطع مخلّفة في دكان سيدي، حكتها ببعضها البعض حتى صار شيئًا كالفراش. وعلّقت على مسمار الحائط كلَّ ما لدي من ثياب، قميص قطن وسروال أسود ابتاعته لي سيدتي وأمرتني بارتدائه كل أحد.

قالت رامة الله: تشاجر مع زوجته مرة أخرى.

فسألتها: علامَ؟

قماره.

فقلت: هذه المرة الرابعة هذا الأسبوع. فكلما زادت تجارة سيدي استحدث سبلاً يضيّع فيها أمواله، فكانت زوجته ابنة الجزار، وهي على غير عهد بالعز، تستاء وتسخط.

فقالت رامة الله: لا يملك مالاً يقضي به دينه هذه المرة.

إنه كاذب. لديه من المال ما يكفي.

لا. يجب أن يقضي الدين لدائنيه بعد سبعة أيام، قبل أن يرحلوا إلى بلاد الهنود.

فرفعتُ كتفي غير مبالٍ، وقضمت قطعة الخبز. وما اكتراثنا نحن لما يجري له؟ وكنت أتعجب لاهتمام رامة الله بالإنصات لكل ما يدور بين سيدنا وزوجته على مائدة طعامهما. أما أنا فيشقّ عليّ سماع متاعبهما وما يجري في

حياتها، لأنها تذكّرني بحياة أحبتي واشتياقي لهم. ولم أكن قد تنبّهت لنبرة صوت رامة الله، فلما رأيتُ الحزنَ في عينيها وضمَّ شفتيها ضمًّا شديدًا بالنور الواهي الداخل إلى الخزانة كففتُ عن الأكل وانتظرت الخبر.

فنطقت رامة الله أخيرًا بهمس: أوعزتْ إليه زوجته في بيع أحد العبيد ليقضي دينه.

فقلتُ في سرّي: لا! إلا هذا! وقد كانت السيدة تفتش منذ أشهرٍ عن أعذار تخلّص بها نفسها من رامة الله، فلم يخطر في بالي أن يقدّم لها السيد الفرصة. سيبيع الرفيقةَ الوحيدة التي وجدتها في إشبيلية وأنِستُ بها كي يرد دينه، ولن أراها بعد ذلك أبدًا. وإن مجرد التفكير بفقدها يفطر قلبي بألم لا أظنني أحتمله. فاقتربتْ رامة الله مني ووضعت ذراعها على كتفيّ. ثم ذهب نور الشمع.

***

وأشرقت شمسُ ذلك اليوم كمثل سابقه من الأيام. انصرفت مع برناردو رودريغيز إلى الدكان كما نفعل كل صباح، فوقفنا في الطريق عند بائع الحمص المسلوق، وهو يرى أكله الحمصَ عادةً تخفض من منزلته بيد أنه لم يجر سبيلاً إلى منع نفسه من إتيانها. وفي الدكان حسبنا البضاعة، فكنتُ أعدّ لفائف الكتّان ويدوّن هو أعدادها في سجلّه، وأما الأجراء فاشتغلوا بتنظيف المخزن. وجاء مشترٍ لمّا انتصف النهار يطلب شراء سلعة بالأجل، فرفض السيد. ونشب نزاع بين صبيين من الحمّالين خارج الدكان فخرجنا جميعًا نستطلع الأمر. لم يحدث شيء مهما صغر شأنه يجعلني أظن أن هذا اليوم مغاير لسابقه، حتى قام سيدي عن منضدته على حين غرة، وأمرني باتباعه.

وكنت أحسبنا قاصدَين إِل أرينال، لكن سيدي انطلق إلى حارة ذات بيوت

فارهة وشوارع نظيفة، فلا تجد فيها قشور الخضار ولا روث الحيوانات. ومرّ بنا رجال يظهر عليهم العز وعلو المكانة، يرفلون في حللٍ فاخرة ويتكلمون بأصوات خفيضة. ووصلنا إلى بيت أبيض في مدخله أقواس عريضة، عرفت بعدئذٍ أنه ملك لكونت اسمه لويس دي برادو. وكنا نقصد زيارة ضيف من ضيوف دون لويس، يدعى أندريس دورانتس دي كارانزا وصل إشبيلية منذ أيام. وفتح لنا خادم باب القصر، وقادنا إلى باب جانبي أفضى بنا إلى بهو خالٍ. وجلسنا ننتظر ونتأمل سقف الجص ونقوش السجاد بإعجاب، حتى رجع الخادم وأخذنا إلى مجلس.

فوجدنا رجل ينظر إلى الشارع من الشباك. فتنحنح برناردو رودريغيز مرةً ولم يلتفت الرجل، ولمّا تنحنح ثانية انصرف أندريس دورانتس عما كان يراقب واستدار نحونا. وكان رجلاً قوي البنية أشقر الشعر أزرق العينين. ورأيت ندبة طويلة على خده الأيمن، فتساءلت في نفسي عمّا أحدثها. قطع عرض الحجرة بخطى سريعة، ونظر إلينا نظرة الكبر التي لا يحسنها إلا السيد. أهذا هو العبد إذًا؟

فأجاب سيدي: سي سنيور.

لا أظنه يساوي المال الذي تدين لي به.

فكانت تلك أول إشارة لسبب اصطحاب سيدي لي إلى هنا. وكنت أحسبه منصاعًا لرغبة زوجته فبائعًا لرامة الله، لكنه أراد بيعي أنا. لماذا لم يقل لي رودريغيز بما اعتزمه؟ ما بين لحظة وأخرى تغير حالي؛ كنت في الدكان أطوي نسائج القطن ثم صرت واقفًا في هذا البيت أُباع لسيد آخر. حتى إنّي لم أودّع رامة الله. ثم لماذا يبيع عبدًا؟ إن كان ضيق اليد فلِمَ لا يبيع العربة الجديدة التي اشتراها؟

إن إستبان يساوي أكثر من ذلك سنيور. إنه يتفضل على غيره من الأرقاء.

وبأي شيء يتفضل عليهم؟

إنه صبور وأمين، وقلما اجتمعت هاتان الصفتان في عبد.

من أي بلد أتى؟

من بلدة على الساحل المغربي. وفيه جَلد وسيحتمل رحلة بحرية.

إن السفر من الساحل المغربي ليس كمثل السفر إلى بلاد الهند.

لا شك في هذا. لا شك. ولكني واثق أنه سيحسن خدمتك هناك.

وكم عجبت لوصف سيدي لي بهذه الصفات! فإني كنتُ إذا أبطأت ولو قليلاً في تسليم البضائع نعتني بالمغربي البليد، ولو سألته أي سؤال مهما قلّ شأنه ينهرني ويأمرني بالسكوت. ولكنه الآن وهو يبتغي بيعي فإن سيرتي على لسانه صارت سيرة أفضل الرجال. سبحان الله مغير الأحوال.

وإن كان قولك صحيحًا فإن هذا العبد لا يساوي المئتي دوقت التي أطلبها منك. فانصرف به وارجع بمالي.

فتنفست الصعداء وحسبتني نجوت من البيع.

ولكن رودريغيز أخرج منديلاً مطرزًا من جيبه فمسح به وجهه، وقال: يا سنيور، قد تظن أن مئتي دوقت كثيرة لكنك ستجد فيه عبدًا أمينًا مجيدًا لشغله. وأنا أعلم أنك لن تجد رجلاً بهذا الثمن الغالي في إشبيلية. بل إنك لتجد عبدًا صالحًا هذه الأيام بأربعين دوقتًا، ولكنك راحل إلى بلاد الهنود، وهم لا يتكلمون بلساننا ولا يفهمون أوامرنا، فإن بعته هناك فسوف تكسب ستة أو سبعة أضعاف هذا الثمن. بعه في أول ميناء ترسو به بأضعاف ثمنه، والمزارع في لا إسبانيولة في حاجة ماسة إلى العبيد.

فأمال سنيور دورانتس رأسه جانبًا ونظر إلى رودريغيز هازلاً: ستة أضعاف؟

على أقل تقدير.

ولكن لِمَ أعني نفسي بنقل عبدك معي إلى لا إسبانيولة كي أسترد نقودي؟

لأنك ستكسب أكثر مما أدين لك به.

والأمر أيسر عليّ لو رددتَ لي المال الآن.

الأمر أيسر كما تقول يا سنيور. لكن في صبرك ربح لك. وأنت كذلك ستنعم بخدمة العبد لك في مدة الرحلة.

أوتحسب أني مسافر لأمتّع نفسي؟

لا. وأنا أعلم أن في سفرك المخاطر والمشقة. لكن العبد سوف يخففهما عنك.

ونخز سنيور دورانتس بسبابته ذراعي يثمّن السلعة. ولم تكن تلك أول مرة يتحسّسني رجل على هذا النحو، ولكني لم أعتد على هذه المذلّة قط.

وقال رودريغيز وقد فاضت الثقة في صوته: وأرجو أن تقبل مني هذا القرط الذهبي من يوكاتان[1] علامة امتناني لفضلك الغامر.

فتناول سنيور دورانتس القرط من يده فتفحصه بفضول عظيم. وقال: عجبي. إنهم ينقشون هيئة الحيوانات على حليّهم. أتظن هنود لا فلوريدة يفعلون ذلك أيضًا؟

فأجاب رودريغيز: وكيف لي أن أعرف وأنا مجرد تاجر ولست قائدًا

1- منطقة في المكسيك.

بحريًا جسورًا؟

وقال سنيور دورانتس: لا بأس يا رودريغيز. ثم وضع القرط في جيبه وأكمل: لكنك ستبلي حسنًا لو هجرت لعب الورق. هذه لعبة خطرة على رجل مثلك.

وضحك لطرفته، وضحك رودريغيز معه مرتاحًا. ثم قدّم رودريغيز عقدًا فكتب كل رجل اسمه على الورقة التي نقلت ملكية هذا العبد من أحدهما إلى الآخر.

***

ودخلنا دار التجارة في البكور، فألفيناها تعج بالناس والجلبة. وكثيرًا ما دخلت هذا البناء مع برناردو رودريغيز، لكني في ذاك الصباح كنتُ أسير خلف سنيور دورانتس وهو يدخل في أروقة لم أدخلها من قبل، ثم يقطع بهوًا فاخرًا تعلّقت به صورة الملك، ثم يمرّ على عاملين يتجادلان ومن بينهما خريطة، ثم يدخل إلى حجرة صغيرة مغبرة حيث يسجّل فيها الراحلون إلى بلاد الهند بضاعتهم. فكان النور الخافت ينفذ من الشبابيك العالية فيقع على صليب من نحاس، ورف كتب، وسراج غُطّي بالدِمَقس، وينتهي عند الكاتب. رجل أحدب وله نونة على ذقنه.

أردت أن أصرخ: وجدته! وجدته يا رامة الله! وشعرت أن القدر يهزأ بي. كنتُ أفتّش عن هذا الأحدب ثلاث سنين، في الدكان وفي الشوارع وفي إِل أرينال، فلمّا وجدته أخيرًا لم أستطع أن أخبر رامة الله عنه. ولو أنّي عثرت على ورقة وبعض الحبر، فكيف أبعث بالمكتوب إليها وليس لي من أثق به؟ لن تعرف أبدًا أن سيد بنتها قريب هنا. حدقت بالأحدب كأن شخوصي به ينبئ رامة الله بوجوده دون كلمات.

وقال سنيور دورانتس إنه يريد تضمين اسم عبده الواقف هنا في السجل لأنه راحل معه بعد أسابيع إلى بلاد الهند.

ففتح الكاتب سجلاً مجلّدًا ولعق سبابته فقلب الصفحة. ثم سأل أسئلة كثيرة ودوّن أجوبتها، فعرفت من الحديث أن سنيور دورانتس من بلدة اسمها بيهر ديل كاستنيار في ناحية جبل العيون،[1] وأن عمره اثنان وثلاثون، وأنه يعتزم قيادة سفينة تُسمى غراسيا دي ديوس، وأن الحملة التي انضمّ إليها يقودها سنيور نارفاييز.

فأحجم الكاتب عن الكتابة رافعًا طرف الريشة المحبّر فوق السجل وسأل: بانفيلو دي نارفاييز؟

هو بعينه.

فسأل الكاتب: أتعلم كيف فُقأت عين نارفاييز؟

فأجاب سنيور دورانتس: لا. وما يعنيني من الأمر؟

فتجاهل الكاتب تساؤل دورانتس، وأجاب عن السؤال الذي طرحه هو. وقال: قبل تسعة أعوام، سمع دييغو فيلازكيز حاكم كوبة من بحارةٍ ضلّوا في البحر أنهم عثروا على أرضٍ جديدة في الناحية الجنوبية الغربية من جزيرته. وإنها أرض غنية وافرة الثروة، وأنهم لمّا قدّموا خرزًا للهنود أعطوهم ذهبًا وفضة. فأراد دييغو فيلازكيز أن يبعث مساعده وهو إرنان كورتيس المعروف ليستكشف الأرض ويضمّها إلى حكمه، ولكن ثقته بكورتيس لم تكن كبيرة. فماطل فيلازكيز وأرجأ إصدار الأمر، ولم يدرِ أن كورتيس قد اشترى السفن وما ينبغي للرحلة. فلما عقد فيلازكيز العزم على عزل كورتيس من منصبه، كان كورتيس قد رحل عن كوبة دون إذن الحاكم. فوصل كورتيس إلى

1- في الإسبانية (Gibraleón)

إسبانية الجديدة، وأقام في فيراكروز مستوطنًا، وتحالف مع زعماء القبائل فيها وهم تحت إمرة الإمبراطور موكتيزوما. وكان موكتيزوما هذا بالغ الثراء كما تعلم بما لا يتصوره العقل، فرام كورتيس غزو حاضرته. لكن تفشّى الخصام والريبة منه بين جنوده، فما كان من كورتيس إلا أن حطم السفن جميعها فلم يجد الرجال بدًا من المسير إلى مدينة موكتيزوما.

وأي شأن لنارفاييز بهذه القصة؟

أراد فيلازكيز منع كورتيس من رفع راية حكمه في تلك الأرض الجديدة فأرسل صاحبه في أثره، وكان هذا الصاحب هو بانفيلو دي نارفاييز. فبلغ نارفاييز إسبانية الجديدة بجيش يزيد عن جيش كورتيس بأربعة أضعاف، وله من العتاد والقوة ما لا يطيقه كورتيس. فحلّ رحاله في بلدة هندية على الساحل، وبعث رسلاً إلى الإمبراطور موكتيزوما يبلغه أنه مبعوث التاج الحقيقي ولا أحد غيره. لكن كورتيس عرف بأمر الرسل من عيونه وحلفائه الهنود. فرجع كورتيس إلى الساحل، ورشا حرّاس نارفاييز، فأغار على معسكره ليلاً. فوقعت معركة سُملت فيها عين نارفاييز وهجره بعض رجاله فانضمّوا إلى جيش كورتيس. فكان كورتيس هو من ضمّ المكسيك لمملكة ملكنا المعظم.

فقال سنيور دورانتس: ليس لهذه الحملة صلة بكورتيس أيها العجوز. ونارفاييز هو من يملك رخصة جلالة الملك لضمّ لا فلوريدة إلى أراضي التاج. وليس لأحد غيره هذه الرخصة.

أما أنا فاستشعرت من حكاية الكاتب إنذارًا أحسب سنيور دورانتس لم يفهمه. فقد كان في عجلة من أمره يريد الخلاص من هذه الأعمال المملة فيعود إلى منزل دون لويس.

وسجّلني سيدي في ذاك السجل بالاسم الذي أطلقه عليّ منذ ذلك الحين. فدخلتُ دار التجارة إستبان ثم خرجت منه إستبانكو. إستبانكو.. تبدّل ديني، وانقطعت عن أهلي، والآن يسمونني باسم الصبي لديهم.

***

وجدت نفسي بعد ثلاثة أيام على متن كارافيل يحمل اسم غراسيا دي ديوس. فشعرت تحت نعليّ بحركة الماشية في مرابطها في الطابق السفلي، وبميد ماء الوادي الكبير. وكنت أقف خلف القائد دورانتس لمّا ركب رجل بثياب سوداء متأنقة السفينة، وتقدّم بخطى سريعة نحو سيدي الجديد. فقال سنيور دورانتس: ألبانيز، مرحبًا بك.

فأخرج سنيور ألبانيز من قمطره الجلدي لفافة فضّها بحركاتٍ متأنية ممتثلة. وقد ركب السفن الأربعة الأخرى في الأسطول فكانت غراسيا دي ديوس آخر سفينة في جولته.

وسأل سنيور دورانتس إن كان كل شيء على أهبة الاستعداد، ثم تناول منه الريشة المغموس طرفها بالحبر. ولم ينتظر إجابة من كاتب العدل، بل استدار نحوي عاقدًا الحاجبين يقرأ الخطاب. ودون أن ينطق بكلمة أو حتى يراني حق الرؤية أحنيت له ظهري، ففرد الورقة عليه وكتب فيها اسمه. ثم قال: ها قد ختمت الورقة. نحن جاهزون. اقرع الجرس يا إستبانكو.

وبينما أنا أشدّ الحبل المنعقد نظرت إلى المدينة أمامي. وطوال مدة عيشي في إشبيلية حاولت جهدي ألا أتعلق بأي شيء من حولي، لا بالعدّة التي تتدلى من نطاقي وأنا أشتغل في الدكان، ولا بطعم العدس في حسائي عندما أتعشى، ولا بصوت ماء الفوّارة في الفناء عند استيقاظي، ولا بتلألؤ

ألكازار[1] لمّا يتنعم بشمس الظهر. وبذلت كل جهدي ألا أحبّ. وأنا على علمٍ أن ذلك ما ينبغي عليّ إن أردت النجاة في أسري. ولكني ما استطعت منع نفسي من الشغف برامة الله، فتجرّعت من كأس الفراق المر مرّة ثانية. ورحلت عني البهجة الوحيدة التي وجدتها مذ صرت عبدًا. البهجة التي أعطتنيها فارقتني إلى الأبد. وإني لأتساءل الآن إن كانت تفكر بي كما أفكر بها، وإن كانت تدري أني رحلتُ إلى لا فلوريدة في حوزة أندريس دورانتس، السيد الكريم، وفارس الحرب، وقائد تلك السفينة.

1- وهو قصر المورق الذي بناه الموحدون، ويعرف حديثًا بقصر إشبيلية.

11

حكاية المراكب

لما قطعنا البحر على كارافيل غراسيا دي ديوس، كان معنا ملاحون مهرة وأشرعة مثلّثة القطع ورياح مواتية، فكان يمضي بنا بسرعة عظيمة قد يبلغ مقدارها أربعة أميال بحرية. وفي طابقه السفلي راحةٌ من تقلّبات الجو، وخلوة يقضي بها المرء حاجته، وأما طابقها العلوي فكان فيه فسحة ينشط بها المرء بدنه. لكن القوارب التي صنعناها كانت مسطحة، لا حجرات فيها ولا ستار، فلم يكن فيها من وجوه الراحة شيئًا. حتى لمّا هبّت ريح قوية ما قطعنا غير مسافة يسيرة بمساعدتها، لأن أشرعتنا مصنوعة من قطع قماش متفرقة واهية الخيوط غير مستوية الأطراف، فوجد الهواءُ له مسلكًا بينها. وتلك الأشرعة تعطينا الظلَّ ساعة أو اثنتين في الضحى والظهر، أما ما بقي من النهار فلا حجاب بيننا وبين الشمس أوان اشتدادها.

وانتفتْ المراتبُ على القارب، وانتقضتْ الأعراف وتساوت الرؤوس. فذو الحسب يرقد بجانب الحدّادِ، وعامل الملك يشرب من الكأسِ التي يشرب منها النجّارُ. وإنّ أفظع ما بحالنا تلك أننا ما كنا نجد ما نستتر به لقضاء حوائجنا. وأنت إن قضيت حاجتك على مرأى من الجميع فلن تستطيع فرض كلمتك عليهم بعدها. فكان ذلك على دورانتس أمرًا كسر شوكته وأخفض جناحه. أما وقعه عليّ أنا، مَن جرّب شناعة الظروف وتبدّل العزِّ بالهوان، فكانت تذكرةً بأن أقدار الناس متقلّبةٌ بما فيها قدر سيّدي، وأني عامل كل جهدي لأصلح قدري.

ولّما كنّا لم نرَ سعة خليج المحار إلا من مقام معسكرنا على شاطئه، فلم ندرِ أنه عظيم الاتساع ممتد المسافات. فقضينا سبعًا تامة ونحن نسيّر المراكب الخمسة للخروج منه. ولم يرتفع ماؤه أكثر من نصف قامة الرجل، بل إن ضحالة مياهه لم ترفع القوارب عن قعره سوى بضع قباض. وكنا نزجي الوقت كيفما استطعنا في انتظار هبوب رياح موافقة تزجي بمراكبنا إلى المحيط. فكان منّا مَن يقص القصص، ومنّا مَن ينشد الشعر، وبعضنا يقامر ما بقي مما يملكونه تفكّهًا وإجمامًا. سأل دورانتس الراهب: ما تقرأ يا أبتاه؟

فرفع الأب أنسيلمو صفحة كتاب مطويّة الزوايا ممزقة في مواضع شتى. وأجاب: هذا؟ كتاب صلاتي وقد تلف كعبه. فصارت صفحاته كلها كما ترى.

ونظر الأب أنسيلمو إلى دورانتس نظرة رفق وفضول، يرتقب سؤاله عن الكتاب، فلمّا لم يزد دورانتس عاد إلى قراءته. وكان يجلس متكأً بظهره إلى ظهر دييغو، وكان هذا ينحت خشبة أرز فيجعلها على هيئة عصفور الدوري، وقد نحت منه العُرف والمنقار، ثم شرع ينقش الريش. أما رويز فواقف في حد القارب سارح البصر بعينه اليتيمة إلى قاع البحر، رافع اليدين فوق الماء يتصيّد مرور أي سمكة بقربه.

سأل دورانتس: فمتى أصبحتَ راهبًا إذًا؟

أجاب الأب أنسيلمو: منذ خمس سنين.

ماذا جرى من شأنك؟ أم أنك قررت يومًا أن تصير راهبًا؟

كلٌ يسعى لما خُلق له.

فألح دورانتس في سؤاله: ولكن لماذا؟

واستدار دييغو بجسده ينظر إلى أخيه، فترك الأب أنسيلمو دون متكأ،

حتى تدارك الراهب نفسه قبل أن يقع. ثم استوى جالسًا ونظر بعينين خضراوين إلى دورانتس.

وقال دورانتس: ما زلتَ صغيرًا. بل تبدو لي أنك بعمر دييغو. سبعة عشر أو ثمانية عشر؟

عمري عشرون.

ألا تتحسر على المتع التي نبذتَها يوم انضممت إلى الأخوية؟

إنه دعاء ربّاني أيها القائد.

دُعيت كي تكون راهبًا؟ ولا تتوق إلى... وهنا قال دورانتس كلمة فاحشة تمنع الحشمة عبد الله خاطّ هذه الوثيقة أن يحفظها على الورق.

فقال الراهب: إن أعظم المتـ تـ تـ تع هي في خد د د دمة الإله. واحمرّ وجهه كعهده كلما ألحّ عليه الناس بالسؤال. فتبسّم الرجال من تأتأته، واقترب القاصي منهم لمشاهدته، وكلهم يتوقون إلى عرض يلهيهم وينسيهم فداحة مأزقهم.

ثم قال دورانتس وهو يرمق كاستيو: يعلم الله أنّي لا أطيق البعد عن هذه المتع. فضحك كاستيو ضحكة خبيثة، فسأله دورانتس: أوتستطيع أنت؟

فأجاب كاستيو: لا.. أبدًا.

ثم أدار دورانتس عينيه في وجوه الرجال يبحث عمن يوافقه الرأي بأن شهوة الرجل أقوى من أن تُحبس. فمرّت نظرته بي، ثم استقرّت على أخيه. وأنت يا إِل تيغري؟ أتستطيع؟

فإذا بنا نسمع صوت وقوع شيء في الماء فالتفتنا كلنا ننظر، ووجدنا رويز يقبض بشيء اصطاده في البحر. ثم يرفعه بظفر، فرأيناها سمكة مبقعة تبرق

حراشفها في النور. وهو يصيح أمسكتها! أمسكتها! لكن السمكة ما لبثت في يده إلا قليلاً ثم انزلقت من بين أصابعه ورجعت إلى ماء الخليج. فتدافعت أقذع الألفاظ والشتائم من فم رويز، حتى إن الراهب نظر إليه مشدوهًا فاغر الفم.

فلمّا انتهى الأمر، رجع دورانتس ينظر إلى أخيه، وسأل ثانية: أتستطيع؟

فحدج دييغو أخاه نظرة نافذة وأجاب: ليس كل البشر مسيّرون بالشهوات مثلك.

فردّ دورانتس: أراك محقًا. وشرع يزيل بظفره بقع صدأ ظهرت على سيفه في مدّة مكوثنا في خليج المحار، فتطايرت رقاقات برتقالية منه. وقد تعوّد الجميع على لؤمه وسلاطة لسانه، فحسبناه يزيد. فلمّا لم يفعل، وقد حان وقت الغداء، قام الأب أنسيلمو يقسّم حصص طعام النهار.

وقد كُلّف بذلك لأنه رجل دين يُرجى ورعه، وكذلك لأن حب الرجال له يمسك ألسنتهم عن الشكاية بسبب قلة حصصهم من الزاد. فناول كل رجل عودي ذرة نيئة، وجُمع يده من الثمار، فتلقوّها شاكرين والتهموها عجلين. وبينما الأب أنسيلمو يمرر بين الرجال كؤوس الماء، فإذا بدييغو يشكو طعمه. فشرب الراهب من الماء رشفةً ثم لعق شفتيه متذوّقًا فقال: لا عيب فيه.

ثم رفع كاستيو كأسه وقال: صبّ لي لأجرّب. وبعد أن ذاقه قال جازمًا: في الماء عفونة.

فسأل دورانتس: أأنت واثق؟ ثم أخذ الكأس منه، فلما رأيتُ امتعاضَ وجهه علمت أن كان كاستيو على حق.

وكنا في خليج المحار قد سلخنا الجلد عن سيقان الخيول، فتركناها حتى

يبست ثم صنعنا منها قربًا للماء. ولم نجد ما نوكئُ به أفواهها ففسد طعمه. فألفينا أنفسنا بعد خمسة أيام في البحر فحسب بلا ماء للشرب. وأخذ كل واحد يرطّب نفسه بخرق مبللة بماء البحر، وصرنا نمصّ كل حبة من حبوب الذرة قبل بلعها، وربطنا قمصاننا على رؤوسنا لنقي أنفسنا سياط الشمس. وكنا نحاول ما استطعنا ألا نفكر بالعطش الذي أجهدنا، فلم نجد غير النوم دواءً، وإن كان أول ما يستشعره المرء في استيقاظه هو انتفاخ لسانه في حلقه. فما كان منّا إلا أن شربنا ماء القرب العفنة التي أنفنا منها بادئ الأمر، ولمّا نفدت هذه تنازعنا من عيدان الذرة ما رجونا اكتنازها ماءً.

***

وفي مغرب اليوم السابع، تراءت لأعيننا في خط الأفق بقعة كبيرة خضراء وفيها صفرة. فهبّ جنديٌّ واقفًا وصاح: أرض! أرض! ومن شدّة فرحتنا بقرب إرواء الظمأ بالماء العذب فإننا جعلنا نجدّف ونسابق القوارب الأخرى إلى تلك الجزيرة. ولمّا اقتربنا منها رأينا أنها غير بعيدة عن الأرض التي تركناها، وهي تكوّن معها مضيقًا يفضي إلى المحيط المفتوح. وحام البجع المتعجب فوق مراكبنا، ثم رجع إلى الساحل. وإذا بنا نبصر أعمدة دخان أبيض من وراء الشجر الذي يقسم الشاطئ والغابة، فهي إشارات لمواقد نار أُخمدتُ بالماء على عجل. ورأينا خمسة زوارق ملونة راسية على البر مربوطة بالصخر.

وإني لأجزم أننا كنا منظرًا عجيبًا لأهل الجزيرة: ستون ومئتي رجل غريب، من أعمار مختلفة وألوان متعددة، يركضون أو يعرجون حتى بلغوا الساحل، ثم تفرّقوا يفتشون الأرض التي حلّوا بها عن طعام أو شراب، وما فضل من ثيابنا معلّق على أبداننا كيفما اتفق. وجوهنا محترقة، وشفاهنا متقرحة، وأطرافنا حمراء من طفح الشمس. كنا طاعونًا على هيئة بشر. وإن

كان نارفاييز ليبدو أحسن حالاً منّا، وقد اعتمر قبعته المزينة بالريش ولبس قميصه وسرواله، والسبب في هذا أنه أمر القادة يوم كنّا في الخليج معسكرين بتقديم خوذات المورين التي يلبسونها إلى نار الفرن، مع احتفاظه هو بخوذته لأن رتبته تعطيه هذا الحق. وكان مع هزال جسمه يبدو أكثر شبابًا.

ثم شرع يصدر الأوامر عجالاً: فأمر بتسمية تلك الجزيرة بسان ميغيل، تيمنًا باسم القديس النصراني الذي وافق اليوم عيده، وأمر ألبانيز وكابيزا دي فاكا أن يبحثا عن أقرب نهر، ودورانتس وكاستيو أن يقصدا القرية الهندية فيعودان بكل زاد وعتاد يجدونه. وأمر الرهبان بتفقد أحوال المعتلين ورعايتهم، وفيرنانديز بفحص القوارب لتحرّي سلامتها وقدرتها على الإبحار ورأب ما يجب إصلاحه منها.

ولم يشأ دورانتس دخول قرية الهنود وإن رافقه عشرة من الرجال بأسلحتهم، ولكن ذهابه لجلب المؤن يجعله يختار منها ما أراد، فعزم الذهاب طائعًا ممتثلاً. وذهبت معه وقد دسست في نطاقي فأسًا صنعناها يوم كنّا في خليج المحار. وعاينّا في مسلك الرمل بين الساحل والقرية الهندية آثار أقدامهم، واستشعرنا رصدهم لنا من بين الشجر، ولكن لم يبرز منهم أحد لقتالنا ولا انطلقت من قسيّهم النشاب.

وكانت القرية صغيرةً، فيها ثمانية أكواخ من سعف وقصب موضوعة في صفين متوازيين. ووجدنا هرمًا من حطب متوسطًا غابةَ نخل، وبقربها قفاف من سعف النخل تكّدست فوق بعضها، وشبكة صيد كبيرة مشرعة للإصلاح. ووراء كل صفٍ من الأكواخ وجدنا قضبان طويلة من خشب، عُلّقت عليها حيتان البوري كي تيبس. وحقّ للناس أن يضربوا في المثل فرحة الجائع بطعامٍ. فقد التهمنا من اللحم ما سدّ جوعنا، فكان أطيب طعام أكلناه على يبسه وملوحته وعسر مضغه. وجمعناه كله ومعه بيضه، فملأنا قفافًا

كثيرة.

ثم توجهنا إلى الأكواخ ففتشناها. ومن لطف الله تعالى بي أني عثرتُ على جرة تنضح بماء زلال في أول كوخ دخلته. فارتميت على الأرض وأملتُ الجرة نحو فمي، وعببْتُ من الماء عبًّا حتى أوجعني بطني. وتذكرت ألم الصائم عند فطره في أول أيام رمضان، فاختلط الشبع والظمأ. وانتابني دوارٌ، فطرحت جسدي على فرش الجلود لأستريح، وأجلت النظر فيما حولي.

ورأيت في ناحية من نواحي الكوخ خشخاشين من عظم وخشب. وحُلّةً ثقيلة من الجلد مطروحة عند بابه، كأن مرتديها نزعها على عجالة، وإلى جانبها مشط امرأةٍ. فلمستُ بإصبعي أسنانه المستوية وتذكّرت وشم رامة الله في يمينها. ووقع في خاطري فظاعة سرقتي ومبالغ الخسة التي انحدرت إليها باقتحامي دار الهنود، لكني قلت لنفسي أن لا تثريب على المضطرّ؛ ألا أحتاجُ طعامًا وماءً كي أرحل عن لا فلوريدة؟ والحاجة لا الطمع كان مسيّري في أفعالي هناك.

ولمّا خرجت من الكوخ رأيت أن دورانتس قد استولى على ما في مخزن القرية. فكان وكاستيو يحتملان الذرةَ والفاكهة بأطراف قميصيهما بعد أن ملآ القفاف كلها. فترى قميصيهما منتفخين، يكشفان عن خصرين رفيعين وساقين هزيلتين، حتى كانا مثل دمى القش. فرفعت الجرّة التي في يدي وقلت: نحتاج إلى جرار نظيفة لحمل الماء. ثم توجهت إلى الكوخ التالي برسم إيجاد جرةٍ، فسمعت دورانتس ينادي أخاه: دييغو! اترك هذا يا دييغو. أعنِ إستبانكو على جمع كل الجرار. هلم!

واحتملنا غنائمنا إلى الساحل، فوجدنا رجالَ نارفاييز يحطّمون الزوارق الملونة بفؤوسهم. فهتف دورانتس: ماذا تفعلون؟ وأفلت أطراف قميصه فتناثرت ثمار الفاكهة على الأرض.

وقال نارفاييز: أحسنتم. وجدتم طعامًا. فلتضعوه جانبًا وسأقسمه بيننا. ثم استدار بحاجبين مقطبين يعاين تكسير الرجالِ.

وأعاد دورانتس سؤاله: ماذا تفعلون؟

نكسّر الزوارق. ونأخذ أخشابها لنصنع حافات لمراكبنا.

ما كان ينبغي عليك فعل هذا. قد يغضبون لأخذنا طعامهم لكنهم سيلحقوننا لا ريب إذ حطّمنا قواربهم.

كيف؟ ليس لديهم قوارب يركبونها في أثرنا.

وماذا لو أنّ ثمة آخرين لديهم مراكب؟

سنكون قد ابتعدنا عن هذه الجزيرة.

كان ينبغي عليك مشاورتنا قبل أن تأتي فعلاً كهذا.

ثم تقدّم كاستيو يريد مناصرة دورانتس في جداله، فقال: عرّضتنا كلنا إلى الخطر.

فنظر نارفاييز إلى دورانتس وكاستيو بنفاد صبر، وقد نال كفايته من شكوكهما، فلم يجد في نفسه غضبًا، بل تسليًا بسجيتهما. سوف نبلغ المحيط عمّا قريب، ويجب أن نضمن سلامة قواربنا ويَبَس أخشابها. ألديكما فكرة أحسن من هذه؟

واقترب طير أشهب من طيور الطيطوى مشيًا من الساحل، يعاين الفاكهة المترامية على الأرض، فشرّدتُ الطير قبل أن يقترب أكثر.

ثم سمعت إجابة دورانتس التي نطقها بعد ضمت حقود: لا.

فأخذنا الخشبَ وصنعنا منه حافات لقواربنا، وملأنا الجرار بماء النهر،

وانتهينا من ذلك قبيل المغرب. وأراد الرجال أن يقيموا ليلتهم على الجزيرة، فإن التمدد على الرمل والرقاد متفرقين، دون أن يشمّ أحد بخر فم الآخر ولا نتانة قدميه، لهي رفاهية لم ندرك قيمتها إلا في ذلك الحين. لكن فعلةَ نارفاييز جعلت بقاءنا مخاطرة، فكنا نريد تفادي انتقام الهنود لتحطيمنا قواربهم، والرحيلَ عن جزيرة سان ميغيل على الفور. فرحلنا في هزيع الليل برسم الوصول إلى بانكو، وقد صار هذا الاسم مرادفًا للنجاة على ألسنتنا.

***

فعبرنا المضيق في الصباح ووصلنا المحيط. وأبحرنا غربًا تحت سماء محجوبة بغيوم مصفوفة. وانقطع الحر المغمّ بعد أن صحبنا أسبوعين، وإن لم يهنأ بذلك رجلان في مركبنا، وهما إسكافي من شقوبية ورامٍ من صقلية أصابتهما حمى قاتلة. وقد كانا في أتم صحةٍ في خليج المحار، بيد أنّ الرحلة البحرية أوهنت جسديهما، فقبعا غير قادرين على الحراك في طرف القارب البعيد، فإن استطاعا استعمال الدلو وإلا أحدثا في ثيابهما دون حول ولا قوة. فزاد على فظاعة المنظر أنْ كان تذكرةً بأن المرض جاثم معنا منذ انطلقنا من لا فلوريدة.

واعتزل دورانتس في طرف القارب أبعد ما يكون عن المريضين، وكثُر سباته نهارًا، وأما دييغو فكان لا يرقد النهار فيظل ينحت طيوره من قطع الخشب. فتعجبتُ من براعة سيدٍ من نسل أشراف المدينة في استعمال يديه، وسألته: من علّمك نحتَ الخشب؟

فتوقفت يدا دييغو ممسكًا السكين في الهواء، ونظر إليّ ثم أجاب: علّمتُ نفسي.

ثم قلت: لقد صنعتَ طيرين، فلم تصنع ثالثًا؟

فابتسم وأجاب: هذا هو الأخ الأكبر للطيرين الصغيرين.

فأمسكتُ فراخ الدوري في راحتيّ. وراقت لي دقةُ المنقار ونقش ريش ذيله، والحياة التي بثّها في عينيها. فلولا أصالةُ نسبه لكان حرفيًا عظيم المهارة. وقلت، لا أعلم لنفسي أم لدييغو: عندي من الإخوة اثنان. وبرزت في مخيلتي ذكرى مدفونةً في أعماق عقلي؛ كنا نسير بحذاء أمّ الربيع عائدين إلى البيت بعد زيارة المقام الشريف بعد أن تشفّعنا لشفاء والدي. فتعب يحيى من المشي، ورفع يديه الصغيرتين يريدني أن أحمله على ظهري. فقال يوسف إنه أشدّ تعبًا منه. فحملت الاثنين معًا حتى بلغنا الدار، وما زلت أتذكر ثقلهما والتصاق جسديهما بظهري.

قال دييغو: ستراهما يومًا.

وكان شوقي ليحيى ويوسف جليًا فرآه دييغو في وجهي وسمعه في صوتي. وعوضًا عن أن يبدي تجاهله، كما يفعل دورانتس أبدًا، حاول أن يخفّف همي. فقلت: أوخالا. وهي كلمة تمنٍ بلسانه، مأخوذة من الدعاء بلساني؛ إن شاء الله.

ونهض الأبُ أنسيلمو يوزّع حصص الطعام. وقد قضينا على الماء وحيتان البوري التي جلبناها من الجزيرة في بضعة أيام، فما بقي إلا أكلُ الذرة. ولم نتبرم من قلة الأكل، بل إن الظمأ هو ما أجهدنا وأعيانا، حتى إننا ما وجدنا في أنفسنا قوة لتحريك المجاديف كي نصوّب مسار المراكب لمّا حادت عنه، وأوكلنا أمرنا للأشرعة ومساعدة الريح. ولك أن تتصور أيها القارئ الكريم مبلغ فرحتنا لمّا عثرنا على جزيرة ثانية.

***

كان ساحل الجزيرة ضيقًا، ينتهي بتل غير عالٍ يغطيه نخلٌ قصير ذو

سعف أخضر زاهٍ، فحجب ما يكمن وراءه. ولم نرَ آثار أقدام الهنود ولا أثرًا لزوارقهم. فعرفنا أن علينا إن أردنا العثور على الماء أن نصعد التل ونتخطّاه. ولمّا كان الخلاف حول خشب حافات المراكب قد سعّر الغيظ في صدر نارفاييز تجاه دورانتس وكاستيو، فإنه اختار قائدين آخرين للقيام بالمهمة وهما تييز وبينالوزا، وأمر أن يبقى الآخرون على الساحل.

وجمعتُ حطبًا كي أشوي آخر ما بقي من الذرة، وسرت بطول الساحل أبحث عن سرطانات أو محار فلم أجد منها شيئًا. وتفرّق الرجالُ في زمر على الشاطئ ينتظرون صامتين رجوع القائدين. فلم نسمع إلا تهاديَ قواربنا على الموج، حتى البلاشين البيضاء وغيرها من الطير التي تعوّدنا مرآها في هذه الأنحاء اختفت. فلما انصرم النهار وحلكت السماء رجع تييز. وكان رجلاً نحيلاً ضيق الكتفين مليح القسمات. تكلم منكس الرأس كأنه خجل من صوته، فقال: دون بانفيلو. لم أجد أي نهر.

لم تعثر على نهر؟

لا، ولا حتى نبع ماء.

فزّم نارفاييز شفتيه، كفعله أبدًا عندما يريد أن يوحي لقادته أنهم أخفقوا في مهامهم. لكن بينالوزا ما لبث أن عاد من الطرف القصي من الساحل يحمل الخبر ذاته. لا نهر في الجزيرة.

فهال الرجالَ هذا الأمر، وقبض الفزع على قلوبهم. كيف ننجو دون ماء؟ ولم يحتمل مقسّم الجرايات شدّةَ العطش، فاغترف بقربته من ماء البحر وشربه دفعة واحدة، غير مصيخ السمع لنصح الجنود الأكثر خبرة. وتنفس مرتاحًا واستلقى على الساحل وأغمض عينيه. فما لبث إلا نحو ساعة، وبينا كان مبعوثُ البابا ينصت إلى اعترافِ رجل يُحتضر، حتى انتفض بدنه وتلوّى.

فكأنما أطرافه حيّات تضرب الأرض وتثير الرمل في كل اتجاه. وشخصتْ عيناه وظهر الزبد على فمه. وحاول الرهبان التخفيف من وجعه فأمسكوا بأطرافه ولكن لم يفلح الأمر، كأن جنيًا تلبّسه. ولم يستقر جسده إلا عندما فارقته الروح.

ولمّا احتملنا مقسّم الجرايات إلى القبر الضحل الذي حُفر له، رأيتُ أن الفأس الهندية التي أعطيته إياها نظير الماء ما زالت معلّقة من نطاقه. وقد رحل الآن الرجل والفرس الذي بادلت الفأس لأجله. ولا أقول إلا كما قال من قبلي: إنّا لله وإنّا إليه راجعون. وأنا أعلم أنه لا يجوز الاعتراض على حكم الله، لكن الحادثة الماحقة العاجلة التي لقيها مقسّم الجرايات أوقدت جمر السخط في قلبي. أصنعتُ مركبًا ورحلت عن لا فلوريدة لأموت في أرض جدباء؟ أهذه لعنة ربي؟

وإذ نحن على ذاك الحال، فإذا بالغمام الأسود الذي وارى السماءَ طول النهار يرعد والريح تنشط، فهبّت هبوبًا عنيفًا على الشاطئ. ولم نشأ تضييع الريح المواتية، فهي التي تزجي القواربَ مسافةً عظيمة تجاه الميناء، فجرينا إليها ورفعنا المراسي. والهواء مثقل برائحة خوفنا. فدخلنا البحر وتركنا الجزيرة وراءنا، وانشقَّ رداء الليل بلمعان البرق. رفعنا وجوهنا صوب السماء، فلمّا أمطرت فتحنا أفواهنا نلتقط القطرات، ورفعنا كل جرّةٍ، وكل دلو، وكل آنية معنا نحو السماء كالمستعطفين. وقد طال انتظارنا لهذه الرحمة أمدًا طويلاً.

***

وأبحرنا سبعة أيام جاعلين الأرض في مرمى بصرنا قدر استطاعتنا، لكننا لم نر أيَّ نهر. وكنّا إن لم نرَ الماء العذب حق الرؤية لا ننزل البر، حتى وإن تضاءلت المؤن. واقتربت منا في بكور أحد الأيام جماعةٌ من الصيادين

الهنود في زوارق ملونة كتلك التي حطمها نارفاييز. وأحاطوا بنا يجدفون حول مراكبنا، يعاينون بؤس حالنا وقلة زوادنا. ولم نرَ في زوارقهم طعامًا ولا شرابًا، وإن حسبنا الهنودَ في حالنا تلك ملائكةَ رحمة، لا رجالاً من دم ولحم. فتبعناهم إلى البر.

فلما أرسينا قدّم نارفاييز للصيادين عطايا، وكانت عقدين من الخرز الأزرق. فأُعجب الهنود بالهدية، وانفرجت أساريرهم بمسمع صوت الخرز لّما جمعوا العقدين معًا. فنال نارفاييز بأعطيته دعوةً لزيارة قرية الهنود، ولكن حيث إن بعض الرجال مرضى لا يقوون على السير وآخرين لا يأمنون كيد الهنود، فلم يذهب معه إلا قلةٌ من الأصحاء، ولم يزيدوا عن خمسين أو ستين رجلاً.

وسرنا وراء نارفاييز في معبر ضيق، يخترق الغابة الخضراء كجرح لم يبرأ. ووصلنا قريةً فيها نحو اثني عشر كوخًا تحيط بتلٍ كالذي رأيناه في الأبلاتشي. ورأينا ثلاثة صبيان يتسابقون على عصي خشبية، ورفاقهم يشجعون ويستحثونهم على السرعة، ونساءً يطلين بدهان أحمر جلدَ غزالٍ مشدود بين قضبان مثلثة، وبنتين تتداولان الطحن بالرحى. واشتممنا في الهواء رائحة السمك والدخان، فكان عذابًا لمن مُنع الزاد مثلنا. ولما دخلنا إلى ساحة القرية كفّ الصغار والنساء عن أعمالهم ونظروا إلينا. بيد أننا وجدنا الزعيم في انتظارنا، وقد تقدّمنا حرّاسُه يبلغونه بوصول الأغراب. وكان شيخًا كبيرًا ثقيل الجفنين متدلي الأذنين، ويشتمل ببردة من فرو ابن العرس والقاقُم، يمسك أطرافها بيديه كيلا تجرّ على الأرض. ووقف رجاله خلفه يرقبوننا وكل يحمل حربةً ذات ريش.

ثم تقدّم نارفاييز محنيًا رأسه، فأهدى الزعيمَ أجراسًا وعقدًا طويلاً من الخرز الأصفر. فتقبّل منه العطايا بأن أومأ برأسه، ثم نزع بردة الفرو العظيمة

وأهداها نارفاييز، فأخذها هذا واشتملها من فوره. ورجعت الحياة كما كانت في القرية بعد أن كان الناس كافّون عن العمل، فلعب الأطفال، وأكملت النساء طحن الذرة، ودعانا الرجال إلى الجلوس. وسمعت هديل اليمام على فروع الشجر. فاُستدعي بابلو أسير نارفاييز وترجمانه، فعلمنا منه أن اسم هذا الزعيم إشوقان، وأنه حاكم هذه القرية وقريتين أخريين على مبعدة من الساحل. فأجابه نارفاييز أنه مبعوث ملك قوي، أقوى من أي رجل يعرفه أحد في هذه الأرض. وقال إنه جاء إلى هذه الأرض مسالمًا ليعلّم الهنود كل ما يعلمه هو وإخوانه النصارى الذين معه، غير أنه الآن يبحث عن أصحابه الذين افترق عنهم. وسأله: أرأيت رجالاً يشبهوننا في هذه الأنحاء؟

فأجاب إشوقان: لا. أضلّ نفرٌ من إخوانكم؟

بل مكثوا في السفن ينتظرون رجوعنا. أتراك رأيت سفنهم تبحر من هنا؟

لا. ثم سكت الزعيم، وهو يقلب بصره ما بين نارفاييز والقادة من خلفه، ثم سأل: وملككم القوي هذا. ألا يأتي لنجدتكم؟

لو اعترف نارفاييز أن ملكه القوي لا يدري أين مكانه وما حلّ به فسيبدو قليل الشأن في نظر الهندي، فآثر الكذب وقال: بلى. ما أن يصله خبر منا.

ثم سأل نارفاييز زعيم الهنود عن أقرب نهر إلى القرية، فأخبره إشوقان أنّ على بعد بضعة فراسخ غرب القرية نهرًا عريضًا يسمونه بلسانهم النهر العظيم. فسررنا جميعًا سرورًا شديدًا بما قال، فأي نهر عظيم في هذه الأنحاء غير ريو دي لاس بالماس؟ فنحن إذن قريبون من بانكو.

وقدّم لنا الزعيمُ من السمك والقرع الشيء الوفير، وشرابًا من فاكهة مخمّرة. وبعث للرجال الذين تخلّفوا في الساحل قفافًا من الطعام. فأخذنا بحظ وافر من كرمه، وشرّفنا بمحضره حتى غروب الشمس، ولم يفارقنا

إلا بعد أن أقبل وفدٌ من قبيلة قريبة إلى القرية، فانعزل بهم في معبدهم بقية المساء.

ولّما لم يبقَ إلا جماعتنا، تفرقنا إلى فرقٍ صغيرة العدد نطلب دفء المواقد. ودارت في قلوب الرجال الأماني ساعة علمنا قربنا من المرسى، فكانوا يمنّون أنفسهم بما يفعلون عند بلوغهم بانكو. فقال دييغو إنه يريد غسل جسده، وما يريد إلا أن يدعَكَ بالصابون جلده حتى ينظف. وأما كابيزا دي فاكا فقال إن كل ما يريده هو ورقة وحبر ليبعث بخطاب إلى زوجته. وأما دورانتس فأراد أن يطيب سمعه بعزف بديع. وكانت كل الكمنجات في حملتنا حتى كمنجة الراهب قد نُزعت أوتارها لتُربط بها أشرعة القوارب. فقال إنه لا يتوق إلى شيء كتوقه إلى سماع الموسيقى. ولّما همّ كاستيو بالكلام فإذا بحجر يفلق رأسه.

وقبل أن ألتفت كي أرى من رمى الحجر فإذا بآخر يصيب رأسي. وكان الألم عظيمًا، فانطرحت على الأرض وغطيت رأسي بيدي. ووقع حجرٌ ثالث على موقد النار فارتفعت شراراته في الهواء. وبينما أنا أحاول النهوض بسرعة أبتغي ساترًا إذ بكاتب العدل يشهر بندقيته ويطلق الرصاص. فسقط أحد كبار الهنود على الأرض وهو يصرخ ويقبض ساقه. ونكص بقية الهنود لما سمعوا دوي الرصاصة ودخان البندقية.

ثم خرج نارفاييز من الكوخ الذي أعطاه زعيم الهنود ليقضي به ليلته، وهو يسأل: ماذا جرى؟ فنال من الهنود نصيبًا من الأحجار المتراشقة، فصاح: إلى القوارب!

وعدونا إلى الساحل تحت وابلٍ من الحجارة. واستثار منظرُ رجوعنا هلع الرجال الذين ظلّوا في الساحل، فاصطفوا لصدّ المعتدين رغم سوء حالهم. ولم يكن عندنا خيولٌ ترجح كفّة القتال في نصابنا كما في معركة ريو أُسكورو،

ولم تكفِ الذخيرةُ البنادقَ الخمسة التي كانت في حوزتنا. وقد أصابت الأحجار كلَّ واحدٍ منا؛ فنزف الدم من جبين نارفاييز، والتوى مرفقُ كابيزا دي فاكا، وانكسرت ساقُ أحد النجّارين، وبرزت كدمةٌ كبيرة في رأسي. واشتدّ المصاب أن فقدنا بعض الرجال، ومنهم اثنان من فرقة دورانتس. وأغار الهنود علينا مرتين تلك الليلة، يرجموننا بالحجارة أو يرموننا بالنشاب، وقد حاول الرماةُ من ذوي البنادق والقسيّ صدّهم ما استطاعوا. وسهرنا الليلة ننتظر عودة الرجال المفقودين، بيد أنهم لم يعودوا قط.

وأُكرهنا على الرحيل مع انبلاج الضوء، فجدّفنا قواربنا مبتعدين عن الساحل. واغتمّت الأنفسُ بالتفكير بمصير رفاقنا المفقودين وإحساسنا بالذنب لهجرانهم، ويقيننا بأن الموت آتٍ لنا في هذه المراكب لا محالة. وأراد الرجال أن يعرفوا كيف تبدّل حالُ إشوقان وقبيلته من الكرم والحفاوة إلى الطرد والعداوة دون مسوّغ. فقال الأب أنسيلمو: ربما أنقصنا من قدره.

فسأل دورانتس: كيف يا أبتاه؟ ونحن لم نمسس معبدهم قط.

فقال رويز: أوتظن أننا أسأنا إليهم؟ لم نفعل بهم شيئًا. هكذا هم عبدة الأوثان. ألا ترون ما صنعوا بي؟ وأشار إلى المحجر الأسود لعينه اليسرى، غير مقرٍ بما جناه هو على نفسه كي ينال هذا المصير.

وإني إذ أسترجع الآن ما وقع، وأقلّب الأمرَ من جميع جوانبه بعد أن مرّ زمانٌ على حصول هذه الأحداث، فإني أكاد أجزم أن القبيلة أغارت علينا لأنهم أُنذروا من مغبّة شرورنا. وإن الوفد الذين زاروا زعيم القبيلة المغرب قد أنبأوه بما فعلنا في جزيرة سان ميغيل؛ الزوارق التي حطمناها، والجرار التي سرقناها، والطعام الذي أخذناه. ولا أستبعد أن هذا حقًا ما جرى، وإلا بم أسوّغ انقلاب المضياف الكريم إلى معتدٍ على ضيوفه بلا سبب؟ يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.

فرجعنا إلى موضعنا في المراكب، تميد بنا أمواجُ البحر كأوراق الشجر في مهب الريح، ولم نجرؤ أن نرسي على البر اتقاء شر الهنود.

***

وبلغنا بعد يومين منبع نهر عظيم وكان أكبر نهر أراه في حياتي. وكانت قوة جريانه بالغة حتى إننا نشرب الماء العذب من قواربنا ونملأُ كل إناء لدينا. فحمدتُ الله حمدًا جزيلاً أن دنونا من الميناء واقترب خلاصنا. لكن رجالاً من بيننا كانوا يقولون إن هذا النهر ليس ريو دي لاس بالماس وإننا تائهون. ولعلّهم تعوّدوا سوءَ حظنا، فكانوا يحاجّون من ينكر عليهم بسؤالهم: أتروى أثرًا لقشتاليين على الشاطئ؟ لكن آخرين، ومنهم عبد الله كاتب هذه الأسطر، أصروا أنْ لا سبيل إلى التحقق من أن هذا هو النهر المبتغى إلا بأمر واحد: أن نبحر حتى نبلغ مصبّه فنعثر على المرسى.

وحقّت للهنود تسمية هذا النهر بالعظيم. فلمّا بلغنا التقاءه بالمحيط زاد هيجانه حتى شقّ علينا تسيير مراكبنا، وقد انسّلت حبالها وانحلّت ألواحها، حتى انبثق الماء من بينها. وكذلك فإن ثمة مخاطرة في تفرّق القوارب الخمسة أو ضياعها. ولهذا السبب صاح دورانتس بنارفاييز: دون بانفيلو، ألا نربط القواربَ بالحبال؟

وكان ذلك خير الأمور. فمهما جرى لن يضيع قاربٌ عن القوارب الأخرى. لكن نارفاييز لم يجب. وكنّا قبيل المغرب والريح تهبّ من الشرق وتنشط مع انحسار النور.

فقلتُ: أظنه لم يسمعك.

فوضع دورانتس كفيه الصغيرتين حول فمه ليصل صوته أبعد مسافة. دون بانفيلو!

ولم يأته جوابٌ. فكان أنْ نقل كابيزا ذي فاكا، وكان قاربه الأقربَ إلينا، طلبَ دورانتس بنفسه. فصاح: دون بانفيلو. كيف نقطع النهر؟ بم تأمر؟

التمعت رقعة عين نارفاييز في ضوء الشفق. فلما نطق قال: ولّى وقتُ الأوامر. فلينقذ كلُّ قارب نفسه. هذا ما أنوي فعله.

فحطّ صمتٌ رهيب على الرجال، ثم ما لبثت الأسئلة والشكاوى أن بدأت.

كيف تقول هذا؟

أتريد هجرنا؟

خائن!

أقنعه بالحجة يا أبتاه.

كيف نجاوز النهر بهذه الأشرعة الممزّقة؟

اسحبوا مجاديف مركبه!

توقف! وإلا سأطلق عليك الرصاص.

ثم أخرسنا هزيمُ الرعد. فانشقّت السماءُ بماءٍ عظيم القطر شديدِ الوقع فأعمانا. وأبحرنا بمساعدة الريح فجاوزنا مصبَّ النهر العظيم، وحجب صوتُ العاصفة الشديدة أصواتَ النزاع وعبارات الوعيد. فجعلنا نوثق ربط أشرعتنا، ونحاول موزانة قاربنا ونحن نفكر: سوف ينقلب بنا، سنموت كلنا، لن يعرف أحد بما جرى لنا. ولا أكذب إذ أقول إنّ كل رجل حارب قدره تلك الليلة. فتحضّرنا للموت داعين الله أن يغفر لنا خطايانا ويرزقنا الخلود في الجنة.

12

حكاية جزيرة الشؤم

فساقتنا الريحُ إلى ما وراء مصبِّ النهر العظيم. ولمّا حلّ الصباحُ وجدنا أنفسنا في المحيط المفتوح مرّة أخرى، ولم نبصر إلا الماءَ ممتدًا من الأفق إلى الأفق، أبيض مع التماع الشمس. أما القوارب الأخرى فلم نجد لها أثرًا، كأن جنيات البحر اختطفتها، أو أن وحوش اليم ابتلعتها. فذعر الرجال وقالوا: رباه! أين ذهبوا؟ لم نحتمل فقدان أصحابنا الذين خاضوا معنا كل الصعاب، وإن كنّا نحمد الله أن تيسّر أمرُنا ووفر حظنا، فلم نكن من الهالكين. ومع هذا فقد رأينا مع تقدم ساعات النهار واكتظاظ السماء بالمزن أن حالنا عصيب: فنفد الزواد والماء، وانحلَّ الحبل الذي صنعناه من شعر الخيول لشدِّ ألواح المركب، ومال الصاري خلاف الرياح فكاد أن يودي بنا.

فلما انحسر ضوء النهار، وتبدّلت زرقةُ البحر سوادًا أدهم حلّ بيننا السكون، فما كنا إلا رجالاً فانين بائدين ينتظرون وقع القضاء. وعلمت أني اجتلبت البلاء لنفسي، بطمعي في مكاسب التجارة بادئ الأمر، ثم ببيعي نفسي إلى رجلٍ، وآخر الأمر بسرقتي من الهنود. بل إني أعلمُ أن قلوب الآخرين كانت تنوء بأثقال خطاياهم في ذلك الليل البهيم. فتكلّم أحدهم وقال: أبتاه، أتسمع مني اعترافي؟ وتحرّك الراهب فوق أجساد الراقدين حوله، هذا منبطح على وجهه وذاك ملتوٍ على جنبه، حتى وصل إلى المبتهِل. فأنصتْ لإقرارٍ مهموسٍ بالسلب والكذب والحقد والفاحشة، ثم غفر له ذنوبه. وإنّي وإنْ قضيت بين ظهرانيّ النصارى ست سنين لا أفهم كيف

يخلّصون أنفسهم من الآثام بهذه الطريقة. وكنتُ قد نشأت على أن الجزاءَ واقعٌ من جنس عمل الإنسان. وقلت في نفسي: لعلّ هذا الجزاء هو ما نلقاه الآن.

وبانت الشمس، وفاحت رائحة المرض والموت. فضعفت أنفاسي، وضاعت روحي فيما خلته الرقاد الأبدي. حينها سمعتُ أحد الرجال يصيح أنه رأى أرضًا. أرض؟ أنعشتني الكلمة، حتى إني ارتفعت عن مرقدي على مرفقٍ، مرسلاً النظر إلى الأفق. ورأيت جزيرةً ذات أشجار مورقة تتحرك في غمامة، لكنّ وهن جسدي منعني من التمعن أكثر، فأسقطت رأسي على مرقدي. وتناول أقوى الرجال المجاديف، ولا أدري أكان الساحل صخريًا أم أن تجديفهم ضعيفًا، لكن ما أن ألقوا المرساة حتى كانت حافات المركب منحلّة، وألواحها متفرقة، وقطعٌ من أشرعتها متمزقة متعلّقة على الصاري بلا خيوط، كرايات الهزيمة.

ونزلت من القارب ما بين الحبو والسير، كطفل يتعلّم، وسقطت على الرمل المبتلّ والموج يلامس قدميّ، كأنه يدعوني إلى الرجوع إلى البحر. الحمد لله أنّا استقرينا على البر. أغمضت عينيّ ودعوت الظلامَ أن يشتملني. وحلمت أني عدتُ إلى أزمور على متن مركب يحمل مسافرين من دكالة. وما أن لمست قدماي الأرضَ حتى جريت في شوارع المدينة الملتوية إلى دارنا القديمة. ففتحتُ الباب الأزرق، ولقيت أمي وأختي وأخويّ جالسون حول الكانون يشربون حساءهم. فسقطت الملعقة من يد أمي وصرخت أختي وهبّ أخواي قيامًا. وكلهم يرمقونني بعين العجب كأنني غريب عنهم. فصحت: أماه! ألا تعرفّتني يا أماه؟ لكني لما رأيتها لم تفهم أدركتُ أني تحدثت بلسان أعجمي لم أسمعه ولا أعرفه من قبل.

أفقت على أصوات الرجال. وقد عثر رويز على نبع صافٍ بالقرب من

موضعنا، فاجتلب منه الماءَ للجميع. فما هي إلا بضع رشفات حتى ردّت الروح إلى جسدي، فنهضت وتناولت المحار النيء الذي أُعطيته. ولم يوقد الرجال نارًا حذر أهل الجزيرة، فنمت.

ثم أفقت مرتاعًا، وندى الصباح يبلل وجهي. فرأيت الرجالَ من حولي يحصون ما بقي من أشياء على القارب، وكانوا قد جرّوه حتى استوى على رمل الشاطئ. فكان من الأشياء: بندقيتان وخمسة سيوف، ومن الفؤوس والمناشير والمطارق اثنان، وبعض الأواني والجرار والقدور، وجلود بمقاييس متفاوتة، وشملة فرو ابن العرس والقاقّم التي خلّفها نارفاييز، وقلائد من خرز وحليّ، وأناجيل وسُبح. لا طعام ولا ذخيرة، ولا حبال وخيوط، ولا شباك صيد ولا سنانير، ولا خيام ولا فرش. لم نجد معنا ما يكفل لنا سبل النجاة على تلك الجزيرة. والقاربُ مهدّمٌ حتى إني خشيتُ سؤال الرجال إن كان ثمة رجاء في إصلاحه، لأني أعلم في قرارة نفسي الجوابَ.

فانعقد الغم على قلبي، وتوجّهت صوب النبع أجلب الماء. وبينما أنا أملأ قربتي رأيتُ آثار أقدام تتجه مبتعدةً إلى طريق سالكٍ. فسرت فيه مسافةً لكني وجدت أن من الحكمة والحيطة أن أصعد شجرة لأشرف على الجزيرة من علو. فأبصرتها ضيقةً لا يعدو عرضها نصف فرسخ، لكنها طويلةٌ تمتد فراسخ كثيرة. وعلى مبعدة منها كانت القارّة الأم مستقرةً ما بين غيومٍ وبحر مخضرّ. فإن قدرنا على مجاوزة تلك المسافة من البحر إلى القارّة فقد نكمل مسيرنا على الأقدام إلى الميناء. ورأيتُ من موضعي على الشجرة أن في نهاية طريق التراب قريةً فيها نحو اثني عشر كوخًا، من تلك الأكواخ التي يسهل على قاطنيها تقويضها ونصبها في مكان آخر. ولمحت أشخاصًا يتحركون في شؤونهم في ساحتها، غير عارفين أن عينًا تحدق بهم. ولمحت فيما بين البشر ما بدا لي كلابًا بيضاء شهباء. ولم أكن قد رأيت كلابًا في العالم الجديدة قبل

ذلك، فحسبت مرآهم فألاً حسنًا، ولكني قررت أن أرجع خشية شمّهم رائحتي. فرجعت إلى الساحل، وكان الرجال يتشاورون ماذا يصنعون بما نملك، فأنبأتهم بما رأيت.

وقلت: إن هذه الجزيرة ليست بعيدة عن القارة، لكن هذا القارب لن يحتملنا إليها على هذا الحال. ألا يحسن بنا طلب العون من قرية الهنود؟

فحدجني الجندي رويز بنظرة حادة بعينه الوحيدة وقال: لا. لن نقصدهم أبدًا.

وكان في صوته سطوةٌ نفّرتني منه في الحال. فجادلته قائلاً: ما لنا خيار آخر.

وسأل رويز: أنسيتَ ما جرى لنا في آخر مرة ذهبنا إلى قرية هندية؟ انقلب رجال إشوقان ضدنا، وكنا مئتين. فما تراهم فاعلون بنا الآن ونحن تسعة وثلاثون، ولا يقوى على المشي منّا إلا عشرة؟ فكيف نقاتلهم؟ ويقول إِل مورو إنه رأى اثني عشر كوخًا. كم هنديًا تظنهم ساكنيها؟

فأجاب دورانتس موافقًا: مئة أو أزيد.

أسمعتهم؟ لن نذهب إليهم.

فقلت: ولن نعيش هنا دون طعام ولا مأوى.

فأجاب رويز: وماذا لو ضحّى الهنودُ بنا وقدّمونا قرابين لأصنامهم فأكلونا؟

فكان وقع كلماته عظيمًا على الرجال الذين نخر الخوفُ عزائمهم بعد خطر رحلتنا البحرية. وأنشأ إيشيفريا الحدّاد يحدّثنا بحكايات رواها له صهره الذي غزا مع كورتيس المكسيك. فتكلّم عن أسرى يُهدون قرابين في

الهزيع الأخير من الليل إلى أصنامٍ قبيحة الوجوه منتفخة الألسن. فيُحمل الضحايا على درجات معبد هويتشيلوبوس العظيم ويمددون على المذبح، ثم تُقتلع أفئدتهم وهي تنبض من بين أضلعهم، وتُقطّع أيديهم وأرجلهم، فتُطعم بها السباع والنمور والأفاعي الحبيسة. ففُتك بالعشرات، لا بل بالمئات من أسرى الحرب القشتاليين على هذه الهيئة الفظيعة. فما سكت الحدادُ عن الكلام حتى أحجمَ كلُّ الرجال عن الاقتراب من قرية الهنود.

فمكثنا في الساحل ليلة ثانية، لا نجرؤ على إشعال النار ولا البعد عن بعضنا مسافة ولو قريبة. ونال العجزُ التام من أولئك المصابين بالحمى، وتفاقمت حالهم مع هطول المطر. فما أن أشرقت شمس اليوم الذي تلاه حتى كنّا مبتلّين بالماء، والبردُ يرعدنا. ولم يَحُدْ رويز والآخرون عن عزمهم ألا يتوغلوا في البر. فقمتُ ونفضت الرمال عن ثيابي وقلت: سأذهب وحدي.

فقال دورانتس: لا.

وقلت: إن مكثنا هنا سنموت. فسأذهب.

فأجاب: لن تذهب.

وقد دهشتُ من أمره لي. أكان يحسبُ أنه ما زال الآمرَ بأفعالي المتصرّفَ في أحوالي؟ وقد فقدت كلَّ شيء وكلَّ قريبٍ من قلبي. وما كان بين يديّ إلا حياتي التي عاهدتُ الله ألا أوكلها رجلاً آخر، ولن أخلف هذا العهد. فولّيت ظهري وانصرفت، وأنا أحسّ بعينيه تحدقان في ظهري. وتوقعت أن يلحق بي أو حتى أن يحاول ضربي، لكنه لم يفعل. وظلّ الرجال يرقبون وينظرون من مكانهم في الشاطئ.

ثم نادى دورانتس من ورائي: إستبانكو. إن عثرتَ على طعامٍ فاجلبه. قالها كأنه هو من أمرني بالذهاب إلى قرية الهنود. ثم قام دييغو وشدّ سيفه إلى

نطاقه، قال: مهلك يا إستبانكو فأنا آتٍ معك.

فسأله دورانتس: أين تذهب؟

وأين تظنني ذاهب؟

المكان خطر يا إِل تيغري.

ولم يسألك أحدٌ أن تنضمَّ إلينا.

فذهبنا في نهاية الأمر أربعة: دييغو، والأب أنسيلمو، وفيرنانديز النجّار الذي بانت على وجهه أماراتُ المرض، ورابعهم عبد ربه مصطفى بن محمد. وكان مع دييغو سيفه، أما نحن الثلاثة فربطنا في نُطُقنا الفؤوس التي صنعناها في خليج المحار. وأظلّ الممر سحابٌ نازل، وتعلّقت قطرات مطر الصباح على أوراق الشجر. وبرز الدود من التراب اللّين من موطأ أقدامنا، لا يدري أيَّ مناقير نهمة تتصيد ظهوره. ونفذت الريح الشديدة بين ثنايا ثيابنا فجعلتها تخفق على أجسادنا.

ولما دنونا من القرية نبحت كلابها لمرآنا، فخرج فتيَان هنديان يستطلعان الخبر. وأحاطت بنا الكلاب وهو تنهش بأنيابها الهواء. فأدركني شيء من الجزع، لولا أن تودّد الأب أنسيلمو لأحدها بأصوات لطيفة فدنا يتشمم يديه، وكفّتْ الكلابُ عن النباح.

وكان الصبيّان في منتهى الطول، أطول مني وأطول من الراهب، ولصدريهما بسطةٌ لا تراها إلا في جذوع أبرع الرماة. ورأينا أعوادًا من قصب طول الواحد شبر أو نحوه تثقب حلمتيّ ثدييهما، وعودين أقصر منها يخرم شفتيهما السفلى. وكان لأحدهما ندبةٌ على ذقنه، وللآخر ذقن عريضة توهم الرائي بكبر سنه. ورغم وحشة هيئتهما فإن لهما تلطفًا ولين جانب، كأنهما يعلمان أيَّ شقاء عظيم كاد يتلفنا. وقد أخذتهما الدهشة باختلاف ألوان

شعورنا؛ فالراهب أحمر الشعر، ودييغو أشقره، وفيرنانديز داكن منسدل، وشعري أسود خشن. بل إنّ كلَّ ما فينا عجيب غريب؛ ألواننا ولحانا وثيابنا وسلاحنا.

وضعتُ يدي على صدري وقلت: مصطفى. اسمي مصطفى.

وأجاب أصغرهما ذو الندبة: كواتشي. وأجاب الآخر: إلنسن.

وكان التعارف يسيرًا. ثم وكزتُ دييغو فقدّم لهما عقودًا من الخرز الأصفر، فأعطاه كواتشي سهمًا من كنانته. فاطمأنتْ نفسيهما إلى جانبنا بعد هذه العطايا، ودعوانا إلى ولوج القرية التي كانت أكبرَ مما رأيتُ. وعددت عشرين كوخًا مصنوعة من أوتاد خشبية ومسقوفة بفروع الشجر والجلود. واجتمع قوم كابوكوي، وكان هذا اسم قبيلتهم ويربو عددهم عن المئتين، في الساحة ينظرون إلينا. وكانت نساؤهم بطول الرجال، وإن خلت ثيابهن من الزينة ما خلا أصدافًا بيضاء تزين أطراف جلود الغزلان التي تكسي أجزاءً من أجسادهن. وفرح الأطفال بلحانا فرحًا شديدًا فأخذوا يدنون منا يبغون العبث بها، لكن الكبار نهروهم، فتبسمّنا وقدّمنا لهم عقدًا من خرز.

ودعانا كواتشي وإلنسن إلى الجلوس إلى موقد النار، فقبلنا لما نال ثيابنا من بلل. وأعطونا شرابًا داكنًا لونه، غير ساخن، صنعوه من أوراق شجرة لم أرها من قبل، لكنها أنعشتنا وأجلت تعبنا، حتى رأيتُ اللون يرتدُّ إلى وجه فيرنانديز المسكين. وبعدها جَالَسَنا زعيمهم إلى الطعام، وكان شيخًا كبيرًا اسمه ديلنشافان وهو والد كواتشي. وكنتُ لا أعرف من كلام الهنود إلا عشرًا أو عشرين كلمة، سمعتها من نارفاييز أو ترجمانه حين حديثهم مع الزعماء أو الأسرى. وهي كلمات تتصل بالذهب والفضة، وبالبر والأنهر، وبالزمن والمسافات، فلم تكن ذات نفع في موقفنا ذاك وأنا أرمي إلى طلب العون في إيوائنا من المطر وإصلاح مركبنا. فعزمت على تعلّم لسانهم.

وسألني القوم من أين جئنا، فأوحيت لهم أننا مسافرون إلى القارة في الناحية الأخرى من تلك الجزيرة، وأن السبل منقطعة بنا على هذا الساحل. وإني وإن لم أكذب فلم أصدقهم القول.

***

ولمّا رجعتُ إلى الساحل صاح بي رويز: أجلبتهم معك؟ أجلبتهم إلينا؟ ثم رأيت أصابعه تلتفّ على قائم فأسه.

وقد بلغ مني العجبُ كلَّ مبلغ. فإني كنتُ أحسبه يفرح أن رآنا نحمل قفاف الطعام التي تلقّانا بها أهل كابوكوي من أرانب طازجة وسمك يابس وجذور يطيب أكلها، بيد أنه اغتاظ أن تَبِعَنا مضيفونا إلى الشاطئ. فأجبته: هذه جزيرتهم. ولا أقدر على منعهم من الخروج حيثما شاءوا.

وانصرفتُ إلى تقسيم الطعام دون اعتناء برويز، فتلقّى الرجال نصيبهم شاكرين وكفّوا عن النزاع.

ومكث الصبيّان الهنديان كواتشي وإلنسن معنا، فتقرفصا وأخذا ينظران إلينا وما يلينا ونحن نأكل، ونظراتهم تنتقل ما بين المركب المخرج إلى الشاطئ وأسلحتنا الغريبة، والأناجيل التي كان الأجناد يقرأونها، والصليب الذي نصبوه لأجل القُدّاس. وما احتاج كواتشي وإلنسن أن يعرفا اللسانَ الإسباني كي يفهما أن محضرهما أثار النزاع في معسكرنا، فما كان منهما إلا أن انصرفا.

وأشعلنا نارًا كبيرة، وتحلّقنا حولها نتشاور في أمرنا. فإن أردنا بلوغ بانكو تعيّن علينا إصلاح المركب، والسفر بحرًا بحذاء الساحل حتى نعثر على الميناء. لكنّ أهوال البحر التي شهدناها في الشهر الماضي قد أنهكتْ الرجالَ فما شاءوا ركوبه دون راحة، وتحت وابل المطر. فأوعز أحدهم في المكث في الجزيرة حتى الربيع، فيقوى المريض منا ويشتغل الصحيح بإصلاح المركب

وادخار الطعام. لكن رويز أبى قبول ذلك، وقال: لا يمكننا إقامة معسكرنا هنا، والهنود يعرفون موقعنا. فإنهم قد يغيرون علينا ليلاً فيقتلوننا. بل أرى أن نعسكر في الطرف الآخر من الجزيرة بعيدًا عنهم.

فردّ دورانتس: لكن القارب هنا، ويجب أن نظل بالقرب من مكان الطعام والماء.

فأجاب رويز: افعلوا ما بدا لكم. أما أنا فلن أبقى هنا، ولم أقطع نصف الأرض ليأكلني هؤلاء المتوحشون.

ولّما كان الرجال مجهدون فلم يشاؤوا إقامة المعسكر في ناحية لا يعرفونها من الجزيرة، فاتفقوا على التزام الساحل في موضعنا عينه. لكنّ أربعةَ رجالٍ من الجنود رأوا صوابَ رأي رويز. فرحلوا في صباح الغد، وأخذوا معهم أسلحتهم وبعض العتاد التي نجت معنا، وقالوا إنهم راجعون إلينا في الربيع فنرحل كلنا على المركب. وحاول دورانتس إقناعهم أنهم أكثر أمانًا في جماعتنا لأننا نفوقهم عددًا، وأن إصابة الطعام والماء أيسر وأوفر، وأن الراهب معنا أنّى تحركت أفئدتهم وأرادوا التخفف من آثامهم. لكنهم لم يلقوا لرأيه بالاً، فغضب غضبًا شديدًا وحدا به اليأس إلى أن يقول: باسم جلالة الملك الذي عهد إليّ بقيادتكم، آمركم بالبقاء معنا.

فألقمه رويز حجرًا برد عاجل وقال: إن أراد ملكك أن أبقى معكم فليأتِ ويخبرني بنفسه.

***

وفي فسحةٍ من أرض وراء الشاطئ أقمنا ثلاث سقائف كبيوت كابوكوي، وسقفناها بفروع الشجر. فإن أطلّ المرءُ في جوف الدار فسيرى أننا حاولنا مبلغ طاقتنا أن نجعلها دارًا تريح قاطنيها. فجعلنا في ناحية منها

جرارَ الماء التي أخذناها من جزيرة سان ميغيل، وفي ناحية أخرى تركنا العدة والأسلحة، وفرشنا في وسطها شملة ابن العرس والقاقم التي أخذها دورانتس، فكانت فرش السقيفة التي سكنتُها مع دورانتس وديبغو والأب أنسيلمو وكاستيو. ودفعتْ السقيفةُ أسوأ البرد عنّا، لكن ما استطاعت منع نزول المطر من بين الخشب، فكم من مرة استيقظنا ليلاً لبللٍ أصاب ثيابنا.

وقصدتُ قرية كابوكوي بعد ثلاثة أيام برسم إعادةِ قفافهم. واستصحبني دورانتس وكاستيو بنيّة طلبِ اللحم من الهنود، لنتزوّد به مع المحار وأعشاب البحر التي كنا نجمعها. فلما دنونا من موضعهم، نبحت كلابهم وركض صغارهم نحونا يحيوننا، ثم أمسكوا بأيدينا فجرّونا إلى الساحة فرحين، فأبصرنا جمعًا من سكان القرية فيها، والهرج والكلام عالٍ، فلما تفرّق جمع الهنود رأيتُ رجلاً أبيض. فلما التفتَ تعرفته، فإذا هو كابيزا دي فاكا.

وبلغ عجبنا منتهاه لرؤية الخازن هنا، بعد أن كنا نحسبه ميتًا. فعانق دورانتس وكاستيو عناقَ الأحبّة، ولسانه يلهج بالشكر. غراثيس آ ديوس! أما أنا فنظر إلى ناحيتي فحسب. ثم جلسنا عند موقدٍ من مواقدِ قرية كابوكوي، وروى لنا حكايته. وأنا أسجّلها هنا للقارئ على وجهها الصحيح إن لم تخني الذاكرة.

قال كابيزا دي فاكا: أميغوس..[1] سأحكي لكم كل ما جرى لنا. بعد أن أبى الحاكم أن يرمي لي حبلاً عزمتُ على التزام أقرب قاربٍ لي، وكان قارب القائد بينالوزا. فسرنا في البحر يومين بليلتيهما معًا حتى فرّقت عاصفةٌ بيننا. وفي فجر اليوم الثالث سمعتُ صوت ارتطام الموج بالساحل، فلم أدرِ أحلم كان أم حقًا. لكن رجالي لم يقوَوا على التجذيف، فجدفت أنا والربّان حتى أرسينا المركب. ثم أرسلتُ أحد الرجال يستطلع المكان فوجد هنودًا

1- يا أصدقاء

عائدين من رحلة صيد. أعطونا صيدهم ثم أحضروا جذورًا وثمارًا. لكني رغم نجدتهم لنا خشيت أن يوقعوا بنا أذى، فأمرت رجالي بإصلاح القارب وأبحرنا في اليوم التالي. فلم نبعد عن الساحل إلا مقدارَ رمية سهم حتى ضربتنا موجة عاتية، فخسرنا المجاديف وبعض العدة. وضربت موجة ثانية القاربَ فانكفأ، وسبحنا إلى الشاطئ ما معنا إلا الثياب التي نلبسها. ورفض سوليس المسكين ترك القارب، فغرق ومعه رجلان.

سأل دورانتس: مات جابي الضرائب؟

نعم، وتوفي معه اثنان.

اللهم رحمتك!

آمين. ومات ثلاثة رجال بالحمى. ورجع الهنود، وكانوا من قبيلة تسمّي نفسها هان، يحملون لنا مزيدًا من الطعام، ولمّا علموا بما وقع لنا رَجُونا أن نستصحبهم إلى قريتهم. فقلنا لهم إننا لا نقوى على السير، فأوقدوا المشاعل على طول الطريق من الشاطئ إلى معسكرهم، ثم احتملونا جميعًا إليه، وأقاموا وليمة على شرفنا، وباشروا الغناء والرقص. فلمحت عندئذٍ على أحد الراقصين عقدًا ذا خرز أصفر كالذي جلبناه من قشتالة، فسألته من أين حصل عليه. فكان ردّه: من قبيلة قريبة زارها رجالٌ بيض يشبهونك. فطلبت منه أن يأخذني إلى هنا لعلّي أعرف من هم هؤلاء الرجال البيض.

ولمّا أتم كابيزا دي فاكا حكايته، أنبأه دورانتس بتمرّدِ رويز وعدم استطاعته منعه. وقال كابيزا دي فاكا إنّ رجالاً من جماعته تمردوا كذلك، وهم أربعة جنود وخادم، كلهم أصحاء أقوياء، أبوا إلا العومَ إلى بر القارّة. فإذا وصلوا البر فسوف يسيرون بحذاء الساحل حتى يبلغوا بانكو، وسوف يبلغون البحّارة في السفن هناك عن تحطّم مراكبنا.

فقال دورانتس: المكان بعيدٌ ولن يبلغوه عومًا، لكن ربما يكون الحظ من نصيبهم.

وسأل كابيزا دي فاكا: أما زال قاربكم معكم؟

أجل. لكن تسييره في هذا الجو صعب، فالأجدر أن ننتظر الربيع.

فائتِ برجالك إلى معسكري، وسنمكث فيه جميعًا.

ولم لا تأتِ أنت برجالك إلى معسكري؟

فعرفتُ من الجدل الذي قام بين دورانتس وكابيزا دي فاكا أنهما لم يأبها أيَّ المعسكرين أسلم أو أحسن، بل من سيكون قائد الرجال فيه وصاحب الكلمة العليا. وسخطت لأنهما لم يعتبرا بما جرى، بل إنهما ما يفتئان يتحينان الفرص للتنافس. فتوكّأت على عصاي وقلت: إن الكابوكوي أعطونا الماء والطعام والفراء اتقاء البرد. فلو رحلنا عن معسكرنا وانضممنا لجيرانهم في الناحية الأخرى من الجزيرة لحسبوها إهانة لهم.

فقال كابيزا دي فاكا: لكن الأسلم هو البقاء معًا.

فأجبت: أسلم لكن ليس من الحكمة فعله. وقد أغاثنا الكابوكوي، فالأسلم إذًا هو إظهار الاحترام لهم، ونحن نعوّل عليهم ليدلّونا إلى مكان الصيد والغذاء. والعواصف التي أكرهتنا على المكث في هذه الجزيرة لم تنقطع بعد، فليس من الحكمة ركوب البحر الآن بلا طعام. فإذا حلّ الربيع نجمع رجالنا بإذن الله، ونصلح قاربنا ونرحل عن الجزيرة.

فأطرق كابيزا دي فاكا ثم سأل: وأنت يا دورانتس، أموافق على هذا؟

فأجاب دورانتس: لن يقوى رجالي على الرحيل. ما لنا إلا انتظارُ الربيع.

فكان أن عاد كابيزا دي فاكا ورجاله إلى قرية الهان، وأقمنا نحن مع

الكابوكوي.

***

وإني لا أذكر ذاك الشتاء في الجزيرة إلا استعر في قلبي الكمدُ وتبكيت الضمير؛ الكمد على ما وقع لنا، وتبكيت الضمير على المصيبة التي أُبتلي بها أهل كابوكوي بسببنا. لكن الأمل انتعش في قلوبنا في آخر أيام الخريف من سنة خمس وثلاثين وتسعمئة من الهجرة، ونحن نتحضر لموسم نزول الأمطار. وكانت المساكن التي صنعناها وتوافر ماء الشرب منعا المرض من التفشي في جماعتنا. فكنا نأكل المحار وأعشاب البحر، أو نجمع البيضَ من أعشاش الطيور والثمار من الغابة التي تتصل بمعسكرنا من الخلف. فسكنتْ أنفسنا بعد ابتلاء البحر بزوال الجوع وحلول الأمان.

لكننا صرنا نشتهي طعامًا أحسن من ذلك لا سيما في ليال المطر، ونحن قابعون في أكواخنا نرتجف من البرد. فطلبنا من الكابوكوي لحمًا فما بخلوا. ومنحونا مما لديهم من لحوم السمك والطير والسناجب والأرانب. لكن زاد إلحافنا عليهم بالمزيد وصرنا جماعةَ مستعطفين، حتى مَنَع عنّا زعيمهم ديلنشافان الطعامَ، وأمر ألا ننال من صيد الصيّادين إلا أن نكون قد اكتسبناه بالعمل في القرية، بجمع الحطب أو اجتلاب الماء من النبع أو طحن المكسرات. وكانت قسمة عادلة في رأيي، وإن رأيت الامتعاضَ في وجوه القشتاليين، لأنهم كانوا يرون العمل لدى الهنود تحقيرًا من شأنهم.

ودعانا كواتشي وإلنسن يومًا إلى الصيد. وقال دورانتس وكاستيو إنهما لا يحسنان استعمال سلاح الهنود، فذهبت أنا وديبغو معهم. فقمنا مع الفجر وانسللنا إلى الغابة وراء نحو اثني عشر غلامًا من القرية. وكانت القسيّ التي أعارونا كبيرة تنزلق من فوق أكتافنا، لكننا حاولنا مع ذلك ألا نتخلّف عن البقية. وحلّقت بومة خلسةً فانقضّت على سنجاب، فكادت تلمس رؤوسنا

بقربها، ثم ارتفعتْ وأنا لم أرفع قوسي حتى. وتوهمّ دييغو سماع صوت خطى حيوان فأنفذ سهامه في قلب شجيرات ملتفّة، وما كان الذي سمعه إلا صوتَ أعواد الشجر. ولم يصد أحدنا شيئًا. وكانت الغابة الخضراء الكثيفة مكانًا غريبًا لا يُرجى توغله لرجال نشأوا في المدينة، وإن كانوا، كما كنا، قد قطعوها سيرًا أشهرًا طويلة. فشاهدنا مغتمّيَن إلنسن يسلخ أرنبًا، ويقطع الفرو من حول عنقه وأرجله. فانكشف لحمه الأحمر وسخونة جسده الميت تتبخر في هواء البكور البارد.

وظننا أن حظنا في صيد السمك أوفر، حتى علمنا أن الكابوكوي يتصيدون بالحراب، وهذه طريقة عسيرة على من لم يتعوّدها، فيها من الصبر ودقة الصيد الشيء العظيم. فلم نحرز بعد نهارٍ طويل في الخليج إلا سمكتي سلمون، فاقتسمناها بيننا في الكوخ، باعتبار اتفاقٍ ضمني بيننا أن من وجد طعامًا يقتسمه مع رفاقه، فكنا نقتسم بيننا الثمر الذي يجمعه الأب أنسيلمو في تجواله، والمحار الذي يجمعه دورانتس وكاستيو.

وكان جهلنا بفنون الصيد عظيمًا، فكان الهنود يسخرون من كواتشي وكان أكثر من يرافقنا ويتردد علينا، حتى سأم منا، فقال مرة وهو يحكّ ندبة ذقنه ويشيح عينيه محرجًا: اذهبوا فاجمعوا الجذور مع النساء، فهذا عمل يسير.

وأصدقك القول يا قارئ كتابي أنه ليس بالعمل اليسير. كانت الجذور من نبات طويل ذي سيقان شوكيّة تنمو في سبخة تبعد عن القرية نصف فرسخ. وكانت مكامن المحار قد نضبت في ذلك الحين، فرافقنا دورانتس وكاستيو إلى السبخة. وكان ماؤها باردًا عكرًا، وأوراق النبات الطويلة تلتف حول سيقاننا. فكنا نحفر الوحل بأيدينا ونشدّ الجذور، فتقطع الأشواكُ أيدينا وأذرعنا بجروح عميقة.

أما نساء الكابوكوي، وإن كن يضحكن من سوء عملنا، فهنّ من علمننا

شدَّ النبات دون أن نجرح أيدينا، وأريننا كيف ننظف الجذورَ قبل شويها. بل إنهن كن يقتسمن زادهن معنا عند راحتهن تحت فيء الشجر. ثم يطفقن يغنين ويتحدثن ويضحكن ويرضعن أولادهن. فإذا حان وقت العمل، شددن الصغار على ظهورهن وخضن ماء السبخة.

وبدأت أتعلّم لسان الكابوكوي بالإنصات إلى كلام النساء. وشقّ عليّ في مبتدأ الأمر نطق الأصوات الحلقية الغريبة. فكانت تظهر في حديثهن كلمات عسيرة المخارج، مثل تيشيدالج وهي العظمة وهامدولوق وهي الريشة، فلا تشبه أي كلمة في أي لسان أتكلّمه. وترتيب الألفاظ في كلامهم عجيب كذلك، فكان الفاعل والمفعول يسبقان الفعل. فإن قلت: باووس ني كوايموجا صوّبت امرأة منهن كلامي فتقول: ني باووس كوايموجا. فكنت كالطفل أتعلّم ألفاظًا جديدة كل يوم.

ثم تعلّمت من لسانهم ما يقيم الحديث مع أصحابي منهم. فسألت كواتشي مرةً: كيف أُصبتَ بهذه الندبة؟

وكنا جالسين خارج كوخه، وآخر نور النهار يغمر وجهينا، أساعده في صنع نشاب جديد. فكنتُ أمسك طرفه الحاد كيلا يتحرك، وهو يربطه بالعصا بوتر الغزال. فأشار إلى إلنسن الواقف على مقربة يعلّم فتيانًا صغارًا حمل القوس. فقال: أصابني بها أخي. كنا يومًا نستبق في الغابة ويشدّ أحدنا الآخر. فشدّني بقوة حتى وقعتُ على جذع شجرة.

وإن كان كواتشي يسمّي إلنسن بأخي فلا قرابة بالدم بينهما. فلولا أنّ أم إلنسن تعهدت كواتشي بالرعاية فأرضعته بعد موت أمه لهلك كواتشي. فكان الغلامان شديدي التعلق ببعضهما لا يكاد يُرى أحدهما دون الآخر. وكنت أعدّهما روحًا واحدة في جسدين. لكني عرفت مع معاشرتهما أن كرم كواتشي وشهامته وحلمه ورأفته بنا نحن الضالين أزيد مما لدى إلنسن. ولولا إصرار

إلنسن على كواتشي أن يكفّ عن إعطائنا من صيده لما كفّ، وإن كان في ذاك عصيان لأمر زعيمهم.

***

واشتكى إيشيفريا الحدّاد في يوم شتاء من آلام في بطنه. فأوعز إليه أصحابه في أن يصوم ويرقي نفسه بشفاعة مريم عليها السلام، ولكن آلامه لم تسكن. وكان يفرغ ما بجوفه حتى وإن كان نائمًا. وكان الأب أنسيلمو يجلب من النبع ماءً ذات صباح، فعثر عليه متقوّس الظهر عند جذع شجرة، ويمينه تقبض على حبة صنوبر حتى ابيضّت مفاصله. فاحتملنا إيشيفريا إلى فسحة من الأرض جنوب النهر، وبينما نحن نهمُّ بإنزاله في قبره صاح بنا فيرنانديز النجار أن نتوقف لأنه أراد أخذ نطاق إيشيفريا. فأنكر عليه الأب أنسيلمو. ولكن فيرنانديز أجابه: وأي حاجة له فيه؟ ثم نزع عن الميّت نطاقه وأخذه إلى القرية فعاوض عنه طعامًا.

وأظن أننا في ذلك الزمن تعلّمنا ألا نخجل مما نضطر إليه، كمعاوضة متاع الموتى بما نحتاج إليه. فهو شر لا بد منه، نأتيه ثم ننساه. فصار الرجالُ يعاوضون أمتعة الذين قضوا نحبهم من طواقي ونعال وسُبح، وهم يسوّغون تصرفهم بأن الحيَّ يفعل ما بوسعه للنجاة إن أخذ الموتُ بداء المعيّ المهلك بعضَهم. ولما نفد ما أورثناه أنفسنا من الموتى تكفّل الأحياءُ بمعاوضة ما يملكون. فعاوض دورانتس سيفه، وكاستيو قفازيه، ودييغو تحفَ الطيور التي نحتها، وأنا نعالي العزيزة.

وتفشّى داءُ المعيّ بين جماعة كابوكوي كالنار في الهشيم. وأتذكّر أنهم دفنوا في أسبوع واحد عشرةً من قومهم. حتى اتّهمتنا امرأةٌ ثكلى فقدت ولديها الاثنين بأننا جلبنا الداءَ إليهم عن عمد. ولم يكن عسيرًا عليها أن تُدِبَّ الرعبَ في قلوب القبيلة، فتجعلهم يعادوننا والداء قد أهلكهم. فرجالهم لا يقوون

على الصيد، ونساؤهم لا يقوَين على الرضاعة، ومن لم يكن من صغارهم محمومًا فقد هزل من الجوع. وأراد بعض جماعة الكابوكوي قتلنا، وما كان ذلك عليهم بعسير، وما كانوا ظالمينا إن فعلوا، لكن الزعيم ديلنشافان قال: لو كانوا يقدرون على إصابتنا بالوباء لأنجَوا أنفسهم منه.

***

وكنا نذكي النار لطبخ العشاء ليلةً لمّا برز رويز خلسةً من بين الشجر. فكانت لحيته سوداء عظيمة طويلة حتى إن عينيه الصفراوين تكادان تختفيان في شعر وجهه. وقد استحالت ثيابه البيض بالمطر والطين داكنةً مخضرّة. وكنا نعرف إصراره على الابتعاد عن أهل كابوكوي، فدهشنا أن رأيناه يدخل معسكرنا وقد يأتينا الهنودُ متى أرادوا. فهتف واحد منا: رويز! أهذا أنت؟ أين الآخرون؟

لم يأتوا معي.

لماذا؟

لم يشاؤوا القدوم.

هل هم آتون في الربيع؟

وكيف لي أن أعلم؟ أنا لم أسألهم.

ماذا كنتم تأكلون في معسكركم؟

المحار.

لكن مكامنَ المحار قد نفدت.

أكلنا سمكًا.

سمك؟ كيف صنعتم سنارة؟

صنعنا حرابًا.

لم نعلم أنكم تعرفون صيد السمك بالحربة. لِمَ لم تعجّل بالرجوع؟

لِمَ كثرة السؤال؟

نريد أن نعرف ما فعلتم. ونريد أن نأكل سمكًا أيضًا.

أتظنوني كاذبًا؟

لا تغضب منّا. أين الآخرون؟

أصابتهم الحمى.

لكنك قلتَ إنهم لم يشاؤوا القدوم. أيهما حصل؟

لا أدري.

رويز، أين الرجال؟

أكلتهم! ها قد عرفتم! أهذا ما تريدون معرفته؟

فشهق الرجالُ، وكفّوا عن مزاحهم وحدقوا برويز. وكنت أظنّ، ولا أعرف لماذا، أنه إن كان حقًا ما يقول، وأنه ارتكب ذاك الإثم العظيم الذي أقرّ به، فلا بد أن يظهر أثره على بدنه. لكنه لم يختلف عن أيٍّ واحد منا، اللهم إلا أن جلده أقسى، ولحيته ملوّثة بالطين.

وشرع يحكي بصوت منخفض: بعد أن رحلنا عنكم أصاب مرضُ المعيّ بلاثيوس فمات. فهممنا بدفنه لولا أن لوبيز أشار بأكل لحمه. لم نكن قد ذقنا الطعامَ من خمسة أو ستة أيام. قلت لا. أقسم بالرب جلّ في عليائه أني قلت لا. لكن لوبيز أخذ يأكل من لحمه ولم يبالِ. وكان جوعي عظيمًا. لم أعرف

جوعًا كهذا. ثم قتل لوبيز سيرّا. وقتل بعده كورال.

كان رويز آخرَ من أكل من لحم البشر، ولمّا لم يجد ما يأكله رجع إلى معسكرنا.

قال النجار: حريٌّ بنا قتل آكل البشر.

فقال الأب أنسيلمو: لا يجوز زهق الروح، فهذا قتل.

فأجابه النجار: إنه قد قتل الآخرين وأكل لحومهم. لا يمكن أن يُؤتمن فيما بيننا.

فما كان منّا إلا أن نفينا رويز عن معسكرنا. وأنذرناه إن رجع إلى معسكرنا قتلناه قبل أن يأكل واحدًا منا. وكان رويز جنديًا من جليقية، ولم أعلم عنه أيَّ ميل إلى أكل لحوم البشر، لكن هذا هو الشر الذي اجتلبته حملةُ نارفاييز على أفرادها. وكان بعد علمنا باقتراف تلك الجماعة هذه الخطيئة التي لا تُغفر أن بدأنا نسمي الجزيرةَ التي أقمنا بها جزيرة الشؤم.

أما كيف علم أهل كابوكوي بما فعله رويز فلا أدري. وأظنّ أنّ الكابوكويين تعلّموا اللسان الإسباني بمعاشرتنا، كما تعلّمتُ لسانهم بالإنصات إلى كلامهم. وأتذكّر أن كواتشي وإلنسن كانا معنا ليلةَ رجوع رويز إلى معسكرنا وإقراره بجنايته. فلا ريب أنهم سمعوا ما قاله. وكان روعهم شديدًا من مسألة أكل لحوم البشر، حتى إنهم قطعوا كل صلة بنا لأسابيع وأبوا أن نطأ قريتهم. فانتظرتُ ودييغو بجانب النهر حتى جاء كواتشي، وتوسلنا إليه أن يتشفّع لنا عند قبيلته.

قال دييغو: أخبرهم أننا لا نفعل ما فعله رويز.

وقلتُ: قل لهم إننا لا نأكل لحوم الناس. قل لهم.

لكن كواتشي نادى كلبه وعاد من حيث أتى. وخابت مساعينا في إقناعه أن يستصحبنا إلى القرية.

واجتمع داءُ المعيّ مع الجوع، فهلك من جماعتنا نفرٌ كثيرون. وما ولّى ذاك الشتاء البارد إلا وقد دفنّا ثلاثة وعشرين قشتاليًا، ورجلاً من أنغولا، وثلاثة برتغاليين في تلك الفسحة جنوب النهر، وقد اُختتمتْ رحلتهم الطويلة لأجل استيطان تلك الأرض البكر بالرقودِ أبدًا تحت ترابها. فما عاش إلا اثنا عشر رجلاً: أندريس دورانتس، ودييغو دورانتس، وألونزو ديل كاستيو، وبيدرو دي فالديفيسو، وريكاردو غوتيريز، والأب أنسيلمو دي أستورياس، وآلفرو فيرنانديز، وفيليبه بنيتز، وخورخيه شافيز، وبيدرو إسترادا، ودييغو دي هويلفا، وعبد الله مصطفى بن محمد. لكن من مات من أهل كابوكوي كان أزيد من مئة وعشرين في المدة نفسها، وقد دفنوهم في مراسم حملت نواحُهم وصيحاتهم إلى معسكرنا، فذكّرتنا بالشر الذي جلبناه إلى الجزيرة ونقلناه معنا وقت رحيلنا.

***

وكلما ذهب دورانتس وكاستيو لزيارة كابيزا دي فاكا في مكان إقامته لدى قبيلة هان، وقلّما حصل ذلك، كنت لا أذهب معهما، لأني لا أكنّ عظيمَ ودٍّ للخازن. وكان يبدي احتقارًا لأي رجل يدنوه مكانةً، وهذا ديدن كل ذوي الحسب والرفعة، لكنه لا يخفي كبره على الإطلاق. والأمرُّ من تعاليه هو معاضدته لنارفاييز الأحمق في كل شأن يقوله، فلن أنسى ولن أسامح بعد الذي وقع لنا. ولكن لمّا جاء الربيعُ وعزمنا على التهيؤ للرحيل من جزيرة الشؤم، قبلتُ أن أذهب مع دورانتس وكاستيو إلى قرية الهان.

وكانت مساكنهم كمساكن كابوكوي لكنها أصغر وأعرض. ورأينا أحد فتيانهم، وكان يلبس نعال جندي من جماعتنا، يقطع رأس سلحفاة البحر ثم

يعلّقه كي يقطر دمه. وعلى مبعدة رأينا امرأةً تصلح سقف دارها وصغارها يساعدونها. وكلبٌ أشهب يرقد في موضع مشمس والذباب يحوم عليه. ولم أسمع خرير نهر في قريتهم، فتساءلت عن مكان اجتلابهم ماء الشرب، وقد رأيت أنهم لم يقيموا معسكرهم في موضع ملائم كقوم كابوكوي الذين أقاموا قريتهم قرب أكثر من نبع عذبٍ. وكانت القرية بالغة السكون كأنّ أهلها خارجون للصيد، وإن شممت فيها رائحةً كريهة مؤذية.

وجدنا كابيزا دي فاكا في طرف الساحة البعيد، جالسًا القرفصاء منهمكًا في سلخ سنجاب، فلم يدرك دنونا منه. وقبض رأس السنجاب بشماله وسلخ بسكين في يمينه الفرو عن اللحم برفق وحذر، كمن لم يتعوّد على هذا العمل وإنما يتشوّف إتقانه. فلمّا رآنا صبّ ماءً على يديه ومسحهما بمئزر صنعه من فضل ثيابه، وقام يحيينا. وكان مهزولاً ضعيفًا، فبرزت أضلعه من تحت جلده حتى تبيّنتُ عددَها. وغارت عيناه في محجريهما، واستطالت لحيته الصفراء حتى بلغت صدره.

ثم ناول كابيزا دي فاكا الحيوانَ إلى امرأةٍ مليحة ابتسمتْ حال مرآنا. فصافح دورانتس وكاستيو، واكتفى بالإيماء برأسه ناحيتي. فأبلغه دورانتس بموتِ من مات من جماعتنا وأسماءِ الرجال الاثني عشر الذين بقوا. فقال كابيزا دي فاكا إن داءَ المعيّ قد انتشر سريعًا في جماعته، فلم يعش منهم إلا ثلاثةُ رجالٍ وهم: كاتب العدل هيرنمو دي ألبانيز، ومستوطن اسمه لوبيه دي أوفيدو، وكابيزا دي فاكا نفسه.

وقال كاستيو إنه مضطر إلى مبادلة آخر ما يملك بلحم يابس يكون زادنا في سفرنا إلى بانكو، غير أنّ أهل كابوكوي سأموا من غرائب متاع القشتاليين وزال انبهارهم بها، فإن اللحم الذي قد يتحصّل عليه منهم لن يكفي المسافرين أكثر من يوم أو اثنين. وسأله كاستيو: كم من الزاد تراك تحضر

للسفر؟

فأجاب كابيزا دي فاكا: لن أرحل معكم.

ماذا تقول؟

لن أرحل.

لكن... لماذا؟ لماذا تأبى الرحيل معنا؟

وأضاف دورانتس: لم ينزل المطر منذ ثلاثة أسابيع. لا حاجة إلى الانتظار أكثر مما انتظرنا.

ليس الخوف من المطر سبب رفضي.

ما الأمر إذًا؟

لدي زوجة الآن. ولن أتركها وأرحل.

فنظرتُ إلى المليحةِ الواقفة وراءه. وكان شعرها ناعمًا يلتمع بضوءِ الشمس، وامتزج في وجهها الجَلَد والظرافة. وانتظم بنحرها عقد من الأصداف البيضاء فرّقت بينها أزرار حمراء، فكانت حليةً بخسة جميلة. وإن كان كابيزا دي فاكا ملقيًا ظهره إليها إلا أني رأيت شدة تعلّقهما ببعض. فتذكرت قولهم في الأمثال: العشق كسنام الجمل لا يخفى.

فقال كاستيو: ولكن لديك زوجة في خيريز.

ليست كمثل هذه.

لكن زوجتك سيدة كريمة! ألم تفكر بها قط؟

وما يدريك يا كاستيو عن السيدة التي في خيريز؟ لا تتحدث في شأنها.

ونظر دورانتس إلى المرأةِ غير مصدّقٍ، ثم قال: أتهجرُ قومَك لأجل هذه

الهندية؟

فحدج كابيزا دي فاكا رفيقيه غاضبًا ثم قال: لن أهجرها.

فأجاب دورانتس: فلتحضرها معك إذًا، وارحل معنا.

قلت لكم لن أرحل. نحن لا نعلم كم تبعد بانكو عنّا. أتظنون أننا نحتمل مسيرةً طويلةً في تلك الأرض؟ بل سوف نهلك في الغابة ولن يعرف أحدٌ ما اتفق لنا.

لقد سمّمتْ هذه المرأةُ عقلك.

بل هي من نزع السمَّ منه.

فاستندتُ إلى عصاي وأخذت أفكّر. لم يفهم دورانتس وكاستيو ما وقع لكابيزا دي فاكا، لكنّي عرفت أنه شغف حبًا بهذه المرأة، وقلبه لا يريد سواها. وأنا أعلم من غيري بشقاء قلبِ المحبِّ، فاجتمعتُ وإياه على سنة المحبين وأشفقت عليه، وتعجبتُ من كرهي له الذي تبدّل عطفًا.

وسأل دورانتس: وأين ألبانيز وأوفيدو؟ هل اتخذا زوجين من الهنود مثلك؟

فأجاب كابيزا دي فاكا: أصيب ألبانيز بشيء لا أدري ما هو. ولكم أن تحدّثوه إن شئتم. أما أوفيدو فلم يسترد صحته بعد أن أصيب بداء المعيّ، فإن أرادا الرحيل معكم فلن أمنعهما.

وعثرنا على ألبانيز يجول القريةَ، يتبعه كلبان أعجفان يظهر عليهما الولاء له. ولم تتغير هيئة الرجل غير استطالة لحيته ونحوله، وكان يلبس قميصًا من القطن الأزرق وسروالاً أسود، ويحمل في يده عصا قصيرة يتوكأ عليها. وعلى صدره شدّ نطاق قمطره الجلدي وفيه العقود والعروض والتسجيلات

التي أُوكل بحفظها حين ترك الأسطولُ إشبيلية. وكذلك فيه الأسماء التي سمّى بها الحاكمُ الأماكنَ والناسَ والدواب في هذا العالم الجديد، مثل بورتيو وسانتا ماريّا، وبابلو وكماشا، وإِل لغارتو وكاستوري.[1]

نادى دورانتس: ألبانيز. فابتسم الكاتبُ لمّا سمع اسمه، وأشار إلينا أن نقعد معه على مراتب هندية تحت شجرة بلوط. ومال على عصاه فأراح ذقنه على يديه. فقال دورانتس: سوف نبحر إلى القارّة، ثم سنكمل السير إلى بانكو. تعال معنا.

وابتسم ألبانيز، فكشفت شفتاه عن أسنانٍ خضراءَ بلون الطحالب. قال: آديوس.[2]

فقال دورانتس: لا يا موتشويلو. ووكز صدر ألبانيز بسبابته ثم أشار إلى نفسه. أنت تعال معنا.

آديوس.

فقال كاستيو: ماذا دهاك؟ هل أصابك الصممُ؟ نريد أن تصحبنا.

فما زال ألبانيز متبسّمًا كأنما قال كاستيو طرفةً مضحكة لم يفهمها إلا هو. ثم خطّ بعصاه خطوطًا على الأرض، فحسبتُ أنها كلماتٌ بلسان لا أعرفه، لكن القشتاليين أنبأوني فيما بعد أن ما هي إلا طلاسم ابتدعها هذيانه وما هي بأي لسان معروف.

وقال دورانتس: يا إلهي! لقد جنّ الرجل. ومس جبينه بكفّه كأنما يحاول مجاراة الأفكار في عقله. فلنعثر على أوفيدو.

1- القندس

2- وداعًا

وكان أوفيدو في الغابة وراء القرية، يجالس عجوزًا درداء تصنع ما حسبته قفةً. وكانت رائحته منتنة وملابسه قذرة، لكن هيئته في الجلوس أوحت أنه في تمام صحته قادرًا على السير. لكن لمّا بيّن دورانتس لأوفيدو ما عزمنا عليه رفض مرافقتنا. وقال إن مصيرنا في القارّة قد لا يكون أحسن من مصيرنا على هذه الجزيرة، بل أفظع. وقال إنه لن يخاطر بحياته أكثر مما خاطر، ولن يرحل إلى مرسى لا نعرف موضعه.

لماذا اتفق رجال كابيزا دي فاكا أتم الاتفاق فيما بينهم، أما جماعة دورانتس فاتفقت على خلاف ذلك؟ فكأنما صرنا قومين متنافرين، ولنا في تأويل الأمور اختلافٌ شديد. وكنتُ قد سمعت دورانتس يقول ونحن مجتمعون حول النار في برد الشتاء، ورجالُ جماعتنا يتساقطون بالمرض كالذباب، سمعته يتساءل لم ترفضنا هذه الأرضُ؟ ولِمَ لا ترحمنا ولو مرة؟ فأجابه أحدهم أنّ خطايانا لن تُمحى هنا، بل يجب أن نرجع إلى قشتالة. وصدّقتُ ما قاله. فقلبي يحنّ بشوق عظيم إلى البلد التي هجرتُ، وإليها أنتمي، وفيها تحقيق المنال وتصويب المسار. لكن ربما كان كابيزا دي فاكا وغيره يرون نقيض ذلك. لعلّهم حسبوا أنهم إن صاروا من أهل هذه الأرض وعاشوا بين ساكنيها فإنهم سيجدون راحةً وسكينة.

فاضطررنا في النهاية إلى أن نبادل الهنودَ بأشيائنا كي نجاوز إلى بر القارّة بزورق. فقدّم كاستيو لوح الشطرنج أعز ما يملك، وقدّم دورانتس بردة فرو القاقم وابن العرس، وقدّمت أنا مقصّي. واتخذت مجلسي في مقدّمة الزورق سعيدًا بانطلاق مركبنا من الجزيرة. ولمّا وصلنا إلى الساحل الآخر، كنتُ أوّلَ رجلٍ ينزل من المركب، واستدرتُ أعاون دورانتس على النزول، فنظر إليّ ممتنًا وظلي يحجب عن عينيه وهج الشمس. واجتمعنا نحن الاثنا عشر على ساحل القارّة، فأدركتُ فجأةً أنّ لا حبلَ يوثقني بهؤلاء القشتاليين، كما

كنت مقيّدًا بالعبيد البرابرة في كنيسة إشبيلية قبل أعوام عديدة، ومع هذا فإن قدري مربوط بهم.

13

حكاية الأنهار الثلاثة

ورأينا في السماء سربَ أوزٍ يطير ناحية الشمال. ومشينا اثنان اثنان، أو ثلاثة معًا، وظلالنا تمتد إزاءنا ناعمة الحدود بسبب السحب المنساقة في طريقنا. وغصون شجر البلوط ثقيلةٌ بأوراق الربيع. والنحل يزنّ ويحوم فوق هامات الزهور البرية. وصرنا لا نوجس خيفةً من الغابات التي كنّا يومًا نجهلها، ولا تفزعنا عواءُ السباع على مبعدة. ولاحظت لمّا عثرنا على نهرٍ أنّ القشتاليين لم يسمّوه، كأنما عرفوا أخيرًا أنهم ليسوا أسيادَ هذا العالم لا منازع على ملكهم، وليس من واجبهم التعرّفُ على أقاليمه وحيازتها. ولمّا أشرنا في حديثنا بعد أمدٍ طويل إلى ذاك النهر الأول، سميناه بريميرو ريو،[1] وليس ريو بريميرو، وذلك كي نفرّق بينه وبين الأنهار الأخرى التي عبرناها.

ولمّا كان بريميرو ريو عميقًا، لا يمكن خوضه على الأقدام لمجاوزته، عقدنا العزم على صنع قاربين صغيرين يحمل الواحدُ منهما نحو نصف عددنا. وما كان معنا إلا فأسٌ واحدة فكان عملنا بطيئًا، لكن لم يشتكِ أحدٌ منا. بيد أنه لمّا أخذ فيرنانديز النجّار يربط ألواح الخشب بعضها ببعض، قلنا له إنه أسرف في استعمال شعر الخيل، وماذا نصنع إن أردنا مجاوزة نهر ثانٍ غدًا؟

فأجاب فيرنانديز: بل إني أستعمل ما يكفي. وليست هذه أول مرة أصنع زورقًا.

1- أي النهر الأول

ولماذا تجعل لكل زورقٍ مجدافين فقط؟

فرفع فيرنانديز فأسه حتى برق نصلها بالشمس، وقال مغضبًا: أأنا النجار أم أنتم؟

فتوسّط الأب أنسيلمو وقال: دعوا فيرنانديز يعمل فهو أدرى منّا بهذه الأمور.

فلمّا أتمّ العملَ في الزورق الأول أدخلناه النهر. وكانت أخشابه خشنة فيها من الشظايا الكثير، ولا تكاد حبالُ شعر الخيل تشدّ ألواحها. فجلست أنا وديبغو على طرفيّ مركبنا ومعنا المجدافان، أما دورانتس وكاستيو والأب أنسيلمو فجلسوا في وسطه. وهبّت ريحٌ باردة من الشرق ألصقت قمصانهم بأبدانهم.

وصاح كاستيو: قفوا عكس الريح.

وكانت فكرة ذكية؛ فصارت أجساد الرجال الواقفين شابكي الأذرع كالشراع للمركب، ودفعتْ الرياحُ الزورق إلى الأمام. وكان الماء سريعَ الجريان عكرًا، فلو أن جندلاً أو جذع شجرة كبيرة يكمن قرب سطحه ما علمنا بها. فجدّفنا مع تحريك الموج حتى وصلنا سالمين إلى البر الثاني.

ثم أشرنا إلى الآخرين أن جاوزوا. لكننا عجبنا لّما رأينا كلا المجدّفيَن في الزورق الثاني جالسين في مقدمته، فشقّ عليهم موازنته. ورغم أنهم رأوا كيف استعان كاستيو بالريح لمساعدتنا لا محالة، فإنهم لم يفعلوا ما فعلناه. بل إنهم جدّفوا بقوةٍ أكبر مما ينبغي، فانجرف الزورقُ مع الماء بسرعةٍ عظيمة. فانعدمتْ بنا الحيلةُ ونحن واقفون على ضفة النهر، نراهم ولا نستطيع مساعدتهم. فأخذهم النهرُ في سرعة سيره، حتى لّما دنوا منّا صاح دورانتس بصاحبه فالديفيسو: اقفز أميغو! اقفز واسبح نحونا!

ورمى فالديفيسو نفسه في النهر، وشهق شهقةً عظيمة لما مسّ الماءُ البارد بدنه. وخلّف رفاقَ زورقه فزعين. وكان زورقهم مربعًا بلا صارٍ ولا مجاديف طويلة تبطئ سرعته أو تسيّر اتجاهه. فلمّا ترك فالديفيسو المركب خفّ حمله وجرى أسرع من ذي قبل، فاحتمله الماءُ الجارف كعصا يابسة. فكان أن رمى الآخرون أنفسهم في النهر أيضًا ما خلا إسترادا وشافيز اللذين لا يحسنان العوم فبقيا في المركب، ولم نرهما بعد ذلك اليوم قط.

فكانت خسارة رجلين من جماعتنا، ونحن لمّا نقضِ سوى يومًا واحدًا مذ رحلنا عن جزيرة الشؤم، ضربةً موجعة. فلم نسطع دفع الشعور بأننا هالكون لا ريب. وكنت جالسًا عند النهر، وأطرافي ترتجف رغم النار الموقدة، عندما تساءلتُ عمن سيقبض الموتُ بعدهما. ومتى ينالني الموت؟ بعد يومين؟ أم ثلاثة؟ أم أسبوع؟ لكني حاولت أن أصبّر نفسي، فقلت: لا. هذا ولا ريب هو الابتلاء الأخير. لقد رأيتُ من المصائب ما لا أطيقه. سوف يرحمني الله ويغفر لي الإثم الذي أنزل به العقابَ عليّ. وسوف أصل إلى بانكو عمّا قريب، وسوف أرجع دياري. وسوف أنجو.

***

وسلكنا الطريق سيرًا طوال نهار اليوم التالي، وما أكلنا إلا التوتَ الأزرق والقبأ.[1] وكانت لحانا طويلة كثيرة الشعر، وازرقّت أسناننا وانتفخت بطوننا من القبأ غير المهضّم، فصرنا كوحوش الحكايات التي يخوّف الأجداد والآباء بها الصغار. وبعد سير طويل وصلنا إلى بركة خضراء كأنها قطعة من الجنة، وكان فيها رجلٌ يسبح في سلام. فلمّا رأينا شقارَ شعره وبياضَ جلده، رفع الأبُ صوته يناديه. فسبح الرجل محركًا ذراعيه بسلاسة وسرعة، فبلغنا وخرج من الماء عاريًا كيوم وُلد.

1- وهو الحشيش الذي يرتفع عن الأرض قدر الإصبع.

وتعرفنا الرجلَ فكان فرانسيسكو دي ليون، وهو مستوطن من جماعة كابيزا دي فاكا. أما حرفته فكان إسكافيًا، وقد كان لا غنى للقائد عنه في أشهر رحلتنا الطويلة عبر لا فلوريدة. (فلا أغلى في أيام المسير الطويل من النعال، ولا أعزّ رجلاً من ذا الذي يصلح النعال). وكان طويلَ القامة عريض الكتفين على خده الأيمن ندبة. وكنا لم نره منذ مجاوزتنا النهرَ العظيم فخلناه ميتًا منذ زمن، لكن ليون أبلغنا أنه بعد وصول جماعته إلى جزيرة الشؤم سار ورجلان معه إلى شاطئ قريبٍ، فعثروا على زورق هندي مهجور. فركبوه وأبحروا إلى القارّة، لكنهم لم يحكموا إرساءه فأزجته رياح البحر. فلم يحر أحد منّا كلامًا، ونحن نفكر أن لو كنّا نعلم بأمر الزورق ما وقع من حالنا ما كان.

فتكلم دورانتس بصوت عالٍ وما استطاع كظم غيظه: لماذا لم تنبئوا كابيزا دي فاكا بأمر الزورق؟

لأن الزورق صغير، وما كان يحتمل ركوب كل الرجال.

كان من الممكن مجاوزة البحر فيه في دفعات.

لقد سمح كابيزا دي فاكا للهنود بالقدوم إلى معسكرنا في الساحل. وكان يريدنا أن نرحل معهم إلى قريتهم.

ولذا فقد آثرتَ ألا تخبره عن الزورق؟ يا لك من غبيّ! لو علم لاستطاع العبور برجاله إلى هنا، ولعبرتُ برجالي كلهم معه. لو علمنا لما قضينا الشتاءَ على تلك الجزيرة. أتعلمُ كم رجلاً مات؟ إنما ماتوا بسببك أنت.

كيف أكون السببَ في موتهم؟ إنّ القائد لم يستشرني لمّا عزم على الرحيل مع الهنود إلى قريتهم، فلِمَ أسأله رأيه بما أفعلُ بالزورق الذي عثرتُ عليه؟

وقد بلغ نقم دورانتس من إجابة ليون أعظمَ مبلغ، فأشاح بوجهه عنه

والتفت إلى البركة. وكانت سلطته تتضاءل يومًا بعد يوم منذ تركنا خليج المحار، ولم يدرِ ما يفعل ليسترجع هيبته. فقال كاستيو بعد صمت قصير: وماذا جرى للرجلين اللذين رحلا معك؟

ماتا بالحمى.

وما كان طعامك في أيام الشتاء؟

محار. عشب البحر. قبأ. بيض الطيور. سحالي. أيها وجدت أكلت.

فتقدّم الأب أنسيلمو كعادته يطيّب النفوس المتشاحنة، فأحاط كتفيّ ليون بذراعه وعانقه بودٍ رغم فظاعة ما فعل، ثم قال: لقد فقدنا مؤمنَين بالأمس، لكن الإله سلّمك إلينا وسلّمنا إليك. وشرع يتمتم دعاءً طويلاً يحمد فيه الله أن زادنا رفيقًا قد ضاع، ويرجوه عودةً سالمة إلى بانكو. وبعدها لثم ليون يدَ الراهب في امتنانٍ، ثم تسلّقَ شجرةً قريبة بيسرٍ كأنه سنجاب، وهبط منها وهو يحمل ثيابه وسكينًا وقفازين واسعين. وكان هو أول رجل ينضمّ إلى جماعتنا التي ما عرفتْ في عامٍ كامل إلا الخسرانَ والبؤسَ. فشئنا أن نعدّ ذلك فألَ خير رغم كل ما وقع، وكنّا أحوج شيءٍ إلى بشارة.

***

وسرنا لأيامٍ حتى عثرنا على غابة خضراء عظيمة بديعة من أشجار البلوط. فتوغلنا بها ونحن نسمع شدو الهوازج الصفراء[1] التي تجتمع على الأغصان فوق رؤوسنا، فما لبثنا إلا قليلاً حتى طغى صوت جريان نهر عظيم على ألحانهم العذبة. فكان هذا هو سيغوندو ريو.[2] وعثرنا في شاطئه الأسود الصخري على أحدِ القوارب التي صنعناها في خليج المحار، نصفه على

1- نوع من أنواع الطيور في أمريكا الشمالية

2- أي النهر الثاني

البر ونصفه الآخر في الماء، والريحُ تسري دون رادعٍ لها بين ألواحه المنحلّة. وتعرّفتُ من مِسح أبيض كالذي يلبسه الكهنة، وقد خطته بيديّ إلى شراعه، أنه القاربُ الذي كان مفتّشُ المال ربّانه. وكان يحمل مبعوث البابا وسبعة وأربعين رجلاً. فكيف وصل إلى هنا؟

ولقد فتّشنا عن أيِّ أثر للرجال، لكننا لم نعثر على شيء يدل على موضعهم أو إلى أين اتجهوا. فلا أمارة لمواقد النار ولا علامة لطعام، ولا آثار لأقدامهم وهم يبعدون عن القارب أو يتوغلون في قلب الغابة. فكأنما اختفى إنريكس ورجاله في الهواء وتركوا قاربهم لنا. فشرع فيرنانديز النجّار، تحت وطأة صمتٍ مريع وبعينين حزينتين، يحلّ حبالَ القارب التي صنعناها من شعر الخيل من قسمه الراسي على البر. ونزع دورانتس أشرعته من الصواري كي تكون لنا فراشًا. وأما ألواح الخشب التي تعفّنت وانحلّت بلا جهد فكانت حطب نارنا تلك الليلة.

ومن حولنا كانت الضفادع تنقّ والجنادب تصرّ والعيدان تنكسر تحت أرجل وحوش الليل التي لا نراها، وإن كانت الأرض من حولنا صاخبة بالأصوات، فنحن جلوس صامتون، وكل واحد منّا يثور في فؤاده فزعٌ هائل لا يكاد يخفيه. فإن قطع مفتشُ المال ورجاله البحرَ إلى هنا من لا فلوريدة، والمسافة في تقديري أزيد عن مئتين وخمسين فرسخًا، ثم اختفوا من الأرض بلا أثر نهتدي به إليهم، فماذا سيحدث لنا؟ أسهدتني تخيّلات الموت القادم، فحاولت إقصاءها عن ذهني ما استطعت.

وشرع دييغو يغني ليروّح عنّا أغنيةً قديمة من قشتالة، وكانت أهزوجة مبهجة عن امرأة تعذّبُ حبيبها بالوصل ثم الهجر ثم الوصل ثانية. ولدييغو صوت جميل النغمات فأصغينا إليه مستمتعين. ثم حدّثنا أخوه الكبير عن وليمة حضرها الأخوان في إشبيلية، وفيها امرأة شابة أبدت له شغفها بلا

حياء. وسأل دورانتس: أتذكرها؟

فأجاب دييغو: نعم، لكنها كانت متزوجة.

فقال دورانتس بابتسامة خبيثة: أعلم، ولم يمنعها هذا.

لم يمنعها من ماذا؟

ماذا تظن يا شاتو؟ كان زوجها في إيطالية، وأظنه مكث هناك سنتين، ولم يكن يردّ على خطاباتها إلا ما ندر. ألم ترها؟ كانت جميلة ووحيدة.

ولم يلاحظ دورانتس نظرةَ العجب على وجه أخيه، بل كان فرحًا بابتسامات الإعجاب من الرجال وسؤالهم عن صاحبته التي ذكر. ثم حلّ علينا الصمت، فحاول دورانتس هذه المرة إحياءَ السمر فسألني: أتحسن العرافةَ يا إستبانكو؟

فقلت: العرافة؟ أنا؟

قومك معروفون بالعرافة.

فقال كاستيو له: أتذكر المرأةَ المغربية على متن مركبنا غراسيا دي ديوس؟

فأجاب دورانتس: نعم. لقد تذكّرتها الآن، ولأجل هذا سألتُ إستبانكو.

فسألتُ: بم تنبّأتْ المرأةُ؟

فقال الأب أنسيلمو: أنا لا أصدّق بالـ...

فقال دورانتس: لا عليك يا أبتاه، إنما نحن نلهو.

وقال كاستيو: إنها متعة لا ضرر منها.

فقال الراهب: لكن ألا تظنون أن...

وقاطعه كاستيو فقال: كانت لا مورا[1] من بلدة هورناتشوس. ولا أدري إن كنتم تذكرونها. كانت من النساء اللاتي ركبن غراسيا دي ديوس.

ما كان اسمها؟

اسمها؟ لا أعرفه. كانت امرأةٌ سليطة اللسان لها عينان داكنتان، يحسب من يراهما أن بصرها ينفذ في روحه. فلمّا كنّا في الميناء لم نزل شَتَمَها أحدُ البحارة، فغضبت غضبًا عظيمًا وعزمت على ترك السفينة. وأنتم تعلمون طباع النساء، والمغربيات على وجه الخصوص. لكنها وقبل أن تنزل عن السفينة تنبّأت للنساء أن أزواجهن، بل كلّ رجال الأسطول، هالكون لا محالة في العالم الجديد. وقالت لا مورا إنه ينبغي لهن العثور على أزواج آخرين، لأنهن أرامل وإن لم يعلمن ذلك بعد. فاستاء الأزواج من نبوءتها، وألقوا بها وبمتاعها إلى الميناء. واضطر دون بانفيلو إلى أن يهدّئ الركّابَ حتى تخمد ثائرتهم. فقال حتى لو قضى بعضنا في لا فلوريدة فإنّ من يحارب ببسالةٍ سيلقى ثروات لا تصدقها العيون، حتى ليظن المرء أن معجزةً تحققت له.

فضحك دورانتس بمرارة وقال: ألقينا هذه الثروات؟ أو المعجزات؟

فقال الأب أنسيلمو: لعلّ المعجزةَ تكون في نجاتنا.

والتفت دورانتس نحوي فسأل: أتحسن العرافة أم لا؟

فقلت: أعطني يدك. فمدّ لي كفه الأيسر، وقد اخشوشن جلده واحمرّ من سبابته حتى خنصره، وبرزت ندبةٌ على معصمه، وهي على الأرجح من أثر اشتغاله في القارب مع فيرنانديز قبل بضعة أيام. فقلتُ: أنت تكتم سرًا. أمرًا تخفيه عن الجميع.

1- أي المغربية

كلُّ الناس يكتمون أسرارًا.

فقلت: لكن هذا الأمر مختلف عن بقية الأسرار. قرّبها مني. ثم رفعتُ كفه نحو ضوء اللهب وقلت: هو أمر أخفيته عن كلِّ الناس، حتى أخيك.

فسحب دورانتس يده من بين يديّ.

قلتُ في نفسي إنّ كلَّ الناس يكتمون أسرارًا لكن لا أحد يريد لسره المكتوم أن يصير الخبر المعلوم. ولم أحسب أنّي مصيب فيما قلت، فما قلت ذلك إلا مزاحًا، لكن ما رأيتُ منه أنبأني أني كنتُ محقًا في قولي. فتساءلت مبتسمًا: يا ترى ماذا يخفي؟

فقال دورانتس: وما أدراك أنت؟ ما أنت إلا مغربي.

مغربيٌّ تبتغي نبوءته.

***

وأما تيرسيرو ريو[1] فكان واسعًا مرتفع الموج داكن الماء، كأنه يحمل تراب الأرض إلى المحيط. وعرفنا من زمج الماء والبجع التي كانت تحوم فوق شاطئ النهر أننا صرنا على مقربة من مصبّه، وإن تعسّر سماعُ أصوات الطيور من شدة جريانه. فأردنا صنعَ زورقٍ لأجل العبور لكن فيرنانديز ومعه صاحبه بنيتز، وكان حارسًا من طليلطلة، كانا يسيران بمشقةٍ وبطء شديد، والسبب في ذلك أنهما كانا يكثران من أكل قبأ المروج فنفخ بطنيهما. وكلما طال المسير تمهلت خطاهما وتعثّرت، فما أن لحقا بنا حتى انكفآ على الأرض شديدي الإعياء.

وإذ نحن واقفون على حد النهر نفكر ماذا نصنع، فإذا فهنديين في زروق

1- أي النهر الثالث

أحمر يظهران. والشبه بين هيئتهما ورجال كابوكوي كبير، وهم يثقبون حلماتهما وشفاههما السفلى بعود القصب، غير أنّ لكل قبيلة وشومًا خاصة بها. فطمعنا بقرب شبههم بالكابوكوي أنهم من أقاربهم، وأملنا أن يضيّفونا كما فعل الكابوكوي. ولم يكن معنا خرز ولا تحف، فوافق الراهب أن يقدّم سُبحته إلى الهنديين نظير مجاوزتنا النهر بمركبهما. وبعد أن تمّ لنا ذلك، أمرانا أن ننتظر على الضفة الصخرية ريثما يجلبان رجلاً من إخواننا.

فسأل أحدنا: مَن عساه يكون؟

أننتظرهما؟

لا، فلنتابع السير بلا إبطاء.

لكن انظر إلى فيرنانديز النجّار، إنه لا يقوى على السير أكثر.

وبنيتز مصاب بالحمى.

وكنّا في جدالنا منهمكون فإذا بالهنديين يرجعان، ومعهما رجل قشتالي قصير هزيل نامي اللحية في رقع متفرقة من وجهه. فكان هذا هو مارتين، وهو أحد الخمسة الذين حدّثنا عنهم كابيزا دي فاكا، لمّا أخبرنا أنهم هجروا جماعته فسبحوا من جزيرة الشؤم إلى بر القارة. فعانق مارتين ليون، وكنا نريد أن نعرف ما اتفق للخمسة، فسألناه: هل الآخرون معك؟

وأجاب: لا. ماتوا كلهم. غرق اثنان ونحن نعبر البحر، ووصل واحدٌ إلى البر معي لكنه مات بالحمى قبل شهر.

فسألتُ: وماذا اتفق للخادم؟ قال لنا كابيزا دي فاكا إنّ خادمًا رحل معكم.

مات بالحمى هو كذلك.

وأحسست بمرارة تملأ فمي، وبالدوار في رأسي، فجلست إلى جذع شجرة وأحطت ركبتيّ بذراعي ريثما تنجلي الغمة. وشعرت بارتعاش الجذع من نقرات نقّار خشب يظل يدق ثم يكف، ثم يعاود الدقَّ مرة أخرى. وسمعت دورانتس يحكي لمارتين عن الشتاء الذي قضيناه في جزيرة الشؤم والقارب الذي عثرنا عليه في النهر.

فقال مارتين: أعلم ما حلَّ بذا القارب وأصحابه، وقد روى لي الحكايةَ الناجي الوحيدُ من رجاله. فقد رمت العاصفة التي فرّقتنا بقارب مفتش المال في موضع غير بعيد من هنا في مصب النهر. فسار الرجالُ مسافةً قصيرة حتى بلغوا الخليج، برسم إطعام أنفسهم من المحار والسرطانات، فإذا بهم يعثرون على قارب نارفاييز في الخليج. وقد هلك في العاصفة من الرجال الكثيرون، حتى إن الباقين من ركّاب القاربين قلة يكفيهم قارب واحد. لكن الحاكم أبى أن يسمح لجماعة مفتش المال بركوب قاربه، بل إنّه أمر رجاله بالنزول وأصدر أمره بأن يسير رجالُ الجماعتين على بر الساحل. أما هو وحاجبه فعلى المركب يبحران بحذاء الساحل. وعاهدهم أنهم إن أتوا إلى نهرٍ فإنه مجاوزٌ بالسائرين بين شاطئيه.

فلم يطق مفتشُ المال الأمرَ فتمرّد. وكيف يُلام وقد تعسّف الحاكم وبغى؟ فاشتكى وقال إنّ الحاكم يعيد أخطاءه مرةً أخرى بتقسيمه الرجال إلى فرقتين؛ واحدة في البر والأخرى في البحر. ألم يتّعظ مما جرى؟ فنحّى نارفاييز مفتشَ المال من منصبه على الفور، وكلّف رجلاً غليظًا من جماعته اسمه سوتومايور قائدًا لرجال البر. فكان لنارفاييز ما أراد، ركب هو البحرَ ومشى الرجالُ مكرهين بطول الساحل. وفي الليلة التي تليها رقد الرجالُ في معسكرهم في الساحل، وأما نارفاييز فقضى ليلته على قاربه ومعه حاجبه ومدير الدفّة. فاشتدّت الريح في الليل وأزجت المركب إلى البحر. وأما

الباقون فتابعوا مسيرهم على الساحل أيامًا يرجون بلوغ بانكو سيرًا. ولّما مات أحدهم بالمرض أكلوا لحمه، ثم قتل بعضهم بعضًا وأكلوا لحومهم. فكان آخر من نجا هو إسكيفيل اللّحام، وكان يعيش على لحم سوتومايور عندما عثر عليه هؤلاء الهنود.

تـ تـ تـ تحوّل الرجال إلى أكـ كـ كلة لحوم بـ بـ بشر؟

نعم يا أبتاه.

كـ كـ كلهم؟

هذه الحكاية التي رواها لي إسكيفيل.

فقال الراهب: لا... لا. لا. لا. لقد أصابته الحمى لا ريب فأخذ الهذيان عقله. أو أنه اختلق القصة ليفزعك. أنا أعرف إسكيفيل، ومحال أن أصدّق أنه فعل ما قال لك إنه فعله.

ومَن يكذب كذبة في هذه الفظاعة يا أبتاه؟

فأجبت في نفسي: لا أحد. لا أحد يدّعي أكلَ لحوم البشر. فلا ريب أن إسكيفيل كان صادقًا. ويالها من حكاية فظيعة، يقبح سماعها وتشنع الأحدوثة عنها. وبعد ما فعله إسكيفيل ورويز فأحسب أنّ الهنود في هذه الأرض يظنون أن الغرباءَ البيض الذين حطّوا في بلادهم وحوشٌ لا يطعمون إلا لحمَ إخوانهم. وما مكاني أنا بينهم، أنا الرجل الأسود بين هؤلاء البيضان؟ فسألته من متكأي تحت الشجرة: كم تبعد بانكو عن هنا في ظنّك؟

فأجاب مارتين: أظنها بعيدة جدًا.

وقال إن الهنود الذين عاش بينهم لم يروا ميناءً إسبانيًا في أي مكان حولهم. فهو يحسب أنه بعيد جدًا ولا يدري، فقد تكون مسيرة أسبوعين أو عشرين

أسبوعًا. وهذا السبب الذي جعله يعقد عزمه بأن يحطّ رحله مع الهنود فيمكث معهم إلى الأبد.

فأخرسنا خبرُه وجلسنا إلى جانب النهر، وقد تملّكنا الإعياءُ من مسيرة لا ندري أيّان انتهاؤها. وأظن أن الهنديين أخذتهما الشفقةُ بنا، فقد عرضا علينا طعامًا تلك الليلة. فذهب مارتين والراهبُ معهما ليجلبا القفاف، فإذا بمارتين يرجع وحده بعد ساعة حاملاً اللحم اليابس والثمار.

فهبّ دييغو قائمًا وسأله: أين الأب أنسيلمو؟

لم يشأ الرجوعَ إليكم.

ماذا تقول؟

قال إنه لا يريد البحثَ عن بانكو.

فقال دييغو: أنت كاذب. واغرورقت عيناه بالعبرات يحاول حبس الدموع. لا يقول أنسيلمو هذا الكلام. لن ييأس قط.

لم يشأ الرجوع إليكم.

ماذا فعلت به؟ أين هو؟ وهمّ دييغو بضرب مارتين لولا أن منعه دورانتس.

فقال مارتين: إنما أخبرك الحق. قال الراهبُ إنه عزم على المكوث مع هذه القبيلة كما عزمتُ، وإنه لا يريدكم أن ترجعوا إليه أو تحاولوا إثناءه.

وإن فقد الرجالِ بالغرق والمرض أمرٌ تحتمل النفس وقوعه وإن عسر عليها، لكن ما لا تقبله النفس هو أن يؤثر الراهب هجر جماعتنا عن طيب خاطر، وهو الرجل الطيّب الذي كان لا يرى فيمن حوله إلا كلَّ خيرٍ. فمن سيظن بنا خيرًا؟ وقد حزنت لفراقه كما يحزن أي امرئ على فراق رجل طيب

عاشره شهورًا مديدة، بيد أني أحسب أن القشتاليين، وأخص بالذكر منهم دييغو، قد ثقل عليهم فراقه. حتى إن دييغو أبى أكل لحم الأرنب الذي جلبه مارتين لنا، فاكتسى بالصمت باقي الليل.

***

وسبق الشرُ شمسَ الصباح، فلمّا حاولنا إفاقةَ فيرنانديز وبنيتز لم يفيقا. ماتا وهما نائمان. ولم أكن أصدّقُ العرافةَ، لكنني بعد موتهما وقع في خاطري صدق نبوءة المغربية من هورناتشوس. ولعلها كانت محقّةً وأنّ الأسطول كله منحوس، والمنية نهايتنا كلنا في هذه الأرض الغريبة. ولعلّني أشنق نفسي من فرع شجرة الآن ولا أسلّم نفسي لانتظار الموت، يأتي حيثما أراد ووقتما شاء. وقد سكن القنوطُ جوامعَ قلبي، حتى إن تلك الخاطرة المستنكرة لم تحيي في نفسي الأمل كما حصل من قبل.

ووقف دورانتس ينظر إلى جسديهما الساكنين يائسًا مهزومًا. وقال: يجب أن نتركهما.

فأجاب دييغو: لا. يجب أن ندفنهما دفنًا نصرانيًا لائقًا بهما.

كيف؟ وليس معنا مجارف.

نحفر بأيدينا.

لا أحد فينا يقوى على الحفر، وحتى لو استطعنا فلن يكون قبراهما عميقين، وسوف يصل إليهما السباع قبل حلول الليل.

لن نتركهما على هذه الحال.

لا سبيل غير هذا. إنّ حياتنا أهم من موتهما.

واكترب دييغو حتى كاد يبكي. فموت الرجلين، وفقدان الراهب،

ويقيننا ببعد المسافة إلى بانكو تكالبت عليه جميعها فأرهقت ظهره بالهموم، فابتعد عنّا وهو يعض شفتيه.

رأيتُ من مجلسي تحت شجرةٍ أطرافَ الميّتين منتفخة، وقد شابت وجهيهما حمرةٌ ليست في البشر، فكأنهما معذّبان في موتهما. ومع هذا قلت في نفسي: لو خُيّر هذان الرجلان، ألن يختارا العودة إلى الدنيا؟ أنا حيٌّ، والشمس دافئة على وجهي ويديّ، وبجانبي قربةٌ مملوءة بالماء العذب. ولمحتُ على مقربة مني خنفساء تحاول حمل فتاتةٍ إلى جحرها، وهي تسير بمهل وصبر، لا يثنيها بعدُ المكان وطولُ المسافة. وكلما طال تأملي في حالها انحسر يأسي وانتعش أملي. فقلت لنفسي: لا بد من أن أغيث نفسي لأجلي ولأجل أولئك الذين تركتهم في بلدي. فقمت وناديت: دييغو. أعنّي على حملهما إلى النهر، فإن لم ندفنهما فليكن النهر مثواهما.

14

حكاية قبيلة كارانكاهوا

وأتذكر أنّ الوقت كان عشية النهار، وكنا مستلقين على المرج الأخضر نأكل التوتَ الأزرق الذي جمعناه في مسيرنا. فتراخينا وأصابنا الفتور مع قلّةِ الزاد وشدّة الحر. فدورانتس مستلقٍ على بطنه يسند رأسه إلى ذراعيه، وأما كاستيو فنائم على جنبه تسمع صفير أنفاسه. وسمعت رفرفة جناحي حشرة، ثم حطّت على صدري فإذا هي جرادة، فأمالت رأسها يمينًا وشِمالاً وهي تنظر إليّ، أنا الغريب في عالمها. ثم سمعت تكسّر أعوادٍ يابسة تحت وطأة أقدام، فما كدتُ أرفع رأسي أنظر إلى ذلك الاتجاه حتى برز الهنود منه. وكانوا عشرة صيادين معهم الرماح والقسيّ، ويحمل أحدهم على ظهره غزالة جميلة حسنة، رجلاها تخطّان في الأرض وعيناها شاخصتان في الفضاء قد انطفأ نورهما. وعلى ظهور الآخرين تعلّقت طرائدُ أخرى أصغر منها، معظمها أرانب. فهببنا من نومنا وأنبأناهم بأسمائنا، ننطق كل حرف في تأنٍ.

مصطفى.

دورانتس.

كاســ...

فقال أحدهم: أعلم من أنتم. وكان جسمه يلمع بالدهن، وتلك وصفةٌ معروفة فيما بينهم لطرد البعوض، ولها أثرٌ ثانٍ غير مقصود، وهو إيقاع الرهبة في نفوسنا من منظر ذاك الرجل. وله ضفيرتان طويلتان على جانبيّ وجهه يتخللهما ريش ببغاء ملوّن، وهو يحدج الرجلَ بنظرة ثاقبة تخضعه. فإذا تكلّم

فكلُّ أذنٍ تصيخ السمعَ له وحده. قال: سمعتُ عنكم من تاجر أصداف من كابوكوي.

وسألت نفسي: ترى ماذا سمع عنّا؟ أسمع خبرَ ارتطام سفينتنا في جزيرة الشؤم قبل شهور؟ أم شكوى من الوباءِ الذي جلبناه إليها، فأفنى أغلبَ أهل هان وكابوكوي في أشهر الشتاء المعدودة؟ ولربما كان قد سمع حكاياتٍ عن كل هذا وزاد عليها رواتُها أكاذيبَ مختلقة. ودعوتُ ربي ألا يكونوا علموا خبرَ آكلي لحوم البشر من قومنا، فالمرضُ يُغتفر لكن أكلَ لحم الإنسانِ لا يُسوّغ البتة. وقد قال الحكماء: إنما أريد أن يذكرَني أحبّتي وينساني كلُّ الناسِ.

أجبته: ولقد سمعنا عن قبيلتكم العظيمة. ولم يبدِ الصيادُ الذي حادثنا سرورًا بثنائي، ولا سُرَّ من معه وهم يحذون حذوه. ولمّا طالَ الصمتُ شئتُ أن أتكلّم فقلت: ما اسمك؟

فقال: بالسيهكونا.

وكان من قبيلة كارانكاهوا، وهم صيّادون مهرةٌ في البر والبحر، ورحّالة ظواعن يتنقّلون مع تبدّل المواسم. فتجدهم في الشتاءِ يجمعون المحارَ أو يصيدون سمك التروتة والفَرخ، أو يخوضون طين الخلجان برسم اقتلاع الجذور التي تنبت في مائها. وأما في الصيف فهم يجمعون الثمرَ والتوت، ويصيدون الغزلان والأرانب وما اتّفق من الطرائد. وقد ولّت شهور البرد فأقاموا معسكرهم في موضع ليس ببعيد عن المكان الذي حللنا به، غير عارفين بقربهم منّا.

ولمّا لم نكن أكلنا في الثلاثة أيام السابقة غير التوت الأزرق فقد أيقظ مرأى الغزالةِ جوعَنا النائم، لكن لم نجد عندنا ما نقايضهم به. وكنتُ أحدّثُ نفسي أن لا طعام لنا إلا التوت، فإذا بي ألحظ عينيّ دورانتس ترمقان اليمين

والشمال، كرجل يصارع فكرة في دخيلة نفسه. فما كان منه إلا أن دسّ يدَه في جيب سرواله، فأخرج قرطَ يوكاتان الذي أهداه برناردو رودريغيز في إشبيلية لكي يغريه بشرائي. ولم أكن قد رأيت قرطَ الذهب منذ ذلك الحين، أي ما يربو عن السنتين، لمّا وقفتُ في مجلس لويس دي برادو ودعوت الله ألا يقبل دورانتس الهدية. فتداخلت ذكرى ذلك اليوم، يوم وقف رودريغيز متذللاً في مجلسٍ مترف ترمق عيونُ الصور المعلّقة على حيطانه مَنْ يدخله، في موقفنا الحاضر، يوم وقف دورانتس خاضعًا في مرجٍ أخضرَ يقدّم الحليةَ الذهبية إلى بالسيهكونا، ونحن من حولهما شهودٌ صامتون. ولا أدري كيف استطاع دورانتس إخفاءَ القرطِ عن عينيّ طول مدة ارتحالنا وشقائنا ومعاوضاتنا مع الهنود.

نظر بالسيهكونا إلى الذهب بفضول ثم ردّه إليه. فصاح دورانتس وهو يرفع القرط: خذه! خذه! إنه ذهب. خذه وأعطنا لحمًا. وأشار إلى الغزال.

وقبض بالسيهكونا على القرطِ في راحة يده ولم يردّه ثانية. وجمع هو وبقية رجال كارانكاهوا سلاحهم ساكتين، وانصرفوا فاتبعناهم. وألفينا معسكرهم فيه عشرة أكواخٍ من التي يسهل تقويضها، أقاموها إزاء شجر توت. وبجوار كل كوخ وُضعت عدةٌ وأدوات منتظمة. ورأينا فتاتين تطحنان بالرحى، وأمهما تدهن جلد غزال بلون أحمر قانٍ، وشيخًا كبيرًا يجرّب العزف على نايٍ قد أتم صناعته، فيعزف ألحانًا ثم يحكم ثقوبه على الميزان الصحيح. ولم يظهر على أهل القرية العجبُ بمقدمنا إليهم كما تعوّدنا أن نرى فيمن قبلها من القرى. وقد نبحت الكلاب وتجمّع الصغار حولنا، ورفعت النسوة رؤوسهن يستطلعن الخبر، لكنهم سرعان ما كفّوا ورجعوا إلى ما كانوا يعملون. فجمعنا حطبًا وأقمنا موقدًا للنار وانتظرنا. وجلب لنا بالسيهكونا مع حلول الغسق ساقَ الذبيحة كاملاً، وكان طري اللحم وافر

الشحم. وكدنا نبكي من الفرح لمرأى الطعام، وبالسيهكونا ينظر إلينا كمن يبصر سائلاً حقيرًا، وهو إنْ تصدّق علينا وأشفق بنا في ذلك اللحظة، فما نلنا من جانبه بعدها إلا الضيقَ والتبرم.

***

وعزمنا على الرحيل فجرَ اليوم الذي يليه، بيد أننا شممنا رائحةَ حساء صنعته نساؤهم، فأمر جوعُنا بالمكث فكنا له طائعين. عزمنا على تناول نصيبٍ منه والاستراحة حتى نستردّ قوتنا، ثم متابعة المسير بحذاء الساحل. وفي اليوم الذي تلاه استقبلتنا رائحةُ الأرانب مشويةً على قضبان المواقد، فخَارَ عزمنا. ولا أحسب أن أيًا منا انتوى البقاءَ مع قوم كارانكاهوا، لكنّ غرقَ إسترادا وشافيز، وهجران الأب أنسيلمو، وموت فيرنانديز وبنيتز قد هيّض الخوفَ في نفوسنا وزاد وحشةَ الغابة في أعيننا. أما أهل كارانكاهوا فكانوا أدرى بأرضِ الساحل، ومنابع مائها ومواضع صيدها، وما يطيب أكلُه من نباتها وما يسمّ المرءَ منها، فكان الاتّكال عليهم آمَن وسيلة للنجاة.

ولما أتممنا سبعة أيام بين أولئك القوم زارنا زعيمهم واسمه أوكمانتسول. وكانت الشمس قد أشرقت منذ نحو ساعة، وإن كان بعضنا ما زالوا نيامًا يدفئون أجسادَهم بجمر الموقد، وبعضنا يأكل فضلَ طعامٍ تحصّلوا عليه من النساء. فأجال أوكمانتسول النظر في معسكرنا الصغير، وما عندنا وما نعملُ، وهو مشتمل الكتفين بجلد حيوان مزين بخرز أبيض وريش. وهو وإن كان قصيرًا هزيلاً فإنّ الله قد حباه بهيبةٍ من طبعه، فما يجرؤ أحدٌ على مخالفته. فلمّا تكلم كان صوته خافتًا كالهمس. قال: سوف تعملون من اليوم لأجل اللحم الذي نعطيكم، فتخرجون إلى الصيد مع الرجال.

فهززنا رؤوسنا وأشحنا وجوهنا، ولكن لمّا ابتعد الزعيم عنّا اشتكى دورانتس أنه لا يستطيع الصيد بسلاح الهنود. وكان طولُ القِسيّ التي يصيد

بها رجال كارانكاهوا تبلغ نحو سبعين بولغادا،[1] ما يعادل قامةَ الرجل البالغ، وهي مربوطة بالأوتار. وأعاد دورانتس قوله: لا أحسن استعمال أقواسهم.

فقال دييغو: أنا أستطيع.

أنت يا إِل تيغري؟

نعم، أنا.

سوف تؤذي نفسك.

قد سمعتَ ما قاله زعيمهم. يجب أن يذهب أحدنا معهم إلى الصيد.

وظل الأخوان يحدقان ببعضهما في تحدٍ، حتى هزّ دورانتس رأسه ثم ابتعد.

وقلتُ: سوف أصحبك. ولقد استرجعتُ نخوةَ دييغو يوم استصحبني إلى قرية الكابوكوي حين أبى الجميع، فشئت رد الصنيع الجميل.

وقال كاستيو: وأنا معكما.

وحينئذ أخذتنا الدهشةُ العظيمة. ولقد علمت من استفاضة كاستيو بالجدال مع الحاكم أنه رجل سديد الرأي عالي الهمّة، لكن ما رأيت من شأنه قط ما يدّل على اجتهاده بالعمل أو قدرته على الشغل. وأحسب أن الأمور انكشفت في وجه شقائنا الدائم، وأن إجابةً مسكتةً أو ردًا مفحمًا لا يشبع المرءُ ولا يدفع عنه بردَ الليل. فجعل السيّدُ الشاب قلبه لا عقله فحسب دليله وسلطانه.



1- أي بوصة

وكنّا في ساعة انقضاض البوم على فرائسها. فتبعنا صيّادي كارانكاهوا خارج قريتهم، بعد أن استقبلونا بشرابٍ عجيب من قِرَبهم، أخذنا منه بلة أنعشت حواسنا وأذكت أذهاننا. فبدا كل صوت وإن دنا، كحفيف الشجر أو رفرفة جناحي الطير، مدويًا مثل طلقة مدفع. ورمى بالسيهكونا وكان بقربي رمحه على ما خلتُه شجرًا ملتفًا، فإذا هو يصيب طريدته فيطرحها، ولم أكن قد رأيت شيئًا وأنا بجواره. وانتهى بنا أثرُ الصيد إلى جدولٍ ضحل، يلتفّ ماؤه في دوائر ثم يتدفق منصبًا في النهر. ووثب ضفدع من شجيرة إلى قاع النهر بالقرب من أرنب يغمس لسانه للشرب.

فأشرت إلى كاستيو أن أَحِط بالجدول عن يسار الأرنب وأنا عن يمينه، وكان دييغو يحمل القوس المستعار. فتقدمنا منه خلسةً، ولكن لمّا أطلق دييغو سهمه لم يُصبْ الأرنبَ بل جرحه جرحًا يسيرًا. فانطلق يعدو رغم عرجه، وعدونا أنا وكاستيو في أثره، كلٌّ من ناحيته. فطرحتُ جسدي فوقه، غير أنه وثب على رجليه بعزمٍ، فانزلق من بين ذراعيّ. ثم رماه كاستيو بحجر فشجّ جمجمته، وسال الدمُ فاصطبغ لونه الأشهب بحمرةٍ.

ولّما رأى صيّادو كارانكاهوا أيَّ عبث عظيم عبثنا بالطريدة، سخروا منا أيما سخرية. وسمعتهم بعد عودتنا يروون لباقي القبيلة حكاياتٍ عن صيدنا ذلك اليوم، ولكني لم أبالِ طالما أننا حصلنا على لحم تلك الليلة وفرّقناه على جماعتنا. وكان لدنًا شهيًا يسهل نزعه عن العظم. وحاولت التروّي في أكله لعلّ الزمن يتمهّل، لكني ما استطعت فالتهمت بشرهٍ.

وبلغنا قرعُ الطبول من ساحة القرية فالتفتنا ننظر، فإذا بالقوم الهنود يحتفلون بشأن من شؤونهم.

قال ليون: اتّخذ أحدهم زوجةً.

وما أدراك؟

رأيتهم في الصباح يغسلون البِكر ويجمّلونها.

رأيتها عاريةً؟

كما ولدتها أمها.

صف لنا حالها.

حسناء بديعة، وإن كانت هندية.

ألك زوجة يا ليون؟

نعم.

لا بد أنك مشتاقٌ إليها.

ولا بد أنكم لا تعرفونها، وإلا ما ظننتم أني أشتاق لتلك المرأة.

فضحكنا جميعًا، وضحك ليون معنا. ولم نكن نعرف الرجلَ حقّ المعرفة لأنه كان من جماعة كابيزا دي فاكا. لكنه ابتهج بمرحنا وانبساطنا فلمحتُ ابتسامته في ضوء وهج النار.

ثم سأل: أجامع أحدكم نساءَ الهنود قط؟

فأجاب دورانتس: لم نفعل قط. وكان رغم مفاخرته بصولاته مع بنات الخدور يرى سؤالَ ليون مهينًا له.

فقال ليون: أنا فعلتُ. وتجلّتُ الخيلاءُ في صوته.

أنت؟ متى؟

في الأبلاتشي.

أكان ذاك أنت؟

فارتدّت إلى ذهني ذكرى ما شهدته بعينيّ في الأبلاتشي، والنساء اللاتي يضربن الجنود يحاولن الفكاك، وعويلهن وصراخهن يرنّ في أذني. أكان ليون صادقًا أم أنه يفتري القولَ ليسرّي عن أصحابه القشتاليين؟ مسحت بظاهر يدي الشحمَ عن شفتيّ. ثم أخذت أتفحص ليون، فبدت لي عيناه رائقتين غير مضطربتين، وهو ينهش من اللحم في استمتاع واضح.

فقال: نعم. أنا ومارتين وإيهنيو. ورجال غيرنا كانوا معنا في الأبلاتشي.

ارتفعت شرارةُ لهب من شحمٍ ذاب من الأرنب المشوي فوقع على النار. وانقطع قرعُ الطبول هنيهة، ثم ارتفع أسرع من ذي قبل.

قال ليون: كانت صغيرة، لها من العمر اثنا عشر أو ثلاثة عشر. كاعبة النهدين ملتفّة الردفين. حملتها إلى مخزن الطعام حيث كانوا يحفظون الثمرَ والزيت. فصارت تضربني أول الأمر، وكلّهن يفعلن، وعضّتني هنا وهنا. وأشار إلى كتفه وذراعه. ثم كفّتْ عن الضرب. أظنها استحسنتْ ما أفعله بها. وثمة فتاة أخرى من...

فانقضضتُ عليه قبل أن يدرك ما أصابه. وتدحرجنا على التراب حتى أحكمتُ قبضتي على عنقه ولم أفلت. وكان يحاول أن يتنفس فلا أدعه، ففغر فمه أوسع ما يكون، حتى إني رأيتُ قطعًا من اللحم متعلّقة بين أسنانه المعوجّة. ثم انقلب وجهه من الدهشة إلى الغضب. وحاول دفعي عنه، لكنّي مثقلٌ جسده بجسدي فلا يجد حراكًا. وكدت أزهق روحه لولا أن جرّني دييغو وهو يقول: دعه يا إستبانكو! دعه! بماذا يفيد هذا الآن؟

وأعان الآخرون ليون على النهوض، فحاول أن يهجم عليّ فحالوا بيننا. وحيث إنه آخر من انضمّ لجماعتنا فما كان له مؤازرون بيننا. فدمدم بكلام

لم أسمعه ثم قعد. ولمّا كان صوت الأطبال عاليًا فلم يسمع الكارانكاهوا صياحنا، وكانوا يرقصون فما رأوا نزاعنا. وإنما وُلدت العداوة بيني وبين ليون في تلك الليلة.

***

وكنّا إن لم نخرج للصيد نكسب طعامنا بطرائق أخرى. فكنا نجلبُ الماءَ من النهر ونغسل جلود الحيوانات، ونجمع الحطبَ الكثير فنشدّه بالحبال إلى ظهورنا ونحتمله إلى القرية. وكنا نشتغل بادئ الأمر طوعًا طامعين بطعام في آخر النهار، ثم رأينا أن الأحوال تغيّرت. فكان أهل كارانكاهوا يأمروننا بقضاء حوائجهم، فإن أبى أحدُنا أو اعترض فجزاؤه الحرمان من الأكل أو الضرب بالعصا. وظهرت قوانين جديدة؛ فلا يصح إشعالُ نار معسكرنا على مقربة من ساحة معسكرهم، ومُنعنا من ولوج أكواخ معينة، ولا يجوز لمس أدواتهم التي يستعملونها في المراسم، ومحرّم علينا الكلام مع أبكارهم.

فعادانا الجميعُ إلا صغارَهم، فما كانوا مبالين ولا خائفين. وكانوا يخصّونني بالفضول لأن لون بشرتي يختلف عن لون أصحابي، فكانوا يجتمعون حولي يرقبون شغلي. ومن أولئك الأطفال أجدتُ لسانَ قوم كارانكاهوا، وكنت من قبل أعوّل في الفهم على ما تعلّمته من لسان أهل كابوكوي، فزادتْ ألفاظي وحسنت تراكيبي. أما ثمن العلم الذي اكتسبته هو أن صار الصبيانُ، بل ومن بينهم جارية أو اثنتان، يشدّون لحيتي أو يركبون على ظهري، أو يوثقونني بالحبال كي يتسلّوا بمرآي وأنا أحاول حلّها، فكنت تسليتهم. وإن كانوا هم فرحين بذلك فقد كان مما يضجرني.

فأقول إنّ إتقاني لسان كارانكاهوا كان ميزةً عظيمة وإن كلّفتني الشيء الكثير، حيث إنّي صرت كَرْهًا الترجمانَ بين الجماعتين. وجاءنا بالسيهكونا في عصر آخر أيام الربيع يقول إنّ بعضَ سمك البوري المحفوظ يابسًا قد

اختفى من مخزن القبيلة. وقال إنّ لا أحد منهم يخالف شريعتهم، وإن اللص هو أحد الأغراب لا محالة. فتعجبتُ ورفاقي من التهمة، ولم نكن قد أخذنا شيئًا من الطعام بلا إذن. فتقدّم الزعيم أوكماانتسول من موضع وقوفنا قرب كومة من عظام الغزلان على طرف المعسكر. وأمرني بصوته الهامس أن آمر قومي بتسليم اللص.

فترجمت أمره دون تحريف، وأنا أتكلّم بتأنٍ كيلا يطيش معناه ولا يضيع مرماه.

وسأل دورانتس الآخرين: أسرق أحدكم من اللحم؟

فهزّ القشتاليون رؤوسهم أن لا.

فقال أوكماانتسول: أخبر قومك أنكم إن لم تسلّموا السارقَ فسوف تعاقبون كلكم.

ونقلت أمر الزعيم كما شاء.

فقال دورانتس: هذا ظلم! كيف نُعاقب كلُّنا بجريمة السارق؟ كنتُ راقدًا لمّا وقع الأمر. قل له هذا. قل له إن ذلك ظلم.

وبينما أنا أترجم لأوكماانتسول رأيته يقلب شفتيه في امتعاض بالغ، وإن ظلّ صوته كما كان لم يتغير. فسأل: أهو عدل أن تأتوا إلى قريتنا وتأكلوا طعامنا، وتدفئوا بحطبنا، وتتدثروا بملاحفنا وجلودنا؟

واستدار دورانتس يخاطب جماعته فقال: يجب أن نسلّم اللصَ إليهم. ولم أجد في صوته ذهولاً ولا سخطًا، بل هو الخوف لا غير. أما أنا فوقفت في موضع متوسط بين القشتاليين والكارانكاهوا أنتظر حديثهم لأنقله.

وقال أحدهم: ولكننا لا ندري من السارق.

ربما يكون واحدًا من القبيلة.

ويريدون اتهامنا والاقتصاص منا.

ما هذه إلا خدعةٌ من خدعهم.

أي خدعة؟ سُرق طعامٌ ولا بد من إيجاد الفاعل.

بل يريدون قتل واحد منّا.

فقاطع ليون جدالَ القشتاليين بأن قبض على مرفقي، فقال: أنت هو... أنت مَن سرق.

فأفلتُّ من قبضته وأنا أقول: لم أسرق شيئًا.

لا غيرك عبد هنا. لا ريب أنك السارق.

أنا حرّ مثلك.

ورفع كفه يريد صفعي، لكنني أمسكت يده ولويتُ ذراعه وراء ظهره. وقلت: إن حاولت أن تضربني فسأ...

وقال دورانتس: كفّا عن هذا. الهنود ينظرون إليكما. سيحسبون أن أحدكما هو السارق.

وأمرني أوكمانتسول أن أترجم ما قاله رفاقي القشتاليون. فلم أشأ كيلا أدين نفسي وأنا بريء. لكنّ ليون دفعني إلى رجال كارانكاهوا وأوحى إلى الزعيم بإشارات يسيرة وكلمات هندية ركيكة أنّي أنا الرجل الذي يريدون.

فسألني أوكمانتسول: أسرقتَ منّا؟

قلت: لا.

فنغزني ليون بإصبعه وقال: العبد هو السارق.

فأمره دورانتس: كفّ عن ذلك.

ولم يرتدع ليون، بل أشار إليّ بسبابته وقال: هو.. هو..

وطُرحت على الأرض بلمح البصر وقد أحاط بي رجال كارانكاهوا. وتولّى اثنان منهم ضربي ضربًا مبرحًا بقبضتين قاسيتين، وثالث ذو رمح يتحيّن رؤية منفذ إلى بدني يطعن ما شاء أن يطعن. فالتويت على نفسي أحمي رأسي بذراعيّ، خاضعًا لضربهم دون مقاومة خشية أن يزيد. وبعد ضرب وركل كثير سأموا مني وتركوني وانصرفوا إلى أشغالهم كأن شيئًا لم يكن.

وتداخلت الأشكال والألوان في عيني. وشعرت بدورانتس وأخيه يحملاني إلى موضعنا من المعسكر، ثم سقاني دييغو ماءً. وجلس دورانتس إلى جانبي فكشف عن ذراعي وقال: أنت تنزف دمًا غزيرًا.

وانحسر الطنين عن أذنيّ وحلّ مكانه وجعٌ مميت. ورأيت جرحًا فوق مرفقي والدم يتدفق منه على كفي.

وقال دييغو: ينبغي تضميده.

فقلت: ليس غائرًا كما يبدو، كل ما أحتاجه هو لحاء بلوط (وكنتُ أتجمّل كاذبًا لأني لم أرد أن يتشفّى ليون بحالتي).

نهض دييغو وقال: سأجلب لك منه.

فاستلقيت على ظهري وأغمضت عيني. فإنّي إنْ استرجعت كل مواقف الخزي والمهانة التي عشتها في بلاد الهنود فإن هذا كان أمرّها وأبشعها لسببين؛ أولهما أنّي كنت بريئًا من التهمة، وثانيهما أن الكلمة التي قالها ليون، العبد، قد أجّجت في قلبي ألمًا كنتُ أدفنه. وقد سكن الغيظُ قلبي، فقضيت الأيام وأنا طريح، أتعافى من جراح ضرب الكارانكاهوا، أفكّر بحيل أشفي بها غليلي من ليون.

***

ومضت الأيام على وتيرة متماثلة، فكنت أقضيها ما بين اشتغالٍ بأعمال وضيعة، أو نومٍ يغلبه سهادٌ، أو أكلٍ على عجل خشية أن يكون آخر طعامٍ آكله. وبينما أنا عائد من النهر يومًا أحتمل جرار الماء على ظهري، فإذا بي أرى ليون مختبأً بين الأشجار يأكل. فأدركت أن الخبيثَ سرق مرةً أخرى. فتأججت نار الغضب في قلبي فلم أدرِ إلا وأنا أشير إلى ثلاثة من فتيان كارانكاهوا بالاقتراب، ثم دللتهم على مخبأ ليون. فعثروا عليه يأكل ثمرًا من مخزن القبيلة المحفوظ طعامه للشتاء، فسحبوه حتى مَثَل أمام أوكمانتسول. ولم يطل السؤالُ هذه المرة فالبراهين دامغة. وأحسستُ بالرضا لأن ظالمي قد زلّ في شباك أكاذيبه، لكن لحظة التشفّي لم تطل. فقد ضربه رجال كارانكاهوا، ولّما رفع ليون يده يريد لطم أحدَهم طعنوه برمح في صدره فقتلوه. وتبدّل التشفّي في قلبي خوفًا ورعبًا وندمًا.

وكنتُ يومًا مع دييغو نطحن المكسرات، فإذا بالسيهكونا يقبل علينا فيجرّه من موضع الرحى حتى بلغ به ساحةَ القرية. وكان صباحًا باردًا في فصل الخريف، وقد طرحتْ الأشجار ورقها فاكتست الأرض بها صفراء حمراء هشّة، والسماء ذات غيم نرى انعكاسها على بركة ماء كبيرة. وكنتُ ودييغو نتحدث عن كيفية حساب الزمن، والاختلاف بين التقويم اليوليوسيّ المعتمد على الشمس، والتقويم الهجري المعتمد على منازل القمر. ونحن هنا في هذا البلاد بمعزل عن أوطاننا وأهلنا، فلم نستطع التيقّن من التاريخ، فقدرّناه بأقرب ما نستطيع.

أقول إن بالسيهكونا كان آخذًا برأس دييغو، وقدما الفتى المسكين مسحوبتان على الأرض تخلّفان أثرًا مبللاً وراءه، وهو يلوّح بيديه يحاول الوقوف. فركضت ورائهما وأنا أصرخ: ماذا جرى؟

ولمّا بلغ الصراخُ دورانتس وكاستيو تركا الثيابَ التي أُمرا بغسلها. ولحقنا بالسيهكونا إلى الساحة حيث ألفينا امرأته الحبلى واقفةً تضع يديها على بطنها وتبكي. ووقفت امرأةٌ من أخواتها إلى جوارها تشتملها بذراعيها. ووقفت النسوة الأخريات عند أكواخهن ينظرن. فسألتُ ثانيةً: ماذا فعل دييغو؟ لِمَ تقبض عليه؟

فقال بالسيهكونا: لقد زارها في المنام.

في المنام؟

وسأل دورانتس: ماذا يقول؟

فأجبته: يقول منام. ثم التفتُّ إلى بالسيهكونا وسألت: أي منام؟

فقال بالسيهكونا: سرق وليدها وقتله.

وسألته: ماذا تقول؟

لكن بالسيهكونا سأل زوجته: أهذا هو؟

فهزّت رأسها أي نعم.

وسألها بالسيهكونا: أواثقةٌ أنتِ أنه لم يكن رجلاً آخر منهم؟ ثم أشار إليّ وإلى دورانتس وكاستيو.

فصاح دورانتس: ماذا فعل؟ وكان واقفًا بجانب دييغو يسند الفتى من مرفقه، كأنما يهمّ بتحريره من قبضة بالسيهكونا، وإن لم يجرؤ على تحرير أخيه. فسأل: ماذا جرى؟

والحاصل أن دييغو لم يؤذِ المرأةَ ولا طفلها، فكانت جريرته حسبما فهمتُ منهم أنه ظهر في منامها وأنه ألحق بها وبوليدها ضررًا. لكن قوم كارانكاهوا يحمّلون أحلامهم معاني عظيمة، ويحسبونها علامات لما يقع حقًا.

فهزّت زوجة بالسيهكونا رأسها، ومسحت دموعها بأطراف قميصها وقالت: بل هذا هو.

ودون إبطاءٍ أو سؤال، ذبح بالسيهكونا دييغو. وانبثق الدمُ من نحره غزيرًا حارًا، ونالني منه على ذراعي ويدي، غير أن الجزء الأعظم منه أصاب أخاه دورانتس فأغمض عينيه عنه. واستحال لون وجهه الأبيض أحمر داميًا. ولّما فتح عينيه رأيت تبدلّ حاله، فكان رجلاً آخر. وارتخى جسد دييغو إزاءنا متعفرًا بدمائه، كخروف في يوم العيد. وجثا دورانتس على ركبتيه، واحتوى رأس أخيه في يديه. ونادى: دييغو يا أخي... دييغو يا أخي...

وارتعشت عينا دييغو، وحرّك شفتيه كأنما يريد أن يتكلم، لكن تجمّعَ الدم في حلقه منعه.

وخلعت إزاري وضغطت به الجرح برسم إيقاف الدم، وامتصّ القماشُ الدم بسرعة وإن لم يمنع النزف. فما لبثنا إلا لحظات حتى خرجت روح دييغو الطاهرة من بدنه وما استطعنا لها منعًا.

وقال كاستيو: رباه. ووضع يده على كتف دورانتس، غير أن هذا نحّاه. ثم حمل أخاه برفقٍ عظيم أمام الجمع المحتشدين، وأخذه إلى جانبنا من المعسكر. ودفنّا دييغو في الغابة في ليلةٍ ما شهدتْ صوتًا إلا نعيق بومة مرتقبة.

وإذا أنا أكتب وقائعَ الرحلة الآن فإني أدرك أن أمرًا تغيّر بموت دييغو، وأن دورانتس بات رجلاً مختلفًا. فما كان يتكلّم إلا فيما ندر، وإن حاول كاستيو الحديث معه في أي أمر مهما كان فإن دورانتس يصدّه بجفاء. كأن كلَّ ساعات المودّة والصداقة التي أنفقها على كاستيو تعذّبه بعد فقد أخيه إلى الأبد، فما كان يريد أي صلة بينه وبين كاستيو. وإذا جنّ الليل حاول دورانتس كتم بكاءه، لكنني كنت أسمعه بوضوح، حتى وإن انقلب على جنبه

ودسّ وجهه في فرو فراشه.

وعقب موت دييغو، تبرّم قوم كارانكاهوا من وجودنا بين ليلة وضحاها. والأعمال التي كانت قبل بضعة أسابيع تكفل لنا طعامًا شهيًا صارت لا تكاد تردّ عنا الضرب والشتم. فأهديناهم آخر ما كان لدينا، ما بقي من ثيابنا والفأس وقفازيّ ليون، أملاً أن ننال بها معاملة أفضل. ولعبنا مع صبيانهم، بل حاولنا حتى أن نرقص في مراسمهم. لكن كل هذا لم يفلح في تليين جانبهم، فنحن اللصوص الخونة الكسالى. وشاء القدرُ بعد شهر واحد أن يدخل غوتيريز وهويلفا وفالديفيسو كوخًا حرّم أهل كارانكاهوا علينا دخوله، فقُتلوا تلك الليلة. وما أن انقضى فصل الربيع حتى لم يبقَ أحياءٌ من جماعتنا سوى ثلاثة؛ دورانتس وكاستيو وعبد الله المسكين مصطفى بن محمد.

فكانت حياتنا مع قبيلة كارانكاهوا بالغةَ البؤس شديدة التعاسة. وأنا أعلم أنّ أصحابي القشتاليين قد شهدوا أمام البلاط الملكي شهادةً مطوّلة عن هذه الوقائع، فإن أسباب ذكري ما جرى لا تشبه أسبابهم. وأقول إن حياتنا مع قبيلة كارانكاهوا بائسة لأن المعاملة كانت في أوّلها غير ذات ود، ثم تفاقمت إلى العداء الشديد والاعتداء الذي لا ينقطع، حتى إننا خشينا عصيان أوامرهم. فأخذنا نداول أمر الهرب منهم، لولا أننا شهدنا مقتلَ أصحابنا بأتفه الأمور، فخشينا أن يُقبض علينا. ولو هربنا فما يدرينا إن كنّا نقدر على العيش زمنًا طويلاً في الغابات دون هنود من أهلها، يعرفون أرضها ومكامن الماء والغذاء فيها. فكنا نجلس في المساء كالمجذومين في طرف المعسكر حيث أُمرنا بالنوم، وأخذت أراقب وجهيّ كاستيو ودورانتس تنيرهما لهب النار، فرأيتُ القنوط يعلوهما. وأنا أعلم إن هو إلا شيء مما كُتب في وجهي.

***

وأفقت فجر يومٍ فألفيت الفراشَ بجانبي خاويًا لا أحد فيه، ما خلا أثر

جسد دورانتس عليه. فعلمت أن خطبًا قد حصل، لأن دورانتس لا يخرج من الكوخ قبلي قط. وقد أُمرنا نحن الاثنان بجمع الحطبِ مع الشروق، لكنه اتّخذها عادةً أن يظل في فراشه حتى أفيق، فكان ينتظر إلى أن أقوم وأخرج من الكوخ قبل أن يفعل مثلي. وكان بذلك يذكّر نفسه أنه، وإن امتثلنا لخدمة قبيلة كارانكاهوا، كان يومًا سيدي وأنا عبده. وإن أكثر الأكاذيب غوايةً هي التي نعزّي بها نفوسنا.

ومددت ذراعي فأيقظت كاستيو. وتسللنا خلسة نبحث عن دورانتس في نواحي القرية فلم نعثر عليه. ولاحظتْ نساء كارانكاهوا وهنّ أول من يفيق في القرية غيابه. فأبلغن رجالهن على طعام الصباح، فانقلب هؤلاء إلينا وسألنا زعيمهم: أين ذهب أخوكما؟

وقد تعوّد أهل كارانكاهوا أن يسمونا إخوة، وما كنتُ أُعنى بهذا القول أو أعارضه، لكن الكلمة يوم قالها الزعيم تلك المرّة وَارَتْ اتهاماً أفزعني.

فأجبتُ: لم يقل لي شيئًا. لا علم لي بهذا.

شرب بالسيهكونا من قربته ثم قال: لقد فرّ.

وقال الزعيم: أبعد كل ما فعلنا لأجله؟

لا بد أنه سرق شيئًا.

كما فعل أخوه من قبله.

وقال بالسيهكونا: وكان كذلك بليدًا.

ولم يكن هناك إثم في عُرف أهل كارانكاهوا أعظم من الكسل. ورفع بالسيهكونا رمحه فضرب ساقيّ بمتنه الخشبي. وأما الضربة الثانية فكانت من نصيب كاستيو، وقد وقعت على كتفيه فطرحته على الأرض. فهرعنا لنتمّ

أشغالنا نستبق سخطَ بالسيهكونا.

وبينما أنا أجمع الحطب في ذلك اليوم وأغسل جلود الغزلان، استشعرتُ الغضب يفور في نفسي. إن دورانتس هو من جلبني إلى بلاد الهنود التي لم أعرف فيها إلا الشقاءَ. إنه هو السبب في الضرب الذي احتملته، وها قد هجرني وأنا الذي كنت أظن أننا صرنا كالأخوة. كنتُ إذًا أعزّي نفسي بالكذب عليها مثله.

ولما كنّا وحيدَين في كوخنا تلك الليلة سألني كاستيو: لم تظنه قد رحل؟

لم يشأ الاشتغال كما يأمرونه.

فما باله إذًا لم ينتظرنا؟

فقلتُ في نفسي: لأن هذا هو طبع دورانتس، الذي لا يعنيه أحد سواه. ولّما هممت بقول ذلك وقع في خاطري أنه لم يرحل إلا لأنه ما احتمل البقاء بقرب كاستيو الذي يذكّره بأخيه الميت. فصمتّ ولم أقل شيئًا.

قال كاستيو: لا أصدّق أنه يتركنا هكذا.

وكان عمري في ذلك الحين ثلاثة وثلاثين عامًا، رأيتُ فيها من الشقاء ما قدّره الله عليّ. إنما كاستيو أصغر مني بسنوات كثيرة، وأخاله يقارب العشرين عامًا، فكانت صدمة الخيانة عليه أمرّ وأقوى، فتحرّكتْ مشاعري نحو الفتى، كأني أودّ حمايته، كما أشفقتُ عليه لّما رأيته محزونًا على فراق بنت الطبيب. (ألم أذكر حكاية تلك البنت؟ كانت ممن ركبن غراسيا دي ديوس. وكان كاستيو يقضي الساعات في الطابق العلوي يتظاهر بالانشغال حتى تخرج عليه من قمرتها. وكان يحاول أن يكلّمها وإن كانت لتبدو أكبر منه ببضع سنين، وقد سمعنا أنها مخطوبة لأحد المتوطنين. فلمّا قرر نارفاييز فصل الأسطول كانت ممن بقي على السفينة).

وسألت كاستيو: كيف تعرّفتَ إلى دورانتس؟

فأجاب: حارب هو وأخي الكبير ميغيل في إحدى الثورات، فنشأت بينهما صداقة حميمة. وبعد أن مات أخي بالسل أشار عليّ دورانتس بمرافقته إلى بلاد الهنود. قال إنني سأجني ثروة عظيمة، أو أُولّى حكم بلدة فيها. لكن أبي لم يشأ فراقي، وهو الذي فقد ولدًا بالمرض، فلم يشأ فقد الآخر في الغزو.

فقلت: لكنك أبيتَ الطاعة. وقد تعرّفتُ في حكايته صورًا من العناد والعصيان كما في حكايتي.

قال كاستيو: أجل. كنت توّاقًا إلى السير على خطى ميغيل، فبعت أرضًا ورثتها عن خالي في شلمنقة، وانضممت إلى الحملة. أما الآن...

فأتممت قوله: والآن نحن هنا. وكان الجراد يصرّ في الشجيرات، فانقطع صوته بعويل طفل. وكان عويل جوع، فما هي إلا دقائق حتى خرس صوته بعد أن ألقمته أمه ثديها. قلت: سوف نجد سبيلاً للخروج من هذه البلاد. اطمئن. وأظنني كنتُ أهدئ خاطري كما أطمئنه.

ولم يطل انتظارنا. فقد ذكر لي صبي من صبيان كارانكاهوا ذات يوم، وكنتُ قد صنعت له نايًا من قصب وعلّمته عزفَ أهزوجة زمورية قديمة، أقول ذكر لي أن دورانتس يعيش مع قبيلة تُدعى إقواسي، وكانوا قومًا ظواعن رحالة، يتاجرون في بعض الأحيان مع قبيلة كارانكاهوا. وأراد كاستيو الرحيل على الفور، وقال إنه واثق أن رجال كارانكاهوا قاتِلونا لا محالة كما أماتوا رجال جماعتنا. فهدّأت من روعه وقلت: سوف نرحل بعد سبعة أيام، حينها يكون مطلع الشهر والقمر هلال وظلام الليل أشد وأخفى لنا. وسأعثر في هذه الأيام على أحسن طريق نصل بها إلى قرية إقواسي.

فقال كاستيو: كما تقول. ثم قال: غراثيس.

وهذه كلمة ما سمعت قشتاليًا قط يقولها لي.

15

حكاية قبيلة إقواسي

وسرنا في طريق ملتوٍ وقطر الندى ما زالت تغفو على ورق النبات، وراقبتنا عصافيرُ الدوريّ بفضولٍ من أعشاشها على شجر الحَور، والأرض مكسوّة بالورق المتساقط. ثم انقطع الطريق بنهرٍ وقفتْ على حدّه امرأةٌ تغسل جلدًا وتدعكه بهمّة، فلم تدرك مقدمنا حتى اقتربتُ وكاستيو منها. فلما التفتتْ رأيتُ أنه رجل، وإنما أوهمني هيف قدّه وثوبه المزدان بالأصداف أنه امرأة. ولاح خط شيب من مفرق شعره الأسود وإن بدا صغر سنه، وتدلّى من أذنه اليمنى قرط من العظم وهذا لا يرتديه إلا قوم إقواسي. وكانت ظرافة محياه ولطف مسلكه ما جعلني أطمئن له من ساعتي. ولم أكن قد التقيت بأحد من شاكلته من قبل قط؛ رجل يلبس لبس النساء، ويشتغل بأشغالهن، ويأتيه رجل كما يأتي الرجالُ النساءَ، ولكنه فيما خلا ذلك يعدّونه رجلاً من رجال القبيلة. فأخفيت عجبي من ردائه، وهو كذلك لم يستغرب ظهورنا في تلك الناحية، لأنه قد سمع عنّا من دورانتس ومن التجّار العابرين على قرية إقواسي.

واسم ذاك الرجل شاوبيكوان، وهو يشتغل بالطبابة مع قيامه بأعمال بيته. فعَصَر الجلدَ الذي بيده وسألنا عن الشتاء الذي أمضيناه في جزيرة الشؤم مع قبيلة كابوكوي. فقال: مات خلقٌ كثيرون منهم بداء المعيّ، لكنك لم تصب به. أي علاج استعملتَ لطرد المرض؟

فجثوت إلى جواره، وأخذت طرفًا من الجلد وساعدته على إخراج الماءِ

منه. وقلت: لا أحسب أني عالجت أحدًا من المرض.

إذن فلم نجوتَ ومات آخرون؟

فأعملت فكري في الأمر. وكنت قد لاحظت أن من كان منّا يشرب شرابًا من منقوع ورق البلوط مع طعام الصباح لم يصبه المرض، فأخبرت شاوبيكوان بذلك.

فقال: ورق البلوط لآلام المعي؟ وأمال رأسه إلى الجانب يفكر. وهو بحكم اشتغاله بالطب شغوفٌ بمعرفة الأدواء دائم السعي لابتكار الدواء. وقد بلغ به الشغف بذكري للمنقوع الذي صنعناه أن دعانا لنعود معه إلى معسكر الإقواسي. وكانت قرية صغيرة، فيها من السقائف اثنتا عشرة يسهل حلّها وإقامتها كيفما أراد القوم. وكانت السقائف تحيط بواحدة أكبر منها خصّوها بمراسمهم الدينية. وقد علّمتني الأشهر التي عشتها بين قوم كارانكاهوا أن أحني رأسي قِبَل الزعيم، وأن أغض البصر إن مرّت الأبكار في طريقي، وأن أدع الصغار يأخذون بلحيتي دون أن أتنحّى عنهم خشية الوجع. فدخلت قريتهم بعلمي هذا وأنا عارف ما يُبتغى من الغريب. بيد أن الإقواسي لم يبالوا بفائض احترامي، بل انكبّوا إلى أعمالهم لا يولوننا اهتمامًا.

وكان حظنا وافرًا أن التقينا بشاوبيكوان، فنزلنا ضيوفًا عنده. ولم يمانع زعيمهم أونياسي انضمامنا إلى قومه، على أن نعمل بأيدينا كي ننال نصيبًا من الطعام وأن نطيع أعرافهم وعاداتهم. وكنا قد عَدِمنا المتاع فما عندنا إلا قطعٌ من قماش وأجزاء من جلد، فنشرناها في ناحية من المعسكر ذات فيء، وقد احتشد حولنا صبيان كفّوا عن اللعب وأخذوا يراقبوننا. وحضر دورانتس مع مغيب الشمس يحتمل على ظهره حملاً عظيمًا من حطب. وهرعت امرأةٌ تعينه على فكّ الحزمة، ثم قَصَدَنا بلا عجل ولا دهشة لرؤيتنا، وقال: أراكما قد وصلتما.

فقال كاستيو: أهذا ما تقوله بعد إذ هجرتنا؟ وكان كاستيو إذا رفع صوته خرج بغنّة تجعله كصوت طفل، وكان مع علمه بأثر حديثه لا يجد حيلةً يغيره به.

أنا لم أهجركما، بل فررت من الكارانكاهوا.

ونحن؟ أما سألت نفسك ما قد يقع لنا؟

لم تكونا في خطر منهم. لقد قتلوا أخي، وكانوا سيقتلونني بعده لولا فراري.

لكنهم قد يقتلوننا بما فعلتَ. ألم تبالِ لشأننا البتة؟

تركتك مع إستبانكو، وهو يتكلّم لسانهم ويعرف أعرافهم. وكنت موقنًا أنه سيجد مخرجًا من قريتهم. ألم تصل إلى هنا سالمًا؟

ليس هذا ما يشغلني وأنت تدري.

سمعتُ ما يكفيني من اتهاماتك يا كاستيو. ثم إنّ هذه القبيلة ليست أفضل من تلك.

عندئذ التفت دورانتس نحوي وأخذ يعدد شكواه على أصابع يمناه، فكان منها إن الإقواسي يجعلونه يحمل أحمالاً عظيمة من الحطب، فأصابه بجروح عميقة وألم شديد في ظهره، وأنهم أخذوه معهم لتصيّد الغزلان وأن الصيد استغرق اليوم بأتمّه، فما كاد يصل إلى المعسكر حتى وقع نائمًا قبل أن يطبخوا طعام العشاء حتى، وأنهم يشربون شرابًا يسكرهم فيقضون الليلَ ما بين رقص وغناء فلا يكاد يغمض له جفن، وأنهم لا ينكرون إتيان الرجال ولا ينبذونه. وختم كلامه بأنه لتلك الأسباب التي ذكرها عزم على ترك قبيلة إقواسي.

وردّ كاستيو: الحمد لله أن أكرمتنا بالخبر قبل الفعل.

وأجابه دورانتس: قد أعذر من أنذر يا كاستيو.

وهز كاستيو رأسه، ولسان حاله يقول إن دورانتس إما شديد الكبر أو عظيم البلاهة فلا يدرك شكوى الشاكي إذا سمعها. وبينما رفيقيّ يتجادلان كنتُ أفكر إن كان دورانتس يبالغ في تقدير غلظة قوم إقواسي. وكنتُ قد فررت من قومٍ أخافهم عظيم الخوف، ولم أشأ الفرار أكثر. وماذا لو أن أهل إقواسي أغلظوا علينا المعاملة كما فعل أهل كارانكاهوا؟ وماذا لو أنّي اضطررت إلى الهرب مرة ثانية؟ أكان قدري هو الفرار من قبيلة إلى أخرى أخشى الموت من كل جانب؟ وقد استثقل فؤادي حياة التشرّد، فكنت متأهبًا لدفع أغلى ما لديّ مقابل القرار في مكان واحد.

ولمّا أخذَنا رجالُ إقواسي معهم إلى الصيد رأيتهم يعدون وراء الغزلان مسافات عظيمة ومددًا طويلة، قد تبلغ ثلاثًا أو أربع ساعات قبل أن ينفذوا الرمح فيه. وهذا أمر لم أره في القبائل التي عاشرتها إلا فيهم. وهي وإن كان فيها من الشقاء ما فيها فلا تلزم المرء حسن التصويب بقوس ولا نشاب. وقد صدت أنا وكاستيو وعلاً صغيرًا، فكان لحمه الذي شوينا ليلاً من أطيب ما ذقنا وعوَّضَنا عناء صيده. أما بشأن شكوى دورانتس الأخرى فإن ذلك الموضع كثير البعوض وهو شرس لا يكلّ الطعن، فما من سبيل لطرده إلا بحرق الخشب الرطب، فيشرّدها دخانه وإن أدمع العيون. وكنا نتداول إذكاء النار بالليل، وما أحسب هذا إلا أمرًا يسيرًا.

ومع هذا فظل دورانتس مصرًا على عزمه الرحيل إلى قبيلة أخرى لا تأمره بالعمل الشاق كما يفعل أهل إقواسي. وما أن احتبس مطرُ الربيع حتى أخذ يتهيأ للرحيل، فصنع لنفسه حقيبةً صغيرة من فَضْلِ جلد الغزلان، فملأها بالمكسرات واللحم اليابس وزادًا للمسير.

وقلت: ابقَ معنا يا دورانتس، فإن السفر وحيدًا فيه مخاطر.

فأجاب: سأتدبر أمري.

وتدخّل كاستيو قائلاً: وماذا تصنع إن التقيتَ قومًا معتدين؟ إن كارانكاهوا يرتحلون في هذه الأنحاء مثل باقي القبائل.

فأجاب دورانتس: لا تشغل بالك بأمر سلامتي. وكان في صوته ضيقٌ فأحسبه ما زال مغتمَّ القلب على فراق أخيه، فكان يصدّ أي ودّ من طرف كاستيو.

وترك دورانتس قبيلة إقواسي في الصباح التالي، ولم أستصحبه لا أنا ولا كاستيو. وقد لقينا من هؤلاء القوم معاملة حسنة، وإن كان الشغل في بعض الأحيان صعب فقد تعلّمنا إتقانه على أفضل وجه. فلِمَ نتركهم؟

****

وإذا جاء الصيف قوّض قوم إقواسي معسكرهم، وارتحلوا إلى الجنوب تجاه نهرٍ طويل كثير الالتواء يسمونه في لسانهم بنهر المكسرات. وعلى انحدار شاطئيه تنمو أشجارٌ وارفة تثمر ثمارًا تشبه الجوز، مع استواء قشرته وحلاوة طعم بذرته. وكان أهل إقواسي يأكلون هذه الثمار في أيام الصيفِ ويدّخرونها لأشهر البرد، ويتصيدون الغزلان والطيور، ويقايضون مع القبائل المجاورة التي انتهت بهم أسفارهم إلى هذا النهر. وكلما تذكرت ذاك الصيف أكاد أسمع تكسّر قشور المكسرات بالوادي كله، وارتفاع أصوات شتى أيضًا؛ قبائل حلّوا عن قريب ينصبون خيامهم، وجار ينادي جاره، وأطفال يلعبون الجُنَابَاء،[1] وريح تهبّ فتحرّك ورق شجر المكسرات، ونار تجرجر في الليل، وغناء ورقص أحيا ليالي الخطبة والزفاف في ذلك الصيف.

1- وهي لعبة الغُميضة في الوقت الحالي.

كانت الموسيقى تُعزف في مستهل الأمر بطيئة، بقرع رجلين أو ثلاثة على الأطبال وهم جاثون على ركبهم في صف مستقيم. فإذا سكن هرج الناس أنشأ عازف الناي يعزف نغمًا، فيتبعه الثاني والثالث. ثم يتقدم الراقصون اثنان أو ثلاثة، وخلاخيل من أصداف البحر تصطفق مع كل حركة من أقدامهم. فكانت تلك الليالي تذكّرني بالولائم العظيمة التي تقام في أيام السوق في أزمور، وأهل المدينة فيها يخرجون من دورهم يبغون الانتعاش بنسائم الليل والغناء والرقص والسمر حتى مطلع الفجر. وقد أخذتني فتنةُ العزف ليلةً فرقصت مع الراقصين من إقواسي، وكنت أول الأمر أتأسّى بما يفعلون، ثم سلّمت نفسي للألحان تحرّكني كيفما تشاء بين جموع الراقصين.

وعلى طول العهد بتلك البلاد تبدّل رأيي بما أوجب قدري. ولأنّي كنت أندب حظي أبدًا بما جرى لي فلم أتأمل قط أني في النعيم غارقٌ. فقد نجوت سنينًا ومات من معي، ورأيتُ من الأعاجيب ما لم يره زموريٌّ قط. هل رأى ابن بطوطة ما رأيتُ، قبحه وحسنه؟ وقد اشتغل عقلي بتعداد المآسي والأحزان ونسيتُ شكره عزّ وجلّ على النعم التي أكرمني بها؛ ومنها صرف الوباء عنيّ، وإغاثتي من الأبحر والأنهر العاتية، ومن أيدي أهل كارانكاهوا العتاة.

وصارت أرضُ الهنود التي خلتها في مبتدأ الأمر أرض الأحلام، ثم مستقرّي إلى وقت نجاتي، أرضًا حقيقية أرى جمالها وأدرك بدائعها. فتجدني أجلس في معظم الوقت تحت أغصان شجرة مغنوليا كي أرتاح من عملي وأتنعّم بعطر أزهارها. أو تراني أشاهد رقص اليعسوب أو ارتعاش الطيور الطنّانة من حولي، فيكفّ انشغال بالي بحال الدنيا ونهاية منفاي. ولّما أختلي بنفسي في الليل ويهجع القومُ أسرح النظر في السماوات منقطعة النظير، أو أشنّف أذنيّ بغناء الجنادب في تزاوجها. فعلّمت نفسي أن تستعذب أيَّ متعة

كانت في متناول يدها. وإن كانت الدنيا ليست كما أهوى فإني حيٌّ بقلب نابض فيها. فوقع في نفسي أنّي سأنجو من المحن، وأن ما من نهاية لحياة المرء إلا بموت أبديّ وشيك.

***

وكذلك تغيّرت هيئتي. وحيث إني قد بادلتُ مقصّي لأجل الطعام في جزيرة الشؤم، فكنت أقص شعري باستعارة مشط وشفرة من إحدى النساء. لكنني بعدئذ أطلته، وجعلته معكوفًا في ضفائر مصفوفة على فروة رأسي. وصنعت لنفسي صدارًا من جلد الغزال وخفين كالذي يلبسه رجال القبيلة. فجعلتْ هذه التغييرات على صغر شأنها العملَ والعيشَ بين قوم إقواسي أيسر وأهون.

وصار لأيامي وقعًا ألفته. فأقوم في الصباح بأشغالي، ويستصحبني عادةً كاستيو. وقد غيّرت الحياةُ بين الهنود طبائعه، فما كان أبيًا يرى الحق في جانبه، ولا يتشوّف رضا الآخرين عليه. فلمّا تحرر الشاب من قيد الضغوط طابت نفسه وأبهرت سليقته، فرأيت فيه الظرافةَ والقدرة على التحمل، ما جعل الحياة في موطننا الجديد أكثر يسرًا. فكنا نعمل معًا ونتداول فيما بيننا الأشغال غير المستساغة، كدباغة الجلود أو استخراج أحشاء الطرائد. وكان ذلك الصيف الذي قضيناه بين قوم إقواسي والأعمال التي اشتغلنا بها معًا منشأ الصداقة بيني وبين كاستيو. وإني لا أشم رائحة الجلد المدبوغ اليوم إلا تذكرته.

وأما العصر فأجالس شاوبيكوان وأعينه على أشغاله. وكان قد تبنّى ولدًا قُتل أبوه في الحرب، فكان يمضي الساعات الطويلة يخيط له كسوة الشتاء. وكنتُ في بعض الأحيان أساعده في صنع الدواء أو حياكة الأزياء العجيبة المكللة بالحليّ التي يلبسها متى ما عالج الناس. وسألته مرةً: ما بالك تعتني

بالواحد قدر اعتنائك بالآخر؟ أليس الدواء أهم من الثوب الذي ترتديه؟ وقد نلت بسؤالي تعجّبه، فأعدته مرتين أو ثلاثًا حتى اتّضح المعنى له.

فأجاب: كأنك تسأل لِمَ يكون لأبي منجل منقارٌ معكوف، أو كيف يكون للبلشون ساقان طويلتان. لأن هذه هي طبيعة الأمور.

وكان شاوبيكوان هو من علّمني أن الدواء كالكذبة، فهي إن رواها قاصٌّ أريب صارت تاريخًا لا مراء في صدقه، فالدواء غير المجرّب كذلك يؤتي ثماره إن داوى به شامان[1] حاذق. وقد علّمني طحن الجذور دون الإضرار بفوائدها، وحفظ النبات ذي الفوائد الطبية، وإعداد اللبخات، وعلّمني كذلك ارتداء اللباس لترغيب المريض في شرب منقوع مرّ لا يستسيغه.

وأما في المساء فكنّا نجتمع حول النار نأكل عشاءنا، ونروي ما شهدنا في يومنا، ونتداول أخبار القبائل كما سمعنا. ومنهم سمعتُ أن قبيلة ماريام التي قصدها دورانتس وصلت إلى الوادي. وكانوا قومًا عددهم قليل يشتهرون بتحف يصنعونها من العظام، ويتاجرون بها في الصيف حين يفضي بهم ترحالهم إلى نهر المكسرات مقابل الفرو وغيره من الضروريات. وكان بين قبيلتيّ إقواسي وماريام تآلف ومودة، مما حدا بي وبكاستيو إلى زيارة معسكرهم ذات ليلة بعد إتمامنا أعمال النهار. وكانت المواقد مشعلة على طول شاطئ النهر، وإن لم تنفع في طرد الذباب والبعوض الحائم في غمام غزير جسور. وهبّت نسائم معتدلة محمّلة برائحة اللحم المشوي والفرو المحترق، وصياح الأطفال ونقيق الضفادع.

ولقينا دورانتس فوجدناه في أتمّ صحة، وقد ارتدّ اللون إلى وجهه وامتلأ جرمه. ولكن عندما سألنا عن حاله وعيشه مع قبيلة ماريام أكثَرَ كعادته

1- الشامان: طبيب القبيلة وساحرها

الشكاية. فقال إن أهل ماريام مثل أهل إقواسي، فهم يتصيّدون الطريدة يتبعونها نهارًا كاملاً، وإنهم يرتحلون كل بضعة أسابيع، وإنهم يحمّلونه حزمًا عظيمة من الحطب على ظهره. غير أنه تعوّد المقام بينهم وآلفهم، كما تعوّدتُ وكاستيو المقام في قبيلتنا وآلفناهم.

وقال إن حسن طالعه جعله يشتغل هذه الأيام لدى أسرة لا تأمره بالخروج إلى الصيد، بل تكلّفه أعمالاً هيّنة يسيرة؛ فكان يطبخ طعامهم ويغسل ثيابهم، وينصب مسكنهم أو يقوّضه متى ما حان الرحيل. والسبب في خدمته لهم هو أنهم كلّهم، الجد والوالدين وأولاد ثلاثة، عميان.

وسألته: كلهم؟ ماذا جرى لهم؟

أصابهم الجدري بالعمى.

وقال كاستيو: رحماك ربي! ألا تخشَ أن يصيبك منهم؟

قد التأمت الجروح التي على وجوههم وأذرعهم منذ زمن.

كيف أصابهم الجدري؟

أظنه أصابهم من شخص كان يتاجر في إسبانية الجديدة.

أتظن... أيعني هذا أننا قريبون من بانكو؟

أظننا قريبين. وإن كنا لا نستطيع التيقن. فهذه القبائل كثيرة الترحال ويقطعون مسافات طويلة...

ثم نادت امرأةٌ دورانتس في أمر يتصل بطبخ الطعام، فتوادعنا وافترقنا.

***

وبينما نحن نسبح في النهر في اليوم التالي، فإذا بدورانتس يجري نحونا

وهو يلوّح بذراعيه كالمجنون، ووجهه يشع بشرًا. قال: سمعتُ أن قشتاليًا آخر يعيش قرب منبع النهر. لا بد أنه أحد رجالنا.

واستبشرنا باستبشاره، وصرنا نفكر من قد يكون ذلك الرجل وأيّ أنباء يحمل لنا. فتعجّلنا بالمسير إلى معسكر القبيلة التي سمعنا أن الرجل الأبيض يعيش معهم، وكانت على بعد ربع فرسخ من منبع النهر. وعلمنا أن اسمها شارّوكو وأنها وصلت إلى نهر المكسرات قبل يومين. فسألنا صبيًا عن الغريب الذي يسكن بينهم، فدلّنا إلى كوخ صغير كان يجلس خارجه رجلٌ أبيض يطحن بالهاون. واستدار الرجل لمّا سمع وقع خطانا فإذا به كابيزا دي فاكا.

ونطق دورانتس وكاستيو بلسان واحد: أنت؟!

وتعانق القشتاليون الثلاثة عناقًا شديدًا، فقد مرّت ثلاث سنين لم يرَ أحدهم الآخر. فاتّكأت على عصاي أنظر إلى سعادتهم باللقاء، فإذا كابيزا دي فاكا يلتفت إليّ فيعانقني أنا أيضًا. ومن عجبي أفلتتْ يدي العصا ورجعتُ إلى الخلف، فلم يثنه ذلك عن عناقي كأخٍ حميم حتى كادت أنفاسي تنقطع.

وسألته: كيف انتهى بك الحال إلى هنا؟ أخبرنا ماذا اتفق لك؟

وجلس كابيزا دي فاكا يروي لنا قصته، وهي القصة التي حفظتها وأسجلها هنا للقارئ الكريم. فقال: أميغوس... عشت مع قبيلة هان في جزيرة الشؤم حتى انقضى موسم صيد البحر، فارتحلنا بعدها إلى البر الكبير. وقد مات زعيمهم بداء المعيّ ومات كثيرون من كبراء القوم، فكثر النزاع وزاد الخلاف بينهم على عظائم الأمور وتوافهها؛ فكانوا يختلفون أي المسالك يطرقون ومتى ينصبون المعسكر، بل حتى ابن مَن منهم مستعد لخرم حلمتيّ صدره. وقد توسّلتْ كاكونوبا زوجتي التي قابلتموها، وهي بنت زعيم القبيلة، قومَها أن ينبذوا الشقاق والفرقة ويهتدوا بهدي أجدادهم،

لكن النزاع استمر وتفاقم.

ولما انتصف الربيع، وبينما نحن مهاجرون نتوغّل في البر لقطاف التوت الأسود في موسمه، ولدت امرأتي صبيًا. أميغوس، أنا في الأربعين الآن. وكنت شديد التحرّق للولد، غير أنّ الرب لم يرزقني قبله ذريةً، فكان فرحي به عظيمًا. وأسميته بيدرو على اسم جدي بيدرو دي فيرا مندوزا، وربما كنتم قد سمعتم عنه وعن قصص شهامته وجسارته. وكان بيدرو يشبهني بشعره المجعّد القصير وبانفراج مبسمه الصغير. ولكن ما أن انصرم الموسم حتى أصابته حمى لم يبرأ منها مهما حاولت علاجه.

وبعد أن دفنّا بيدرو، أوعزتُ إلى زوجتي أن ننضم إلى قبيلة أخرى تقطن الساحل، مثل قبيلة شارّوكو أو قبيلة قويفن. وكان السبب في رأيي ذاك هو أن قومها قد قلّ عددهم، فلم يكن فيهم حينئذ إلا أربعون شخصًا معظمهم نساء، فكنت أحسب أنهم لا يعيشون شتاءً ثانيًا دون صيّاديهم. بيد أن زوجتي أبت هجر قومها، وقالت إن لها أختًا وعمًا بينهم، وإن قومها يحتاجون إليها. فسافرتُ بها إلى الجزيرة، ثم عدتُ إلى القارة للتجارة مع القبائل في الساحل.

وكنتُ قد جلبت معي أصدافًا ومُغرة[1] وأخضابًا وجلود غزلان، فأتاجر بها لأجل اللحم المجفف والذرة وأشياء غيرها. وكلما رجعت إلى الجزيرة لأجلب ما أقايض به أحاول إقناع كاكونوبا بالذهاب معي، وهي ترفض ترك الجزيرة. ولّما كنتُ أتاجر في القارة في الشتاء الماضي أصابتها الحمى، وماتت قبل أن أراها.

وارتجف صوت كابيزا دي فاكا وأشاح بوجهه، ثم قال: فصرت أتنقل بين القبائل على ساحل البحر منذ ذلك الحين.

1- تربة معدنية صفراء أو حمراء أو بنية تستعمل في التلوين.

وسأل دورانتس: وماذا جرى لأوفيدو وألبانيز؟

مات أوفيدو، أما ألبانيز فلم يرضَ أن يصحبني إلى أي مكان.

ثم سألَنا كابيزا دي فاكا عن رحلتنا في أراضي الساحل وما لقينا. فرويتُ له حكاية ترحالنا، وما جرى لمركب مفتش المال ومركب الحاكم، وقصصت عليه ما تحمّلناه على يد قبيلة كارانكاهوا، ومقتل دييغو، وهجران دورانتس لنا، واستقرارنا أنا وكاستيو مع قبيلة إقواسي. وأنصت كابيزا دي فاكا بعناية شديدة، فلا قاطعني ولا استعجلني قط. فقلتُ في نفسي: هذا رجل يحسن رواية القصص والإصغاء إليها؛ رجل يقدّر الحكايات حق قدرها ويدرك أثرها. راويةٌ مثلي تحلّق روحه في سماوات الخيال.

ثم قال دورانتس لكابيزا دي فاكا: تعال فعش معي.

وإن عاش معه كابيزا دي فاكا فسيجد كل منهما في الآخر رفيقًا من بني جلده يزيل عنه الوحشة. وكان من أمرنا ما كان، فلمّا انقضى قعودنا عند نهر المكسرات، رحل دورانتس وكابيزا دي فاكا مع قبيلة ماريام، ورحلت أنا وكاستيو مع قبيلة إقواسي.

***

ورحل قوم إقواسي بعد ذلك إلى نهر التين الشوكي. وقد اكتسى الوادي بشجره الأخضر وبرزت منه الثمار الحمراء والبرتقالية، ولم أكن قد رأيت التين الشوكي غزيرًا قبل ذلك. فاحتشد الهنود من كلِّ بقاع الساحل في ذلك المكان شهرًا يأكلون التين ولا ثمر غيره. وهناك كانوا يتقايضون الريش أو الخرز أو العدة. وهناك كانوا يأتون ليخطبوا لأبنائهم أو ليشتروا زوجات جدد. وهناك كانوا يتداولون أنباءَ من وُلد له، ومن قضى نحبه. وهناك كانوا يسمعون أخبارَ الحروب مع القبائل الطاغية، وهناك كانوا يقصّون رؤياهم،

وهناك كانوا يروون الأقاويل عن الغزو الأجنبي. وهناك كانوا يجتمعون كي ينظروا إلى الرجال الملتحين.

ولم يكن جمعُ التين الشوكي عملاً يسيرًا، فكان الشوك يستقر في أطراف بناني مهما اجتنبته. وبعد أن قضينا نهارًا طويلاً نحصد من الأشجار قصدت أنا وكاستيو النهر لنسبح. فجلست في الماء البارد أحرّك أصابعي خلاف موجه، فارتاح بدني وتنفست نفسًا سعيدًا. وطنّ البعوض في الهواء فوق رأسينا، وإن تركنا الذبابُ وانكبّ على كومة من قشور في أطراف المعسكر.

فسأل كاستيو: كيف هو نكاح النساء؟

وعجبتُ من سؤاله وقلت: لم تسأل؟

فسكت وأشاح بوجهه، فأطلق بصره في أبكار ثلاثة يجلسن إلى شاطئ النهر على مقربة منّا. وكن قد رفعن أثوابهن حتى ظهرت ركبهن لأجل أن يغمسن أرجلهن في الماء. فسألته: تلك المرأة في المركب الذي جلبنا، بنت الطبيب غاليانو...

وقبل أن أتم سؤلي أجاب: كانت مخطوبة لأحد المستوطنين لكنها أخبرتني أنها لا تريده. كانت تريدني أنا. ثم أمر نارفاييز بتقسيم الحملة وبقيتْ مع من بقي.

وسألته: ألهذا لم تشأ أن يترك نارفاييز السفن؟

فهز كاستيو كتفه ورد: لا يعنينا السبب الآن، وقد كان مخطئًا في رأيه بتركهم في المرسى.

أما زلت تفكر بها؟

تراودني بين الفينة والأخرى. غير أنها قد تزوجت ولربما صار لها ولد

الآن.

واندس في الماء وصار يطفو، وشعره الأسود الطويل يتجمع عند رأسه. ففعلت كما فعل وحملنا النهر، فأزجانا الموج تحت ظُلة من شجر فحجبت عنا سماء الفضاء الأزرق. وكان من رجال إقواسي من يبحث عن زوجة له، فلا أُلام إن نظرت إلى الأبكار وتمنيت إحداهن زوجًا لي. وما كان الدافع في ذلك إرضاء الشهوة فقط، بل هو أمر أعظم من ذلك، وهو طلب المحبة والمودة، وجسد يدفئ وحشة فراشي.

وعلمنا في الليل عقب رجوعنا إلى المعسكر أن دورانتس وكابيزا دي فاكا وصلا مع قبيلة ماريام إلى نهر التين الشوكي، وأن عقوبةً قد أُوقعت عليهما بسبب تدخلهما بمراسم الهنود. فشاءا ترك قوم ماريام قبل أن يزيد سخطهم عليهما، فارتأيا الاجتماع نحن الأربعة والرحيل معًا.

لكن شاء الله أن يخطب رجل من قبيلة ماريام امرأةً من قبيلة أخرى. فلمّا دُفع مهرها وأُعدّت لخاطبها وجُهزت الوليمة، طلب أبوها قوسًا ونشابًا أخرى زيادة على ما قُدّم. فتنازع القومان وتأججت النار لمّا ذكر زعيم ماريام ضغائن قديمة بينهم وبين القبيلة الأخرى. فاقتتلت القبيلتان، وقوض أهل ماريام معسكرهم وانتقلوا إلى موضع بعيد على شاطئ النهر، ورافقهم دورانتس وكابيزا دي فاكا. فإن كنا نود الرحيل معًا فهذا لا يحصل إلا في الموسم القادم.

فلمّا انقضى عام كامل ارتحلنا كعادة القبيلة إلى نهر التين الشوكي، والتقينا بدورانتس وكابيزا دي فاكا ثانيةً. وكان خلافهم مع قبيلة ماريام قد اشتدّ، فاضطررنا إلى الرحيل خلسة في ظلمة الليل، ونحن نتبع النهر المنثني حتى خرجنا من الوادي الخصيب. ولقينا في الصباح جماعةً من قوم يُدعون أنيغادو، وأنذرونا أن الأرض من ناحية الجنوب معمورة بهنود يبغضون

القشتاليين ويقتلونهم من فورهم. والسبب هو أن الجند القشتاليين يأتون من المكسيك منذ سنين فيأسرون الهنود ويستعبدونهم. وقد بلغ عدوان هؤلاء الجنود على الهنود مبلغًا عظيمًا، فكانت قبائل الجنوب تأخذ حذرهم منهم، فإما تفرّ أو تقاتلهم. فشئنا تفادي موضع القبائل المعادية واتجهتُ مع رفاقي الثلاثة إلى الغرب.

16

حكاية قبيلة أفافاري

وما أن خرجنا من الوادي حتى اشتدَّ جوعنا. وقد انتظمتْ على طول الطريق شجيراتُ التين الشوكي بلا ثمر، لأن القبائل الهندية التي تهاجر في هذه الأنحاء قد جمعتها كلها. فلم يبقَ منها إلا القشور المتعفنة متكوّمة في أكوام صغيرة يجذب نتنها الذبابَ والبراغش. وإن كنّا قد تعلّمنا صيد الغزلان والأرانب، والبحث عن الجذور والحشائش والثمر، والتمييز بين ما يُؤكل منها وما هو مسموم، فلم يكن معنا رماحٌ ولا قسي وسهام، وإن تابعنا المسيرَ إلى ناحية الغرب فقد نمضي أيامًا دون أن نأتي على نهر أو جدول. فما لنا سبيل إلى النجاة إلا بالعثور على قبيلة في أسرع وقت.

وشاء سبحانه وهو خير المدبّرين أن نلقى في عصر اليوم الرابع ولدًا يلعب وحده في الغابة. فلمّا أبصرنا ولّى خائفًا، ولربما أفزعته لحانا الكثيفة وألواننا الغريبة، أو لعلّه قد سمع روايات تناقلتها الألسن وزادتها بشاعةً عن الغرباء ذوي الأنياب شاربي الدماء الذين يسرقون الأطفال متى ما ابتعدوا عن منازلهم.

فجريتُ وراء الصبي وأنا أصيح: مهلك! مهلك!

فاستدار ينظر إليّ، وكانت له عينان لوزيتان وسنّان في الأمام لم يكتمل بزوغهما من لثته الوردية. وأحسب أن عمره سبع أو ثمانية وإن كان ضئيلاً. وعرفت من وشمٍ على ذقنه على هيئة نقاط زرقاء تشكّل مثلثًا أنه من قبيلة تُدعى أفافاري. فاطمئنّ قلبي، وكنت أعرف أهل أفافاري حيث إنّنا لقيناهم

على نهر التين الشوكي، وكانوا يتاجرون بالجلود وريش الببغاء مع قبيلة إقواسي. وقلت: إنما نحن عابرو سبيل في هذه البلاد. ألا تأخذنا معك؟

وأجال الفتى بصره في رفاقي البيضان وقد بلغونا راكضين. وكان كابيزا دي فاكا يغطي رأسه اتّقاء الشمسِ بقطعة من جلد غزال متلون، وطرفاه يرفرفان على خدّيه وهو يعدو نحونا. أما دورانتس فكان يستعين بعصاه كي يعجّل خطاه، وطرفها يخط التراب في أثره. فلمّا بلغوا موضعي وقفوا يلتقطون أنفاسهم. وضغط كاستيو بإبهامه على قرح في عقب قدمه فخرج منه قيح صافٍ. فلما رأى صبي الأفافاري سوء حالنا أخذته الشفقة وقال: اتبعوني.

***

واستقبلنا زعيمُ قبيلة أفافاري، وهو شيخ اسمه تهاشا. وكان سمحَ الوجه له ذقن صغيرة تغور في ثنايا رقبته. ومن ورائه في كوخه المفتوح كانت تجلس امرأته ترضع طفلاً وهي تغني له، ولم تبرحنا عيناها قط. وجلس صبي آخر بجوارها يلعب بالخرز لم يرفع رأسه. وعرض علينا تهاشا مبيتَ تلك الليلة عندهم، وماءً يروي ظمأنا دون أن نسأله. وأصبنا من العشاء طيرًا مشويًا على مائدته، وسَألَنا تهاشا عن البلاد التي أتينا منها. فأشرت إلى مشرق الشمس من ورائي وقلت: أتينا من بلاد بعيدة.

كم تبعد؟

على الطرف الآخر من البحر.

ونظر تهاشا إلى شامانه في عجبٍ، وكان شامان تلك القبيلة عجوزًا ضامر البدن على جلده وشوم كثيرة. وتوجّست من حديثنا أن ما نرويه عليهم هو من المتع النادرة، فكانوا ينصتون إنصاتًا شديدًا، وإذا قطع عليهم عواءُ سبع

أو جرجرة النار صوتي فتراهم يميلون نحوي. وسأل تهاشا: وكلكم أتيتم من تلك البلاد البعيدة؟

فأجبت: أصحابي الثلاثة من قبيلة، وأنا من قبيلة أخرى.

فتفكّر تهاشا بكلامي وسأل: ألهذا تختلف هيئتك عنهم؟

أجل.

ولكن كيف جئتم إلى هنا؟

قلت: بالسفن. ثم أوجزت له الحكاية فقلت: لكنّ عاصفة حطّمت مراكبنا وأهلكت قومنا، فلم ينجُ إلا نحن الأربعة. فكنا نعيش مع القبائل منذ ذلك الحين.

وما جلبكم إلى هنا؟

وهذا سؤال يسأله أهلُ كل قبيلة شئنا العيش بينهم، وكنّا على يقين أن صدق الإجابة سيجرُّ علينا ويلات لا طاقة لنا بها. فرمقت أصحابي لعلّ أحدًا منهم يجد ردًا لسؤال تهاشا، لكن دورانتس وكابيزا دي فاكا لم يرفعا بصرهما عن جمر الموقد. فكان كاستيو من أجاب: كان زعيمنا يبحث عن شيء.

أوجده؟

لا، بل خسرنا الكثير ونحن نبحث عنه.

أتلومون زعيمكم؟

فقال كاستيو: نعم. نعم.

وقال تهاشا: كثيرًا ما يلوم الناس زعيمهم. وما هو إلا بشرٌ، يقوى بقوةِ

قومه ويضعفُ بضعفهم، وهم يتبعونه طالما كانوا يأتمنونه على أنفسهم.

ورأيت أن تهاشا يتكلم من خبرته، فوقع في نفسي صدق ما قاله. فكلُّ رجل من رجال الحملة صدّق كلامَ نارفاييز عن مملكة الذهب، وتبعوه إليها وهم مستبشرون. وإن كنا قد خالفناه في مسألتي ترك المراكب في المرسى والتوغّل في الأرض بلا دليل، إنها لم يكذّب أحدٌ منّا روايته، ولا الكذبة التي بدأت مسيرنا. لماذا صدّقه كثيرون منّا؟

وسأل تهاشا: وبم وعدكم زعيمكم؟

وقد وجّه سؤاله إليّ لأني أحسن المتكلمين من أصحابي بلسانهم. وكان سؤالاً تصعب الإجابة عنه لا ريب. فإن أخبرته الحقيقةَ فسيعلم أنّ هؤلاء القشتاليين الجالسين معي قد أتوا إلى هذه الأرض للغزو، وأنهم كانوا يبغون استعباده باسم ملكهم، وأنهم كانوا يريدون تحصيل جزيةٍ منه لهذا الملك، وأنهم كانوا سيحطمون أوثانهم ويكرِهونهم على التنصّر. وستكون الحقيقة هي الشهادة التي تقضي بموتي وموت أصحابي. رأيت إبلاغه بما يشبه الحقيقة، فقلت: أخبرنا بوجود الذهب الوافر في هذه الأرض.

ذهب؟ ودخل ذقن تهاشا أكثر فأكثر في ثنايا رقبته. والذهب في هذه البلاد ليس حجرًا نفيسًا، وهم يؤثرون ريش المقوّ وأحجار الفيروز وبعض جلود الحيوانات عليه، ولها عندهم في التجارة قيمة عظيمة. وأين زعيمكم الآن؟

فأجبته: مات. وقلت في نفسي: ومات معه حلمه في فتح البلاد، وقد دُحر القشتاليون على بكرة أبيهم، وعاش من نجا منهم خدمًا وضعاء في هذه الأرض، وصاروا هم من يخفون دينهم حذر غضب الهنود عليهم. وأما أنا الدخيل بين القشتاليين فمصيرهم مصيري. وأنا بعد هذه السنين لم أكن عبدًا، لكن ثمن حريتي هو أن أكون دخيلاً بين الهنود. فسبحان الله مغيّر الأحوال.

وقال تهاشا: حدّثوني عن القبائل التي داخلتموها. وكان على علمٍ بعادات القبائل القريبة منه وهم قوم إقواسي وقوم ماريام، وإنما أراد معرفة أخبار القبائل البعيدة. فرويت له وقائع حياتنا مع قبيلة كابوكوي، ومن بعدها قبيلة كارانكاهوا. وكنتُ كلما رويت حكايةً على الناس وهم متحلّقون حول النار رأيت تشوّف كابيزا دي فاكا إلى رواية مشاهداته لأنه راوية بارع. فحكى وأطال الحديث عن حياته مع قبيلة هان، ومن ثم مستقره مع قبلتيّ شارّوكو وقبيلة قويفن. ووصف الطرائد التي يتصيّدونها والغذاء الذي يأكلونه والوشوم التي يرسمونها، والخضاب الأحمر الذي يصنعونه بسحق حشرة تعيش على الصبّار. فأبهجتْ أخبارُ أسفارنا تهاشا، وقدّم لنا فروًا يدفع عنّا برد الليل. فكانت تلك المرة الأولى التي تجتلب روايات رحلاتنا طعامًا ومفارش، دون أن يصحبها أشغالٌ ولا استعطاف.

***

وحلمت تلك الليلة كأني على مركب عظيم لم أرَ وجه ربّانه. والقمر لمّا يبزغ بعد، والهواء بارد، والموج كالجبال الشاهقة تغشى السفينة. وأنا لا أكاد أسيّرها وإن كنت قد ربطتُ أشرعتها. وأيست فتهيّأت للموت المحتوم لولا أنّ ضوء المنارة غمر السفينة فدلّني على الطريق الصحيح. وأفقت مبللاً بعرقي غير مدركٍ لأيِّ موضع أنا فيه. فلمّا أبصرت موقدَ المعسكر وأجسامَ رفاقي الراقدين سكن قلبي ورجعت إلى نومي.

وأفقتُ في البكور على تأوّهٍ، فرأيت دورانتس وكان نائمًا بجواري يقبض على بطنه بذراعيه ويتلوّى من الوجع. وقد تعوّد بعد حياتنا في جزيرة الشؤم أن يملأ بطنه متى ما وجد اللحم وافرًا، فهو والله أعلم قد أسرف في أكلِ الطير في عشاء البارحة، فأصابه المغصُ الشديد. فتركتُ لكاستيو إيقادَ نار الطبخ، وانصرفت إلى الأحراش من وراء القرية أفتّش عن زعترٍ، فصنعت

منه منقوعًا وناولته دورانتس وأمرته بشربه. فارتشف منه ثم بصقه، وقال إنه شديد المرارة.

فضحك كاستيو وهزّ رأسه وقال: ألا تتّعظُ قط؟

فقال دورانتس: ليس بي أيُّ علّة. ثم مسح العرق عن جبينه وقام فقال: ألا ترون؟ أنا بخير. فعاجله الغثيان فانثنى على بطنه وانطرح على الأرض. وقلت له: اشرب من هذا.

فتمنّع وقاوم ثم ما لبث فشرب من ماء الزعتر، وكان قد جرّبه من قبل ويعلم منافعه. ولمّا نظرت من حولي وجدت أن شامان الأفافاري كان يراقبنا. واسمه بهوبري وهو رجل حاد القسمات طويل الوجه مرتاب النظرات. ولمّا كنا نتعشى ليلة البارحة كان يجلس بجانب الزعيم ينصت إلى حكاياتنا دون أن ينطق بكلمة قط. فلما رأى ما فعلنا سألني: ماذا سقيت أخاك؟

فعرضتُ الزعتر على بهوبري.

فتعرف النبات وقال اسمه بلسانهم، وسحق أوراقه بين أصابعه ففاح ريحه في الهواء. وأراد أن يعرف كيف حضّرتُ المنقوعَ، وكم من الزعتر استعملتُ، وإن كان يصح أن يشربه الطفلُ كما يشربه الرجل. فأخبرته ما أعرفه؛ أنّ هذه وصفة كانت تحضّرها أمي متى ما أصابني المغص، وألّا ضرر منها على أحد البتة.

وصرفت الأمر عن ذهني. فلما انتصف النهار قوّض أهل أفافاري مساكنهم وتبعناهم إلى موضع ثانٍ، في وادٍ صغير يحلّون فيه بضعة أسابيع لقطف التوت الأزرق. فحدث أن اشتكى صبيٌّ في تلك الليلة من ألمٍ عظيم في رأسه. وحاول بهوبري علاجه، فكان يستنشق النفسَ الطويل ثم ينفخ الهواء على جبين الصبي، دون أن يشفى من الألم. فسألني بهوبري: أيصاب

قومكم بالصداع؟

فقلت: نعم.

وأضاف كاستيو: نحن مثلكم، ويصيبنا الصداع كما يصيبكم.

أتعرفون له دواءً؟

فقلت: لا.

فرأيت التكذيب على وجه بهوبري. أتدّعون أنكم من بلاد عجيبة في مطلع الشمس، ذات قرى عظيمة وخلق كثيرين ولا تحسنون علاج هذا الولد؟

وإن كنتُ ساعدت دورانتس على علاج عسر الهضم، فإني لا أعرف الأدوية ولا أدّعي علمي بالطب. فقلت: إنه مجرد صداع وسوف يزول.

وضاقت عينا بهوبري وعادت الريبة تسكنهما كما رأيت البارحة. فخشيت أن نُنفى من قرية أفافاري إن لم أداوِ هذا الصبي. فالتفتُّ إلى كاستيو يائسًا وقلت: أبوك طبيب.

لكني لست بطبيب.

لكنك تعلّمتَ منه بعض الأمور لا محالة. نحن ضيوف أفافاري وقد أعطونا من طعامهم على قلّته، فإن أقلَّ ما نرد به فضلهم هو أن نرعى مريضهم. وذكّرتُه أنه داوى أحد المحمومين حينما كنّا في جزيرة الشؤم، وأن ذاك الرجل قد برئ.

فقال كاستيو: لم أفعل غير أني وضعت كمادة باردة على رأسه. ولا أفقه في أمور الطب.

كل هذا وبهوبري يتابعنا ببصره. أتراه يوغر صدر تهاشا علينا؟ أنُطرد

فنعود إلى البرية بلا حول ولا قوة؟ فقلت لا ضير من التجربة. ووجدت الصبي في مسكنه مستلقيًا على جنبه، موليًا ظهره إلى المدخل. فجثوت إلى جوار فراش الفرو الذي ينام عليه وعينا بهوبري لا تبرحاني. ووضعت أطراف أصابعي على صدغيّ الصبي، وسألته: أهنا ما يؤلمك؟ ثم لمست مؤخر عنقه فسألت: أم هنا؟ ففكر الصبي ثم قال إنّ الوجع في صدغيه. فضغطت على الموضع ودلّكته بتحريك أصابعي في دوائر صغيرة. ثم سألته: أهكذا أفضل؟

فقال مترددًا: نعم.

وعكفت على دلك رأسه، ثم أخبرته أنه سوف يتحسن في الصباح. فخلت أني اكتسبت بذلك يومًا نقضيه بينهم، وأخبرت رفاقي أننا راحلون مع مطلع الضوء، لولا أن تداركتنا رحمةٌ من ربي فذهب وجع الصبي في الغد وبرئ تمامًا في اليوم الذي تلاه. فشكر أهل أفافاري صنيعي وأهدوني حجر فيروز صغير، فثقبته ولبسته حول عنقي. وقد بلغ ارتياحي مبلغًا عظيمًا، حتى إنني لمّا رأيتهم يرقصون في الليل رقصت معهم، والشامان ينظر إليّ ضاحكًا.

***

وحلّ فصل الخريف باكرًا تلك السنة، وطرحت الأشجار أوراقها الحمراء والصفراء، كأنها تستعجل ماء السماء ليغسل أبدانها. وكانت قبيلة أفافاري تعتزم الانتقالَ عمّا قريب إلى موضع جديد. فكنتُ يومًا راجعًا من النهر أحمل جرةَ ماءٍ، فلقيتُ بنت بهوبري واسمها أويوماسوت. ولها شعر طويل كانت ترفع أطرافه على جانبي وجهها، وكانت تمشي منتصبة الظهر أبدًا، كابنة سلطانٍ تشرف على ملكها. وما نطقتْ بكلمة معي ولا مع أصحابي منذ مقدمنا، وما كان ذلك بالمستغرب، فما نحن إلا مسافرون غرباء تُوكل إليهم أوضع المهام. إنما صمتها مختلف لأنه مصحوب دائمًا بنظرة

تهكّم، كأنها تعلم عنّا سرًا لا يعلمه غيرها.

ووجدتُ أويوماسوت تحاول شدَّ حبلٍ من سعف النخل قد تعلّق في شجرة توت. فوضعتُ الجرة على الأرض وهرعت أعاونها، فأخذتُ الحبل من يدها وسحبته بقوة فأفلتْ، ثم ناولته إياها ظافرًا. فحدجتني في عجب بعينيها النجلاوين.

فتبسمتُ وقلت: هاكِ.

وكان أملي أيها القارئ العزيز أن أثير إعجابها، فلم أجنِ إلا سخطها. وسألتني مغضبة: ماذا فعلتَ؟

سحبتُ الحبل كما تريدين.

كنت أحاول تعليقه لا سحبه، وقد جئت فقطعتَه. ورفعتْ وجهها المقطّب تنظر إلى الغصن، وقطعة من الحبل عالقة به.

قلت: أنا آسف. ما أردتُ إلا مساعدتك.

لم أكن أحتاج مساعدة.

فقلت: أهذا جزائي؟ وكنت مغتاظًا من فظاظة ردّها وخفت أن أهينها، فرفعتُ الجرة على كتفي وانصرفت.

قالت: تريّث. واستدرت إليها فرأيتها واقفة تنظر إليّ تحت شجرة التوت، وضوء الشمس مسترسل من بين الأغصان والورق. وقد أفلتَ شعرها من رباطه لّما كانت تشد الحبل، وانكشف كتفها من جيب ثوبها. فشعرت بيبس حلقي وتمنيت قطرة ماء، ونسيتُ جرة الماء التي في يدي. وقالت: ألا تساعدني في تعليق هذا؟ وأشارت إلى طبلٍ عريض كان مُسندًا إلى جذع الشجرة. وأساور من أصداف بيضاء قد طوّقت معصميها. يا لجمال ذراعيها.

فكررتْ السؤال: ألن تساعدني في تعليق الحبل؟

فقلت: بلى. واختنق صوتي فكأنما يخرج من بئر قعيرة. فوضعتُ الجرةَ مرّة ثانية وأخذت الحبل من يدها، وارتقيت شجرة التوت. فانثنى أولُ الأغصان بثقلي حتى كاد ينكسر، فرفعتُ نفسي إلى الغصن الثاني فالثالث وهكذا.

فنادت أويوماسوت أن احذر. فنظرت إليها ورأيت في وجهها خوفًا عليّ بدلاً من الاستياء.

فقلت: أتريدينه بهذا العلو؟

قالت وقد تغيّر مسلكها: أجل. اربطه وحاذر في نزولك.

وربطتُ الحبل وأنا أشعر بنظراتها المتخوفة لا تحيد عني. فتراءت أمام عينيّ صورةُ رامة الله وهي تنتظرني في مطبخ الإشبيليّ كل ليلة. كانت واقفة ونور الشموع يأتي من خلفها وعلى الطاولة قصعتيّ عشائنا، وزهور الخزامى معلّقة على الجدار بجوارها تعبق الحجرة بشذاها. ولم أكن قد رأيت رامة الله منذ سنين طويلة، ولكني واثق أشد اليقين أنها انتظرتني يوم تمت البيعة إلى دورانتس، لأنها هي الوحيدة التي تبالي ما إذا كنتُ حيًا أم ميتًا.

فلمّا نزلتُ عن الشجرة أصابني دوار بسبب صورة رامة الله التي استحّلت ذهني بغتة، لا بسبب ارتفاع الشجرة. فسألتني أويوماسوت: أأنت بخير؟

فأجبتها: نعم. وسمعت تحرّك أوراق الشجرة بالنسيم من فوقنا، وقيقٌ أزرق حطّ على الغصن القريب وصار ينظر إليّ في فضول. وكنت أفكر كيف أطيل البقاء معها، فرفعتُ الطبل وناولتها إياه. فلمستْ أطرافُ بنانها أصابعي. أكنت أتخيل هذا أم أنها قصدت لمس يدي؟ وسألتها: أنتِ من صنعه؟ وكان الطبل جديدًا ينبغي تعليقه كي يجفّ.

ما هو إلا طبل.

لكنه بديع.

فقالت: يجب على كلِّ بكرٍ صنع الطبول. واستشعرتُ أن كون الأمر مطلوب منها فهذا يعني سلبها من أي متعة في إتمامه. فعلّقتُ الطبل في طرف الحبل، فلمّا التفت إليّ كانت نظرتها خاوية.

ثم انصرفتْ إلى المعسكر دون أن تنبس بكلمة.

***

وإنّ أكثر ما أعجبني في أويوماسوت منذ أول مرة التقيتها هو أنها لا تبالي بما يقوله الآخرون عنها. فلم تبالِ إن كانت بقيةُ أبكار أفافاري يعدّونها غريبة الطباع، لأنها تؤثر السيرَ مسافات بعيدة في الغابة على مجالستهم عند النهر. ولم تهتم برفض أبيها وأمها مشيها وحيدةً. وهي تقوم بأعمالها دون شكوى، فتجدها تجمع تلالاً من الحطب أو تغسل جلد الحيوانات المنتنة، لكنها لم تكن تحسن العمل ولا تتشوف إليه. ولمّا تفرغ من العمل تنصرف إلى الغابة، فتنصب المصائدَ للطيور البرية أو تلعب بالعصي، فينالها من التوبيخ القدر الوافي لأن ذلك ليس من أعمال البنات. فإن توجّه لها أحدٌ بالتقريع واللوم تتوغل في الغابة وحيدةً حتى يحل الظلام، كأن في قلبها غلاً لا ينطفئ ناره.

ورأيتها يومًا ترجع إلى المعسكر والسماء تمطر. وقد انقلب الجو غريبًا بلمح البصر، فكانت السماء صافية ثم انفرجت، فإذا بوابل من مطر يهطل كالنهر على المعسكر كله. فاحتملنا متاعنا ولجأنا إلى سقائفنا ننتظر عبورَ العاصفة. ولم يحجب الغمامُ الضياءَ كله، فرأيت وجه أويوماسوت واضحًا، وكان وجه امرأةٍ تحمل همًا ثقيلاً. فلما بلغت ساحة المعسكر خرجت أمها من مسكنها وسألت: أين كنتِ؟ وكانت تباعد بين ساقيها وتضع يديها على خصرها. وكان لأمها شكل عيني أويوماسوت؛ واسعة وجفنها السفلي أعرض من

العلوي، لكن الشبه بينهما لا يزيد عن ذلك، فلأمها فم كريه ملتوٍ وصوت منفر حاد. قالت لابنتها: تركتِ فرو أخيك معلقًا على القضبان.

فسألت أويوماسوت: ولِمَ لم يُدخلها لمّا أمطرت السماء؟ وكان صوتها ثابتًا هادئًا، فزاد غضبُ أمها.

هذا واجبك أنتِ لا واجبه.

أيفضّلُ أن يصيبها المطرُ على أن يدخلها إلى الدار بنفسه؟

أظنها فسدت الآن بسببك.

وكان المعسكر هادئًا، وكلٌّ في كوخه ينصت إلى شجارهما في الساحة. وزاد هطول المطر، فرفعت أويوماسوت صوتها لتسمعها أمها وقالت: كل شيء يحدث بسببي. عجبًا من قوتي وقدرتي التي تشمل كل شرٍ يقع.

فدمدمت أمها كلامًا عن بلادتها، ثم أرخت حجابَ جلد الغزال الذي يغطي مدخل الدار. وظلّت أويوماسوت واقفةً تحت المطر تفكر بكلام أمها، وقد تبلل ثوبها والتصق ببدنها، وقدماها ملوثتان بالطين. ثم تنهدت واتجهت إلى طرف المخيم لتجلب الفرو.

وأنا لا أدري لماذا عشقتُ أويوماسوت. وكيف يفسّر المرءُ عشقه؟ لعلّني رأيتُ أنها مثلي محمّلة بقوانين وشرائع لا ترتضيها. ولعلّني رأيتها غريبة بين قومها دخيلة عليهم مثلي، وإن كانت تعيش بينهم. ولعلّ السببَ يكون هو أنها تُظهرُ الغلظةَ والشراسة مع الناس، ومع هذا فإنّك ترى الأطفالَ يهرعون إليها حال مرآها، يسألونها أن تحكّمَ سبقًا أو تفضّ نزاعًا. بيد أنّي أعلم متى عشقتها؛ عشقتها في ذلك اليوم لمّا كانت تقف تحت وابل المطر، وقدماها تنغمسان في الطين، لكن ظهرها منتصب لم ينثنِ.

***

ولمّا مضى شهرٌ على استقرارنا في معسكر الخريف وردنا نبأ اعتلال زعيم قبيلة سوسولا. وكانت هذه من القبائل القريبة تعسكر على بعد فرسخين أو ثلاثة إلى جنوبنا، وتظل في تلك البقعة طوال أشهر الخريف. وقد سمعوا عن علاجي صداع صبي الأفافاري، ولما لم يوفّق طبيبهم في علاج الزعيم فقد بعث يطلب زيارتي. وخشيت رفض الدعوة فيقع الشقاق ويكره قوم أفافاري بقاءنا معهم، ولكن أنّى لي قبولها ولا حيلة أملك في علاج هذا الرجل؟

فعمدت إلى التسويف مدةً من الزمن. فحينًا أقول لتهاشا أنّ الأفضل هو أن نعطي شامان قبيلة سوسولا الفرصةَ كي يعثر على دواء، وحينًا أدّعي انشغالي بأعمالي. بل إنّي اشتكيتُ طول المسير إلى معسكر سوسولا وعدم استطاعتي المشي تلك المسافة. ولكن لم تنطلِ أعذاري على أحد. وقد تعجّبتُ أشد العجب أنْ شجعني الشامان بهوبري على الذهاب، رغم أنهم لم يبعثوا إليه. أكان يطمع في فشلي في علاجه فأُطرد من القبيلة؟ لا أعلم ماذا ينوي. فلم أجد بدًا من الذهاب إن كنت أريد حفظ المعروف بيننا وبين مضيفينا.

فسألت أصحابي القشتاليين مرافقتي، بيد أن دورانتس وكابيزا دي فاكا رفضا. وقد اختفتْ العداوةُ التي كانت بين هذين الاثنين منذ حطّت الحملةُ في لا فلوريدة، وحصلت بينهما أسباب الصداقة وتأكّد وثاقها في ذلك العام الذي أمضياه خادمين عند قوم ماريام. وأما الصداقة التي كانت بين دورانتس وكاستيو فقد زالت بأتمّها بعد موت دييغو. فلم أتعجب حينما قال كاستيو أنه سيرافقني ولم يقبل أحدٌ سواه.

ووصلنا معسكر سوسولا بعد ثلاثة أيام من إرسالهم الدعوة لي، فوجدنا الزعيمَ راقدًا في فراشه يكاد الهذيان يستلب عقله من ألم يجده في ظهره. فتملّكني الفزعُ لعلمي أني لا أملك شفاءَ هذا الرجل، وأن اللوم سيُنحى

عليّ إن لم يبرأ من مرضه. بيد أن من عجائبِ عقل البشر انجلاء الغشاوة عنه وقت العوز، فتذكّرتُ شكوى والدي من آلام ظهره، وعلاجه في خيمة الحجامة قبل أعوامٍ في سوق أزمور. وحيث إنّي رأيت فعلَ الحجّام ذلك اليوم فارتأيت تجربةَ العلاج على زعيم القبيلة وإن لم أجرّبه من قبل قط.

واستعنت باسم الله قبل جلوسي إلى المريض، فطلبت كأسًا وأسخنتها على النار، ثم وضعتها على ظهر الزعيم، فانتفخ الجلد أسفل منها. وانتظرت دقائق ثم رفعت الكأس وكررت الفعل في موضع أخر. وأنشأتُ أروى حكايةً أسرّي بها عن زعيم سوسولا لأنسيه ألمه، وأسلي أهله المجتمعين حولنا في الكوخ، وقد حوّرت الحكاية بعض الشيء لمناسبة المقام. فقلت: ابتلي أبي منذ أعوام عديدة بآلام كهذه التي تشكو منها. وكان زعيمًا قويًا في قومه مشهورًا بعدله في المدينة. لكن لمّا أصابته هذه الأوجاع صار لا يبرح فراشه، ولا ينصرف إلى شغله، فأصاب الجوعُ أمي وأخوتي. وأشفق أحدُ أعمامي على أبي فجلب له طبيبًا، وكان شيخًا يرتدي ثيابًا سوداء قد أُكره على الرحيل عن بلاده والاستقرار في مدينتنا، فما كان الناس يأتمنونه. لكنه استعمل هذا العلاج الذي ترونه. والكؤوس تحبس المرضَ ثم تطلقه في الهواء. فشفي والدي ورجع إلى عمله وصار أقوى من قبل.

وهمس كاستيو الجالس بجواري أنه قد رأى والده يحجم في شلمنقة مرةً. فطلب كأسًا ثانية وصار يساعدني. فلمّا كان الغد فإذا بالزعيم يجالس قومه ويأكل معهم، وفي اليوم الثالث استطاع الوقوف والمشي.

***

وإن كنتُ أتمنى أن أتخلّص من المهنة التي نُسبت إليها بعلاج زعيم سوسولا، فإن الاستقبالَ العظيم الذي لقيته عند عودتي إلى قبيلة أفافاري قد أكّد لي نقيض ذلك. فقد خرج القومُ كلهم يحيونني ويعانقوني كابنٍ لم

يروه منذ سنين. ودارت حكايةُ شفاء زعيم سوسولا على يديّ بين الهنودِ في تلك الناحية في الأيام التي تلت رجوعي، وكلُّ أحدٍ يزيد في الرواية ويبالغ بمهاراتي في العلاج. حتى إن أحدهم روى أن كبير سوسولا كان على شفير الموت وأهله منتحبون عليه، لولا أني انتشلته وأعدت الحياة إليه. وكلما شرحتُ للناس أن ذلك علاج يسير يعرفه أهل مدينتي منذ سنين، لا يصدقونني ويحسبون أني أقول ذلك من باب التواضع. وحيث أني أفلحت فيما لم يفلح فيه شامان قبيلة سوسولا، فارتبطت عجميّتي في أذهان الناس بقدراتي على الشفاء.

فصار قوم أفافاري يستقبلون الوفودَ من حلفائهم، قبيلة مالياكون وقبيلة كلتالشولش، وقبيلتين أقل نفرًا يسمون أنفسهم قوم كوايو وأتايو. كانوا يجلبون مرضاهم معهم، ولم أستطع تفقّدَ أحوالهم لوحدي، فتعاون معي أصحابي لمعاينة المرضى وعلاجهم على أفضل وجه ممكن. واعتمد كاستيو على ما يتذكره من تطبيب والده في شلمنقة، وأما دورانتس وكابيزا دي فاكا فيعرفان بعض الأدوية مما يحسنه الجنودُ من سنوات قتالهم في حروب الملك. وأما أنا فاستعنت بما تعلّمته في مدينتي أزمور، فأسقي الشاكي من ألم مفاصله منقوعَ الثوم البريّ، وأنظّف الجروح بدقيق لحاء شجر البلوط، وأداوي إمساك الأمعاء بنبات رِعي الحمام، وأصف الغرغرة بالماء المالح لمن اشتكى التهاب حلقه.

وإن تعرّضتْ لي علةٌ لا أدري ما هي أصغيت إلى شكوى المعتل أو المعتلّة، وواسيتهم بحكاية طويلة. فوالله لا يبتغي المريض شيئًا إلا الدواء الشافي، فإن لم يجد فعطفًا من لدن سامعٍ مدركٍ لعظم بلائه، وأملاً أن البرءَ قريب. وهذا شيء آخر تعلّمته في أسواق أزمور؛ أن الحكاية البديعة تشفي.

وكنت أخاف أن يحقد علينا بهوبري بسبب ذيوع خبرنا واشتهارنا، لكنه

كان ممن فرحوا بالأمر، فالقبائل التي كانت تفد إلينا تحضر معها عطايا كثيرة تُقسّم بين أهل أفافاري، لا سيما بين كبيرَيها الزعيم والشامان. فصار بهوبري يمدّني من معرفته الشيءَ الغزير. فمنه تعلّمتُ استعمال الأحجار الساخنة على الجسم، وشقّ الجلد المحيط بالجرح وإفراغ الدم منه، ونفخ الهواء الحار على الطرف المصاب. ولا يعني ذلك أن كل دواء أوتي ثمره، إنما نحمد الله أن من طبائع البشر تذكر الناجع من أدويتنا ونسيان الفاسد. فما استفاضتْ على ألسنةِ الناس والقبائل من حولنا إلا أنباءُ طبّنا النافع، فاشتهر صيتنا وغُفرت زلاتنا وأخطاؤنا.

وما انقضى الشتاء إلا كان أهل أفافاري يعدّوننا من أبنائهم ذوي الفضل والعرفان، ونسوا أننا غرباء رحالة لا يُطاق بقاؤهم. فما كانوا يطلبون منّا جمعَ الحطب ولا جلب الماء ولا غسل الجلود، ولا يسألوننا الخروج إلى الصيد معهم، لأن الناس يدفعون لنا ثمن العلاج بتقديم لحم الغزلان أو الأرانب. فلمّا تبدّلت معاملة أهل أفافاري لنا بدّلنا معاملتنا لهم، فما كنا نردُّ المريضَ قط، سواءً كانت علته عسيرةً أو يسيرةً، وكنا نصغي السمع إلى الحكايات التي يروونها ونحن حشود حول موقد النار عن أسلافهم وجيرانهم الصالح منهم والطالح، والأرواح التي تسكن دنياهم، وقصص عن أصلهم والمخاطر التي لقوها في حياتهم، والأغراب البيضان القتلة الذين يسرقون أبناءهم.

فإن سمع القشتاليون تلك القصص قالوا لهم إن الأغراب ليسوا سواء. فيجيب بهوبري: في ذلك صدقتم. فأنتم قد أتيتم من مطلع الشمس، وأولئك يأتون من مغربها. وأنتم تتكلمون بلساننا وألسنة جيراننا، وهم يتحدّثون بلسان أعجمي. وأنتم لا تملكون سلاحًا وهم يحملون الأسلحة ويركبون الدواب. وأنتم تداوون أهلنا وهم يسرقون أو يقتلون.

وإن كانت الأدوية الذي وصفناه لا تعالج كل من قَصَدَنا مريضًا فإنّي

أشهد أنها أحيت أربع أنفس؛ أنا وأصحابي القشتاليين. فصرنا نجول الأرض بلا خوف على حياتنا، وتوافر لدينا الطعام والشراب، وكان لنا في معيّة كل قوم مسكنٌ ورفقة، وعوملنا في كل مكان نحلّ فيه بالإكرام والطيبة. وكنتُ في ليلةٍ قاعدًا بجانب بهوبري، فلمحتُ في عينيّ بنته الفضولَ بدل الازدراء.

***

وكنت قد سلّمت بأمر وحدتي الأبدية التي أكرهني عليها منفاي وفاقتي، فلمّا ارتفعت مكانتي زادت فرصي في اتخاذ زوجةٍ. وكان قوم أفافاري يعاملونني كأحد رجالهم، فحين جبّرتُ أنا ودورانتس رجلَ فتى مكسورة، أمر تهاشا بتزويجنا أبكارًا من قبيلته. فرفض كابيزا دي فاكا المكلومُ بفقد زوجه وابنه، وقَبِلنا نحن الثلاثة. فتزوّج دورانتس بنت الزعيم وتُدعى تيكوتسين، وكانت طويلة الوجه رقيقة الشفتين ليست بذات جمالٍ بارع، وقد شغفها حب دورانتس مذ وقعتْ عيناها عليه. فكلُّ دواء يصنعه تراه معجزة، وكل أيلٍ صغير يتصيّده تشيعُ أنه فحل عظيم الجرم. ولم يجد فيها دورانتس زوجةً وفية فحسب بل ونصيرًا لا يحيد عن صفّه. وأما كاستيو فتزوّج كيوان صغرى بنات نائب تهاشا. وكانت كيوان آيةً في الحسن الفائق، وسبّب زواجها المباغت بعضَ النزاع، لعزم اثنين من شباب سوسولا خطبتها. وأما أنا فكنت أوفرهم حظًا لأني تزوّجت بنت بهوبري أويوماسوت.

ولم أكن ذا علم بالنساء وأحوالهن، ومنذ حللنا بلاد الهنود لم أتعامل معهن غالبًا. وبعد لقائنا القصير عند شجرة التوت لم أجرؤ على الحديث مع أويوماسوت عدا مرة أو اثنتين؛ لمّا جلستُ إلى جوار أبيها على طعام العشاء، وحينما جلبتُ له نعناعًا بريًا ليصنع علاجًا. ولعلّها وجدت فيّ ما يعجبها لأنها لم تعترض على الزواج. وكان في عينيها ذكاءٌ وقّاد يفزعني، فلمّا صارت حليلتي باهيت بها غيري، وإن لم يكن لي فضل فيه.

وحين كانت ليلة زفافنا حللتُ بأصابع راجفة عقدةَ ثوب أويوماسوت من عند كتفها، فوقفتْ إزائي غير متحرّجة من عري جسدها الفتّان. وخشيتُ أني لن أستطيع الحراك، وفؤادي يدقّ دقًا عنيفًا بين أضلعي. فوضعتْ كفها على خدي ومسحت بأطراف أصابعها وجهي. ولم أعرف أن لمسًا قد يكون بهذه الخفة والرقة، وسمعت لساني ينطق اسمها. فبلغت يدها الندبة التي على مؤخرة عنقي، فسألت: كيف أصبت بهذا؟

وكنت قد تعوّدت إغفالَ أجزاءٍ من قصة حياتي لكي أنجو، فهممت باختلاق كذبة أفسر بها ندبتي. لكن نظرتها كسّرت كل الأسوار المنيعة التي بنيتها، فكان حتمًا عليّ أن أبلغها الحقيقة لا أخفي منها شيئًا. وبينما أنا أحكي دسّت يدها في يدي وأجلستني بجوارها. ويمنع الحياءُ عبدَ الله كاتب هذا الكتاب من وصف وقائع تلك الليلة، لكن ما أودّ قوله هو أنها كانت بداية المسيرة في عمري الجديد، فلم أكن فيه وحيدًا ولا محرومًا. (وأعلم أنّ القشتاليين لم يذكروا زوجاتهم في السجل المشترك، وإنما حتّمت الأمانةُ عليّ ذكرَ كل ما جرى دون حذف).

وهكذا كانت بدايةُ حياتي الحقيقية في بلاد الهنود. وإنما كانت أمنيتي ورجائي حينما بعتُ نفسي، وحينما اتّبعتُ نارفاييز في الغابات وحينما سافرت في قاربٍ متهالك ذي أشرعة ممزقة أن أرجع إلى حياتي السابقة في أزمور، وأن أستفيق ببركات أمي وأبيت على صوت موج النهر من سطح بيتنا الآمن. ولكن القدرَ ظلّ يسوقني رغمًا عن أنفي تجاه مصير مختلف لا أجد سبيلاً للفرار منه أو الاحتيال عليه، حتى كانت تلك اللحظة التي سلّمت فيها أمري وأعلنت انهزامي، وهجرت أحلامَ الرجوع إلى ما كان. فعوّلت على النظر إلى الحاضر كما هو؛ وهو أنه الواقع الوحيد الذي أملكه. فاستحالت النقمة التي خلتها أصابتني إلى نعمةٍ، واسترجعتُ حرّيتي ونبذتُ وحدتي.

17

حكاية بلاد الذرة

وبينما أهل أفافاري يقوّضون خيامهم في الربيع برسم قصد الشرق، أقبل إلينا رسولٌ من قبيلة أرباداو محمّلاً بهدايا عظيمة ودعوة من زعيمهم. ولم أكن على سابق معرفة بقبيلته، لأنهم يسكنون في ناحية غاية البعد عن الأراضي التي نقطعها في أسفارنا الموسميّة. فعرضت عليه عودَ الدخان بينما أنا أجمع الزادَ لرحلتنا، واستعلمت منه عن الأمراض التي أصابت قومه حتى بعثوا بأحدهم يبحث عن أطباء في أقصى البلاد، فما وجدت فيما وصفه الرسولُ من طفحٍ في الجلد، وجروح السكاكين، وقرصات العناكب بالعاجل ولا بالغريب. ولمّا تكلّم الرجل كان صوته معتدلاً، وقد طرقت أذني لهجةُ الأمر في صوته، فارتأيت رفضَ دعوته.

بيد أنّي لمّا حدّثتُ أويوماسوت مغربَ ذلك اليوم عن أمرِ الرجل كفّت يدُها عن شحذِ رأس الحربة التي كانت تصنعُه لمّا دخلتُ عليها. وكانت قنّاصةً بارعة تصيب طريدتها وإن كانت على بعد عشر قِصاب[1] دون أن تخطئ، لولا أنّ شرائعَ القبيلة تحرّم عليها الخروج إلى الصيد. بل إنها تمنعها من صنع السلاح أو حمله. ولو أن امرأةً غيرها ارتكبت هذا الإثم لوقع عليها العقابُ، لكن الخطأ إن أتته أويوماسوت فهو يُحتمل، مثلما يحتمل قومٌ غرائبَ أفعالِ الصبيان والمجانين والناسكين.

سألتني: أصرفتَ الرجل؟

1- ما يساوي أربعة أمتار تقريبًا

فقلت: لا، لم أصرفه بعد. وكنّا جالسَين على فرو دبٍّ أسود أهدانيه أحدُ كبراء قبيلة مالياكون، بعد أن داويتُ وجعَ رقبته بمشروب أوراق الصفصاف المطحونة. والليلة حارّةٌ على غير العادة في هذا الموسم، وقد رفعتْ أويوماسوت ثوبها إلى ما فوق ركبتيها. فأخذتُ إحدى قدميها في يديّ، وفركتُ باطنها بإبهامي. وقلت أغيظها: قدماك صغيرتان.

ينبغي ألا تصرف الرجلَ.

لِمَ؟ وسحبت في رفق قدمها كي تلاصقني.

لأن قومه يحتاجون إليك.

لكن قبيلة أرباداو على بعد أربعة أيام سفرًا من موضعنا هذا. وإن رحلتُ إليهم وسافرتِ مع أهلك شرقًا فقد لا ألحق بكم إلا بعد شهور. ولا أطيق فراقكِ وقتًا طويلاً.

أسافر معك إذن.

لن تقبل أمكِ.

فسألتني أويوماسوت باسمةً وعيناها تتحداني: وماذا يهم إن قبلتْ أو أبت؟ ثم إن زعيم أرباداو رجلٌ قوي نافذٌ حكمه، ولا نطيق رفضَ أمره.

فقلت في نفسي: شاسعة واسعة هذه البلاد، وفيها من القبائل ما ترابطت بتحالفها. فإنّي إن رفضتُ دعوة قوم أرباداو فربما يحدث بينهم وبين أهل أفافاري نزاعٌ، وحقّ عليّ تعلم أصولهم وعاداتهم. فنحّت أويوماسوت رأس الحربة وعدّة شحذها، ثم غطّتها بحرصٍ بفرو جلد الأرنب، ثم سألتْ: وما رأى إخوتك؟

يود دورانتس وكابيزا دي فاكا الذهاب، لكن كاستيو لا يريد.

فتكلّم معه إذًا.

لقد عزم، ولن يتزحزح عن رأيه.

ألم تقل لي يومًا أنك تستطيع إقناع الحمامةِ أنها صقرًا؟

أيها القارئ الكريم؛ الحذر من الكلام الذي تقوله لحسناءَ توددًا، فإنه محفوظ لديها، وستُقذف به يومًا من حيث لا تدري. وقد خجلتُ من تفاخري بذاك القول، وإن كنتُ قلته قبل شهور عديدة، في أول أيام انضمامنا إلى الأفافاري، وكنتُ أحاول لفت انتباه أويوماسوت إليّ.

ثم قالت: ثم إنّ كيوان لن ترفض السفر.

فقلت: حسن. سوف أتكلّم مع كاستيو.

ثم مالت إليّ أخيرًا.

***

وسافرنا ناحية الغرب في بريّةٍ موحشة، لا تجد فيها إلا شجرَ اليكّه والحشائش وشجر التين الشوكي. وكان المسيرُ طويلاً عسيرًا وكدنا نتيه أكثر من مرة، لكنّ الرسولَ الذي بعثه أولئك القوم كان يقطع الغابة كأنه يمضي في شارع مرصوف في أي مدينة من مدن البربر. فإذا وقفنا في مكانٍ غير مأهول لا نرى من حولنا إلا الأرضَ متّصلةً ممتدة، نراه يتفحّص خميلةً أو نباتًا لحظات ثم يأمر بتغيير الطريق. حتى بلغنا معسكرَ الأرباداو بعد جهدٍ وطول مسير، وقد أقاموه في وسط براحٍ من الأرض الجافة، فلا ظلّةَ من الأشجار الباسقة تغطيها. فعرفتُ أنهم قومٌ لا يجد الخوف طريقًا إلى قلوبهم.

وكانوا لا يصيدون السمك على الإطلاق لبعد مقامهم عن الساحل. بل يتصيّدون الغزلان والطيور، ودابة ذات حوافر وقرون تشبه البقر،

ويستعملون جلودها في منازلهم أو يقايضون بها حلفاءهم. لكن أهل أرباداو قوم كثيرو الحروب مع القبائل المجاورة، ولهم بأسٌ شديد في القتال دونما رحمة، ولأجل هذا حذّرتني أويوماسوت من ردّ دعوتهم.

فأقام الزعيمُ واسمه بياست ليلةَ وصولنا وليمةً فاخرة عظيمة، وشُويت فيها أصنافٌ من لحوم الصيد في سفودٍ من خشب. وكان يدعونا إلى الأكل هاشًا وهو متربع، وبين الفينة والأخرى يُميل رأسه إلى أحدِ نوّابه ليسمع ما يقولون، ثم ينفرج فمه عن ابتسامة تظهر فيها أسنان منظومة كحبّات العقد. وعلى جسده ندوبٌ كثيرة متباينة الأحجام يتيقّن منها المرء أنها لم تصبه من عثرات في الغابة أو جروح رحلة صيد. فضاق صدري بالطعام الوافر وبالعزف والرقص، لأنّي لا أدري ما كان يريد منّا.

ونُصبت لنا خيمةٌ خاصة صباح اليوم التالي، وكانت رحيبة تتّسع كل المرضى الذين اجتمعوا لطلب العلاج. ورغم أنّنا كنا نفهم لسان قوم أرباداو، فإن كثيرًا من الألفاظ عندهم ما لا نفقهه ولا يشبه الألسن التي نتكلّمها، فاحتجنا إلى ترجمان بيننا وبين المريض عند تفقد أحواله. وأعلن صهر دورانتس، وهو فتى من الأفافاري يُدعى ساتوسول، أنه القائم بهذا العمل. وإنه أظنّه ما اكتفى بالترجمة فحسب، فكان الحاجب والمعاون والمدّاح المثني على براعتنا بين الناس، وقد أوتي قدرةً على استمالتهم.

وطلبت من شامان أرباداو الجلوسَ معي حين تلقّي المرضى، فيصيبه من النجاح ما يصيبني وتخفّ فداحةَ فشلي بمشاركته. وأقبل الناس من كل حدب وصوب مع البكور، ولم يقلّ عددهم مع تقدم النهار. فمنهم شيخٌ يشكو انتفاخ قدميه فنصحته بنقعهما في ماءٍ مالح. وفتاة تشكو السُعال فأعطيتها من زيت المكسرات الذي جلبناه، وأمرتها بشرب قطرات معدودات منه بعد كلِّ أكلة. ومنهم أمٌ أحضرت ابنها وقد قرصته الحشرات فأشرتُ عليها

بالمردقوش. وكانت أويوماسوت تترجم لهم وصفاتي، ثم صارت تنظمها في قوافي مسجوعة وجيزة، وما كنت أعلم أن لها هذه الملَكة. فكانت تقول: إنْ تعكّرَ مزاجكِ وسهرتِ والناسُ نيام، فاشربي يا عمّة من ماءِ زهرة الآلام. أو: أيها الصبيُّ مسدود الأنفْ، شاي القمويد يزيل الخنفْ. أو: خُذْ من ماءِ الصبّارِ ماءً، واسقه للرضيع المُسْهَلِ شفاءً.

فكان سجع العلاج على هذا النحو يساعد المرضى على تذكّره، وإن بدا لي، مع التقريظ والمدائح التي يشيعها ساتوسول عنّا، أن عيادتنا صارت فرجةً للناس بغرض تمتّعهم. فتذكّرتُ الطبيبَ الرحّالة الذي جاءنا في سوق أزمور قبل سنين. وكان ينصب خيمته السوداء العظيمة بالسوق كل يوم، فيقصّ القصص ويداوي المعتلّين، ويخدم الناس ويسرّي عنهم. فمع أنّي قطعتُ مسافاتٍ عظيمة عن بلاد البربر، فقد وجدت العادات نفسها في بلاد الذرة، فتآلفتْ معها نفسي وما استنكرتها.

وبينما أنا أعالج الناس فإذا ببياست يصرف الشامان ويجلس مكانه بجانبي، وقال: أود أن أجرّب. واحترت في ابتسامته، لا أعرف أتهزأ بي أم ترحب. فلمّا رفع قدمه وجعلها في حضني فزعتُ وكدت أهبّ من مقعدي. فرأيت على أصابعه ثآليلَ كثيرة صلبة داكنة. سألني: أتستطيع علاجها؟

ولم أعرف من أدوية والدتي ما يفيد في علاج الثآليل، لكنّي لّما كنت أعيش مع قبيلة إقواسي رأيت شاوبيكوان الشامان يداوي صبيًا أصابه هذا الداء. ففعلت ما فعله شاوبيكوان؛ ربطت خيوطًا من ليف اليكّه على كل إصبع، وقلت للزعيم واثقًا إن الثآليل ستسقط من تلقاء نفسها.

وقد نجح العلاج، فزالت الثآليل بعد ثلاثة أيام. ولم أندهش من شفائه لأني قد أبصرت بعينيّ أثر العلاج الصحيح في إنعاش روح العليل، إن كانت معه حكاية حسنة واستعراض مرضٍ. ودفع لي بياست ثمنًا لعلاجي حقيبةً

بديعة من جلد الغزال المطلي، وعقدًا من الفيروز، وثلاث أساور من عظم، وكلها من أجود الأصناف. فشاركتُ رفاقي العطايا كما شاركوني عطاياهم. وكان ذاك اتفاقنا منذ استهلالنا بهذا العمل؛ أن يكون كل ما نكسبه قسمةً بيننا.

***

وبينما نحن نحزم متاعنا برسم الرجوع إلى أهلنا، أقبل علينا بياست وأخبرنا أن قبيلة كواتشو بعثوا يطلبون منا الزيارة. وكنت قد طويت فروَ الدبّ الأسود أحاول إدخاله في حقيبة جلدية ملوّنة، وأويوماسوت بجواري تربط حزمةً فيها أواني الطبخ والصحاف، وتيكوتسين وكيوان تطويان الفرو الذي ننام عليه. وهبّت رياحٌ دافئة، فاهتزّ ثوبٌ مصنوع من الريش والعظم لبسوه في مراسم رقصٍ في الليلة الماضية، ثم علّقوه على قضيب في الساحة. سألت: ومن هم أهل كواتشو؟

فأجاب بياست: هم من حلفائي، وزعيمهم زوج أختي. فإن زرتموهم فهذا شرف عظيم لي ولهم.

ووضع يده على كتفي كأننا صديقان حميمان. ولمحت في عنقه ندبةً صغيرة تنبض كلما اندفع الدمُ في الوريد. فتساءلتُ في نفسي كيف أصيب بياست بهذا الجرح، وكيف نجا من الموت وهي في موضعها هذا؟ قلت له: لا أدري أين مساكن قبيلة كواتشو.

فردّ بياست باسمًا: يدلُّلنكم هؤلاء النسوة. وأشار إلى ثلاثةٍ جالسات القرفصاء على مبعدة منّا يراقبننا.

قلت: لا نحتاج دلائلَ. وكان اضطرابي متى كنتُ بمحضر بياست عظيمًا، فتشوّفت البعدَ عنه وعن خدمه. وأظنني كذلك ما كنتُ أريد السفرَ في رحلةٍ

طويلة بعيدة عن قومي. فقلتُ: سنجد معسكر كواتشو بأنفسنا.

ولم يرفض دورانتس ولا كابيزا دي فاكا فكرةَ السفر مرةً ثانية، لكن كاستيو لامني وقال: كان الأحرى أن تستشيرني.

فسألته: ألم ترَ نظرةَ بياست؟ كيف لي أن أرفض له طلبًا؟ وإن تعجّلتُ فإنما لأنّي لم أجد سبيلاً إلى الرفض.

وقد أنسانا الجدالُ التحققَ من الدرب، فلم نلبث إلا ساعتين حتى صرنا تائهين في أرض ذات رمال هي أقرب ما رأينا إلى صحراء في العالم الجديد، ولم نر أثرًا للماء فيها. فسرنا بقية النهار والظمأ والقلق يشغلان أذهاننا، حتى رأينا صقرًا في السماء فتبعنا طيرانه حتى وصلنا إلى نبع ماء.

ووجدنا نساء أرباداو الثلاثة متقرفصات عند النبع، كأنما انتقلن بالسحر من مساكن قبيلتهن إلى عين الماء. وقامت إحداهن، وكانت امرأة ضخمة على ذقنها وشوم، فملأت قِربنا وأخذت تلومنا، تقول: أما كان الأحرى أن تنتظرونا؟ وأنتم لا تعرفون هذه الأرض وقد تتوهون فيها. وظلّت تؤنّبنا حينًا، وتقول إننا لو تبعناهنّ لما ضاع وقتنا وضللنا الطريق. وعزمنا جميعًا أن نسلّم النسوةَ الثلاثة زمامَ الأمر فيدلُلننا إلى الطريق، بعد أن بلغ بنا النَّصَب مبلغه.

ووصلنا إلى قرية كواتشو وفيها من الأكواخ المسنّمة بالقصب نحو مئة، ومن ورائها الجبالُ المتصلة. وكانت القريةُ تقع في البرِّ الآخر من نهرٍ عريضٍ، فأصرّت النسوة الثلاثة على مجاوزته قبلنا، فيعلنّ لأهل كواتشو قدومَنا ويحدثنّهم عن أعاجيب طبنا. ولا بد أنهن ابتدعن من الكلام أحسنه وأجمله لأننا حينما جاوزنا النهرَ إلى الشاطئ الثاني لقينا جمعًا عظيمًا ينتظرنا. فظننا أنّ أهلَ القرية كلهم، سقيمهم وصحيحهم، وصغيرهم وكبيرهم، خرجوا

ينظرون إلى الأطباء الأعاجم. فسرنا إلى الساحة، والناس من حولنا يهتفون ويصيحون استبشارًا وسرورًا، وأُقيمت مأدبةٌ على شرفنا تلك الليلة.

ومن عادة شامانات كواتشو أن يحملوا خشاخيش مصنوعةً من قرعٍ يابس يملؤونه حجارةً صغيرة، فيستعملونها في كل مراسمِ المعالجة. ولم أكن قد رأيت القرع يابسًا على تلك الهيئة مذ رحلت عن أزمور، وحيث إنّنا لم نرَ بستانًا في تلك الناحية فسألت أولئك الشامانات من أين حصلوا عليها. فقالوا إنّ الآلهة ترسل إليهم القرعَ؛ فمرةً كل عام يفيض النهر العظيم، وتنجرف ثمار القرع وتستقر على شاطئيّ النهر. فارتأيت ألا أخبر رجال الطب أولئك أن ثمار القرع إنما سقطت من أعناقها واحتملها النهر، فهم يعدّون هذا القول تدنيسًا لما قُدّس، وأنت إن تفكّرتَ بالأمر ترى أن ثمار القرع والنهرَ وكلَّ شيء حولهما إنما هي من صنع المولى. وقبلتُ خشخاشًا قدّموه إليّ أعطيةً، فأضفته إلى الأعشاب الطبية والأدوات التي أحتملها معي أينما رحلت. وصارت المراسمُ التي أقيمها في العلاج أكثر إقناعًا للهنود.

وكانت قريةُ كواتشو أكبرَ من القرى التي زرناها في أسفار المداواة، فلقينا ما يربو عن الثمانين في انتظارنا. وأخذ دورانتس يشكو كثرةَ الشغل لا سيما أنّ بعض من يقصدنا من الهنود ما كانوا يشكون من أيّ علةٍ، بل يريدون لقاءَ الشامانات الأعاجم، أو التبرّكَ بهم أو سؤالهم. فقال دورانتس: إنهم لا يكفّون عن الكلام. ألا يخبرونني مما يشكون فحسب لا أكثر من ذلك؟

وكانت تلك الشكايات لا يُصرّح بها إلا بالقشتالية حينما نكون نحن الأربعة بمعزلٍ عن الهنود، خشية أن يسمعنا مضيفونا فيظنون بنا أسوأَ الظنون. وقد جمعتنا ظروفنا فوحّدتنا وآلفت بيننا، فكنا نتشاور في جميع أمورنا، ولا نتجادل في أمور الطب علنًا لأننا موقنون حقَّ اليقين أن راحتنا، كلا بل حريتنا، مرهونةٌ بنجاحنا. وصرت أثق بدورانتس وكابيزا دي فاكا

وكاستيو، وأعلم أنهم يثقون بي.

***

ولمّا قرب وقتُ رحيلنا عن كواتشو، بدأنا نعدّ العدّةَ أخيرًا للرجوع إلى أهلنا قبيلة أفافاري. فوقفنا على ضفة النهر نناقش أمرَ المراكب، وكم مركبًا نحتاج لاحتمالنا إلى البر الآخر ومعنا العطايا الوافرة التي تلقيناها. وكان ماء النهر داكنًا سريع الجريان، فلمّا التفتُّ إلى كابيزا دي فاكا وهممتُ بالكلام، رأيته ينظر إلى الماء مستغرقًا في التفكير. فسألته: ما يشغل بالك؟

أبلغني قوم كواتشو أن جيرانهم طلبوا أن نزورهم.

لكننا راجعون إلى أهلنا.

ولِمَ نعود؟

لا نريد الترحال طول العمر. نحن نعيش مع أهل أفافاري، وهم قبيلتنا الآن ومسكننا معهم. ومعنا زوجاتنا و...

ليس لي زوجة.

أتقصد أنك تودّ التنقلَ من قبيلة إلى قبيلة على هذا الحال؟

فأجاب كابيزا دي فاكا: وما الضير في حياة كهذه الحياة؟ فلا نشغل بالنا بالتكسّب، ولا نخاف على أنفسنا بين الهنود، ولا يسخرون منا ولا يهينوننا. وإن كان الثمنُ هو الترحال من قبيلةٍ إلى قبيلة كل بضعة أشهر فإنّي لا أراه إلا بخسًا.

سمع دورانتس حديثي مع كابيزا دي فاكا فأتى ووقف بيننا. قال: إنْ عدنا إلى أفافاري فسيوكلوننا بأشغال القبيلة إن عاجلاً أم آجلاً. أتريد الخروجَ للتصيّد؟ أم اشتقت إلى نغز التين الشوكي؟

والحقّ أني لم أشتقْ لهذه الأعمال، لكن الدهشة تملّكتني من اتفاقِ دورانتس وكابيزا دي فاكا على هذا الأمر. فسألت وقد أوجست منهما ريبةً: منذ متى وأنتما تتحدثان في هذا الأمر؟ وأشرت لكاستيو أن أُدن منّا وقلت: اسمع ما يقولانه، وأعدتِ عليه قول كابيزا دي فاكا. وكنتُ أحسب أنّ كاستيو يرفض الأمرَ مثلي، لكنه أمال رأسه مفكرًا وقال: مهما كانت القبيلة التي نعيش معها فإنهم سيرتحلون كل بضعة أسابيع. فإن رجعنا إلى أفافاري فمن يضمن أنهم لن يسأموا منا كما فعل مَن قبلهم؟ فإنه أحرى بنا في رأيي أن نرتحل بين القبائل ونداويهم.

وضعف عزمي إزاء حجّة الثلاثة، ولمّا أدركتْ زوجاتنا اجتماعنا وعلمن بسببه عرضن آراءهن. ووافقت تيكوتسين وكيوان زوجيهما فقالتا إنهما تريدان السفرَ إلى قبيلة أخرى، وإن كثرة الترحال يزيد معرفتنا ويضاعف عطايانا ويشهر صيتنا. ووافقهم ساتوسول في ذلك.

فسألته: لكن ألا تريد الرجوعَ إلى أهلك؟

نظر ساتوسول إلى قرية كواتشو من ورائي. وكان الصيّادون عائدين إلى القرية يحملون الغزلان والطيور، وزمرة من الفتيات يشعلن المواقد استعدادًا لمأدبة الوداع والرقص المقامة لأجلنا تلك الليلة. فقال وهو يشير بذراعيه إلى المشهد من ورائنا: انظر... إن أردتْ فستكون هذه حياتك كل ليلة.

وكانت حياة سعيدة، وأنا لا أنكر ذلك. فكنا نهوّن على الناس ونداوي المحتاجين، ونتمتع بالعطايا الكثيرة التي تُقدّم إلينا، ونحظى بالإجلال حيثما حللنا. وإن لم تفصح أويوماسوت عن رأيها فإنّي أعلم أنها كانت سعيدة خلال أشهر ترحالنا، فهي في المسير بعيدةٌ عن أمها فلا تسمع شكواها من غرابة أفعالها. أما أنا، فبعد أن ذقت شهد الشهرة المسكر شقّ عليّ نسيانه. فنهش الطمع، ذاك الوحش المفترس، آخر ما بقي من عزيمتي.

فلما دنا وقت رحيلنا عن القريةِ أعطى أهلُ كواتشو نساءَ أرباداو الثلاثة هدايا من جلود الغزلان، فعدن إلى قبيلتهن راضيات، ثم طلب أهلُ كواتشو أن نسمح لأحدٍ من أهلها أن يدلّنا إلى القرية التالية. فظهرت هذه العادة بين ليلة وضحاها ودون أن نعي. وكان في ذلك راحة وعبئًا؛ راحة لأننا لن نتعب في البحث عن نبع ماء ولا موضع نعسكر فيه ليلاً أثناء سفرنا، وعبئًا لأن هؤلاء الأدلاء يتشوّفون العطايا من القبيلة التي يقودوننا إليها.

***

وبينما نحن نتنقل بين القبائل على مدى الأسابيع التالية حاولنا منعَ هذه العادة، فكنا نقول للأدلّاء إننا لا نريدهم معنا. بل إننا سرينا ليلاً ذات مرة ولم نُبلغْ إلا جماعَتنا بأمر السُرى، لكن الأدلّاء تبعونا بعد أقلِ من نصف فرسخٍ من الموضع الذي عسكرنا به. وإنّي لأقطع القول الآن بأن ساتوسول كان يشجّع الأدلّاء على الظعن معنا، لأنه كان يرى أن الارتحالَ بالبلاد في جماعةٍ متعددة الأفراد يعظّمُ في الأنفس مقامَنا ويزيد عطايانا. وقد حاول دورانتس إرسال ساتوسول إلى قومه مراتٍ عديدة، لكنّ زوجته تيكوتسين تتوسط في كل مرةٍ، فتحمله على أن يبقي أخاها معنا. فلم نفلح في إيقاف هذه العادة.

لكن الفائدة الوحيدة التي جنيناها من هذه العادة الجديدة هي أن الناس يتلقّوننا في استقبال عظيم حيثما توجهنا، لأن الأدلّاء إذا سبقونا أذاعوا مكارمنا وفضلنا. وأصبحوا ينادوننا بأبناء الشمس، ويقصدون بهذا أننا غرباء أتينا بلادهم من الشرق. فكان أبناءُ الشمس يعالجون الثآليل، ويخيطون الجروح، ويولّدون النساء اللاتي يموت مواليدهن في المخاض. فأمدّنا الاسمُ مع مرور الأيام قوّةً عظمى، وميّزنا عن بقية الأطباء ورفع قدرنا. وكان الأدلّاءُ يبالغون في تقدير براعتنا، فيقولون إنّ أبناءَ الشمس أحيوا الميّتَ، أو إنهم أعادوا لامرأة عاجزةٍ القدرةَ على تحريك يديها. فلم يكن التبرؤ من تلك

الحكايات الملفّقة يسيرًا، وإن كنّا السببَ في انتشارها دون قصد.

وكَثُر الناسُ ممن يريدون الانضمام إلى جماعتنا الرحّالة، فنَمَت أعدادنا في عام واحد من اثنتي عشرة نفسًا إلى ألفٍ ومئتين. بل إنني أدركت يومًا أن أولئك المنضمين إلينا ما كانوا أدلّاءَ ولا مستطلعين، إنها موالون وتابعون. فاضطربت نفسي، وقد قلت لأويوماسوت صباح يومٍ: لن تكون عاقبةُ الأمر خيرًا وكل هؤلاء الناس يتبعوننا.

وكانت قد رجعتْ للتو من النهر، والماءُ يقطر من شعرها ووجهها. فتناولتُ ملحفًا من الملاحف المكوّمة عند المدخل ووضعته على كتفيها. فهزّت رأسها وقالت: أنت كثير القلق. ومن أذنيها تدلّى قرطان جديدان من الفيروز.

وكيف لي ألّا أقلق؟ إن الحال خطر.

بل إن الأمان يزيد متى ما كثر عددنا.

ولكن ألا ترين أنهم ينتظرون مني... شيئًا ما؟ وماذا سيفعلون إن لم أقدّمه لهم؟

ومتى لم تقدّم لهم ما يريدون؟ لن تعدمك الحيلة أبدًا.

وماذا أعطيهم؟ خبّريني.

متى ما أصغيت إلى الناس وهم يشكون أمراضهم فأنت تمنحهم الأملَ بالشفاء.

وأحسب أنّ الأمل هو ما يبتغيه التابعون، ولم أرد يومًا تابعين يحتذون بي. فسألتُ زوجتي: كم سيستمر هذا الأمر؟ بيد أنها لم تحر جوابًا.

والجواب هو أن الأمر استمرّ زمنًا طويلاً، نحو عام كامل.

***

وقطعنا في ذاك الصيف طرقًا في جبالٍ متصلة يكسوها خبث الحديد، ثم بلغنا نهرًا تنمو على شاطئيه أشجارٌ كثيفة من الصنوبر والمكسرات. فأبصرنا في الطرف الثاني من النهر شيئًا لم نره في كل سنيّ ترحالنا في هذه البلاد؛ رأينا منازلاً مشيّدة بطوب من طين منظومة في صفوف متّسقة، ويحوطها بساتين شاسعة مزروعة. وألقت الشمس نورها على حيطان البلدة فكانت مصفرّة، فامتزجت صفرتها بالبساتين الخضراء والشمس الزرقاء. فكانت تلك الصورة أقرب ما رأيتُ إلى مدينتي، واحتار قلبي ما بين التحرّق إلى وطني والانتماء إلى هذه الأرض.

وكانت تلك القرية التي بلغناها مساكن قبيلة تُسمّى هومانو. وكانوا يلبسون ثيابًا من القطن المصبوغ، ونعالاً مصنوعة من الجلد. أما مساكنهم فكانت فسيحة متينة البنيان، وقد وضعوا الطين جصًا على جدرانها، ولها أبواب جميلة. وكانوا يزرعون الذرة والفاصولياء والقرع، ويصيدون الغزلان والبقر ذات القرون وغيرها. ولم نُقِمْ مع أهل هومانو غير أسابيع معدودة لكنها كانت من أسعد أوقاتنا في هذه البلاد. وقد كان النوم في البيوت ترفًا لا يأتينا إلا فيما ندر، واتفاقُ الترفِ مع إكبارِ القوم لنا أحسبه قد أدخل الكِبرَ في نفوسنا. فكلُّ ما نطلبهم مجابٌ من فوره ودون اعتراض، فاجتمع عندنا من الجلود والتمائم والريش وأجراس النحاس الشيء الوفير، حتّى إننا اكترينا حمّالين يحملونها لمّا رحلنا عنهم.

ووصلنا في الخريف إلى سلسلة جبالٍ ثانية. غير أنّ الأدلّاء الذين انضمّوا إلينا كانوا يعرفون مسالكَ الجبال، فنصحونا بعبورها من ناحيةٍ جنوبية غربية لأنها أفضل الطرق. فقدمنا إلى وادٍ خصيب يزدان بالخضرة على الطرف الآخر من الجبال، ولاحت لنا مزارعُ مربّعة من ذرة وفاصولياء تحاذي

الواحدة الأخرى. وعلى خط الأفق رأينا بيوتًا ثابتة بناؤها بالطين والطوب، بل إن لبعضها طابقين أو ثلاثة، يرتقي المرءُ إليها بسلالم طويلة من خشب أُقيمت على حيطانها من الخارج.

وكان مسيرنا في هذا الوادي شهورًا، نقيم في كلِّ قريةٍ أيامًا نداوي أهلها. وزادت عطاياهم لنا بذخًا. وأتذكر أن زعيمًا من زعمائهم أهدانا ثلاثَ صُرَرٍ من الخرز والمرجان، واثنتين من الفيروز، وما لا أحصره من الجلودِ حتى اضطررنا إلى ترك بعضها. فلما أحجمتُ عن أخذها لكثرتها، قال إنّ عليّ قبولَ الهدايا بالشكر، وإنه هو سيجني كذلك عطايا حينما يدلّنا إلى القرية التي تلي قريتهم. فأحسستُ أنّي ورفاقي الثلاثة إنما نبني برجًا جميلاً ضعيف الأركان، فقد يُطيح بنا في أية لحظة.

وفي إحدى القرى التي عبرناها، دهس حشدٌ غفيرٌ من الناس المترقّبين وصولنا صبيًا، فكسرو ذراعَه اليمنى وساقه اليمنى. وكان دورانتس هو المختصّ بتجبير العظام، وقد رأى من العظامِ المكسورة عددًا لا بأس به في حروب الملك، فعالج الصبي. وصار هذا يرافق دورانتس كظلّه حيثما اتّجه، ينفّذ أوامره ويستقضي له حاجاته، وهو يعرج على رجله السليمة. ولمّا آنَ وقتُ رحيلنا أهدى أبو الصبي وكان تاجرًا إلى دورانتس خمسمئة قلب غزال. وكانت حسنة القَطْع، وقد فُصلت مداخلُ أوردتها ونُظّفت، ثم تُركتْ في الشمس لتنشف، حتى صارت أجرامًا سوداء صغيرة تقرقع في أشولة على ظهور الحمّالين. ولهذا السبب سمّى دورانتس تلك القرية إذا تحدّث عنها فيما بعد بكورازونيس.[1] وخطر لي بعد حين أن أصحابي القشتاليين رجعوا إلى عادتهم في تسمية الأماكن القديمة بأسماء جديدة.

1- أي قلوب

18
حكاية كولياكان

وكان النهارُ قد انتصف، والسماء صافية والجو بارد. وكنت مع كابيزا دي فاكا وستة من أتباعنا نجمع النبات ولحاء الشجر لأدويتنا. وأنا في مؤخرة الجماعة فلمحتْ عيني بريقًا. ليتني غضضتُ الطرف عنه. كانت قطعةَ زجاجٍ مندسّة بين شجيرات الصبّار. ولا أدري حتى هذا اليوم ما دفعني أن أنبّههم إليها. وأظنّ أن السبب هو عجبي من رؤية زجاج في الغابة، أو لعلّه التعجّل الذي حاول والدي المرحوم منذ سنين أن ينزعه من داخل نفسي بلا جدوى. فخرجتْ الكلمة من فمي قبل أن أحسِبَ عواقبها. قلتُ: انظروا.

جثا كابيزا دي فاكا على ركبتيه وأخرج الزجاجةَ من تحت الصبار. فنفذ نور الشمس منها ثم انقسم إلى ألوانٍ بديعة، وحين قلّبها بين أصابعه اختفى النور. قال: هذا زجاجٌ قشتاليّ.

فقلت: قد يكون مما تركه أحد تجّار الهنود. وكنا قد عثرنا على آثار محضر القشتاليين في الأرض قبل هذا، لكنها كانت كلها مما يقايضه الإسبان مع الهنود، مثل الخرز الذي يزّين الهنودُ به ثياب الجلد أو يستعملونه في صنع قلائدهم.

قال: ربما. ولمح في تلك اللحظة آثارَ أحذية فسار في أثرها كالمسحور. واختفت الآثار بعد مسافةٍ، ثم ظهرت عند سفح ربوة خضراء. واتّبعتُ كابيزا دي فاكا وأنا غير راضٍ عن بحثه، ومن خلفنا أتباعنا وقد أخذهم الفضول إلى التساؤل عن سبب هذا التحوّل عن الطريق.

فإذا كان بعد العصر، رأينا صفًا من خمسة فرسان يبرزون إزائنا، لا نكاد نتبين أشخاصهم في الأفق. وشاهدتُ اقترابهم منّا واتّضاح محياهم، وإن كانت أحاسيسي تجاه رؤيتهم ملتبسة. فكنتُ فرحًا وقلقًا، متشوّقًا ومتخوفًا، مرتاحًا ومنقبضًا في الحين نفسه، كأنما قلبي لا يدري بم يشعر. وعلى رأس الركب رجلٌ يرتدي خوذة ودرعًا وحذاءً ذا رقبة طويلة، وأما الأربعة الآخرون فيلبسون قمصانًا طويلة الأكمام وسراويل متسخة ونعالاً جلدية. فوقفوا على مبعدة منا ولم يدنُ منهم أحد، بل إنهم حدّقوا بنا فارغي الأفواه وقد أخذهم العجبُ كل مأخذ.

ومن يلومهم ولم يكن في مثل هيئاتنا هيئةٌ غريبةٌ. فكنت وكابيزا دي فاكا نرتدي فراءً ثخينة على أكتافنا لدرء البرد، وثيابًا من جلد تصل إلى ركبنا. فأما أنا فشعري مجموع في ضفائر واقعة إلى صدري، وفي أذنيّ أقراط من فيروز، وأحمل عصا مطليّة بالأحمر ومزيّنة بريش المقو الأحمر القاني. وأما كابيزا دي فاكا فشعره الأشقر أشعث لم تمسسه أسنانُ المشط، ولحيته طويلة بلغت سرّته، وقد تقلّد كيسًا يحتمل به الأعشابَ التي جمعناها. ومن حولنا أتباعنا الستة بأشكال تماثل مظهرينا.

كان كابيزا دي فاكا أول من قطع الصمت، فسأل أحدَ الفرسان الذي حسبه قائدهم: ما اسمك؟

فأجاب الرجل: باتريسيو توريس. ولم أتبيّن من لهجته أيَّ مدن قشتالة هي مسقط رأسه، لكني استشعرتُ من كلامه أنه رجل اعتاد إطاعة الأوامر.

وأي يوم هذا؟

الخامس من يناير.

إنما أسأل عن العام.

ألف وخمسمئة وستة وثلاثون.

فقال لي كابيزا دي فاكا: مضت ثمان سنين.

وكنّا بعد تحطّم مراكبنا في جزيرة الشؤم نحصي الأياَم بحساب اكتمال دورة القمر، بيد أنّ كثيرًا من القبائل التي عشنا معها كانت تحسب الزمنَ بمراقبة آثار تبدّل الفصول في حياتهم، مثل نضج الجذور، أو إثمار الفاكهة، أو هجرة سمك النهر، فامتثلنا بفعلهم. فكنّا لا ندرِ كم من الوقت مضى مذ أرسونا في لا فلوريدة.

فقلت: ثمان سنين... أمضى حقًا على بقائنا هنا ثمان سنين؟

ذاك ما قاله هذا الرجل توريس. فشعرتُ كأنني من أهل الكهف، وأنّي قد أفقت من السبات بعد ردح من الزمن في دنيا ثانية لا أعرفها. أين نحن الآن؟ أبَلَغنا ناحية بانكو أخيرًا أم أننا في أرض أبعد؟ وماذا جرى في العالم في غيبتنا؟ ما حلّ بأولئك الذين تركناهم؟ تزاحمتْ الأسئلة على شفتيّ فلم أعلم بأيها أبتدئ.

ثم سألَنا توريس: مَن أنتم؟!

فاستدار كابيزا دي فاكا إليه وأجاب: اسمي ألفار نونييز كابيزا دي فاكا. وكنتُ خازن حملة نارفاييز التي أرست في فلوريدة عام ١٥٢٨.

ففتح توريس فمه، لكنه عجز عن الكلام.

سأله كابيزا دي فاكا: أأنتم هنا مع جماعتكم؟

فأجاب توريس: عسكرنا على بعد نصف فرسخ من هذا الاتجاه. ثم أشار جنوبًا.

خذني إلى هناك.

سي سنيور. ومدّ توريس ذراعه إلى كابيزا دي فاكا فأردفه على فرسه، وتبعتُهم والرجال الستة راجلين. وحينما سألني أدلّائُنا الهنود عن مقصدنا أخبرتهم بما أعلم؛ أننا ذاهبون للقاء بعض القشتاليين. ولأن اضطرابي مع هذه الوقائع كان عظيمًا فلم أحسن أن أكون لهم إلا ترجمانًا. ورائحة الخيول التي غابت عنيّ زمنًا طويلاً تسقمني وتذكّرني بالمسيرة الطويلة في أحراش لا فلوريدة، وبأماكن وأحايين كنتُ أظنني تركتها في الماضي. ومشينا فتمازجت ظلالنا وذابت، ستة راكبون وسبعة راجلون.

وبلغنا مع غروب الشمس نهرًا اجتمع على شاطئه نحو اثني عشر قشتاليًا، فقاموا عند مرأى ركبنا الغريب. ثم تقدّم أحدهم وسأل توريس: ماذا جرى؟ ولم ينتظر من توريس إجابةً، بل التفت إلى الرجل الأبيض المتدثر بالفرو الراكب على الفرس وسأله: مَن أنت؟

فأجاب كابيزا دي فاكا: أنا خازن الملك الموّكل من جلالته المعظم في حملة نارفاييز.

وقد وقع اسم الملك على الرجل وقعًا عظيمًا كما أراد كابيزا دي فاكا. فأخفض الرجل عينيه، كأنما العاهل قد قطع عمقَ البحر وطول البرّ ليحظى منه بالإجلال اللازم. وكان للقائد القشتاليّ شعر غزير وحاجبان كثّان ولحية عظيمة شقراء، فأخذ يمسّدها فيما بدا لي تصنّعًا، لا قلقًا ولا اضطرابًا. فسأله كابيزا دي فاكا: ما اسمك؟

أنا دييغو دي ألكاراز، في خدمتك.

نزل كابيزا دي فاكا عن الفرس ووقف إلى جانبي. فقلتُ: قد مضى النهار. فلنعسكر هنا.

فسأل ألكاراز: ومَن هذا إِل نيغرو؟

هذا هو إستبانكو أحد الناجين من أفراد الحملة. ومعنا ناجيان آخران هما كابتن أندريس دورانتس وكابتن ألونزو ديل كاستيو.

عندها سألني أحدُ الأدلّاء الهنود عما يتحدث عنه الأبيضان. فلمّا أجبته بلسانه نظر إليّ العسكر القشتاليون في عجبٍ عظيم، كمثل العجب الذي رأيته على بني قومهم قبل ثمانية أعوام، متى ما رأوا أجناسَ البشر الغريبة التي تقطن العالم الجديد. وقرأتُ في نظرتهم أنهم لا يرونني رجلاً مثلهم، بل مخلوقًا عجيبًا لم يروه من قبل. ولم يمنعهم إلا الأدبُ من مدّ أيديهم للمسي، كي يتحققوا إن كنت من لحم أم خيال.

وضَافَنا ألكاراز تلك الليلة خبزَ البحارة. فتذوّقت مع كل قضمة طعم الماضي، بمرّه وحلاوته، طعمًا أذهلني وسافر بي ألوف الفراسخ إلى إشبيلية ثم إلى أزمور. آه يا أزمور. وكنتُ أحلم بالوصل مع العالم القديم، وتحرّقت من الشوق إلى هذه اللحظة، ودعوت الله أن يتحقق الحلم في كل حين، فلمّا قنطت وشئت بدءَ حياة جديدة في العالم الجديد، ظهر الجنود القشتاليون، كالجن من الفانوس.

ثم أنشأ كابيزا دي فاكا يحدّثهم بقصة وصولنا إلى لا فلوريدة، ووقائع ما جرى لنا في هذه البلاد. وكنا جميعًا قد روينا تلك الحكاية عشرات المرات لمن استضافنا من قبائل الهنود، لكن كابيزا دي فاكا حجب حقائقها في ذلك اليوم بقناعٍ جديد. فلم يكن هو في حكايته الغازي الذي انطلت عليه كذبةُ مملكة الذهب، بل نائب الحاكم في حملةٍ فاتحة اتّجهت إلى لا فلوريدة ثم أصابها النحس العظيم. ولم يكن له رأيٌ في أمر انفصال الأسطول إلى فرقتين في البر وفي المرسى، بل كان نارفاييز هو العدوّ الغافل الغرير. ولم يتّخذ زوجةً هندية، بل كان يتاجر مع قبيلتي شارّوكو وقويفن ثلاث سنين. ولم يعوّل على رفاقه للنجاة، بل أظهر أنه كان قائدُنا، والرجل الذي اقتفى آثارَ الأقدام من

قطعة الزجاج المكسور إلى معسكر القشتاليين.

حاولتُ جهدي ألا أحقد على كابيزا دي فاكا، وسوّغت في قلبي تحريفَه بعض وقائع رحلاتنا بأنه هو راويها، فلا غضاضة في إظهار البطولة فيها، وأن سامعيه جنودٌ، فهم يعلمون ماذا يعني أن تتلقى أوامر لا تقبلها ويجب عليك إنفاذها، وإن كان الثمن حياتك. كانوا يخافون وقوع البلاء من كل صوب في هذا العالم الجديد، فأرادوا أن يروا رجلاً ظلّ ثابتًا مع تقلبات الزمن وكثرة الغواية. وأرادوا أن يحتذوا بمَثَل الخازن الباسل الذي نجا فيما هلك به الآخرون، ثم قاد رجاله إلى بر الأمان. فأهالوا الثناءَ على الراوية ودعوا له، وملأوا كأسه نبيذًا.

ثم سأل كابيزا دي فاكا ألكاراز: أتدري ما جرى للسفن التي تركناها في لا فلوريدة؟

فأجاب ألكاراز: لا. لم أسمع عن حملتكم قبل اليوم. وقال إنه قَدِم إلى إسبانية الجديدة قبل ثلاثة أعوام، ولا يعرف رجالاً كثيرين ممن سافروا إليها قبله، ناهيك أن يعلم عن رجال ضاعوا في الغابة وتاهوا قبل سنين طويلة. ثم سأل: ورفيقاك، السيدان اللذان ذكرتهما، أتراهما في أمان حيثما هما الآن؟

فكان جواب كابيزا دي فاكا: نعم، لا خطر عليهما. وهما مع جماعة من الهنود كالذين تراهم معنا هنا.

وارتشف ألكاراز من كأسه المعدنيّة ثم قال: أصدقك القول فإننا لم نرَ هنودًا في هذه الأنحاء منذ ثلاثة أسابيع. بل إننا كنّا نتهيأ للرجوع إلى كولياكان في الصباح.

فقال كابيزا دي فاكا: ثمة ألوف من الهنود هنا. لكنهم فرّوا أو امتنعوا بالجبال.

وزدتُ قائلاً: لأنهم سمعوا روايات شنيعة عن الجنود.

فرمقني ألكاراز بنظرة غريبة وقال: لا أعلم ما سمعتموه منهم، لكني أراهن أنها هو كذب وتدليس. ثم التفت إلى كابيزا دي فاكا وقال: أما بشأنك رفيقيك السيدين فأنت تقول إنهما في أمان مع الهنود غير أننا سنبعث إليهما.

فنظرتُ إلى كابيزا دي فاكا ونظر إليّ، وكلانا يعلم أن الروايات التي بلغتنا عن استعباد الهنود صحيحة لكثرتها وتشابهها. ومع هذا فلم يشأ أن يخالف مضيفه أو يجادله، لأني لم أسمعه ينطق بكلمة واحدة.

***

ورجعنا مع مغرب اليوم التالي إلى القرية الهندية التي كنا نسكن فيها، أتباعي الهنود عن يميني، وباتريسيو توريس وعسكره عن شمالي. (وقد داهن ألكاراز كابيزا دي فاكا حتى رضي بالقعود بدعوى أن ثمة الكثير مما يجب التباحث فيه). وأنزل السحاب مطرًا غير غزير تغلغل الفرو الذي تدثرت به، فما أن دخلتُ ساحة القرية حتى كنت أرتجف من البرد. وسبّب ظهوري مع رجال بيض ملتحين هرجًا عظيمًا، فأحاط بي الرجال والنساء والأطفال يستقبلونني ويسألونني أسئلة كثيرة.

من هؤلاء الغرباء؟

أين أخوك؟

أجلبتَ لي لحاء البلوط؟

لماذا طال غيابكم؟

وشقّت أويوماسوت طريقها عبر الحشد. فلمّا وقعت عيناي عليها، ورأيت اللطف والذكاء في وجهها، علمت أن مآل الأمور خيرٌ. فأمسكتْ

يديّ يديها الدافئتين، وسكن قلبي وهدأ خاطري. قالت: قلقت لتأخرك.

ولم يكن من شيمها الحديث عن مشاعرها صراحةً أمام الناس، فقرّبتها إليّ ولم أرد إلا أن أكون معها وحدنا. قلت: لقينا هؤلاء الجنود. ثم أشرت إلى القشتاليين الشُعث.

ثم أتى دورانتس وكاستيو جريًا إلى الساحة يصيحان: أومبريس! غراثيس آديوس! ميرالوس![1]

وارتاح العساكر لرؤية رجلين من قومهم في تلك البلدة الهندية، فأخفض أحدهم بندقيته وعلّقها على كتفه. وتعانق القشتاليون وتعارفوا بأسمائهم، واستعلموا عن أنباء بلادهم وحياتهم. فمرّت ساعة أو اثنتين حتى جعلتُ الجنود يستقرّون في مسكنهم، واختليتُ بدورانتس وكاستيو.

فقال كاستيو: عجبي! كيف نرجع بعد كل هذه السنين! أمازال أبي حيًا يا ترى؟

وقال دورانتس: أكاد لا أصدّق. سنرجع إلى بلادنا! يا ليت أخي دييغو المسكين عاش فينجو معنا.

وعادت إليّ ذكرى آخر أيام دييغو على هذه الأرض، وثقل جسده بين أذرعنا وهو ينزف دمه في معسكر كارانكاهوا. فقلتُ: كان من خيرة الرجال.

فطرفت عينا دورانتس وقال: حقًا ما تقول. ثم تابع بصوت مكلوم: وسوف ترى إخوتك كذلك كما تنبأ.

وما زلت أتذكر ذلك الصباح في الزورق، يوم واساني دييغو بقوله إنّي سوف أرجع إلى أزمور يومًا. ومع أنّ دورانتس ظلّ صامتًا ذلك اليوم، لكن

1- أيها الرجال! الحمد لله! انظروا!

العشرة التي حصلت بيننا في ثمان سنين، والمخاطر والشقاء الذي عشناه معًا غيّرت الرابطة بيننا تمامًا. فصارت بيننا رفقة ما كانت لتقع في ذاك الزورق الخشبي. وصرنا نرجو الأمر نفسه: أن نقطع البحر إلى بلادنا، وأن نعود إلى من بقي من أهلنا، وأن ننسى نارفاييز وحملته.

***

واضطجعت تلك الليلة على فراش الفرو أصغي إلى الجنادب ونسيم الليل، وقد أسهدني التفكير. فرحلت في خاطري إلى إسبانية الجديدة، ثم إلى إشبيلية، ثم إلى بلاد البربر، حتى بلغت أزمور. مضت ثلاث عشرة سنة مذ أغلقتُ الباب الأزرق لآخر مرة، ومذ تحشرج اسمي في فم أمي. وما غابت عني صورتها قط؛ فما زلت أبصرها إلى هذا اليوم في ثوبها واقفة في مدخل الدار ومن ورائها النور. فوجدت أنّي على عتبة بداية جديدة، وحلم قديم قد يتحقق.

واستدرت إلى أويوماسوت فوجدتها تراقبني صامتةً. وكانت تضطجع على جنبها وشعرها الطويل مسدول حرٌّ يغطي كتفيها العاريين تحت اللحاف. فمسحتُ بيدي على ذراعها حتى وصلتُ إلى الشامة في عنقها. وقلت: حينما نذهب إلى إسبانية الجديدة سأشتري لكِ...

نذهب؟

فابتسمتُ وقلت: سوف نذهب معًا. أكنتِ تظنين أني ذاهب دونك؟

لم تسألني ما أريد.

انقبض قلبي، وسألتها: ألا تودين الرحيل معي؟

ليس هذا ما قصدت. قلت إنك لم تسألني.

فأبعدت شعرها عن كتفيها وقلت: أنا آسف. كان ينبغي أن أسأل.

فصمتتْ برهة ثم قالت: اشتقتَ إلى أزمور؟

فأجبت: نعم. وقد اعتدتُ التحرّق شوقًا إليها، حتى إني أشعر كمن تعلّم المشي بعد بتر ساقه. لكني الآن يا أويوماسوت أعرف أن الساق المبتورة ما زالت متّصلة بجسدي. وبلاد البربر ليست كغيرها من البلاد. وأهلها يرعون الغريب والمهاجر، أنا واثق أنكِ ستحبينهم. وهم قبائل كثيرة، ويتكلمون ألسنةً عديدة، ويعبدون الإله على طرائق مختلفة. وإن ترابها خصيب فلا يحصي المرءُ الثمارَ التي تنتجها. التوت والتين والخوخ والرمّان...

أيّها تلك التي تعصرونها فتخرج زيتًا؟

الزيتون. ويُؤكل نيئًا أو يُخلّل.

وأنا أدري أن روح أويوماسوت تتوق إلى المغامرة والسفر، ألا تراها قبلت بحياة التنقل هذه؟ وهي إن سافرت في هذه الرحلة فسوف ترى ناحيةً من العالم لم ترها من قبل. وأظنها كانت تترقب لقاءَ أهلي وزيارة مدينتي، ورؤية الناس والأماكن التي حكيت عنها وقلبي يهفو إليها. فتصوّرتُها تقف على سطح دارنا، تشاهد مغيب الشمس وراء أم الربيع، وهي صورة لم ترد في ذهني قبل ذاك، فملأت فؤادي حبورًا. وسوف نمشي في ظلال أسوار أزمور ذات الشرفات حتى نبلغ الميناء، أو لعلّها تريد الذهاب إلى السوق لنشاهد العازفين والعطّارين والرواة. وكيف سيكون حالها مع أمي؟ قد لا يفهمان بعضهما بادئ الأمر لكنهما سيتآلفان مع الوقت.

قالت: سوف أذهب معك.

فلمّا كان الصباح ظهرت المشكلات. فقد علمتْ القريةُ كلها بنبأ رحيلنا وأراد أتباعنا الذهاب معنا. فحادثناهم بلسانهم ورجوناهم الرجوع إلى

ديارهم، وقلنا إننا راجعون إلى ديارنا. فأطاعنا القليل وأبى الكثير، وأصرّوا أن يتّبعوا عادتهم فيأخذوننا إلى مقامنا الجديد. وفي الناحية الأخرى من الساحة كان أجناد ألكاراز يراقبوننا وأيديهم قابضة على أسلحتهم. فأذعنّا وقلنا لأنفسنا إنهم سيدخلون معسكر ألكاراز معنا، فإذا رأوا أن لا أحد يسبغ عليهم بعطايا ولا يكرمهم بولائم، فإنهم عائدون إلى أقوامهم. وهذا خطأ ندمنا، أو لعلّني ندمتُ أنا، عليه ما بقي من الحياة.

***

وكان سفرنا بطيئًا لكثرة الخلق في جماعتنا. ولمّا كان منهم الشيوخُ والأطفال فقد كثر توقفنا للاستراحة. وكانت معنا امرأة حبلى فوضعت في الطريق، فلم نبلغ معسكر القشتاليين إلا بعد ثلاثة أيام تامّة بلياليها. وذهل ألكاراز من أعدادنا، واستشرف من فوق جلمودٍ الجمعَ العظيم الذي شرع يعسكر حوله. أما الرجال فكانوا ينصبون الأوتاد في التراب اللين، ويتداولون المطارق بينهم، ويفرشون جلود الغزلان على قوائم خيامهم وهم يتضاحكون، وكلُّ رجل منهم، كمثل كل الرجال في العالم، يرمق جاره بطرف عينه خشية أن يُتِمَّ نصب بيته قبله. وأما النساء فيجمعن الحطب ويملأن جرارهن بماء النهر، ويغسلن العم المسنّ الذي أحدث في ثيابه في الطريق، ويهرسن الذرة لتحضير طعام العشاء، ويمررن أيديهن على لثّة رضيع يسنّ، وأعينهن لا تفارق أخويه. وأما الأطفال فكانوا يحفرون التراب ويتسابقون، ويسبحون في النهر ويرشون الماء على بعضهم، ثم يهرعون إلى أمهاتهم يتشاكون.

ثم نزل ألكاراز من فوق الجلمود كي يحيي دورانتس وكاستيو. وقد استبدل درعه الحديدي الذي كان يلبسه قبل أيام بقميص أبيض محزوم داخل سرواله، فترى مشبك الحزام يبرق في شمس الظهر. وسأل عن اسميّ

السيدين الكريمين، وإن كان يعلم اسميهما، فأجاباه وهزّ رأسه أدبًا، ثم قال: ذكر لي كابيزا دي فاكا أن معكما مئات الهنود، لكن الحقيقة هي إني لم أصدّقه حتى رأيت بأم عيني. ثم ابتسم وأجال النظر في المعسكر من خلفنا، ثم نظر مرةً أخرى إلى دورانتس وكاستيو فسألهما: لماذا يتبعونكم؟

فأجاب كابيزا دي فاكا: كما شرحت لك قبل هذا، إنهم يعدّوننا أطباء، فهم...

فقاطعه ألكاراز قائلاً: أعلم. لكنني أريد أن أسمع الإجابة من صاحبيك. أي قوة تملكونها على هؤلاء الهنود؟ لِمَ يفرّون منّا ولا يفرّون منكم؟ وإنّي أراهم يتبعونكم كأنهم... كأنهم موالين.

فلمّا همّ كاستيو بالكلام قبض دورانتس على مرفقه يسكته. ثم تكلّم دورانتس في حذر جليّ: إن أي قوة نمتلكها على الهنود فإنما هي من الإله تعالى. ونحن نرشم الصليب عليهم وندعو لهم بالصحة. وهذا كل ما نفعله ولا شيء غير ذلك. وهم يتبعوننا طوعًا لا كرهًا، لأننا لا ننوي لهم أي أذى.

حدج ألكاراز دورانتس نظرة قاسية، كأنه يرتاب فيه أو لا يصدّقه. فزمّ شفتيه ثم قال: لم نهيّئ أنفسنا للبقاء في الغابة مدّة طويلة، وقد نفد الخبز أمس، وما زال أمامنا تسعون فرسخًا حتى نصل إلى كولياكان.

فردّ دورانتس: لا تهتم بأمر الطعام. فالهنود يحملون زادهم، وإن نقصهم شيء، لحم كان أو فاكهة، فسيتدبرون أمرهم.

وقلت: ثم إن الهنود لن يأتوا معنا إلى كولياكان.

سأل ألكاراز: لم لا يأتون؟ ألم يتبعونكم إلى هنا؟ فسوف يتبعونكم إلى هناك.

فسألت: وماذا تنوي أن تفعل بهم؟

قال ألكاراز: سآخذهم إلى المدينة لا ريب. وهذه الأوامر التي أُعطيتُ.

فتدخّل كابيزا دي فاكا: قد قلت للقائد إن الهنود من جماعتنا طيّبون لا شرّ منهم، وإنه يمكنه إقناعهم بدخول النصرانية والاعتراف بسيادة الإمبراطورية دون استرقاقهم.

ردّ ألكاراز: وإنّي لأحسب أنكم عشتم مع هؤلاء المتوحشين أمدًا طويلاً حتى نسيتم مكرهم وسوءهم.

وقال كاستيو: كابتن ألكاراز. وعادت إلى صوته تلك الغنّة المعروفة. أنا أتّفق مع كابيزا دي فاكا. لم يتبعنا هؤلاء الهنود إلا لثقتهم بأننا لن نؤذيهم، فلا يحق لنا إكراههم على الرحيل إلى أي مكان.

ومَن قال إننا سنكرههم؟ إنهم يتبعونكم بملء إرادتهم حبًا.

فقال كاستيو: لكننا عاهدهم ألا يمسّهم الضر. وهم تابِعُونا إلى أول قرية هندية ندخلها ثم راجعون إلى ديارهم. ثم التفت إلى كابيزا دي فاكا وقال ضجرًا: أما شرحت له هذا؟

فأومأ كابيزا دي فاكا أي نعم، وأشاح بوجهه إلى المعسكر الذي أقامه الهنود وراءنا.

لكنّ كاستيو لم يكفف عن الجدال مع ألكاراز، فقال: لا نستطيع أخذهم إلى كولياكان وقد عاهدناهم ألا يُستعبدوا.

فضحك ألكاراز ثم أجاب: إذًا ما كان ينبغي لك يا كابتن أن تقطع بوعود لست مخوّلاً بقطعها.

وجرّ الجدال كلامًا طويلاً، ثم حاول كابيزا دي فاكا إغراءَ ألكاراز بما يخدم مصلحته. فقال للقائد إن الهنود هجروا هذه الأرض بأتمّها بعدما فرّوا

من الجنود، وإنّ أسرَ بضع مئات منهم لن ينفع حملات الاستعباد القادمة لاحقًا. فالأحرى إطلاق سراح هؤلاء، فتنشأ الثقة بين الإمبراطورية والهنود. لكن ألكاراز أجاب أنه جال هذا الإقليم مدّة طويلة يبحث عن عبيد، فلن يترك ثروة تفلت من بين يديه، وإنْ اقتنع بكلام السادة فإنّ واجبه هو إنفاذ الأوامر. ثم أنهى ألكاراز الجدال بأن قال: وإن حاولتم إبعاد هؤلاء الهنود فسأبلغ ألكالدي[1] بفعلكم.

فقال كابيزا دي فاكا: ألا تدري أنك مجرد قائد فرقة وأنك تخاطب الخازن الملكيّ الذي يعلوك رتبًا؟

فأجاب ألكاراز: أنت لا تفوقني رتبة هنا. ثم أمسك قائم سيفه وفعل اثنان من عسكره المثل، ثم رفع البقية البنادق والقربينات في استعدادٍ للمواجهة. وقال: أخبروا هنودكم أننا مغادرون عند الصباح.

فتكلّم دورانتس بعد سكوته الطويل: أرجوكم أن تخفضوا أسلحتكم. وكلنا سادة أشراف، وسنتفق على أمر يرضينا كلنا لا محالة.

وقال ألكاراز: قتل الهنودُ أخي قبل سنتين، وظللت شهرًا أبحث في هذه البرية عنهم، فلن يرضيني إلا الرجوع بالعبيد.

فقال كابيزا دي فاكا: لا بأس.. سوف نرجع معك. لكني أنبأك الآن أني سأتكلم مع ألكالدي بنفسي حال بلوغنا كولياكان، وسأوصيه على أن يحطّ من رتبتك.

فتركْنا ألكاراز حيث وقف ودخلنا معسكر الهنود، وعزمنا الحديث مع أتباعنا، بيد أن الجنود لحقوا بنا فما تسنّى لنا الاجتماع بهم. فتفرّقنا نحن الأربعة وأمرنا الأدلّاءَ بإبلاغ الهنود ألا يأتمنوا ألكاراز، وأننا لا نضمن

1- وتعني بالإسبانية العمدة أو آمر البلدة، وهي مشتقة من الكلمة العربية القاضي.

سلامتهم، وأن عليهم الرجوع إلى قبائلهم وقراهم حيث لا ضرر يطولهم.

ولكن معظم الهنود قالوا إنهم لن يتركونا، وإننا أبناء الشمس فنحن نحفظهم من كل أذى. وقد عشنا معهم زمنًا طويلاً ورعيناهم وأحسنّا إليهم، فلمّا أمرناهم ألا يتبعونا أصرّوا على إقامة العرف الذي وضعوه لأنفسهم.

***

ورحلنا في الغد إلى سان ميغيل دي كولياكان، فسرنا ثلاثين فرسخًا إلى الجنوب حتى وصلنا إلى نهر شاسع يقف في انتظارنا على شاطئه فرقةٌ عظيمة من الجند بأسلحتهم، نحو أربعين أو خمسين جنديًا. فرافقونا إلى البلدة، وكانت مستوطنة بعيدة في تخوم الإمبراطورية، ليست إلا حامية مغبرة وستة بيوت أُقيمت على عجل، يواجه الواحد منها الآخر عبر شارع واسع. وقد أُنشأت المستوطنة بقرب قرية هندية صغيرة رأينا مثلها الكثير في بلاد الذرة.

وخرج كل سكّان كولياكان يشاهدون الناجين الأربعة الذين سحروا مئات الهنود حتى جعلوهم أتباعًا. وكان ألكالدي واسمه ملشور دياز واقفًا في آخر الطريق في أحسن حلله القطنيّة الموشّاة. وهو أشيب الشعر عريض الوجه، من تلك الوجوه التي ينساها المرء، لولا شاربٌ غاية الطول عُقف طرفاه إلى الأعلى صوب عينيه. وقال: باسم حاكم نويفا غاليسيا يشرفني ويسعدني أن أرحّب بكم في سان ميغيل دي كولياكان. وأنا ورجالي وكل سكّان كولياكان طوع أمركم.

وبعد التحيّات سَألَنا دياز أيُّنا هو القائد، فتقدّم كابيزا دي فاكا وقال إنه أعلى الناجين رتبةً. وبالكلام المدبّج الذي يحسنه شكر للألكالدي جميلَ استقباله وكرم ضيافته. ثم حمد الرب أن منَّ عليه بالاهتداء إلى هذه المستوطنة من أراضي المملكة، حيث يتكلم أهلها لسانه ويتنعّم فيها برفقة

رجال متمدنين، وحيث يخدم فيها مولاه جلالة الملك مرة ثانية. ثم قال: وأود أن أسألكم العون في مسألة الهنود الذين أتوا بصحبتنا.

وبينما دياز ينصت إلى رواية كابيزا دي فاكا عن النزاع الذي وقع بيننا وبين قائده، كان يمسّد أطراف شاربه ويلفّها بإصبعه دوائر مقسومة. ثم هزّ رأسه مكفهرًّا وقال: أعتذر عما بدر من ألكاراز. وقد قلت لأهل المستوطنة إنّ الهنود هجروا نويفا غاليسيا، وأن لا معيشة لنا في هذه البلدة إن دأبوا على بيع الأرقاء في العاصمة، لأننا نحتاج إلى الهنود في هذا الإقليم لفلاحة الأرض. لكننا هنا في طرف الإمبراطورية القصي، فيبدو أن بعض الرجال قد فقدوا الحكمة التي هي ميزة عِرقهم، والأخلاق الحسنة التي هي سمة حضارتهم. فلا تشغلوا بالكم بهذه المسألة البتة، وسأتدبر الأمر من ساعتي.

فتقدّم ألكاراز هامًّا بالحديث، لكن دياز رفع كفه كأنه يقول إنه اكتفى من هذا الأمر. ثم أمر أحد عسكره باستصحابنا إلى دورنا، حيث الخدم في انتظار محضرنا.

فما كدنا نخرج من المجلس حتى قال كابيزا دي فاكا ظافرًا: كنت موقنًا أن ألكالدي سينصفنا.

غير أننا لما بلغنا منعطفًا في الطريق أبصرنا الجنود قد وضعوا أتباعنا الهنود جميعهم في موضع يشبه إسطبل الخيول من الناحية الأخرى من الحامية، وجعلوهم يقيمون الخيام على تلك الأرض. فقال كابيزا دي فاكا: لعلّهم لم يجدوا مساحة تكفيهم كلهم إلا هذه. وكانت تلك إجابة لسؤال لم يسأله أحد لكنه كان في أذهان الجميع.

ومررنا بجانب الإسطبل واتجهنا إلى القرية الهندية التي أقيمت عندها كولياكان حيث خُصّصت لنا بعض الدور. فوجدتُ أويوماسوت تفرغ

أمتعتنا، وتعدّ فراش القطن الخفيف الذي نستعمله في ليالي الصيف الدافئة. فما أن رأيتها حتى بحت لها بما كان من أمر جدالنا مع دياز بشأن جماعتنا. فأغلقتْ باب الدار في صمت واستندت إليه، كأنها تريد منع أحد من الدخول. ثم همستْ: أنصت إليّ. أنا لا أثق بهذا الزعيم. وينبغي أن ننذر الناس كي يرحلوا.

فهززت رأسي وقلت: لكنني أنذرتهم من قبل وأبوا إلا اللحاق بنا. ما كان ينبغي أن نسمح لهذه العادة أن تستمر. قلتُ لكِ هذا العام الماضي. قلتُ لكِ أن لا خير يأتي من اتّباع حشد عظيم من الناس لنا. وكان في كلامي لومٌ لم أستطع حجبه. والذنب الذي يفور في داخلي منذ أمد قد انفجر الآن، فحرقتْ حممه المتّقدة أقرب الناس إليّ، المرأة التي أحبها أكثر من نفسي.

وسمعنا صوت بوق من بعيد يعلن موعد العشاء في الحامية. ثم صوت حوافر حصان يجري، ونباح كلاب.

وأجابت أويوماسوت في هدوء: يأبى الناس الرحيل لأنهم لم يروا منك شرّا قط. ولكنهم قد يطيعون إنذارك لو تكلّمتُ معهم، وسوف آمرهم بالرحيل عن هذه البلدة.

وكيف ستكلّمينهم دون أن يعلم الجنود؟

فلمست ذراعي وقالت: سأكلّم النساء، وهن يبلغن الآخرين بالأمر.

فلتحذري.

وغادرت أويوماسوت الدار بلا تردد واختفت في الظلام، وهي مكلّفة بمهمة فشلتُ في إنجازها.

***

وأُستدعيت أنا ودورانتس وكاستيو وكابيزا دي فاكا إلى مكتب ألكالدي. وفي طريقنا إليه توقفنا لدى إسطبل الخيول لزيارة الهنود، فأخبرونا أن أسرتين أطاعتنا تحذير أويوماسوت فحاولتا الرحيل قبل شروق الشمس، لكن جنديًا أمسكهما وأعادهما إلى إسطبل الخيول. فكان هذا سببًا في وقوع الفزع والصخب بين الناس. فتلا كابيزا دي فاكا على مسامعهم العهود التي قطعها ألكالدي، ووعدهم أن يسأله لِمَ منع جنودُه الهنودَ من الرحيل.

واتّجهنا إلى مكتب ألكالدي، وحيّا دياز أصحابي الثلاثة كأنه يعرفهم من سنين طويلة. فقام عن مكتبه وعانقهم ثم أومأ نحوي للتحية. وقال: تلقيتُ خطابًا من نونيو دي غوزمان حاكم الإقليم. وهو شديد الشوق إلى لقائكم وسماع حكايتكم بنفسه. هل ارتحتم؟ متى يمكنكم الرحيل إلى العاصمة؟

فأجاب كابيزا دي فاكا: قريبًا، لكني أود أن أسألك عن الهنود. فقد علمتُ أن منهم من حاول الرحيل هذا الصباح. فلماذا منعهم عسكرك من ذلك؟

لا أعرف يا سنيور كابيزا دي فاكا. سوف أستعلم عن الأمر.

لكن عسكرك هم من ردّوهم عن الرحيل.

فإذًا ينبغي أن أستنطق العسكر أولاً. ولا ريب أنك تعلم مثلما أعلم أننا لن نعرف ما جرى إلا بعد سؤال العسكر. أم أنك تصدّق كلام الهنود وتكذّب رجالاً من قومك؟

ونظر كابيزا دي فاكا إلى ألكالدي في سخط شديد، لكنه هزّ رأسه وقال: نعم.. نعم. أرجو أن تستعلم النبأ من جنودك.

فعقد ألكالدي حاجبيه وسأل: أأنتم قلقون من مسألة استعباد الهنود؟ وأجال البصر بيننا كأن انعدام ثقتنا قد أغمّه. اعذروني يا سادة فقد نسيتُ

أنكم غبتم عن البلاد ثمان سنين. وأنكم لا تعلمون أن جلالته، بعد استشارة صاحب الفضيلة، قد حرّم استعباد الهنود في إسبانية الجديدة. فلا تقلقوا لأننا لن نخالف أمر الملك. بل اسمحوا لي أن أنبأكم بشائعة سمعتها. وهنا أخفض صوته حتى كاد يهمس. يُقال إن حاكمنا نونيو دي غوزمان الذي اشتهر اسمه هنا في الإقليم الجديد مغضوبٌ عليه بسبب معاملته الشنيعة للسكان الهنود. نحن على مشارف عهد جديد يا سادة. عهد جديد لهذه الإمبراطورية. ثم أسند ظهره إلى كرسيه ومسح طرفيّ شاربه في رضا تام.

وخطر لي خاطر ونحن في طريقنا إلى دورنا. فقلت: ينبغي أن نعرض على دياز شراء الهنود. فإن نال دياز المال فهو مطلقٌ سراح الهنود لا محالة. (وأحسب أنّي وقد رجعتُ إلى العالم القديم رميت وراء ظهري ما تعلّمتُه في العالم الجديد؛ أن الحرية لا تُعوّض بالذهب).

واستحسن الآخرون رأيي ووافقوني. فجمعنا نحن الأربعة كل ذي قيمة نملكه؛ خمسة أنصال أسهم من الزمرد، وعشر حقائب من أفخر الجلود، ولآلئ محّار في صرّة صغيرة، وأشياء أخرى أُهديت إلينا. وأخذها كابيزا دي فاكا إلى دياز في الغد، لكن ألكالدي قال إن قيمة الهنود أغلى من هذه الأشياء بكثير، ثم إنّ لا حاجة للهدايا لأن الهنود ليسوا عبيدًا ولسنا في حاجة إلى تحريرهم. وهذا هو الحديث مع دياز ينتهي دائمًا بوعود من وهم.

وبدأ الأكل من لحمٍ وذرة ينفد من الهنود في إسطبل الخيول، وباتوا يعتمدون في طعامهم على ما يعطيهم الجنود. وأصيب كثير منهم بالزكام والحمى. فمن يراهم يرأف لحالهم، إلا دياز الذي لم يرحمهم. وظلّ كابيزا دي فاكا يجادله في أمرهم أسبوعين، فكان ذاك ما ينفكّ عن التأكيد بأن الهنود أحرار وأنهم سيلقون معاملة حسنة. ثم بعث إلينا يقول إن مكوثنا في كولياكان قد طال، وتسويفنا قد زاد، وإن حاكم نويفا غاليسيا ينتظرنا.

19

حكاية كومبوستيلا

لم تكن كومبوستيلا الحاضرةَ الممتدةَ التي تصوّرناها من حديث ملشور دياز، ففيها كنيسة وسجن وحمّام، وفيها ثكنة للجند وأربعون بيتًا لم يتم بناء بعضها. إلا أن أرصفتها ممسوحة، وتسير العربات التي تجرّها الخيول في طرقها، وهذه براهين على مشارفتها النمو في الزراعة والتجارة. وقادنا الفرسانُ العشرة الذين رافقونا إلى المدينة تجاه دار الحاكم، حيث وجدنا في انتظارنا رقيبًا وجنوده، واقفين في ظل الصليب الخشبي الضخم المثبّت في واجهتها. وكان الرقيب يضع طاقية ذات ريش، ويرتدي قميصًا ثقيلاً بأكمام طويلة وسروالاً شديد البياض رغم حمأة الهجير. فحيّانا قائلاً: بيانفنيدو.[1]

وأخبرنا الرقيبُ أن الحاكم نونيو دي غوزمان قد خرج في أمرٍ طارئ، ولكنه سيُسعد بأن نقبل دعوته إلى العشاء تلك الليلة. وكذلك أمَرَ الحاكم بإعداد دور ضيافة مريحة لنا، فأُنزل دورانتس وكاستيو وكابيزا دي فاكا في عزبة قائد اسمه فلوريس، وأما ساتوسول وكيوان وتيكوتسين وأويوماسوت فجُمعوا معًا في ثكنة الجيش، وأما أنا فنزلت ضيفًا لدى الرقيب الذي استقبلنا.

ومشيتُ وراء القائد في الطريق الرئيسي في المدينة حتى بلغنا منزلاً صغيرًا حسن البناء، جدرانه بيضاء بالجير وسقفه من الطوب الأحمر. وفي فناء المنزل الداخلي فوّارةُ ماءٍ كتلك التي في بيت برناردو رودريغيز في إشبيلية. وإنّي

1- مرحبًا بكم

لأكاد أسمع صيحات إيزابيل وهي تطارد سانشو ومارتين حولها قبل سنين، تحاول شد أطراف قميصيهما، ثم تصيح فرحةً بفوزها وأن عليهما مطاردتها. فضاق صدري بهذه الذكرى، واختنقت أنفاسي من قيظ الحجرة التي كنتُ فيها. حاولت فتح الشبّاك ما استطعت، ثم رأيت أن مشبكه قد علاه الصدأ منذ أمد طويل فعلق في مكانه. واستلقيت على السرير فوجدت الفراش وثيرًا، فعزمت النوم على بلاط الأرض. فأما المخدة فهي رفاهية نسيت ملمسها، وتساءلت كيف سيعرف عنقي النوم ثانية عليها.

ومكثتُ قليلاً في بيت الرقيب، ثم انصرفت لرؤية أويوماسوت في الثكنة العسكرية. ولما دنوت من المكان رفع الحارس بندقيته، فحين رأى أنه أنا أخفضها. ولم يكن مسكنُ النساء سوى مخزنًا كبيرًا للطعام يسمع القاعد فيه قرقعة الحلل والأواني في المطبخ، وما كان فيه أسرّة ولا شبابيك. لكني رأيت أنهن أعددن لأنفسهن موضعًا في زواياه دون تبرّم. إلا ساتوسول فلم يكن راضيًا، فقد عاجلني بالسؤال قبل أن أحييه حتى، فقال: لماذا أنزلوني هاهنا؟

فقلت: نحن ضيوفهم، وعلينا أن نرضى بأي مسكن ينزلوننا فيه.

فلوى شفتيه وأشاح بوجهه ينظر من الباب المفتوح إلى جهة الثكنة. وكان ثمة هنود يلبسون قمصانًا من جلد الغزال وسراويل من قطن، وهم واقفون يحادثون الحرّاس في ودٍ. وكانت الشمس في ذلك الحين قد شرعت في رحلة الأفول تجاه الغرب، فألقت بروج المراقبة ظلالاً طويلة داكنة على الأرض.

فالتفتُّ إلى أويوماسوت وسألتها: كيف حالكِ؟

فقالت: متعبة.

ولم يكن من طبيعتها الشكوى، فتفرّست في وجهها أفتّش عن أمارات المرض، لكني لم أجد إلا الإرهاقَ والقلقَ. وتمنيت لو أننا كنا وحدنا فلا

يسمع الآخرون حديثنا. وددت أن أخبرها أن الرحلة طويلة وفيها من التعب الشيء العظيم، لكن مآلنا بلوغ مقصدنا وموطننا عاجلاً. قلت: إن أردتِ أعددتُ لكِ من إكليل الجبل شرابًا، لعلّه يريح أعصابك.

فسألتني: لِمَ لا أسكن معك؟

نهى غوزمان عن ذلك. منعنا جميعًا من إبقاء زوجاتنا في مساكننا. والعادات هنا لا تشبه غيرها.

فنكست رأسها تنظر إلى الملاحف التي تطويها، وكانت عطيّة من هنود بلاد الذرة، من قطن حسن النسيج، ذات رسوم بديعة تروي قصة ناسجيها، سواءً كانت حقيقية أم متخيّلة. حكايات أسلاف قطعوا البحر المظلم، واستقروا في هذه القارّة؛ فحطّ بعضهم الرحالَ في هذه الأرض، وسيّرت ألحانُها آخرين فتبعوها أينما اتّجهت. ثم قالت أويوماسوت: قد يرضى هذا الزعيم بالهدايا التي رفضها الزعيم الآخر.

سوف نعرضها عليه.

أليس هذا أقوى من الآخر؟

بلى، إن غوزمان أعلى سلطة من دياز. إنه حاكم هذه الإقليم كلّه.

فيستطيع إذًا إطلاق سراح الذين تركناهم؟

قلت: يستطيع، ولكني لا أدري إن كان يريد إعتاقهم.

ولِمَ لا يسمع مشورتك؟

فانخفض صوتي وأنا أجيبها: عاداتهم هنا مختلفة.

ونظرت إليّ أويوماسوت في هلع. فمنذ أن عرفتني وهي ترى في يدي سلطةً عظيمة، وهي سلطةٌ تأتي لمن امتلك أسرارَ العلاج، فأنّى تحدثتُ

أنصتَ الجميع. لكن كلماتي هنا، في إسبانية الجديدة، لا تفرض سطوةً على أحد، والظاهر أن كلمات رفاقي لا سطوة لها أيضًا، لأن لا أحد منهم استطاع فك رقاب الهنود. كنّا نداوي آلام الناس، فصرنا نلتمس ونتوسل، وللحاكم أن يسمعنا ثم يرفض طلبنا.

وقلت لأويوماسوت: سوف نتكلم مع غوزمان. ولن نستسلم.

وبعد دقائق معدودات أتى رفاقي الثلاثة. ولم يكن المنزل الذي أُنزلوا فيه ببعيد عن الثكنة، فكان لدورانتس وكاستيو أن يزورا زوجتيهما أنّى شاءا. وأخبرنا كابيزا دي فاكا وهو يستند إلى عضادة الباب أنّ غوزمان مرسلٌ طعامًا للنسوة، لكنه دعانا نحن الأربعة إلى طعام العشاء بعد صلاة الغروب. ثم قال وهو يبتسم ابتسامة سخرية: ويريدنا أن نستحمّ قبل ذلك.

***

دخلنا إلى الحمّام فوجدنا الخدمَ في انتظارنا، والأحواض ملآنة، ونار الكانون تضطرم. فنزعنا عنّا المآزر والسلاسل والخلاخيل والتمائم، ثم غطسنا في الأحواض. والحمد لكَ إلهي على نعمةِ أحواض الحديد. غمرني الماء الساخن في ثوانٍ، فجرّني في غياهب البلادة والتراخي، لكنني لمّا أغمضت عينيّ رأيت مئات الهنود محشورين في الإسطبل في كولياكان، كأنهم خراف في ليلة عيد الأضحى. لو أنّي سكتُّ عن قطعة الزجاج التي عثرت عليها في البريّة لكان الهنود أحرارًا. أكنتُ السبب فيما جرى لهم؟ وإن لم أكن أنا من حبسهم؟ أأحرّك يومًا إصبعًا دون أن ألحق أذى ببشر؟ وما مكانتي أنا في كل ذا؟ ما كان الحاكم لينزل رجلاً أسيرًا في منزل قائده، ولكن أيُفرّق بين رجل حرٍّ وصحبه الأحرار؟ فمن أكون إذًا في إسبانية الجديدة؟

فتحت عينيّ، وما كادتا تتبنان وجوه رفاقي القشتاليين في ظلام الحمام

والبخار المتصاعد من الأحواض. رأيت في الحوض الذي بجانبي دورانتس وهو يرشّ الماء على جسده ويصيح كصبي: ربّاه! يا للنعيم! وطفقتُ أفرك جلدي بالصابون القشتالي، وعيناي لا تبرحان دورانتس، كما تعلّمت أن أفعل على السفينة التي حملتنا عبر بحر الظلمات. وكنت أحاول أن أتنبأ بما ينوي، وإن كنتُ أعلم أن لا منفعة تعود عليّ بهذا، لكن لم يكن لديّ ما أفعله غير التخمين. وقد اتّكل واحدنا على الآخر غالبًا في الثماني سنوات، فاستصعبت عودتنا إلى ما كنّا عليه من قبلها. فهل سيكتبه شرعًا وقانونًا علنًا هنا في إسبانية الجديدة ما كان واضحًا ضمنًا هناك في بلاد الهنود؟

التحفت بفوطة وشربت عصير برتقال من ثمر بستان إسبانيّ هنا في كومبوستيلا، خلّف طعمه أثرًا في فمي بقي حتى بعد أن فرغت من كأسي. وكان في انتظارنا حلّاق يمسك في يدٍ مقصًا قصير النصلين، والأخرى ترتاح على ظهر كرسي عالٍ. وشاهدت دورانتس يتحوّل إلى رجل آخر وهو على كرسيّ الحلاق، فقد قصّ ضفائره، وأخذ من لحيته، ودهن شعره بالزيت المعطّر، حتى صار كبقية الأسبان في هذه المدينة، ما خلا لونَ بشرته التي كانت بلون اللوز المحمّص.

ثم جاء دوري. فتبعثرت على الأرض خصل طويلة من شعري المفلفل بمقص الحلاق، لكنّي استشعرت ثقلاً عظيمًا يكتم صدري. ولا أجد لوصفه سبيلاً، وإنما أقرب ما أصفه به هو كمن يرتفع من الغطس فيلفى نفسه في عتمة الضباب. ورفع دورانتس مرآةً كي أرى نفسي، فأبصرتُ رجلاً غريبًا، يشبهني لكنه أسنّ، ولا يرتدي تحفّظه درعًا يقيه كما فعلتُ في الأعوام الخوالي.

وجُلبت إلينا ثيابنا؛ قمصان داخلية، وسراويل، وصدريات، وعباءات، ونعال، ومناديل. وأخبرنا الخادم أنها من خزانة الحاكم غوزمان الخاصة. فأثار القماش المزغبر في بشرتي حكّة، وضاقت ساقا السروال عليّ، فكنت

أمشي في باحة الحمام مشية غريبة غير مريحة. حتى دورانتس اشتكى من ضيق القميص على صدره ثم خلعه، لولا أن الخادم تنحنح ثم قال: إن أوامر الحاكم واضحة أيها السادة. لا يُسمح لكم بالسير في شوارع كومبوستيلا عراة.

***

وكانت حجرة الطعام في منزل الحاكم مظلمة خانقة، لا يضيئها إلا نورُ شمعدانين على طرفين قصيين من مائدة طويلة، لكن الحاكم كان يجول في الحجرة في يسر، وهو يشير إلى كل لوحة مصوّرة عُلّقت على الحائط ويحكي لنا لطائفها. فأنشأ يقول: هذه صورة لميلاد المسيح على الطريقة الإيطالية، وإني لأحبّ تباينَ الضوء والظلال الذي أبدعه الرسّام. وهذه صورة الملك، أتعلمون أني كنتُ يومًا حارسه؟ لكن هذا كان منذ سنوات طويلة حين كنتُ شابًا. أما هذه المطرّزة فكانت من غنائم حملة المكسيك، بل إنها كانت معلّقة في قصر موكتيزوما. اجلسوا يا سادة.. اجلسوا.

ثم دعا غوزمان بالطعام بإشارة من رأسه لخدمه، فقدّموا أصناف الخضار المتنوعة والدجاج المشويّ، والخبز الذي نسينا طعمه في سنين لم نرَ فيها قمحًا. فرفع كأسه يشرب نخب سلامتنا، نحن الناجون الأربعة من حملة نارفاييز، ويحمد الإله على عودتنا المعجزة، ويرحّب بنا ثانية في إقليم نويفا غاليسيا. ثم سأل: أخبروني، أصحيح أن الهنود يتبعونكم أينما ذهبتم؟

فأجاب كابيزا دي فاكا: الأمر ليس على هذا النحو يا دون نونيو. فقد عشنا معهم ردحًا طويلاً، نلبس ما يلبسون، ونأكل ما يأكلون، ونتحدث كما يتحدثون حتى نلنا ثقتهم. وكنّا بفضل عظيم من الربّ ننفعهم في أمور يسيرة فيراها الهنود خارقة للعادة. فصارت عادتهم أن ترافقنا كل قبيلة إلى مساكن القبيلة الأخرى. وكنا نعيش بينهم في سلام. وإنّي أرى يا دون نونيو أن هؤلاء القوم يقبلون الدخول في المملكة دون قتال.

أصحيح ما تقول؟ وما أسماء هذه القبائل؟

إنها قبائل كثيرة. وقد خالطنا قبيلة أفافاري أكثر من غيرها، وهم قوم صيّادون للسمك يهاجرون مع المواسم التي تثمر فيها المكسرات والتين الشوكي. ثم زرنا مالياكون وسوسولا وكوايو، وقبيلتين أخريين تدعوان أرباداو وكلتالشولش. وهؤلاء جميعهم قبائل رحّل، لكننا لمّا جاوزنا الجبال رأينا قبائل مستقرّة لها مساكن دائمة، ومنهم قبيلتيّ كوشندادو وهومانو. وكل الهنود دون استثناء بارعون في الرماية، وإن كانوا لا يجابهون أصغر سرية من جيشنا. ولهذا فأنا أصر على رأيي بأن إقامة مستوطنات إسبانية أمر وارد بالسلم والمهادنة، لا بالقتال.

فتحدث كاستيو بصوته العالي، ووجهه متورّد من أثر النبيذ المسكر فقال: وأنا أوافقه الرأي. والقبائل التي تعيش في الجانب الآخر من الجبال تسكن في بيوت محكمة البناء، ويبتّون في شؤونهم بالشورى. ولهذا فإنّي أرى صواب رأي كابيزا دي فاكا فيما يخصّ دعوتهم بالسلم.

وكان رفاقي يرمون لإقناع الحاكم أن الغزو السلمي أمر وارد الحدوث، بيد أنّي أعلم مما شهدت في حياتي عكس ذلك. ألم يكن غزو أزمور قد وقع دون دماء مسكوبة؟ ومع هذا فإن النتيجة كانت كربًا عظيمًا على أهلها، كأنما المدافع قد أُطلقت عليهم. فلم أطق السكوت. وقلت: إن الهنود كمثل بقية البشر في هذا العالم. يولدون ويموتون، وفيما بين الولادة والموت يعيشون الحياة كما تمليه عليهم أعرافهم وشرائعهم، ويعبدون الرب على طريقتهم، ويسعدون بتربية أولادهم، ولمّا تحين المنيّة فإنهم يحزنون على فراق أحبابهم. وهم لا يسعون إلى قتال، لكنهم لا يولّون أدبارهم إذا ما نشبت حرب. ومنتهى آمالهم هو أن يعيشوا حياتهم في سلام.

فقال غوزمان: أجل. أجل. ولكن أيملكون من أصناف المعادن شيئًا؟

وكان دورانتس هو من أجاب الحاكم، فقال: لدى قبيلة هومانو أجراسًا من نحاس. وهي صغيرة لكنها حسنة الصنع، ومنحوتة على هيئة وجه الإنسان.

وانبرى كاستيو مضيفًا: لكنها قليلة، وغالب الظن أن منشأها هو الجنوب. والحق أننا لم نرَ أي معادن، ولم يكن عند هنود الشمال مناجم ولا ذهب ولا فضة. وكانت القبائل التي عشنا معها فقيرة.

حسنٌ. أتستطيعون رسم خريطة للإقليم؟

سكت كل من كان حول الطاولة.

فأجال الحاكم بصره في دهشة. ثم سأل: أقلتُ ما يسيء إلى أحد؟ لِمَ سكت الجميع؟

وسأل كابيزا دي فاكا: لأي شيء تريد خريطة؟

أنا حاكم نويفا غاليسيا. ومن واجبي أن أعرف الأراضي التي ولّاني الملك عليها.

فقال كابيزا دي فاكا: يا دون نونيو، إن حدود نويفا غاليسيا تنتهي عند بداية الجبال. والقبائل تعيش على الطرف الآخر من تلك الجبال.

فابتسم الحاكم وهو يقول: إن كل تلك الأراضي ملك للإمبراطورية، وأنا مندوب التاج الملكي هنا. فواجبي هو أن أقضي على كل المتوحشين الذين يهددون أمن إقليمنا.

قال كابيزا دي فاكا: ولكن هذا هو ما كنت أقوله منذ البداية؛ لا خطر من الهنود البتة. ويمكن إغوائهم للدخول في ديننا دون قتال. إنهم قوم طيّبون مسالمون.

ورأيت أن يديه تقبضان ذراعيّ الكرسي حتى ابيضّت مفاصلهما. وتذكرت أنه، منذ أعوام بعيدة، آثر أن يجلب معه دواوين الشعر في مسيرتنا الطويلة إلى الأبلاتشي؛ إنه رجل يظن أن مفتاح الرجال هو شهامتهم وسمو أخلاقهم.

فكان رد غوزمان: لن تجدوا أيها السادة الأكارم رجلاً، ولو كان من أرحم الناس بحال الهنود، ينكر أنهم يقتلون مواليدهم، ويعاملون نساءهم كالوحوش، ويأتون اللواط، ويعبدون الحجر. فإن شئتَ الدفاع عنهم لأسباب يستعصي علينا فهمها فافعل، ولكني أرى أن ادّعاءك أنهم أناس مسالمون طيّبون حجةً لا نقبلها أبدًا. ثم نهض وسألنا أن نلحق به إلى المجلس.

وكنّا نأمل أن نحدّثه بأمر الهنود الذين تركناهم في كولياكان خصوصًا، لا بأمر القبائل الهندية في الشمال عمومًا، ولكن تبين لنا الآن أن لا فائدة ترجى من الكلام في هذه الأمور مع غوزمان، وقد رأينا منه للأسف غلظة وعنتًا لا يلينهما عذب الكلام.

وأُجبرت على إعادة الحديث على أذن أويوماسوت في تلك الليلة، لمّا زرتها في مخزن الثكنة. فقلت لها: تحدثنا مع غوزمان عن جماعتنا. وخرجت الكلمات من فمي بمشقة، يتخللها صمت طويل وتأتأة وتردد. ورأيت أثناء حديثي الرجاء على وجهها ينقلب خيبة وخزيًا. سنهجر الرجال والنساء الذين آمنوا بنا وائتمنونا على حياتهم في كولياكان إلى الأبد. فخبت بريق الإجلال الذي كان يسكن عينيّ زوجتي أنّما نظرت إليّ. رأتني حينها كما أنا حقيقةً؛ رجل. لست شامانًا ولا صاحب معجزات، بل مجرد رجل.

***

والتقى بنا غوزمان في الأيام التالية، كل على حدة، في لقاءات طويلة،

وكنّا نقطع ساعات الليل ونحن نحكي عما جرى فيها. ولم يضنِنْ كابيزا دي فاكا ودورانتس وكاستيو بمعرفتهم عن العادات الغريبة التي شهدوها أثناء عيشنا مع الهنود، إلا أن غوزمان لم يكن يبالِ بأعرافهم وعاداتهم البتة، وكان يختم كل لقاء بطلبه أن يرسموا له خريطة. بيد أنهم لمّا سمعوا عن جشع غوزمان للمال، وحيث إنهم يعلمون قيمة معرفتهم حق العلم، فقد أبدى كل واحد منهم مسوّغًا يمنعه من رسم الخريطة. فقال كابيزا دي فاكا إنه الخازن الملكي، ولهذا فإن واجبه يحتّم إبلاغ مشاهداته لأعلى سلطة في إسبانية الجديدة قبل أن يُطلعَ أحدًا عليها. وأما دورانتس فقال إنه أمضى معظم الوقت أسيرًا، وإنما كان ذهنه منصرفًا إلى الفرار من الأرض، لا دراستها ومعاينتها وحفظ معالمها كي يرسم خرائط. وأما كاستيو فأصرّ أنه ليس إلا أقل الناجين مرتبةً من بين قادة الحملة، وعليه فلا يصح أن يخالف رغبة الآخرَين. فكنت أنا آخر من سُئِل.

قام غوزمان من وراء مكتبه يصافح يدي، ثم دعاني إلى الجلوس وصبّ لي كأسًا من شراب داكن ساخن. وقال: هذا شوكولاتل، وهو شراب معروف هنا في المكسيك.

ولم أذق في حياتي شرابًا كذاك الشيء، وكان طعمه مرًا باقيًا في الفم، وشعرت بتقلّب معدتي.

وقال غوزمان: يقولون إنك من بلاد البربر.

صحيح.

قد زرتُها مرةً. كنتُ على ظهر سفينة أرست في أرزيله يومين. مدينة جميلة.

فقلت: لا ريب أنها جميلة، وإن لم أزرها قط.

يبدو أن دورانتس سيد كريم، فإنّي أراك في عافية ورخاء. وقد أخبرني

أنك كنتَ خير الدليل في رحلاتهم، وأنك تكلّم زعماء القبائل، وتترجم لهم، وأنك تدبّر المأوى وتعثر على المأكل متى كنتم في حاجة إليهما.

فأجبت: إن سنيور دورانتس يبالغ في تعظيمي.

وأنت متواضع مع هذا! يا لحسن حظ دورانتس. أما أنا فإن حظي مع العبيد تعيس، لأسباب لا أعرفها. ولكنّي لما رأيت أنك رجل مختلف عن بني جلدتك فإني أريد أن أرى إن كنت تستطيع أن ترسم لي خريطة.

ودفع نحوي على الطاولة بيننا ورقةً ذات ألوان، وقد كُتبت عليها في جنوب الإقليم أسماءُ المدن والأنهر والجبال والسهول، وأما قسمها الشمالي فكان خاليًا من العلامات. ونقر بسبابته الرقعة الخاوية فقال: هنا.

نظرت إلى الخريطة ثم إليه، وقلتُ: ما أنا إلا عبدٌ كما قلتَ يا دون نونيو. أسمعت من قبل عن عبد يقرأ أو يكتب، ناهيك عن أن يخطّ خريطة؟

فزفر غوزمان زفرة صابرة وقال: أنا أعلم أنك لا تقرأ ولا تكتب، ولكني واثق أنك تدّعي الجهل وأنت عارف. هذه خريطة الإقليم. وهذه هي الجبال. أتراها؟ فتصوّر أنك واقف إزاء هذه الجبال. ألا تشير إلى أحسن طريق لمجاوزتها؟

دون نونيو، أنا لا أعرف كيف أقرأ خريطة.

فقال وهو يتمهّل في حديثه، حتى أنه ينطق الكلمة الواحدة بطيئًا: دعني أوضّح لك. كم تبعد أول بلدة هندية بعد مجاوزة الجبال؟ مسيرة خمسة أيام؟ سبعة؟ أربعة عشر؟

فأجبت: لا أدري. لم أحسب الوقت.

وحدق غوزمان إليّ طويلاً، ثم وضع كأسه وقال: أرى أنك تقتدي بفعل

سيّدك. حسنٌ. عد إلى مسكنك. ثم أمر الحارس الواقف لدى الباب: اجلب لي الهنديّ.

فأما الهنديّ الذي أراد غوزمان استنطاقه فهو ساتوسول صهر دورانتس. ولا أدري كيف استطاعا الحديث مع بعضهما، فإنّ غوزمان لم يطلب مني الترجمة، فلا ريب أن له ترجمانه الخاص. ثم حين خرج ساتوسول من عنده فهو لم يعد إلى مسكنه مع النساء حيث كنا قاعدين ننتظره، وإنما خُصصت له حجرة في الطابق الثاني في الثكنة. فقال دورانتس: خيرًا جنى، لقد نال من العجوز حجرةً له وحده.

***

وكنّا جلوسًا على مفرش أزرق أمام مسكن النساء، وإزاءنا صحاف من الخبز وزيت الزيتون واليقطين المجفف. ولمّا تكن الشمس قد وصلت هذه الناحية من باحة الثكنة، فتدثّرنا بعباءاتنا وملاحفنا. فجاءنا جندي شاب ذو لحية مرقعة برسالة من غوزمان، يقول فيها إن علينا مغادرة كومبوستيلا في الغد لأن نائب الملك قد طلب حضورنا إلى المكسيك. وحتى بعد أن فرغ الجندي من نقل الرسالة ظلّ واقفًا ينظر إلينا في فضول. فاستاء كابيزا دي فاكا ونهره: ماذا تنتظر يا هذا؟ فضرب الفتى قدميه في تحية عسكرية وأدبر بلا كلمة.

وآثر ساتوسول أن ينبأنا في تلك اللحظة أنه لن يسافر معنا إلى المكسيك. وقال: قد فارقت قبيلتي أشهرًا طويلة.

ضحك دورانتس وقال: ومنذ متى تبالي بفراقك القبيلة؟

فقال ساتوسول: لم أشأ المجيء إلى هنا على الإطلاق. أنتم الذين أردتم القدوم إلى هذه المدينة.

وقال كابيزا دي فاكا: إن غوزمان أغواك أن تكون دليله.

سأله دورانتس: ألا ترى أنه إنما يريد استغلالك؟ يريد أن تدلّه على مساكن الهنود في بلاد الذرة.

فردّ ساتوسول بسؤال: وما شأنك أنت؟

سأله دورانتس: ماذا أعطاك؟ هل أعطاك فيروزًا؟

وإن أعطاني، فما شأنك؟

سوف يستعبد قومك.

تركتم الهنود في كولياكان ولم تبالوا. ما كان ظنّكم أنهم فاعلون بهم؟

ليس هذا كذاك، لم يدع لنا ألكالدي من أمرنا خيارًا.

بل كان لكم خيارًا، واخترتم الرحيل.

وأمضينا ساعات الصبح نحاول أن نثني ساتوسول عما اعتزمه، لكن لا الحجج ولا الرجاء ولا التهديد أفلح. ولم أكن قد تكلّمتُ مع دورانتس في شأن إنفاذ أمر عتق رقبتي عند كاتب العدل، فلمّا رأيتُ من ساتوسول ردوده الجافة انقبض قلبي فارتأت أن أطمئن. وقلت بعدما انصرفنا من الثكنة: يا دورانتس، الأحرى أن نذهب إلى كاتب عدل حين نصل إلى العاصمة.

ماذا تقصد؟

أحتاج وثيقة منك كي أسافر إلى بلدي دونما استبقاء.

فأحاط دورانتس كتفيّ بذراعه وقال: إستبانكو، أنسيتَ أن عقد البيع ليس معي؟ تركته في السفينة. أنت واحد منّا يا رجل. وطريق السفر إلى المكسيك طويل، لكني أعاهدك أننا سنقصد كاتب العدل ساعة وصولنا،

ونحرر وثيقة تشهد أنك حر طليق.

***

وحملت وعد دورانتس معي يوم غادرنا كومبوستيلا إلى المكسيك. وحللنا في أول بلدة على طريق السفر الطويل جنوبًا، وكانت بلدة صغيرة اسمها غوادالاهارا أنشأها نونيو دي غوزمان وسمّاها على اسم مدينة في إسبانية، مثلما فعل في كومبوستيلا. ولم أفهم عادتهم في تسمية مواطنهم الجديدة على اسم مدن إسبانية، وإن كانت تسمية أي مدينة هو من حقّ غازيها. فخذ اسم غوادالاهارا مثلاً، وهو في العربية يعني وادي الحجارة، ويستحضر في العقل واديًا استوطنه أسلافي قبل ما يزيد عن ثمانمئة عام. فهم من جلب داء الغزو إلى إسبانية، ثم احتمله الإسبان معهم إلى القارة الجديدة، وسيزرعه سكان الأرض الجديدة في مكان آخر. وهذا هو حال البشر والدول. ولعلّها تكون حماقةً أن يتمنى المرء تبدّل سنة الكون، لكنني ما عدتُ أحتمل الغزو والأسفار أكثر مما ارتحلتُ وسافرت. سوف أذهب إلى المكسيك، وسوف أحصل على وثيقة تشهد لي بالحرية التي أكرمني بها الإله يوم مولدي.

20

حكاية المكسيك – تينو شتيت لان

البداية هي تينو شتيت لان. فمن هذه المدينة أجد سفينةً تحملني إلى العالم القديم. ما هي إلا بضعةُ أسابيع فأكون على مركبٍ يجري في عرض بحر الظلمات ثم أعود إلى أزمور، فأرتقُ ثوب حياتي بعد فتقه. فانشرح صدري لهذه الخواطر التي عمّرت عقلي، وزاده انبلاجًا عظمةُ مدينة الأزتك وإبداع تنميقها. وقد بقي ذكراها الجميلة حتى الآن، فحين أغمض عينيّ أحسّ بلفح الهاجرة في أول يوم في تينو شتيت لان، وأرى زرقة بحيرة تيزوكو، والأهرام الشاهقة، وأحسّ بلهفة الرجوع إلى الوطن.

وأُدخلنا أنا ورفاقي صباح يومٍ، بعد وصولنا المدينة، إلى كنيسة عظيمة من بابها الخلفي، حيث تلقّانا قسيس. وكان هزيلاً، يفرق شعره الأشقر في منتصفه، وله عينان رطبتان فيهما نفور من كل ما تبصران. فأدخلنا إلى حجرة ضيقة وأمرنا بنزع الأردية الإسبانية التي أُعطينا إياها في كومبوستيلا، وارتداء مآزر وثياب من جلود الغزلان معه. فلمّا سألناه عن السبب قال: هكذا أمر الأُسقف. ثم اتّكأ القسيس إلى رفٍ للكتب، ولم يحوّل بصره عنّا ونحن نخلع ثيابنا. ثم ناولنا سلاسل وأقراطًا وتمائم لا أدري من أين حصل عليها، لأنها ما كانت من زينة أي قبيلة خالطناها.

فلما لبسنا وأعجبته هيئاتُنا، تقدّمَنا في رواق طويل في جوف الكنيسة، ومشينا حتى رأينا بابًا في نهايته. وبَلَغَنا من وراء الباب همس حشد عظيم، تقطعه ضحكةٌ عالية أو صياح رضيع أو ألحان الأُرغن المترددة. ونظّم

القسيس دخولنا إلى صحنها، فكان كابيزا دي فاكا أول الداخلين ويليه دورانتس وكاستيو، ثم آخرهم عبد ربه راوي هذه الحكاية مصطفى بن محمد. وتفحّصَنا القسيسُ مرة أخيرة، فأقام اعوجاج ريشة على رأس دورانتس وشدّ محزمًا من جلد حيّة كان كاستيو يلبسه. ثم سمعنا نغمةً رائقة من أوتار الأُرغن، فقال القسيس: الآن تدخلون. ولمّا توقف العزف فتح الباب لنا وتنحّى إلى الجانب.

ودخلنا صحن الكنيسة تحت أعين أربعمئة رجل وامرأة، حتى إنّ بعضهم ليقف على أصابع قدميه كي يخطف لمحة من أشكال الناجين المشهورين. ولكن الحقيقة تفوق خيال المرء أبدًا، فسكتت همساتهم وحلّ الصمت. ورأيت وجوهًا سمراء أو سوداء هنا وهناك تقطع فيض وجوه البيضان، وإن كان الجميع على اختلاف ألوان جلودهم يلبسون ثيابًا قشتالية. والصحن مضاء بالنور النافذ من شبابيك عالية، وقلّة منها موضوع عليه زجاج ملوّن، والأكثر مسدول عليه بالستائر. ومرسوم على جدران الكنيسة رسوم لم تكتمل بعد، حتى ليَرى الرائي سمات البشر فيها مموّهة، كتلك الخارجة من حلم النائم.

ووقف الأسقف في آخر جناح الكنيسة ينعم علينا بنظرات مشفقة، كما ينبغي من رجل ملقّب بحامي الهنود. واسم الأسقف خوان دي زومارغا، وقد وصل إلى إسبانية الجديدة قبل عشرة أعوام راهبًا حاله كغيره من الرهبان، ولم يُقدّس إلى مرتبة الأسقف حينها، وإنما بذكائه وحنكته غلب أقرانه فحاز على المنصب من لدن الملك. وأشار بيده اليسرى إلى موضع جلوسنا، فكان في الصف الأول بجانب نائب الملك.

ووافق ذلك اليوم عيد يعقوب بن زبدي، الذي يسميه الإسبان سانتياغو دي أبوستول. وشعائر ذلك العيد طويلة كثيرة، فسرحت أفكاري إلى تلك

الكنيسة العتيقة في إشبيلية حيث دُعيتُ بالاسم الذي عرفني القشتاليون به، حين رشم القسيس علامة الصليب عليّ وصرفني عاجلاً إلى حياة الأسر. ماذا ينوي الأسقف زومارغا فعله؟ سمعته مدهوشًا يفتتح خطبته بحكاية رحلتنا في أرض هذه البلاد.

قال: إخواني وأخواتي، إن الرجال الأربعة الذين ترونهم معنا اليوم هم وحدهم من نجا من حملة نارفاييز. حُرموا ثمانية أعوام من متع الدنيا وترف المعاش. كانوا عزّلاً جياعًا فقراء، لكنهم بذلوا أنفسهم في سبيل خدمة الهنود وعلاج أدوائهم. وإنّ هذا ليستحضر في الأذهان قصة القدّيس فرنسيس. فكما فُرّق بين القدّيس فرنسيس وأصحابه في بيروجيا فقد فُرّق بين هؤلاء المسيحين الأربعة وجماعتهم في فلوريدة. وكما رعى القدّيس المجذومين في أسيزي كذلك رعى هؤلاء الهنودَ وصلّوا لنجاة أرواحهم، وقطعوا البراري مثله حفاة عراة، لا يستر أبدانهم إلا الجلودُ التي ترونها عليهم اليوم، يعلون كلمة الرب حيثما لم تسمعها أذنٌ من قبل قط.

وكان زومارغا رجلاً بدينًا قليل الشعر داكنه، وله عينان ضيّقتان ترميان نظرات طويلة في أرجاء القاعة وهو يخطب في الجمع. وفي صوته كلل وسخط لا يتأتى إلا لمن حوى في عقله حكمة عظيمة، وإن عُميت أعين الناس عنها. وما كان في غاية سخطه تساهلٌ لأربعة أبطال تعمّدوا السرقة، وشهدوا الإضرار من نهب وضرب واغتصاب وهم صامتون. ولا كان في عموم غضبه قبولٌ لهنود يأبون حكمًا مسلّطًا من غير قومهم. فعلمتُ من حديثه سبب دفعه تلك المآزر إلينا وأمره إيانا بلبسها، وسبب تنقيتنا من كل إثم وجريرة. هو كذلك أراد أن يروي حكاية رحلتنا على طريقته.

قال زومارغا: الشكر للرب. وارتفع صوته حتى بلغ المذبح، وارتدّ صداه وارتجّ على حيطان صحن الكنيسة الفسيح. فلنشكر الرب الذي بعث إلينا

بهذه العلامة عظةً لمن شاء أن يعتبر. وهناك من أهل إسبانية الجديدة الأتقياء الذين يخلصون العبادة للإله من يعامل الهنود أشنع معاملة ما يقصر اللسان عن تمثيله، وأكثرهم ممن يعيش في تخوم المملكة، في أصقاع بعيدة عن شورى الكنيسة. بيد أن الرب قد بعث إلينا هؤلاء المؤمنين الأربعة الذين ترونهم اليوم هنا ليذكّرونا بالطريق القويم؛ ليدعونا إلى أن نرفع اسم الرب على جناح السلام حتى يبلغ الهنود، وأن نحسن معاملتهم، وأن نعلّمهم كرامة الجهد في العمل والصبر، حتى ترونهم يهرعون إليكم كما هرع أهل إيطالية إلى القدّيس فرنسيس.

فإذًا أراد الأسقف أن يستعملنا في مهمة أعظم؛ وهي تنصير الهنود دون تهديدهم بأسلحة الجنود. يا لعجبي من تخيّره لي قدوةً ليبلغ هذا المرام. ترى ماذا يقول لو علم ما فعلتُه؟ أني تعلّمتُ طب الهنود حتى حذقته، وأني لبستُ لباسهم، وتكلّمتُ بألسنتهم، واتخذتُ امرأة منهم. فأنا أبعد ما أكون عن النصرانيّ المؤمن الذي يحسبني الأسقف، بل أنا أقرب إلى الهنود منهم. وخطر لي سؤال وأنا واقف في بهو تلك الكنيسة غير التّامة، ومن حولي تماثيل الأنبياء والقديسين، فسألت نفسي: لِمَ جعل الله للبشر أديانًا مختلفة إن كان عزّ وجلّ يريدهم أن يعبدوه على نهج واحد؟ ولم يقع في قلبي هذا الخاطر في صباي وأنا أحفظ القرآن الكريم، لكني الآن أرى غرابة في الإيمان أن حكاية واحدة هي الأصح وهي التي ينبغي أن يجتمع الناس عليها. أكان تعدد الأديان لا اتفاقها هي العبرة التي يريد الإله أن يعلمها بني آدم؟ ألا نعلم يقينًا أنّ في واسع قدرته جعلنا على دين واحد إن أراد؟

وقال زومارغا: فلنصلِّ. وسكن كل صوت في الكنيسة تمام السكون. والهواء داخلها حارّ يعبق بروائح الشموع المحترقة تخنق الأنفاس. حاولت أن أكتمها ما استطعت؛ فعطستُ. وعطست ثانية، وأخرى. ثلاث مرّات.

وعيناي مغرورقتان بالدمع من شدّة العطاس. فانحنى كابيزا دي فاكا في مقعده إلى الأمام ونظر إليّ عاقدًا حاجبيه، لكني ما استطعت كتم العطاس. فانتكس رأسي إلى الوراء، وأخرجتُ عطسةً هي أقوى من أخواتها. فتنحنح عددٌ من الجالسين بقربي، وسمعتُ تحرّك المقاعد والمجاثي في أنحاء الكنيسة، لكن العطاس استمر. وأحسست بأعين المصلّين كلهم مسلّطة عليّ.

حتى سمعنا آمين أخيرًا، ثم شرّعت الأبواب. واصطفّ الناس للخروج، فاحتشد كثير منهم عند الباب في انتظار رؤية الناجين الأربعة من حملة نارفاييز عن قرب. وكنت أتوق إلى الهواء العليل، فانسللت من فرجة لمحتها عن يميني. وتعثرتْ قدمي بشيء، لا بل كان رجلاً، شيخًا هنديًا موسوم الوجه أبتر الذراع، يهزّ نقودًا في وعاء يرتجي الصدقات. وكدت أن أقع على الرجل لولا أن كاستيو أمسكني.

ثم نُفخ في البوق فانصرف المصلون والفضوليون الواقفون إزاء مدخل الكنيسة. وسرتُ ورفاقي نحو الدرجات الأمامية. ولم أرَ قط ساحةَ مدينة أكبر من تلك الموجودة في تينو شتيت لان، ولا أبصرت طرقًا أوسع ولا أحسن اتّساقًا، ولا عمائر أبهى وأفخم مما يحيط بها. وكانت الساحة تضجّ بالمنتظرين بدء الاحتفال بعيد سانتياغو دي أبوستول. فنصبت المسارح في أركانها الأربعة، تعرض عليها تمثيليات مختلفة، واصطفّ في منتصفها فريقان من الرجال، بعضهم يلبس لباس المغاربة وآخرون لباس النصارى، وهم قابضون على رماحهم متأهبون للتطاعن تلاعبًا. ثم رفع نائب الملك ذراعه إيذانًا ببدء الاحتفال، فعمّ الهتاف واللهو أرجاء المدينة.

ومن وراء الساحة ارتفعت الأهرام المعروفة تنطح رؤوسُها الداكنة زرقةَ السماء. ففكرت بالمصريين والسومريين والبابليين، وأقوامًا غيرهم شيّدوا الممالك المهيبة، فبقيت آثارهم برهان عبورهم في هذه الدنيا. وإنّ محضري في

أرضٍ تنتهي فيه مملكةٌ وتولد على أرضه أخرى يجعلني مُكَرَمًا بحسن الحظ لشهادتي على تبدّل التاريخ. غير أنّي لم أسجّل ما شهدت ولا أردت ذلك، لأن كل ما شغل فكري واستحوذ على ذهني هو الإياب إلى بلدي.

***

وكان نائب الملك قد شيّد دارًا صغيرة للضيافة وراء قصره، يحجبها عن الشارع صفٌ من الأشجار المورقة. ونزلتُ وزوجتي أويوماسوت فيها مدة بقائنا في حاضرة المكسيك. وكانت جدران مخدعنا بيضاء بالجير، ذات ستائر زرقاء، وسرير له قوائم أربعة. وقد ظلّ السرير لم تمسسه أبداننا لأننا لم نكن نستشعر الراحة بالرقاد في موضع مرتفع عن الأرض. وقد لبست أويوماسوت في ذلك الصباح، وهو ثاني أيامنا في العاصمة، ثوبًا إسبانيًا تُرك لها في صندوق من خشب الجوز عند طرف السرير. والثوب من القطن الأخضر، ذو كمّين منفوخ أعلاهما، ومحزم مهدّب. فساوت أويوماسوت طيّات الثوب بيديها وسألتني: كيف أبدو؟

وقلت: يجب أن تغلقي ظهر القميص. وكنتُ أشاهدها من مجلسي على الكرسي، فنهضت لأربط النطاق حول خصرها النحيل وأوثق أزرار الثوب. ولم أرها من قبل ترتدي الأخضر، فزادها زهاؤه حسنًا. لكنّي لما قرّبتها مني ابتعدتْ، فرفعتُ ناظري أرى انعكاسَ وجهها على زجاج الشبّاك فرأيتها جافلةً فزعة. قالت: لا أستطيع التنفس.

فأرخيت نطاق ثوبها، ثم سألتها: أهكذا أفضل؟

قالت: لا، ما زال يؤلم.. إنه يؤلم.

هكذا يُلبس هذا الثوب.

وكيف تتنفس نساؤهم؟

لم أسأل نفسي يومًا هذا السؤال. كنتُ في الثامنة والثلاثين من عمري، وأجزم أنّي رأيت الدنيا بأعين أناسٍ لا يشبهونني في شيء، لكنني ما رأيتها في عينيّ امرأة قط. فكيف تشعر المرأة حين تلبس النطاق لأول مرة؟ أو يضيق نَفَسُها بدعائم من حديد؟ أو تسير وتعثر خطاها من الثياب المسبلة؟ فعظمت في عيني التضحيات التي تبذلها زوجتي لأجلي، وعظم في قلبي تقديرها. وتفحصتُ النطاق غير أني لم أستطع إرخاءه أكثر، فاعتذرت إليها قائلاً: فلتحتملي بعض الوقت. لن تلبسي هذه الثياب زمنًا طويلاً.

وسمعنا طرقًا على الباب، ثم جاءنا الخادم الأزتكي يبلغنا أن سنيور دورانتس حضر ومعه الراهب. وتقدّمتني أويوماسوت نحو الباب بخطوات قصيرة حذرة، كأنها لا تدري أتحملها قدماها أم لا، فسرنا معًا في الرواق. وكانت حجرة الاستقبال فسيحة مدببة السقف طويلة الشبابيك، لكن رحابة الحجرة انقبضت بالجدران القاتمة والكراسي المنجّدة بالدمقس.

وكان دورانتس والراهب واقفين في قلب الحجرة، يتمتعان بتأمل صورة مرسومة بألوان الزيت معلّقة فوق المدفأة، تمثّل فيها وجه الملك كارلوس، ابن فيليبه الوسيم وخوانّا المجنونة، وكان رجلاً طويل الوجه ضيّق العينين بادي الصلع. وهو إمبراطور أجزاء من العالم القديم ومعظم أقاليم العالم الجديد، وحامي عقيدة الكاثوليك. وكان هذان الرجلان من رعاياه، المكلّف أحدهما بالغزو والآخر بالتنصير، يحدقان بصورة ملكهما بالإجلال الواجب. تنحنحتُ، فقال دورانتس: أجئتَ يا إستبانكو؟ دعانا نائب الملك إلى طعام عشاء.

الليلة؟

لا. الأسبوع القادم. إنه حفل بعودتنا.

أين الآخرون؟

ما زال كابيزا دي فاكا في حجرته في القصر يكتب رسائل. أما كاستيو فكان آتيًا معي لولا أن زاره أحد جيرانه من شلمنقة... هنا. في هذا الطرف القصي من الأرض. أليس هذا من عجائب المصادفات؟

وفُتح الباب ثانية، فدخلت امرأتا دورانتس وكاستيو، وكانتا تلبسان ثيابًا إسبانية رمادية تضيق بهما، وقد ربطتا الشعر المدهون وراء ظهريهما وغطتاه بقماش شبيك أسود. وبدا الضيق على وجه كيوان، أما تيكوتسين فأشرق محيّاها لمرأى زوجها، وقالت بلسان الأفافاري: عِمْ صباحًا.

وردّ دورانتس: صباحك خير. ثم أشاح بصره وتكلّم بالإسبانية فقال: هذا هو الأب إيرمينيو المعلّم.

فأحنى الأب إيرمينيو رأسه وقال: سرّني لقاؤكم. وكان عظيم الطول جسيمًا واثق النفس، ولولا لطخة حمراء على خده الأيمن لكان بادي الحسن. فقعد على الأريكة وأشار بيده للنسوة أن يتحلّقن حوله. وأخبره دورانتس أن أويوماسوت تحسن بعض الإسبانية.

فأجاب الأب إيرمينيو: حسنٌ. فلتنصرفا إذًا.

وكاد دورانتس يغلظ الرد على الأب إثر صرفه الفظّ لنا، لكنه أمسك لسانه. فعبرنا معًا بابًا من زجاج يفضي إلى الفناء، من شرفة فسيحة ساخن بلاطها أبيض من لفح الحرّ. وتنتظم بحذاء حائطها الأيمن شجيرات الخزامى، ويحوم على أزهارها النحلُ. وأما الحائط الأقصى فيحاذيه دهليز عليه مظلّة، وتنمو على سياجه أزهار الجهنّمية البيضاء. وأشار دورانتس إلى شجرة فاكهة بجوار الحائط الأيسر وقال: حتى شجر البرتقال زرعوه هنا.

فقلت: كأننا ببيت في إشبيلية.

فاكتنفنا الصمت برهة وقد تذكرنا زمنًا مضى في قشتالة، قبل رحيلنا إلى أرض الهنود بزمن طويل. وكان دورانتس سيدًا ثريًّا من بيت شرف قدّم ثروته في سبيل العثور على الذهب، والإياب إلى بلده ظافرًا ممجّدًا. وهو الآن رجل معدم، حلّ في مدينة غريبة لا يعرف فيها أحدًا، ولا يدري بمن يثق. أما أنا فكنتُ عبدَ تاجر نسيج، دفعه سيّده ثمنًا لديون القمار، وقد خسرتُ ما هو أعظم من الثروة. لكنّي قلتُ لنفسي إن كل هذا انطوى مع الماضي.

سألتُ: كم من المال سنحتاج للسفر إلى إشبيلية؟

نحو خمسة عشر ألفًا عن كل واحد منّا. ولن تكفي أنصال الأسهم الزمردية.

لدينا الفيروز.

أجل، ولكننا سندفع كذلك ثمن سفرنا إلى ميناء فيراكروز.

فصمتنا طويلاً. وكنا نفكر بالمكاسب التي اجتلبناها معنا من بلاد الهنود، وليس الزمرّد والفيروز فحسب، بل الفراء والجلود، وريش الببغاء، والصرر الجلدية وعقود الأصداف، والتحف المنحوتة من العظم، وقلوب الغزلان. وكنا نحسب هذه الغنائم عديمة المثيل يوم كنّا نعيش في بلاد الذرة، لكنها تُحتقر إذا ما نظر المرء إلى الجواهر النفيسة التي يتحلّى بها أهل تينو شتيت لان. ومع هذا فلا يخلو سوق من أسواق الساحات العامّة من تجار يتبايعون كل أصناف البضائع، فقلتُ لدورانتس إنّي سأسألهم عن قيمة أملاكنا عصر يومنا ذاك.

فقال: وأنا سأتحرّى سعرًا أفضل للزمرد.

ووقعت يمامة على غصن من أغصان شجرة البرتقال، فأخذت تملّس ريشها بمنقارها. وتسابق يعسوبان على صفّ الشجيرات. فكان فناء الدار

خاملاً في وداعة وسلام رغم الحرارة القابضة.

قلتُ: ثمة أمر آخر أودّ سؤالك عنه. فأحسست بانقباض دورانتس، غير أنه لّما تكلّم لم يتغيّر صوته. قال: أعلم ما سؤالك. ولسوف أعطيك الورق الذي تطلبه عمّا قريب.

متى؟

لم نصل إلى هنا إلا منذ ثلاثة أيام يا إستبانكو. ولّما أجد كاتب عدل بعد. لكنّي معطيك وثيقتك لا محالة، وهذا عهد عليّ سأحفظه.

وقد أوحى إليّ كلامه بأني أهنته إهانة عظيمة، وأنه لا ينبغي أن أسأله ثانيةً قط. فقلت: أعلم هذا، غير أني...

فقاطعني قائلاً: ثم إن أمورًا أخرى طرأت فأبطأتني. ثم أخذ يعضّ على شفته السفلى حتى نزفت قطرات دم. وكانت تلك عادة قديمة عنده رجعت لّما وصلنا إلى المدينة. قال: إنها حبلى.

فسألته: زوجتك؟

لم نتزوج في كنيسة، فهي إذًا ليست زوجتي.

ولّما اشتدّ نور الشمس وحرّها ابتعدنا عن الفناء ننظر إلى حجرة الاستقبال. فرأيت أويوماسوت قاعدة على كرسي صغير شاخصة الطرف إلى الراهب المبعوث من نائب الملك شخصيًا ليعلّمها الإنجيل. وأما تيكوتسين وكيوان فواحدة عن يمينها والأخرى عن شِمالها، وهنّ متحلّقات حول معلّمهن الشاب.

وسألتُ: ألا تتزوجها ثانية في كنيسة؟

فكان رد دورانتس: ليس الأمر بهذا اليسر.

وأردتُ أن أسأله عن السبب، بيد أني لم أشأ إغضابه مني أو استعدائه، فسكتُّ. وكان الصمت ملاذي قبل سنين عديدة، فآثرتُ الاعتصام به الآن ثانية. وأنصتُّ إلى دورانتس وهو يخبرني عن وليمة نائب الملك والضيوف الأكارم الذين يتشوقون إلى لقائنا. وقال إنه من التهذيب أن نهدي بعض الفيروز إلى نائب الملك شكرًا له على ضيافته وعلى الثياب البديعة التي أكرمنا بها.

فقلت: يجب أن نستشير الآخرين. فكل ما أحضرناه معنا من بلاد الهنود نعدّه ملكية مشتركة، وينبغي الاتفاق فيما بيننا على ما يباع منها وما يُهدى.

فقال دورانتس: أجل. إنما أنا أظن أن كاستيو وكابيزا دي فاكا متفقان معي. ثم فتح مصراعي الباب الزجاجي ليسأل الراهب إن كان قد انتهى درسه.

فنهض الأب إيرمينيو وقال: أجل يا كابتن. وكان صوته هادئًا وإن لم يخفِ ضيقه. انتهيتُ من درس اليوم ولكن ثمة الكثير مما يجب أن يتعلّمنه، وعليهن المواظبة على الدراسة.

فأجابه دورانتس: سأخبرهن بذلك.

ونهضت النساء كذلك. وتبسّمت تيكوتسين في وجه زوجها وسألته إن كان يشتهي الأكل. أما أويوماسوت فشيّعت الراهب إلى الباب، وهي تمدّ يدها إلى ما وراء ظهرها تحلّ عقدة النطاق في ثوبها.

21
حكاية القصر

ولقد وقعت وقائع جمّة في العالم القديم في أيام غيابنا لم نتعرّفها إلا في الأسبوع الذي تلى بلوغنا المكسيك. فعلمنا عن خلع ملك الإفرنج نفسه من سلطة الكنيسة وزواجه بمحظيّة اسمها آن بولين، وتولّي بابا جديد كنيسة الرومان، وإعلانه من مدينته أن الهنود بشرٌ رزقهم الإله عقلاً ومنطقًا. وعلمتُ أن السلطان محمد البرتغالي مات في البربر مخلّفًا عرشًا ودولة متنازعة الأطراف لأخيه أحمد الوطاسي. واستردّ العثمانيون بغداد من الفرس. وفي أعالي جبال الأنديز أوثق بيثارو ملكَ مملكة الإنكا إلى آلة إعدام، فكسر عنقه على أعين رعيّته.

وأما هنا، في مدينة تينو شتيت لان البديعة، فقد صار أنطونيو دي مندوزا نائب الملك في إقليم إسبانية الجديدة. وهذه أرفع مرتبة وضعها الملك لأجل أن يسلّم إلى مندوزا مقاليد الحكم في هذه الأرض، وإن كان فرض سلطته طلبًا عسيرًا بوجود إرنان كورتيس قائد جيوش الغزو الأول، البطل الذي انعدم نظراؤه، الشجاع الذي شاعت بطولاته، كامنًا له متحينًا الفرص. وإنّي سمعت ولما يمضِ على مكوثي في المدينة غير أيام معدودات عن التنافس بين الرجلين، وأطماع مندوزا في زيادة رقعة سلطانه.

ورأيت قصر مندوزا يوم دخلته في أول زيارة لي فريدًا فاخرًا، كما يليق بحاكم جليل القدر. وكان صرحًا أبيض موثق البنيان من حجارة قصر موكتيزوما، ممتدًّا بطول الساحة. والعساكر مصطفّون مع الطريق إلى مدخله

يهزّون رؤوسهم لّما عبرتُ ورفاقي أمامهم. ودخلت مع دورانتس قاعة القصر الكبرى فأبهر ضياء الشمعدان عينيّ. وكان أول ما أدركته بدخولي هو صوت الكمنجة المطْرِبِ يعزفها عازفون لم أرهم بعد. ثم احتشد من حولنا قادةُ الجيش، ينتظرونِ أن يقدّمهم نائبُ الملك إلينا ليصافحوا أكفّنا. ومن ورائهم اصطفّ القسيسون وأشراف المدينة وكبراء الأزتك. أما السيدات القشتاليات فاجتمعن بحذاء الحيطان يراقبننا، وهن يتزيّنّ بأرفل التفتة، ويتهامسن بينهن مخفيات أفواههن وراء مراوح من قماش. وتجد في الهواء رائحةَ الشمع المذاب والمطامح العالية.

فلمّا تقدّم العشاءُ قادنا مندوزا إلى مائدةٍ عظيمة، وأشار إلى كل واحدٍ منّا حيث مقعده؛ فأجلس كابيزا دي فاكا إزاء دونّا ماريا زوجة نائب الملك، وأقعد دورانتس بجانبها، وإزاءه كاستيو وأنا بجانب دورانتس، ثم اتّخذ القادة وكبراء الأزتك ما تبقّى من المقاعد. واحترتُ بالأشواك والسكاكين العديدة المصفوفة حول طبقي، فعمدتُ إلى مراقبة جيراني ما يفعلون لأعرف أيها أستعملُ في أكل أيٍّ صنف. وحاشية السحّاب في سروالي الجديد تغرز لحمي، فكنت صامتًا معظم الوقت أرمي سمعي إلى أحاديث الضيوف من حولي.

هذا النبيذ من فالودوليد. أذقتَه؟

من يستطيع أن يدفع أثمان الخيول هذه الأيام؟

إنما يطلب المرءُ الوفاء في أولئك البشر، ولا صفة غير الوفاء.

ترسل والدتي إليك التحية يا دون أنطونيو.

لا تكاد ضجة العمران تهدأ في هذه المدينة قط يا عزيزتي.

وبعدما قدّم الخدم الطبق الثالث أو الرابع، تكلّم نائب الملك في الأمر

الذي تبيّنتُ من صوته أنه مشغول الذهن به منذ وصولنا إلى المكسيك. وكانت غرناطة هي محل مولد نائب الملك، فكانت لهجته أندلسية مهسهسة. وقال: إنه لمن عظيم الشرف أيها السادة أن يكون فيما بيننا رحّالة مستكشفون ضجّت المدينة بأخبار أسفارهم العجيبة، ولعلّكم سمعتم شيئًا منها. ولهذا فأودّ أن أحرّصكم على تزويدنا بحقائق ما وقع لكم، على أن يدوّن كتّابي شهادتكم في سجل واحد نرفعه إلى الملك، فيعلم جلالته ما اتّفق لحملة نارفاييز. وأطلب منكم أن تتحرّوا الدقةَ ما استطعتم في تعيين أيام رحلتكم، والمسافات التي قطعتموها، وأي علم لكم بتلك الأرض وتضاريسها ومناخها، وأجناس البشر الذين يعيشون عليها وأعدادهم، وتنوع ألسنتهم وطرائق معيشتهم، فيكون هذا في غاية العون لنا في إخضاع أقاليم الشمال.

فرفع كابيزا دي فاكا رأسه متفاجئًا وسأل: أتنوي إرسال حملةٍ جديدة؟

وأجاب نائب الملك: ليس الآن، إنما أنا لا أكلّ من التفكير في توطين الحدود الشمالية للمملكة. وتعرّفت من نبرته أن مسألة تمدّن الهنود عبء ثقيل ابتُلي به، وهو يريد إنفاذه على الوجه السليم. ثم حرّك قدح النبيذ بين أصابعه وأمال رأسه، وقال متحسّرًا: ويؤسفني أن أقول إننا وجدنا حجر عثرة في طريقنا.

أجابه كابيزا دي فاكا: وأظننا التقينا بهذا الحجر.

فابتسم نائب الملك وقال: أليس غوزمان رجلاً غريبًا؟ أتعلمون أن أراضي إقليمه قد خلت من سكّانها الهنود؟ وكيف لا تخلو وهو يمنح تصاريح الاسترقاق كما يوزّع السكير أزهارًا. ولربما يُستحسن أن تذكروا ذلك في شهادتكم المرسلة إلى جلالة الملك؟ لعلّكم تذكرون عَرَضًا أن نونيو دي غوزمان لا يحسن تدبير شؤون إقليمه، ولا يحسن معاملة الهنود الموصى بهم.

فتعجّب كابيزا دي فاكا من تحريض نائب الملك على تحريف شهادته، فلم يحر جوابًا. فأخفض بصره إلى طبق الخزف إزاءه، وهو لم يلمس دجاجته المطبوخة، وقد جُعل عليها اللوز المقلوّ البرّاق كذرّات الذهب، وورق الغار من حولها. واقترب خادم يملأ قدحه نبيذًا، فلم يرفع كابيزا دي فاكا رأسه ولا أجاب.

فأسند نائب الملك ظهره على ظهر كرسيه وقد استشعر تماديه في الطلب من الخازن، فقال مظهرًا قلة الاهتمام: سوف نتحدث في هذا الأمر لاحقًا، فارتاحوا الآن ولا تبالوا. إن جمع شهاداتكم وتدوينها مسألة هيّنة لكنها تستغرق زمنًا طويلاً، وهي ترهق العقل وتعيي الذهن. بيد أن لا غنى عنها البتة كما أوضحتُ لكم.

وأزاح كابيزا دي فاكا حبات اللوز بشوكته إلى حافة طبقه. وقد طال صمته وانحرج الجميع، فاضطر دورانتس إلى قطع الصمت وسأل: وكم مدة تدوين الشهادة في تقديرك؟

أجاب نائب الملك: بحسب طاقتكم. ثم ضاقت عيناه يتفرّس في وجه دورانتس، كما الصياد يتفحص طعمًا. قال: لِمَ تسأل؟

فأجاب دورانتس متوسلاً: قد حُرمنا من لقاء أهلينا زمنًا طويلاً يا دون أنطونيو، وإنّا لفي شوق للإياب إلى قشتالة عاجلاً.

وقال نائب الملك: أعلم هذا، بيد أن تسجيل شهادتكم لن يستبقيكم هنا غير وقت قصير، أحسبه لا يزيد عن الشهرين. وأنتم ضيوفي حتى يتم الأمر.

***

وأما في شأن تسجيل الشهادة فقد حقّت نبوءة نائب الملك، فاستغرق تدوين الكتّاب لها من أفواه القادة الثلاثة شهرين. وحيث إن دار القضاء

مغلقة للتجديد فيها فكان اجتماعهم في مكتب صغير في الكنيسة، غير أنه لم يُسأل رفاقي الإقرارَ بما وقع حقًا كما كنّا نحسبهم يطلبون، بل إنهم سئلوا أن يُملوا على الكتّاب أحداث الحملة تفصيلاً. فكان أن أخذ أصحابي يسردون التاريخ كما تمليه عليهم أهواؤهم، ويحرّفون الشنائع والفظائع منه. فنسبوا إلى نارفاييز سوء التدبير والحكم، وأغفلوا ذكر التعذيب وهتك الأعراض الذي شهدوه، وسوّغوا سرقة الطعام ونهب المتاع، وأنكروا الزوجات الهنديّات اللاتي اتخذوا، وبالغوا في وصف عذابهم على أيدي الهنود، وأعظموا سعادتهم في النجاة. فكانت تلك الرواية لما جرى لحملة نارفاييز على صورتها الموجزة المنقّحة المجوّدة، مما يليق بأن يقع على أسماع الملك ووزرائه، والكاردينالات والمفتشين، والحكّام والقضاة، والأهل والأصحاب الذين تركوهم في قشتالة.

ولم يطلب أحدٌ شهادتي. ولعلك تحسبني كارهًا نكرانهم لي، غير أني لم أكرهه. أو أن الأحرى بي أن أقول: لم أكن كارهًا في ذلك الحين. فلا أغلى وأعزّ على المرء من قول الحق إلا حياة حرّة، وكان ذاك ما تهفو نفسي إليه حصرًا وقصرًا في تلك الأيام. فمتى ما أتى رفاقي مع زوجاتهم إلى دار الضيافة لزيارتنا، أنصتُّ إليهم وهم يروون شهاداتهم في ذلكم اليوم باهتمام يسير، وشيء من الانبساط والأنس.

وأتذكر أننا كنّا جلوسًا في مساء خريفي في حجرة الاستقبال نحتسي من الشوكولاتل بجوار الكانون. وكنّا قد استطبنا هذا الشراب المرّ المزبد، لأثره العظيم في إنعاش المزاج وتلطيفه. وعلى جانبيّ الأريكة طاولتان مدوّرتان عليهما شمعدانان من نحاس يرتدّ ضياؤهما على زجاج الشبابيك، وتركنا باب الفناء مفتوحًا لتنساب منه النسائم.

قال كاستيو: قلتَ لكتّاب المحكمة إننا بلغنا آوتي في عشرين من يوليه.

كنتُ أحسب أننا كنا في الأبلاتشي في يوليه.

فأجابه كابيزا دي فاكا: لا، بل كنا في آوتي. أنا واثق من هذا.

فقلت ضاحكًا: أواثق من أمر وقع قبل ثمانية أعوام؟ كيف تتذكر التاريخ؟

فكان جواب كابيزا دي فاكا جادًا غير موارب: إن لي ذاكرةً قوية.

وكان شعره مقصوص على نحو يواري أذنيه الكبيرتين، وامتلأ جسده فحسن وجهه مع تقدّمه في العمر عمّا كان الخازن عليه يوم ارتحلت حملة نارفاييز أول مرة. وهو يحب ذكر الأخبار والقصص كعهدي به دومًا، بيد أن ذكرياته عن الحملة باتت مكتوبة في سجل ملكي، فهي تبطل ما عداها. وهالني هذا الأمر؛ أني عدتُ إلى العالم الذي تنطق فيه العقودُ المكتوبة فيعلو صوتُها على أي صوت آخر، ومن ذلك وثائق الولادة وسجلات الوفاة وعقود النكاح.

وقال كاستيو: إني لأعجب من تذكرك اليوم على هذه الدقة، وأنه كان العشرين ولم يكن الحادي والعشرين أو الثاني والعشرين.

قال كابيزا دي فاكا: كان كاتب العدل يدوّن كل حوادث أيامنا في سجل معه، وقد قرأته ليلاً.

قال دورانتس في سخط: إنهم لا يريدون معرفة الأيام، بل يريدون معرفة المعالم ليرسموا خريطة صحيحة.

وكان دورانتس يعلم أن عقله يحوي معارف نفيسة، وأن كتّاب المحكمة يظلمونه ظلمًا عظيمًا بسؤالهم عنها. وكان جالسًا على الأريكة بقرب زوجته تيكوتسين الحامل، وهي تضع يديها على بطنها، فقالت فجأة فرحةً: تحرّك الجنين. وسحبت يد زوجها إلى بطنها ليشعر بضربه من وراء ثنيات ثوبها كثير الطبقات. وقد أمر القسيسُ النساءَ بلبس الثياب القشتالية دون غيرها

فأطعن أمره، لولا أنهن يتمردن أحيانًا في عنادٍ فيصدر عنهن مخالفات يسيرة. فلم تنزع أويوماسوت قلائد العظام، ولا خلعت كيوان خلاخلها ولا نعال جلد الغزال التي ترتديها. وأما تيكوتسين فاتّبعت أوامر القسيس دون حياد عنها، حتى إنها جلّلت رأسها بالغطاء. وكانت تكلّم دورانتس بلسان أفافاري، ثم تحولت إلى الإسبانية حين قالت: هنا. وحرّكت يده إلى موضع ثانٍ ليستشعر حركة طفله.

قالت أويوماسوت: إنه ولد.

وسألتها تيكوتسين: وما أدراكِ؟

فأجابت أويوماسوت: علمت من شكل بطنك. ألا ترين ارتفاعه؟

وما زالت يد دورانتس على بطن زوجته، لكن وجهه نحو أصحابه القشتاليين وهو يحاجّهم: ولِمَ نقدّم لهم ما نعرفه بلا مقابل؟ ونحن ندري أنهم يستطلعون منا ما يكفل الفوز في حملتهم الجديدة. وبعد الشقاء الذي عشناه، ألا نستحق أرضًا أكثر من غيرنا؟ وإن لم تكن أرضًا فتعويض مجزٍ.

ومنذ بدء شهادة الرجال في المحكمة زاد قلق دورانتس من قلة المال. فنحن لم نجنِ من بيع أنصال الزمرد إلا نيفًا وخمسمئة بيزو، بسبب توافر الأحجار الثمينة في مدينة تينو شتيت لان، فلم يكن زمردنا منافسًا للياقوت الأزرق والأحمر ولا الدر النفيس. وأما ما بقي من ثرواتنا فأودعتُها في أسواق تينو شتيت لان وعثرتُ لها على مشترين، وإني لموقن أني قادر على جمع المال الذي نحتاج إليه للسفر، أو معظمه. ومع هذا فلم يسكن خاطره عن التفكير بالأمر.

فقال كابيزا دي فاكا: على رسلك يا دورانتس. فحتى لو بعث نائب الملك سرية إلى الشمال فلا يحق لأحد سوى الملك تنصيب حاكم للإقليم الجديد.

فأجاب دورانتس: أفنجلس هاهنا نتحسر وننتظر أن يسلب آخرون الأرضَ منّا؟

وقامت أويوماسوت فجلست بجانب تيكوتسين وقالت لها: دعيني أرى، لعلّي أتحسس الطفل. وأغمضت عينيها تستحثُّ الشعور، والابتسامة تعلو محيّاها. وكنت أرجو أنا وزوجتي أن نُرزق بطفل، وهي الحنون الرؤوم على الصغار، لكن مشيئة الله لم تكتب لنا ذريةً بعد. فقلت لنفسي: لعلّنا إن رحلنا عن صخب تينو شتيت لان وسكنت حياتُنا في أزمور ننل حظنا من الخلَف.

قالت تيكوتسين: هنا.. أشعرتِ بضربه؟

فضحكت أويوماسوت وقالت: نعم. كانت ضربة قوية.

ووضع كابيزا دي فاكا قدح الشوكولاتل، ثم نهض ومطّ ذراعيه فوق رأسه، وقال: ما بأيدينا ما نصنعه حتى نفرغ من شهاداتنا ونرجع إلى إشبيلية.

فقلتُ لدورانتس: بذكر إشبيلية يا دورانتس، لا تنسَ أننا لم نكتب الوثيقة.

وزرر دورانتس قميصه ثم قام وقال: سنكتبها بعد أن ننتهي من تسجيل الشهادة لدى كتّاب العدل. فلنمضِ الآن يا إستبانكو فقد حان موعد العشاء.

وكنا الأربعة مدعوين لدى بيت سيد من أشراف المدينة وأصله من قادس، وقد أكرمه الملك بأراضٍ واسعة ومئات الهنود، وهو مشهور بحفلاته الباذخة. وكان فضول سادة المدينة في كل شؤوننا وأحوالنا عظيمًا، فكانت قصة تحطّم مراكبنا وانقطاعنا تروّح عن سادة إسبانية الجديدة وسيداتها، والسواد الأعظم منهم من أهل الحاضرة الذين لم يعرفوا يومًا مخاطر الترحال ومتعته.

فكنت في الشهرين أراقب الجميع وهم يروحون ويغدون. فيأتي الأب

إيرمينيو يعلّم النسوة فضائل النصرانية، ويرد الخدم الأزتكيون محمّلين بالهدايا أو الدعوات لولائم العشاء في بيوت الكبراء، وينصرف رفاقي القشتاليون ليدلوا بشهاداتهم لدى كتّاب المحكمة. أما أنا فانتظرت.

22

حكاية العزبة

ولم يكن نائب الملك وحدَه مَن حَدَثَت نعمتُه، فجلَّ قدرُه وعظم منصبه في تينو شتيت لان، فقد نُصب إرنان كورتيس الذي طبقت شهرته إسبانية الجديدة ماركيز وادي واهاكا. وأقام الماركيز مأدبة على شرفنا في بستان الحصن الذي أنشأه على أنقاض قصر أزتكي في كويرنافاكا، وهي بلدة تبعد عشرين فرسخًا جنوب الحاضرة. فعُلّقت الشمعدانات النحاسية على أشجار تحوط بالبساتين، وانتشر نورها الأصفر الوهّاج على الموائد الممدودة أسفل منها. وأما في منتصف البستان فأقيمت فوّارة ماء يطوف حولها اللاعبون بالكرات والبهلوانات والمضحِكُون والأقزام، وكل واحد منهم يرينا عجائب أفعاله، ومن ثم ينقلب عن يمينه ليتقدم من كان خلفه فيسلّي الضيوف.

ودارت حول كورتيس أقاويل كثيرة في العاصمة. وقد سمعتُ قبل لقائه من أقاويل الناقلين عن غزوه تينو شتيت لان وتدميرها، والملكِ الذي قتله، والألوف الذين استعبدهم ووسم جلودهم، وألوفٍ غيرهم ذبّحهم في شيلولة، والعساكر الذين أُثقلوا بسبائك الذهب فغرقوا في بحيرة قرب المدينة. كما تعجّبتُ من حكاية ابنيه، وكلاهما سُمّيا مارتين. فأما مارتين الأول فابن لا مالنشه دليلة كورتيس وترجمانه ومحظيّته، والمرأة التي فتحت له طريق مملكة الأزتك. وأما مارتين الثاني فابن دونّا خوانّا زوجة كورتيس القشتالية، وكان أصغر من مارتين الأول بتسع سنين. ويُقال إن كورتيس سيوصي بلقبه لمارتين الثاني.

ولعلّ ما سمعته عن الرجل أوقع في قلبي الرهبةَ منه، فإنّي تصورته متناهي الطول، فوجدته أوسطه مشدود القامة، ذا عينين ضيّقتين لّماحتين، لا يداخل مسلكه زهوٌ ولا تصنّع، فذكّرني، لعجبي، بنارفاييز. وأجلسنا نحن الأربعةَ حوله على مائدة صغيرة لا يشاركنا فيها الطعام ولا الكلام ضيوف آخرون، ويقف قربنا أحد خدمه الأزتكيين يأمر باقي الخدم خفيةً بجلب الأطباق أو رفعها. وجمع الطعام ما بين الأصناف القشتالية والأزتكية؛ فمنها لحوم الطيور البرّية والسحالي، والذرة المهروسة ملفوفة بورق الشجر، وفطر في مرق طيب المطعم، ونوعان من القرع المطبوخ، والشوكولاتل الساخن المصبوب في أقداح رُبطت حولها شرائط من ذهب. وما تناول كورتيس إلا قليلاً، لكن سأل كثيرًا، فقال: كيف وجدتم الحياة في العاصمة؟

أجاب دورانتس: قد طالت غيبتنا حتى كدنا نقول إنّ لا أحد يتذكرنا. ولم نتوقع قط استقبالاً عظيمًا كالذي وجدنا في المكسيك ولا دعوات كثيرة، بل إني أقول إننا مُعجَزين من تلك الرعاية.

وقد بادر دورانتس إلى الكلام سريعًا يرمي إلى إبهار كورتيس العظيم أو إثارة اهتمامه، لكنه سكت بعد ذلك يجمع أنفاسه، فاستغلّ كابيزا دي فاكا الفرصة فتحدّث: والناس يفتعلون أغربَ الأكاذيب عنّا، حتى إنهم يدّعون أننا سحرنا الهنود.

وقال كورتيس: صدقوني يا سادة، لا أحد في إسبانية الجديدة يعلم ما تتعرضون إليه مثلي. وإن الأقاويل التي تُشاع عنّي في الحاضرة وفي بلاط الملك لتجعل رجلاً أقل جلدًا يهجر الناس والدنيا كلّها. بيد أن قيمة المرء هو في نفعه لمليكه، وما إلى ذلك من سبيل إلا بالتقوّي على القيل والقال بالعمل والكد.

وهزّ رفاقي رؤوسهم في وقار، كأنه سقاهم من ينابيع الحكمة التي لم

يرتووا منها من قبل. وهذا مثال أضربه على أثر شهرة كورتيس المعروفة الموصوفة، حتى أنّ أتفه كلامه يُقابل بالانبهار والإكبار. ثم قال الماركيز: سمعتُ أن نائب الملك أشغلكم.

وأجاب كابيزا دي فاكا: منذ بضعة أسابيع.

وسأل كورتيس: أخذ منكم شهادتكم؟ ولمستُ من سؤاله معرفته بالجواب. ومعلوم أن له جواسيس في كل أنحاء الإقليم، وأما النواحي التي لا تبلغها عيونه فقد تحالف مع أهلها فيبلغونه بما يريد. ولا عجب في ذلك، فهو أول الواصلين إلى المدينة، قبل نائب الملك حتى، وكان على ودٍ مع الكثير من كبرائها ممن يحكمون المدينة أو يتاجرون فيها.

وقال كابيزا دي فاكا: أخذ معظمها.

فقال كورتيس: لا راحة لنائب الملك إلا يوم اكتمال سجل شهادتكم. ثم مال على الطاولة، وقال كمن يسارّنا: بيد أن الرجال، من أمثالي وأمثالكم، الذين خاضوا غمار أراضٍ ما عُمّرت ولا أُهلت يعرفون ما لا يعرفه الكتّاب أبدًا. شتّانٌ بين الرؤية والكتابة. إنما نحن المقاتلون يا سادة. نحن المقاتلون.

وكانت لتلك الكلمة وقع عظيم على أنفس رفاقي، لا سيما كابيزا دي فاكا الذي مدّ عنقه ونفخ صدره. وأعلم كورتيس أن نائب الملك عهد إليه بحمل السجل المشترك إلى سانتو دومنيغو في جزيرة لا إسبانيولة، كي يُعرض على البلاط الملكي. ومن هناك يعود إلى بلده قشتالة.

فسأل كورتيس: وماذا يعتزم السيدان فعله؟

وأجاب دورانتس: ما زلت أحاول جمع المال للسفر إلى إشبيلية، غير أن الثمن غالٍ بما لم أتصوره. وكان دورانتس قد استدلّ على طريق الحوانيت الإسبانية في تينو شتيت لان، فرجع إلى عادة القمار التي قطعها مذ كان في

إشبيلية. وأنفق نصيبه من بيع عطايانا، واضطرّ إلى أن يبعث إلى أبيه طلبًا للمال الذي يكفل له سفره. ومع دنوّ موعد الرحيل فتر حماسه واستطاب القعود. كان يحلم قبل ثمانية أعوام أن تخضع لا فلوريدة له، وأن يرجع إلى بيهر ديل كاستنيار مجلّلاً بالذهب مرفوع الذكر، فانتهى به الحال ضيّق اليد ضائع المجد.

قال كورتيس: لعلّي أمدّ لك يد العون في تكاليف السفر.

فردّ دورانتس: من فضلك وكرمك! فلمّا أحسّ أن صوته كشف ارتياحه خجل واحمرّ وجهه.

وقال كورتيس: إنه من دواعي سروري. وهبّت نسمة حرّكت أوراق الشجرة التي نجلس تحتها، وارتعش لهب الشمع على طاولتنا. ودار الفنّانون حول الفوّارة ثانية كي يفسحوا الراقصين ملثّمين الساحة فيرقصوا لنا. وظللنا نشاهد الرقص حتى قال كورتيس: أصحيح ما سمعتُه أن عبدك خبير بكل الطرق في أرض الشمال وأنه يتكلّم ألسنة القبائل؟

فقلت في نفسي: رحمتك إلهي! ألا ينتهي العذاب؟

وأمال دورانتس رأسه إلى اليمين متعجبًا من تلميح كورتيس المتواري في سؤاله، فهو إن أراد أن يساعده الماركيزُ على الرجوع إلى بلده عليه مبادلة عبده بالمال. وقد قرأتُ في وجه دورانتس أن الفكرة ما خطرت عليه من قبل قط، فأما وقد خطرت الآن سكت ولم ينطق.

ونظرت إلى كاستيو وكابيزا دي فاكا فأشاحا بصريهما عنّي، لا أعلم متعجّبين مما قال أم لا مبالين. فانحنيت في مقعدي وقلت: ارتحلنا معًا ثماني سنين.. ثماني سنين! وكرهت أن يسمعوا في صوتي نبرة استعطاف مخنوقةٍ ما استطعتُ اخفاءها.

فأومأ كورتيس برأسه وقال: نعم، أعلم. ولم يبدُ عليه الغضب ولا الاستياء من مقاطعتي. فما كنتُ في نظره إلا طوبةً يبني بها صرحه. وكما استعان بلا مالنشه في غزوه المكسيك، فهو يحتاج إليّ دليلاً وترجمانًا للرحلة التي يعتزمها إلى الشمال.

وفرغ الراقصون من رقصهم وانصرفوا نحو اليمين، فأعقبهم لاعبو الكرات، وكانوا يلبسون تنانير قطنية وطواقي ذات ريش. وأخذوا يرمون في الهواء كرات مختلفة الألوان، فتدور وتدور حتى تتمازج ألوانها من سرعة الدوران. ووازن أحدهم كرةً على أنفه وهو يرمي سبع حلقات معدنية في الهواء في الآن نفسه، وثانٍ استلقى على ظهره وشقلب جذعًا طويلاً متينًا بباطن قدميه.

قال دورانتس: لطفك غامر يا سموّ الماركيز، غير أنّي أنتظر وصول مال من والدي قريبًا.

فقال كورتيس: فكّر بالأمر. دعونا من الحديث عن المال في هذه الساعة. ترون الآن لاعبي الكرات الهنود يستعرضون فنّهم. أترون هذين الاثنين القريبين من كابتن كاستيو؟ كانا يلعبان في قصر موكتيزوما، أما ذاك الآخر فعثرتُ عليه في قرية تبعد مئة وخمسين فرسخًا من هنا. انظروا يا سادة. انظروا...

***

واكتمل السجل المشترك بعد سبعة أيام من وليمة كورتيس، فرحل كابيزا دي فاكا عن تينو شتيت لان. ورغم أنه قد أعلمنا بعزمه على الرحيل فور اكتمال شهادتهم فإن رحيله غافلنا بسرعته. ووقفنا نقلّب أيدينا لا ندري أي كلمات نقولها في وداع رجل شاركنا رحلتنا العجيبة. بيد أنه بدا لنا رابط

الجأش، وقد عانقنا بحبٍ ثم امتطى فرسًا ابتاعها بما كان من نصيبه من نقود. وكانت فرسًا بيضاء طويلة عظيمة، بديعة الخلقة كثيفة شعر الناصية؛ فرس تشهد بعلوّ مقام فارسها.

وأمسك كابيزا دي فاكا بلجامها واستدار ينظر إلينا، فكان في هيئته سيدًا قشتاليًا خالصًا، بالقميص والعباءة، والسروال والحذاء المربوط. وأمعن دورانتس النظر فيه بحسد لا يخفيه، وهو يدري أن أباه لن يبعث إليه مطلبه إلا بعد حين، فحتى يكون ذلك ليس بيده إلا العيش على ما بقي من ماله. والأدهى هو ما بدا من نائب الملك من تلميح لدورانتس وكاستيو بضرورة انتقالهما إلى دار الضيافة حيث أسكنُ، لأن ضيوفًا من كوبة قادمون في بضعة أيام ولا حجرات تكفيهم كلهم في القصر.

وأتذكّر أنه كان صباحًا في فصل الخريف ينبئ بنهار حار رطب. والطيور التي كانت عادتها التغريد من مرابضها على قمم الأشجار في بستان القصر صامتة. والحارسان المثقلان بخوذتيهما ودرعيهما وسلاحيهما يستندان إلى بوابة القصر المفتوحة، ومن بينهما، أسفل طاق البوابة الحجري، نرى ساحة المدينة وعابريها.

سأله دورانتس: أمعك الرسائل التي أعطيتك إياها؟

فوضع كابيزا دي فاكا كفّه على خُرج فرسه وقال: أجل. وسأناولها أباك بيدي.

ابعث لي خبرًا حين وصولك إلى فيراكروز.

سأفعل. وآمل أن أراكم في قشتالة قريبًا.

بمشيئة الله.

ثم وكز كابيزا دي فاكا فرسه ورحل، وظلّ دورانتس يحدق في أثره في

لهف. ثم استدار وسرنا نحن الثلاثة بتؤدة حول بناء القصر نحو دار الضيافة نبتغي تناول الغداء مع زوجاتنا. وقد أغمّنا رحيل صاحبنا عاجلاً مفاجئًا فشئنا ألّا نأتِ على ذكره أثناء الأكل. بل كنا نتحدث عما نفعله بالهدايا التي حفظناها في خزانة مقفلة في دار الضيافة؛ ومنها الأواني الفضية المنقوشة، والصحاف المزخرفة، ولفائف القماش الفاخر. وهي هدايا أرسلها إلينا سادة المدينة تقديرًا للحكايات التي أمتعناهم بها في الولائم المقامة احتفاءً بنا. وودّ دورانتس أن يبيعها كلها، وإن كان ينبغي عليه فعل ذلك خفية كيلا يعلم الناس بأمر عوزه إلى المال.

وخلد الجميع إلى حجراتهم للقيلولة بعد الغداء، لكني بقيت مع دورانتس في حجرة الاستقبال رغبةً في تذكيره بأمر كاتب العدل. وعَبَرَ شعاع الشمس من الشبابيك المفتوحة، ومع سكون الدار وأهلها يسمع المرء مروق الحشرات بين أوراق الشجر. وأسند دورانتس رأسه على الأريكة ثم مدّد ساقيه، فيخال من يراه أنه رجل كدّ في طلب العيش طول نهاره فحقّت له الراحة. فلما تكلّمت حرصت على ثبات صوتي، وإن كنتُ أنتظر هذه الساعة منذ ثمانية أسابيع كادت لا تنطوي. فقلت: إنكم أتممت شهادة السجل يا دورانتس، فمتى نذهب إلى كاتب العدل؟

فانقلب وجهه من النعاس إلى العجب، ثم انتصب في جلوسه وحدجني بنظرة من عينيه الزرقاوين. ألا تدري أن نائب الملك عرض عليّ خمسمئة بيزو كي أبيعك له؟ أتعلم بما أجبته؟ قلتُ لا. ورفع حاجبيه تحديًا، كأنه يتوقع مني شكره على الرفض.

وفتحت فمي فهممت بالردّ، لولا أني لم أعرف ما أقول. وأيُّ رد أحاره دون أن يجد في كلامي مجادلةً أو إهانةً أو حتى تسلية له. فلو أنّي قلت: أنت وعدتني هذا، فربما يقول إنّي أرتاب بصدق وعده، ثم نتشاجر. ولو أنّي قلت

إني انتظرت صك البيع طويلاً، فقد يسألني عن سبب استعجالي وأي خطط أخفيها عنه. ولو قلتُ إن صكّ البيع الذي كان معه قد تلف منذ زمن، لضحك استهزاءً، وقال إنه لا يحتاج إلا إلى شاهدين قشتاليين يشهدان بحقه في ملكيتي، فيصدر عقد بيع جديد.

وأرحت ظهري على الأريكة، بين وسائد الدمقس الوثيرة، والحجرة بألوانها وزخارفها تدور أمام عينيّ. أقول في نفسي: ليس هذا ما أردتُ حدوثه. أردتُ أن تكون تينو شتيت لان بداية عهد جديد. لكنني ودورانتس عدنا، دون علمي، وفي مهلٍ، إلى ما كنا عليه قبل سنين. عاد هو إلى مكانه في الشمس وتراجعتُ حتى احتواني الظل. صار هو المتكلم أبدًا، وأنا المستمع دومًا. هو المدبّر وأنا المستجدي. هو السيد وأنا العبد.

ودخل خادم أزتكي في تلك الساعة يبلغنا بوصول هدية من إرنان كورتيس، فأمره دورانتس بإحضارها. وفتح الخادم الباب فدخل كلبان سلوقيان، ذكران أسمران، عمرهما ما بين الثمانية والعشرة شهور. فصارا يدوران في الحجرة يهزّان ذيليهما، ويشمان أكفّنا وأقدامنا والأثاث. ونهض دورانتس غير مصدّق ما يرى وقال: ما يحسبني فاعلاً بكلبين؟! فلم يجب الخادم، ولا يمكن ردّ هدية من كورتيس دون إيقاع الإهانة به.

وتلك أول مرة أبصر بها سلوقيًا في إسبانية الجديدة، فذكّرني طول وجهها بسلوقي البربر التي تستعمل في اقتناص الأرانب، بيد أن لونها أقرب إلى لون الكلاب التي تربيها قبيلة كابوكوي. ولمّا اجتمعت الذكريات، هذه من أيام أزمور وتلك من أعوام بلاد الهنود، أثارت في نفسي حزنًا وتوقًا عميقًا.

وخرج الخادم فجلس دورانتس ثانية. وكان يودّ أن أتكلّم برأي في شأن رفضه المال، فلمّا طال صمتي وزاد حَسِبَ أني جاحدٌ مكرمته. فاستحثّني على إبداء الامتنان لشجاعته في رفض مطلب نائب الملك. وأراح مرفقيه على

ركبتيه وسأل: من يأبى عرضًا من مندوزا؟

لا أحد.

فقال: لا أحد عاقلاً يردّه. ثم قام واتّجه إلى الباب الزجاجي، والكلبان في أثره وهو لا يلقي لهما بالاً. ثم سأل مدبرًا ظهره لي: أهناك عبد غيرك في إسبانية الجديدة يُدعى إلى موائد نائب الملك والماركيز؟

لا.

أو تناول القربان من يد الأسقف؟

لا.

أو يُستضاف في دار الضيافة في قصر نائب الملك؟

لا.

أتعرف سيدًا غيري يسمح لعبده أن يجول كما يحلو له في شوارع المدينة؟

لا.

فلِمَ تريد الفرار كما فعل كابيزا دي فاكا؟ صبرك يا إستبانكو. فلم تنتهِ مغامراتنا نحن الاثنين بعدُ.

ثم عاد إلى مقعده على الأريكة. فدنا الكلبان منه يشمّان يديه فطردهما في سخط واستدار إلى جانبه، وما لبث إلا قليلاً حتى غطّ في النوم.

***

ولمّا دخلتُ حجرتي رأيت الستائر منسدلة، فكانت في ظلام كاحل. وتسللتُ على أطراف أصابعي أريد بلوغ السرير دون أن أوقظ زوجتي. وكانت مفارش السرير القشتالي الوثير قد أغرتها بعد تمنّعٍ فصارت ترقد

عليها. غير أنها لم تكن نائمة. جلستْ وهي تلبس قميصًا أبيض، وشعرها الأسود يجلّل كتفيها، فسألت: ماذا قال دورانتس؟

أجبتها: لا شيء، وأنا أكاد لا أنظر إليها من الخزي. فجلستُ على طرف السرير وخلعت حذائي على مهلٍ. وفي قلبي وعلى جسدي همّ تنوء به الجبال، فما أردت إلا الاضطجاعَ والرقاد رقدةً لا أفيق بعدها.

هل أبدى عذرًا آخر؟

حللت أزرار القميص ببطء، وكل حركة آتيها بمبلغ الجهد.

وسألتْ: لماذا؟ لماذا تصدّقه؟

استلقيتُ بجوارها وأغمضتُ عينيّ. فبرزت في مخيلتي صورة كسرة الزجاج الصافي تحت شجر الصبار الملتف في بلاد الذرة. كنتُ حينها رجلاً حرًا، أسعى في أرض الله الواسعة، أزوّد الناس بالدواء وأجني قوتي بيدي. لكنني، بيدي كذلك، بدأتُ سلسلة من الأحداث أودت بي إلى هذه المدينة، هذه الحجرة الضيقة، هذا السرير. ولم أخسر حريتي ثانية فحسب، بل ضيّعتُ حرية زوجتي كذلك. فاجعة. فاجعة لا تُطاق.

قالت أويوماسوت: اسمع. ثم وضعت يدها على وجهي حتى فتحتُ عيني. اسمع يا حبيبي، كلما سألتَه زاد بك تمسّكًا. ما تطلبه لا يُنال بالطلب، بل يُؤخذ بالإكراه.

وكان على طاولة قرب السرير دورق ماء بعثه هديةً سيدٌ أزلنا سأمه بحكاياتنا. فصبّت أويوماسوت لي كأسًا، ومسحتْ أسفلَه براحتها، ثم ناولتني إياه. قالت: اشرب. اشرب. أراك كالمحموم. فارتشفتُ منه ثم انقلبت إلى جانبي، ورحت في نوم عميق لم تكدّره الأحلام.

ولّما أفقت بعد ساعات وقعت في قلبي خاطرة وحيدة؛ وهي أني خسرت

كل شيء. فقدت هدير أم الربيع، ومرأى المنارات الإحدى عشرة، وضجّة السوق، وطعم التين المقطوف من شجرة الدار، ولآلئ الندى توقظني لما أغفو على سطح دارنا في قيظ ليالي الصيف. وخسرتُ المروج الخضراء الممتدة، وطعم الغزال أصيده بنشابي، وقرع الطبول حول نار المعسكر في الليل. ضيّعتُ حقي في الذهاب والإياب كما أشاء، وحقّي في العمل كما أحب، وحقّي في عبادة من أريد. وقدّمت زوجتي أضحيةً في مذبح مطامحي. فرجعتُ إلى الظلام بملء إرادتي.

خسرتُ كل شيء.

لكن صوتًا في داخلي هتف: لا... لم تخسر كل شيء.

ما زال معي شيء واحد. حكايتي. طفتُ بلاد الهنود وشهدت أمورًا كثيرة آثر رفاقي تحريفها أو السكوت عنها. وما بدّلوه أو حوّروه أو أغفلوه إنما هو قلب روايتنا، وهو ما لا يصح تفسيره، بل يُكتفى بسرده. وأنا من يرويه. أنا من سيثبت الحق بعد ارتفاع الباطل. ولأجل هذا شرعتُ في تدوين روايتي. ولكل كذبة سمعتها عن الحملة الاستكشافية التي جلبتني إلى طرف العالم، سأكشف الصدق.

23

حكاية دار الضيافة

في مساء بارد في الشتاء، دخلت دكان الفرّان المجاور للجامع الكبير. وقد صُفّت صواني الخبز لأهل الحيّ في أربعة صفوف منتظمة على الجدار القصيّ، وكل صينية معلّمة بعلامة تخصّ صاحبها؛ فإما نقش صغير على مقبضها أو أنها مغطّاة بقماش ملوّن. وارتفع اللهب الأصفر من فم التنّور، فلحقني وأنا في موضعي عند باب الفرّان ناحية الشارع. وسلّمت على صبّي الفرّان وهو فتى في الثانية عشرة أو الثالثة عشر لم أره يشتغل في الفرن من قبل. فسألته: ألم يأتِ مهند اليوم؟ ولم يجبني الفتى. بل مدّد العجينة على عصا الخبْز، ثم دسهّا في قلب التنور، في صفٍ واحد مع الأرغفة الأخرى. وسألته ثانيةً عن الخبّاز: أين مهند؟ فأراد الصبي أن يلتفت نحوي فإذا بيده تلمس باب التنور. فصرخ من الألم صراخًا عاليًا، عاليًا جدًا، وأفقتُ من نومي.

جلستُ في فراشي لا أدري أكانت الصرخة صدىً لحلمي أم أنها حقيقة. لا، سمعتُ الصرخة من داخل البيت. ولم تنزعج أويوماسوت النائمة بجانبي ولم تتحرك. ثم ارتفعت صيحة وجع ثانية فبدّدتْ الصمت. أزحتُ لحافي وهرعت إلى الباب ثم وقفت في البهو. شممت في هوائه رائحة الدجاج المشوي، وكان عشاءنا بعد الاحتفال بعيد النصارى بمولد المسيح. وسمعتُ الكلبين يخدّشان باب المطبخ في الطرف القصي من الدار يريدان الدخول، فتذكرت أني لم أربطهما قبل نومي. ثم فُتح باب غرفة دورانتس وخرج في قميص نومه، فوقف كأنه رجل ضلّ الطريق إلى بيته. ولم يكن في المكان إلا

نورُ الشمع من جوف الحجرة، فلمّا أبصرني واقفًا انفكّت أساريره، ثم همس: تيكوتسين.. تيكوتسين ستلد.

وهززتُ رأسي ثم ذهبت أوقظ أويوماسوت.

وظلّت زوجته في المخاض الليلة بطولها. وخرجت لأربط الكلبين، فكانا ينبحان ويجريان ويثبان ويدوران، كأنهما يعلمان ما يجري في الداخل، فأذعنتُ وأدخلتهما معي إلى الدار. ووجدت دورانتس جالسًا وحده مشتملاً لحافًا إسبانيًا، وقال: إن كانت بنتًا سمّيتها بيلار، أو ربما هيمينا. كانت لي عمة اسمها هيمينا.

كرهتُ الظلام الذي يكتنف حجرة الجلوس، فوضعت حطبًا في المدفأة وأوقدت النار. ووقف الكلبان على جانبيّ وأنا أشعلها، فلما جلست على الكرسي ربضا عند قدميّ. وكنت شديد التعلّق بهما منذ أن دخلا حياتنا قبل بضعة أسابيع، فإن رأيت الجوّ صحوًا أخذتهما إلى البحيرة ليجريا حولها بحرية بعض الوقت. وكنتُ أحب هذه الجولات لأنها كانت عذري في الابتعاد عن دار الضيافة، وحديث أهلها الذي لا ينقطع عن المستقبل. وكنت أحتاج إلى الاعتزال بنفسي بعض الوقت لأفكر بوسيلة الخروج من مصيبتي الجديدة.

وأنشأ دورانتس يحدّثني فقال: أتذكّر يوم مولد أخي دييغو. كنت في الثالثة عشر، أجلس مع معلّمي في المكتب، حين أقبل أحد الخدم يخبرني أن أمي تشكو آلام الولادة. وكان والدي في إكستريمادورا في ذلك الحين. فبعثتُ الخادم في طلب الطبيب لكنه لم يكن في بيته، فأخذ الخادم يبحث عنه. قتلني الهمّ، وشعرت أنهم تركوني وحيدًا أحمل أعظم حمل في الدنيا. فكانت الغسّالة هي من ولّدت أمي. وأتذكر أنها خرجت إلى البهو كي تريني دييغو، وهو ممهّد بمهاد من كتّان. كان صغيرًا. خشيتُ أن ينكسر إن لمسته.

وسألته: وإن كان صبيًا؟ ماذا تسمّيه إن كان المولود صبيًا؟

فكاد دورانتس يتكلم ثم أحجم. فسكتنا بعد ذلك، وأظنه نام وأنا أيضًا، لأني أتذكّر أني أفقت على صوت فتح الباب، وكان الصباح قد انبلج وضوء الشمس يدخل من الشبابيك. فظهرت علينا أويوماسوت تبتسم وقالت: ولدت بنتًا.

ووقف دورانتس ومدّ يديه يريد حملها، فلاحظتُ تردد زوجتي في تسليمها إليه، والمولودة ما زالت رطبة بماء الرحم. كانت جميلة كأنها القمر ليلة تمامه، وجهها مستدير وفمها صغير ورموشها طويلة، تنظر إلى عالمنا المزعج بعينين مدهوشتين. فصرفت عينيّ عنها وإن كنتُ أعلم أن الغبطة تسكن فيهما، كما تسكن في عينيّ أويوماسوت.

وجلس دورانتس بجوار المدفأة، ومولودته بين ذراعيه يلاطفها ويقول: عمي صباحًا.. عمي صباحًا يا سيدتي الصغيرة.

وسُمّيت البنت هيمينا ماريّا، وكنّا ندعوها ماريّا لا مستيزا. وكانت تجد كل الرعاية منّا، فهذا يحملها وهذا يقبّلها، وهذي ترضعها والأخرى تقمّطها وتهدهدها، ولكن ما أن حلّ عيد القيامة حتى أرسلها دورانتس كي تعيش في دير للراهبات الإسبانيات يبعد عشرة فراسخ شمال المدينة.

***

وحلّ الربيع باكرًا في ذلك العام، فانجلت السحب بين ليلة وضحاها، واستحثّ الدفء براعمَ شجر البرتقال في فناء الدار. وكان دورانتس يتأهب للرحيل إلى إشبيلية بعد طول تردد عندما بعث نائب الملك مندوزا يطلب حضورنا نحن الاثنين فقط. وبينما نحن نقطع المسافة ما بين دار الضيافة والقصر تساءل دورانتس عما يريده منّا.

فلمّا بلغنا باب القصر، وقف دورانتس ليتأكد من تأنّق منظره قبل الدخول على نائب الملك، فإذا بعيني تلمح شيئًا على الأرض، فالتقطته ورأيت متعجّبًا أنها تميمة خشبية على هيئة يد. أصُنعتْ في تينو شتيت لان أم جُلبت إلى هنا من مكان آخر؟ وكانت تشبه التمائم التي كانت أمي ترتديها، لا فرق بينهما عدا أن تمائم أمي مسبوكة من معدن وهذه من خشب. فدسست التميمة في جيبي وأنا أحسب أنها بشارة حسنة.

وأُدخلنا إلى المكتب الخاص لنائب الملك، وهي حجرة مرتفعة السقف، ينتصب في كل زاوية من زواياها الأربعة تمثال لمحارب أزتكي مزيّن الرأس بالريش. وقد عُلّقت على جدرانها لوحات مرسوم عليها وجوه الملك كارلوس والملكة إيزابيلّا، وثالثة تجسّد صورة المسيح عيسى وحوارييه. وكان نائب الملك يجلس على كرسي يمدّ ساقه في حجر خادم هنديّ كي يشدّ له رباط حذائه. ولمّا كانت الحجرة مفروشة بسجّاد ثقيل فقد كتم صوتَ خطانا بعد ولوجنا الحجرة، فلم يعلم مندوزا ولا خادمه بوصولنا. فتنحنح دورانتس ورفع مندوزا رأسه، ثم صرف الخادم بإشارة ووقف. قال: أهلاً يا كابتن. لطف منك أن لبّيت الدعوة.

قال دورانتس: أشكرك على دعوتي.

فسأله نائب الملك: سمعتُ أنك بصدد تركنا؟

في بضعة أسابيع. سأرجع إلى إشبيلية.

ألا يسعنا ترغيبك في المكث ولو قليلاً؟

لطف سموك يغمرني.

إن الرحلة إلى قشتالة عسيرة.

الحق ما قلتَ.

فعبس مندوزا وقال: والأصعب منها هو الحصول على منحة من جلالته. فربما استغرق الأمر سنين.. عشرًا أو تزيد. ولكنك إن بقيتَ في إسبانية الجديدة وخدمتَ جلالته على نحو مختلف فسوف تُكرم جزيل الكرم. فأنا أعدّ العدة لحملة إلى المدن السبعة.

وارتعشت روحي هلعًا لما سمعتُ هذا الاسم. وكنت قد سمعتُ عن المدن السبعة قبل شهور، فلم أحسبها إلا أسطورةً نبتت من خيال راوٍ ابتغى تسلية الأطفال في ليالي الشتاء. وتقول الحكاية أنه لما غزا المغاربة مملكة البرتغال في القرن الثامن فرّ سبعة أساقفة من البلاد ومعهم أتباعهم، فأبحروا غربًا عبر المحيط. ووصلوا إلى جزيرة شاسعة خصبة وأنشأ كل واحد منهم عليها مدينة. ولقد عمّ الرخاء والازدهار تلك المدن حتى سُمّيت بمدن الذهب السبعة.

فقلت في نفسي: إن لمندوزا ذهب تينو شتيت لان كلّه، وهو مع ذلك يبتغي المزيد. وكنتُ في صباي أظنّ هذا الطمع أمرًا من طبيعة الإنسان وهي خصلة حميدة، بيد أنّي أراه اليوم فسادًا وسوء مآل. ألم يكن الطمع هو ما كرّه إليّ حياة كاتب العدل وحبّب إليّ حياة التجارة؟ ألم يكن الطمع هو ما أغواني ببيع البشر عبيدًا؟ ألم يكن الجشع هو ما أهلك ثلاثمئة رجل من حملة نارفاييز في أرض لا فلوريدة؟

وسأل مندوزا: أتذكر القصة التي رويتَها لنا قبل شهور؟

فتبادلت ودورانتس النظرات. فلقد روينا حكايات كثيرة عن أسفارنا وجولاتنا في ولائم العشاء التي دُعينا إليها، فاكتسبتْ بعض هذه القصص إضافات وتحريفات مع جريان الألسنة بها، فلم نعلم أيها يقصد.

وابتسم مندوزا وقال: حدّثتمونا عن هنودٍ يسكنون قرى مستقرّة شمال

نويفا غاليسيا، وأنهم حكوا لكم عن مدن تبرق أبوابها بريقًا عظيمًا تحت نور الشمس، حتى إنّ الواقف على مبعدة يغضّ بصره وإلا أصابه العمى. لا ريب أن هذه هي المدن السبعة.

أتعتزم سمّوك إرسال حملة إليها؟

أجل، لكنها حملة صغيرة فيها راهبان وبعض الخيول وفرقة من الأميغوس. لن أرسل الكثير. ورجل في خبرتك لن يلقى صعوبة في قيادتها.

فأجاب دورانتس في حذر: ليس صعبًا البتّة، وبودّي لو استطعت الذهاب بيد أن العذاب الذي عشته في لا فلوريدة وما وراءها أفقدني حب استكشاف أي أراضٍ جديدة. ألم تفكر بكابتن كاستيو؟

بلى فكّرت. لكنه... لا أدري كيف أقول ذلك... إنه في نظري ليّن. ألم يكن في الثامنة عشر أو التاسعة عشر يوم تركتم إشبيلية؟ لقد قضى ثلث عمره بين الهنود، وأظنه يحمل في قلبه مودةً عظيمة لهم.

لا أعلم بما أجيب سموّك. إني أعلم علم اليقين أن كاستيو خادم أمين لجلالة الملك.

لا ريب أبدًا في ذلك، وهو من خيرة الرجال. أصدقك القول بأني لا أظنه الرجل المناسب للحملة التي أخطط لها، وأرى أنك أنت أهل لها.

ثناؤك يخجلني يا سمو نائب الملك. لكن كما قلتُ لا أود استكشاف أقاليم جديدة في الوقت الراهن.

لعلنا إذًا نتباحث في أمر اتفاق آخر؟ قيل لي إن الهنديات اللاتي أتين معكم قد أتممن تعلّمهن الدين النصراني. أرى أن باستطاعتهن أن يكنّ أدلّاء في هذه الحملة. ولكني أريد أن يكون فيها رجل يعين الراهبَين والفرسان ليعبروا أراضي الشمال في أمان، رجل له سلطة على قبائل الهنود كما لك. سمّه

مبعوثًا إن أحببتَ. رجل مثل عبدك إستبان.

أحسست بقشعريرة تسري في بدني. أهذا هو الفأل الحسن الذي حسبت أني ملاقيه لما عثرت على الخمسة؟ أيكون الأمر الذي لطالما خشيته هو ما يعيد إليّ حريتي؟

لكن دورانتس أجابه: إنه لكرم من سموك أن تفكّر به، غير أن إستبانكو معي منذ عشر سنين وإني شديد التعلق به، فلا أحسبني أقبل بيعه أبدًا. وأما النسوة فإني أحتاج إليهن لتدبير أمور بيتي، وأفضّل بقاءهنّ هنا في المدينة، فهذا أدعى لتلقّيهن تعاليم المسيحية من قسيسي الكنيسة.

فقال نائب الملك: كما تشاء. ولكن تذكر أن جلالة الملك ينظر بعين الرضا لمن كان خادمه ساعة حاجته.

وشيّعنا مندوزا إلى باحة القصر، فلمّا رأى الحرّاس اقترابَه استقاموا وضربوا الأرض بأقدامهم. وكان سرب من طيور السنونو يحوم فوق فوّارة الماء، بعضهم يحلّق وبعضهم يشرب منها. والشمس متعلّقة في كبد السماء، فرفع نائب الملك وجهه شطرها يدفئ نفسه ما استطاع. وقال: ما أجمل هذا اليوم. ثم أضاف كأنما تذكّر الخبر: أتتذكر دونّا ماريّا دي لا توري؟ تلك السيدة اللطيفة التي كانت ترتدي ثوبًا من الحرير الأسود في وليمة الأسبوع الماضي؟ ورثت عن زوجها إينسوميندا..[1] كبيرة جدًا، ألف وخمسمئة هندي. يسعدني أن أعرّفك عليها.

***

وفي مساء دافئ في الصيف كنت وكاستيو جالسين في شرفة الدار، تحت

1- منحة من التاج الإسباني لمستوطن في القارة الأمريكية على هيئة إقطاعية كبيرة، تعطيه الحق في طلب الجزية من سكانها الهنود وإجبارهم على العمل.

ظلةٍ صنعتها زهور الجهنمية البيضاء منبتها سياج البستان. وانبعث من ساحة المدينة أنغام العزف الخافتة من كمنجات وأطبال ترويحًا لأنفس السائرين. ولا صوت انبعث من داخل الدار الساكنة، حيث لم يشرع الخدم في إعداد طعام العشاء بعد. وقد رجع كاستيو منذ برهة من جولة على بحيرة تيزوكو اصطحب فيها دونّا إيزابيل، وهي سيدة التقى بها في إحدى ولائم نائب الملك. وهو جالس الآن بعد أن نزع حذاءه الأسود وجوربه الأبيض، فأخذ يدلّك قدمه اليسرى بين أصابع قدمه اليمنى بقوة، ليسكن حكّة أو ألمًا. واشتكى قائلاً: كم أكره ارتداء الجورب.

فسألته: ولِمَ ترتديه إن لم يكن يريحك؟

فرفع كتفيه وقال: أنا مضطر. كيف تريدني أن أمشي في المدينة حافي القدمين؟

وانقصمت أعواد من وراء شجيرات الخزامى، فرفع أحد الكلبين الراقدين عند قدمي رأسه، فلمّا لم يرَ شيئًا عاد إلى نومه. وسألته: هل استمتعت بنزهتك؟

فأجاب كاستيو: أجل. قطعت دونّا إيزابيل المحيط من قشتالة إلى هنا لتكون إلى جوار زوجها، وكان أحد رجال مجلس المدينة. فما لبثا إلا ستةَ أشهر حتى قُتل، فصارت وحيدة في إسبانية الجديدة. وليس لها أهل في الحاضرة ما خلا بعضَ الأصحاب الذين تعرفت عليهم يوم وصولها.

وأنت واحد منهم؟

أجل. وهي من تورديسياس، وهذه مدينة ليست ببعيدة عن شلمنقة.

وإن كان وجه كاستيو مخفيًا بجنح الظلام، فإني لمستُ في صوته سروره بالرفقة الجديدة التي اتخذها. وتناهى إلى أسماعنا صرير الجنادب بين الخمائل.

وأنارت شمعةُ المطبخ فنفذ نورها من شبّاكه، كأن الدار فتحت عينًا تراقبنا.

وسألته بعد صمت: وماذا سيحلّ بكيوان؟

فأجاب في عزم: لن يتغير ما بيننا، إنما هذا الأمر مختلف.

فقلت في نفسي: كل شيء اختلف في إسبانية الجديدة. رحل كابيزا دي فاكا. وقلّما نجد دورانتس في الدار وهو يتودد إلى الأرملة دي لا توري بعدما قدّمه نائبُ الملك إليها. فكان مقعده بيننا خاليًا الآن. فانقضّت على ذهني ذكرى ذلك اليوم حينما كنّا نعيش مع قوم كارانكاهوا، لمّا أفقت من النوم فوجدته قد فرّ من دوننا. سألت كاستيو: أحدث أن كلّمتَ دورانتس بأمر كاتب العدل؟

رطّب كاستيو شفتيه بلسانه. وقد كبر الفتى الذي كان في أول لقائي به، وهو وإن كان بطبيعة خلقه نحيلاً فإن بدنه ثخن إثر استقرارنا في تينو شتيت لان أمدًا طويلاً حتى شارف على السمنة. فأخفض عينيه ناظرًا إلى الأرض وقال: سألتُ دورانتس مرات عديدة عن سبب تأخيره إنفاذ أمر تسريحك يا إستبانكو.

وماذا قال؟

كان يردّ أن هذا ليس من شأني.

وأعلم أن لا مسوّغ لتعجبي من قول دورانتس أيها القارئ الكريم، ولكني مع ذلك تعجّبتُ. وأحسب أن كان ثمة أمل واهٍ في قلبي مصدّق في عناد أن دورانتس تغيّر تمامًا بعد ما شهدناه معًا في بلاد الهنود. قاسينا الجوع معًا، وارتعشت أبداننا بالبرد القارس معًا. وكابدنا مشقّة الشغل جنبًا إلى جنب لمّا كنّا مع قبيلة كارانكاهوا، وكنا كذلك معًا عندما كنا نداوي الهنود في بلاد الذرة. ولكن أي تبدّل كان قد وقع في نفسه مما حدث لنا فإنه في الطريق

إلى الزوال شيئًا فشيئًا إثر استقراره في العاصمة، حيث لا يملّ أهلوها من الحديث عن السلطة والثروات.

***

وما أن حلّ فصل الخريف حتى أنبأنا دورانتس بعزمه الزواج بالأرملة دي لا توري. وقرر كاستيو كذلك أن دونّا إيزابيل، وثروتها معها، خير امرأة يقترن بها. رأيت الرجال الثلاثة الذين عددتهم يومًا إخواني يمضون في حياتهم لا يحفلون بشيء؛ فهذا يسعى في إحراز منحة من الملك، وذاك يريد الزواج، والثالث يستحوذ على إقطاعية، فنسوا كل ما قاسيناه في الشمال. أما أنا، فما عثرت على سبيل لهجران الماضي. وكيف أفعل وقد وضعت مصيري مرة أخرى بين يديّ رجل غيري؟ لكنني ملاقٍ سبيلاً للنجاة لا محالة.

وكنت قاعدًا مع كلبيّ ظهرًا عند الشبّاك حين دخل دورانتس. فشرع يحكي عن الحملة التي يعدّها نائب الملك. وقد تخيّر لها قائدًا شابًا اسمه فرانسيسكو فاسكويز دي كورونادو، ومعه راهب من إفرانسة يدعى ماركو دي نيزا وبضع مئات من رجال الأزتك. وقد جدّد نائب الملك طلبه لدورانتس أن يبيعني له فيستعملني دليلاً.

فسألت: وما كان ردّك؟

قال دورانتس: أبيت على الفور.

ورأيت من الشبّاك استطالة ظلال شجر البرتقال، فعلمتُ أن الظلام حالٌّ عمّا قريب، وشجيرات الخزامى تتمايل مع مساعدة الريح، والأوراق الميتة تدور في دوامة في الفناء.

قلت: لكن مدن الذهب السبعة... ما أعظمها من فرصة!

فزفر وقال: صحيح.

وإن وصلتُ أنا والراهب إليها، فلك أن تتصور ما سنعثر عليه فيها.

وأخرس التفكير في المدن السبعة دورانتس لحظات، ثم أذكى في قلبه لوعةَ الذهب والمجد، فلم يستطع إخمادها. فلعل هذه تكون فرصة ليجعل الحلم حقيقة.

وأدرت رأسي أنظر إليه وأردفت: ومن ذا الذي يرفض مطلب نائب الملك في إسبانية الجديدة؟

لا أحد. أنت محق يا إستبانكو. يجب أن تذهب.

نظرتُ إلى وجهه. الندبة التي على خده الأيمن، والجلد المحيط بعينيه وقد زادته السنون تضغّنًا، والشيب الذي غزا لحيته وصُدغيه. وأخذ الآن يقضم شفته السفلى. أتراه علّم نفسه قراءة وجهي كما تعلمتُ قراءة وجهه؟ والظن الأرجح أنه لم يفعل، فلو فعل لعَلِمَ أنّي محرّرٌ نفسي أخيرًا.

***

قلت: ادني.. ادني منّي. وشممتُ في أويوماسوت عطر الخزامى، وهذا طيبَ لم أعتده منها تحصّلتْ عليه من العيش في دار الضيافة، فأعجبتني رائحته لأن جمع ذكرى العتيق والحديث، والماضي والحاضر. وتناهى إلى سمعنا نفير الأبواق من بعيد إعلانًا بنصر ملكي أو أمر من قبيله، لكن الصمت عامٌّ في حجرتنا، فلا أسمع سوى حفيف ثوبها. وحللتُ المشدود من ثوبها، فلمّا تحررتْ أويوماسوت منه أقصت نفسها عنّي. فسألتها: ما بالكِ؟

أواثق أن خطّتك ستنجح؟

أجل. أنا واثق.

كم من مرة وعدتني من قبل..

قلت: أدري. لكن الأمر مختلف هذه المرة، وسترين بعينيك. لمستُ بأطراف بناني ظهرها، وأحسستُ بأضلعها تحت الجلد صغيرة قوية، كأوتار العود. وقرّبتها مني.

24

حكاية الإياب

ورحلتُ عن تينو شتيت لان في خريف سنة خمس وأربعين وتسعمئة من الهجرة. وكنتُ، مرة أخرى، في حملة تقصد أقصى أصقاع الإمبراطورية، مع حاكم وراهبان وفرسان. لكنّا في هذه المرة لم نستصحب معنا جنودًا ولا مستوطنين؛ ما كان معنا جنود لأن نائب الملك لم يشأ دفع مرتباتهم دون ضمان عثورنا على الثروات، ما كان معنا مستوطنون لأنه لم يشأ دفع رجال عزّل إلى المخاطر. فأرسل معنا ما يربو عن المئة من الأميغوس الذين كُلّفوا بحمل متاعنا، وإقامة معسكرنا، وطبخ طعامنا، وقتال أعدائنا، وفعل كل ما يُؤمرون به. والأميغوس هم رجالٌ من الأزتك تحالفوا مع مملكة قشتالة ضد بقية شعب الأزتك، فكان جزاء خيانتهم تبرؤ قبائلهم منهم، وتسميتهم بكلمة إسبانية عامّة لا توحي بخطر. ولكن رغم تعدد مهارات الأميغوس فإنهم ما كانوا يعلمون بما يكمن وراء الجبال التي تتاخم نويفا غاليسيا، ولا حاكمها الجديد فرانسيسكو فاسكويز دي كورونادو يعلم، ولا الراهبان الأب ماركو والأب أونوراتو يعلمان. فكلهم يجازفون بأنفسهم في بريّة مجهولة، لا يعلمون تضاريسها، ولا يألفون أناسها، ولا يفقهون ألسنتهم.

وكنا نكدّ في السير على أقدامنا مثقلين بقفاف المتاع، فما كان معنا ما نركبه، ما عدا أربعين فرسًا أحضرها كورونادو، والبغلان اللذان امتطاهما الراهبان. فكان سيرنا بطيئًا، وقد أدركني الكسل بعد عامين قضيتهما في ترف المدينة، فشقّ علي المسير النهار بطوله في بادئ الأيام. لكني كنتُ أسير في عزم ناحية

الشمال، ولا نقف للراحة إلا حينما يشتكي الحاكم من شدة القيظ. وكنت في تلك الأحيان، والحاكم يمسح عرق وجهه بمنديل أبيض، أخلع بعض ثيابي، فنزعت الصِدار الثقيل أولاً، وتلاه القميص المزركش، وتبعهما بعد حين الحذاء والحزام الضيّق.

وبعد أربعة أشهر من المسير التقينا بعد الدخول في إقليم نويفا غاليسيا جماعة من الأرقاء الهنود، حوالي ثلاثين رجلاً مقيّدين بسلاسل من حديد، يجرجرون أقدامهم يحاولون مسايرة فارسين قشتاليين على جواديهما، واحد عن يمين الهنود والآخر عن يسارهم. نظر أحد الفارسين إلينا في فضول عظيم، وقد لوّحت الشمس وجهه وغضّنته، وسرى المشيب في شعره. أما الآخر، وكان أصغر وأطول، فلم يكترث لوجودنا، وكان يمضغ نصل ورقة عشب طويلة وينتظر، ويداه على كعبرة سرجه.

وأشار الحاكم بيده اليمنى إلى الأرقاء وجلّابيَهم، فسأل: أين تقصدون؟

قال أكبرهما: إلى العاصمة. ثم مسح فمه بظهر يده كمن ارتوى من ماء قربته.

فكانت جماعتان من الهنود جُلبتا إلى تلك البقعة بأمر جماعتين مختلفتين من القشتاليين. والهنود من كلا الطرفين يرمقون بعضهم بحسد أو شفقة أو ازدراء. فأما الحسد فكان من الأرقاء المغلولين، وأما الشفقة فكانت من زوجتي وآخرين من جماعتنا، وأما الازدراء فكان من الأميغوس الذين كانوا يظنون أن مكانتهم لن تهوي إلى درك الرقّ أبدًا. وقد أخذني الحسد أو نالت الشفقة مني مرات كثيرة في حياتي، إلا الازدراء فلم أسمح له بمساس قلبي، وأنا أعلم منهم بغلاء حرية المرء وسهولة زوالها.

وقال الأب ماركو: حلّوا قيودهم.

فأجاب أصغر الرجلين: إنهم عبيد يا أبتاه. وسوف يفرّون. ثم كأنما تذكّر أنه يخاطب راهبًا، أخرج نصل العشب من فمه.

وقال كورونادو: لا يحقّ لكم استعبادهم.

من قال ذلك؟

جلالة الملك يا مغفل.

فأخذ كل رجل ينظر إلى صاحبه فوق رؤوس عبيدهم، حتى سأل الصغير: وكيف نكسب المال إذًا؟

فأطرق كورونادو صامتًا ثم نظر إليهما وقال: أنا الحاكم الجديد.

ولم يدرِ الفارسان بماذا يفيدهما هذا الخبر. فترجّلا عن فرسيهما ودنوا من الحاكم معفّري الثياب، وسأل أكبرهما بصوت مخنوق: أتأخذهم منّا؟

رفع كورونادو بصره إلى الأفق مجاوزًا عن الرجال. وكانت شمس الظهر تذيب الطريق والصخور والأشجار، فتحيلها صورًا مشوشة داكنة وصفراء وخضراء دون علامات. قال: عليكما الاستقرار في المدينة وبناء مستوطنة لكم. فإن بقيتم في مدينتكم ضمنتُ لكم العون. ثم هزّ رأسه، كحاكم محنّك أرهقته تقلّبات الدهر والأحوال، ثم قال: انصرفا. انصرفا قبل أن أغيّر رأيي.

وصادفنا جماعة أخرى كذلك ولمّا يمضِ نهار ذلك اليوم. ولم يأمر كورونادو بالتوقف هذه المرة، فنحّى الفرسان عبيدهم إلى جانب الطريق كي نعبر. وأحسب أن هذه المشاهدات سببُ إبطاءٍ في نظر الحاكم، لكنها في نظري كانت تذكيرًا مخيفًا لما أحاول النجاة منه.

***

ولاقتنا في غوادالاهارا ريح عاصفة هائلة. واجتمع ماء المطر فأوحل

الطريق الوحيد في البلدة، فجعله بركة كبيرة من طين، وظللّت الغمام السود وجه السماء زمنًا طويلاً. وكان سناء البرق المتقطّع يضيء دورنا، وإن لم ترتفع الظلمة الواقعة علينا، حتى ليحسب المرء أنه غائص في لجّة مظلمة. وزاد الأمر سوءًا أن سبّب هواء غوادالاهارا اعتلال أويوماسوت، فنالها الغثيان المستمر الذي تعاظمت شدّته في كل صباح.

سألتها: ألا تكونين حبلى؟

وكان النور ينفذ من الشبّاك فيغيّر لون شعرها ما بين درجاتِ الأحمر، وهي تغسل يديها في حوض. فالتفتت إليّ في عجب. فقد رضيتْ بأمر عقمها واعتادته حتى ظنّت حملها مستحيلاً. فاختار الطفل تلك الأيام الحرجة في حياتنا ليدخلها. وعانقتها فألفيتها ترتجف وهي تهمس: طفل! طفل!

فقلت في نفسي: هذا فأل حسن. وهو يعني أنّي اتخذّتُ القرار الصحيح، وربما كان أول قرار سليم أتّخذه في حياتي كلها.

ولم يكن الجوّ العلة الوحيدة في تلبّثنا في البلدة، فبصفة كورونادو حاكم نويفا غاليسيا الجديد، فهو ملزم بالجلوس لسماع مظالم أهل غوادالاهارا. وكانت شكاوى المتوطنين كثيرة، ومنها موت الهنود بالجدري والحصبة، أو فرارهم وانضمامهم إلى ثورة زعيم هندي يُدعى آيابن. والمزارع لا تُحصد من قلة الفلاحين، وقالوا كذلك إن آيابن هذا يحرق البيوت والغلال، فروّع الشرفاء الآمنين وزعزع أمنهم. وليس في البلدة مدرسة، حتى إنّ السيدات آثرن هجرها والاستقرار في مكان أكثر تحضرًا وأقرب من تينو شتيت لان.

فوعد كورونادو بإصلاح كل ذاك. وقال إنه سيمنع التجارة بالأرقاء في الإقليم، وسيرجع الهنود فيعملون في الأرض، وسيُمنح للمتوطنين زيادة في الأرض، وستُوجّه مصارف المال إلى إعمار بلدة غوادالاهارا، وسيقبض على

هذا الزعيم المسمّى آيابن لا محالة فينال جزاءه.

وقال للكالدي يوم رحيلنا: اعلم أن عهد الرجال من أمثال غوزمان قد ولّى، فلدينا من سبل تدبير الحكم ما هو أفضل.

وكانت هذه خطبةً سمعت كورونادو يعدّها في الحاضرة، ورأيت أنه كلما ألقاها على سمع أحدٍ زاد هو به تصديقًا. وهو مؤمن بأن حكم الإمبراطورية يحلّ النظام محلّ الفوضى، والدين موضع الوثنية، والسلام مكان الوحشية، وحيث إن منافع المدنية عظيمة لا يختلف عليها اثنان، فحريّ بنا نشرها بالسلم لا بالحرب. فانتظرته حتى فرغ من ترديد ترّهاته كي نتابع مسيرنا إلى الشمال.

***

ووجدنا كومبوستيلا في هرج واضطراب. ونصف بيوتها مهجورة، وكانت من قبل في السنة التي نزلتُ بها عامرة كثيرة الخير. وقلة من الناس من كان يسير في شوارعها، ورأيتُ أن أبواب الحمّام الذي جُزّ فيه شعري مقفلة. تركتُ كورونادو في قصر الحاكم، ورافقتُ أعوانه والراهبين إلى ثكنة العسكر. فوجدنا السارية بلا علم والباب بلا حارس والبرج بلا مراقب. ولم يتنبّه الحرّاس لوجودي إلا بعد دخولي الباحة، وكانوا يجلسون تحت ظل قنطرة يلعبون ألعاب الورق مع رجل هندي. وكان ذاك الرجل ساتوسول.

فبادر الحرّاس بالترحيب بضيوفهم القشتاليين، وإبداء الأسف والاعتذار لقلّة عنايتهم بحراسة الثكنة العسكرية. فقالوا إن الهنود قد هجروا الإقليم كله، وإن معظم المستوطنين يفضّلون البقاء في مزارعهم على المكوث في البلدة. وأخذوا يفتّشون من بين المفاتيح حتى عثروا على التي يريدونها، ثم شرعوا يفتّحون أبواب الحجرات ليأوي إليها أعوان الحاكم والراهبين.

أما أنا فتخلّفت عنهم لأبقى مع ساتوسول تحت ظلّ القنطرة، وكان يلبس قميصًا أبيض يضيق في الوسط بسبب كرشه الذي كبر مذ رأيته آخر مرة. وبرقت عيناه بفضول كبير، ثم سأل: أجاء الآخرون معك؟

لا.

ظلّوا في المدينة الكبيرة؟

رجع كابيزا دي فاكا إلى بلده. وتزوج دورانتس وكاستيو بامرأتين من قومهما. وهما يعيشان الآن في إقطاعيات ليست بعيدة عن تينو شتيت لان.

أعادت أختي معك؟

لا. ما زالت مع دورانتس. وقد وضعت مولودًا.

ولد؟

بنت.

وابنة عمي؟ (ويقصد كيوان زوجة كاستيو).

ما زالت معه. ولكن ماذا تفعل هنا في الثكنة؟ وكان غوزمان قد أُعتقل بعد أسابيع قليلة من مرورنا ببلدته، فكنتُ واثقًا أن حملة الاستطلاع التي اكترى ساتوسول لأجلها لم تتم.

فأشار ساتوسول إلى طابق علويّ وقال: ما زلت أسكن في الحجرة. وانظر إلى هذا. قالها وهو يسحب من جيبه سكينًا، ثم وخز إبهامه برأس نصلها كي يثبت لي حدّته، فلمّا ظهرت قطرة دم لعقها.

سألته: لكن ماذا تفعل هنا؟

أفعل كما تفعل يا أخي. ما أؤمر بفعله.

لستَ مثلي.. يا أخي.

فماذا تصنع إذًا مع هؤلاء الرجال البيض الجدد؟

إنك تكثر السؤال.

ولم أكن شديد القرب من ساتوسول من قبل، ولكنه كان يتبعني كظلّي خلال الأسابيع الثلاثة التي أمضيتها في كومبوستيلا، ويكثر السؤال في كل حين أين أذهب وماذا أفعل. فحين بعتُ قميصي الموشّى لأشتري ورقًا وحبرًا، سألني لِمَ أبيع هذا الرداء الفاخر. ولمّا أجلس للكتابة على ضوء الشمعة، يسألني متى صرتُ مدوّنًا كالبيض. وإن أسررتُ بقولٍ لأحد أصحابي سألني بم نتآمر. ولمّا جلتُ الريف حول البلدة أفتّش عن الثوم البرّي، سألني إن كانت زوجتي حاملاً. وكلما أوجزتُ الإجابة زاد بي تشككًا، حتى صرتُ أتحاشاه معظم الوقت.

وكان سبب طول مكوثنا في كومبوستيلا هو لقاء كورونادو بالمستوطنين وسؤالهم عن أسباب تركهم بيوتهم. فاشتكوا بُعْدَ البلدة عن مزارعهم، وحاجتهم إلى التزام أملاكهم لمراقبة اشتغال الزّراع بالحراثة. وقالوا إن العبيد من الهنود كسالى لا يطيقون العمل، أما الأحرار منهم فيأبون دفع الجزية التي يأمر بها القانون. فأمر كورونادو ببناء ثكنات قريبة من الإقطاعيات، ومنح مزيد من الأراضي للمستوطنين، وأمرهم بحسن معاملة الهنود، وأخبرهم أنه عائد بعد بضعة أسابيع ليتأكد من إنفاذ أوامره.

***

وإن أول ما لاحظته يوم بلوغنا كولياكان هو أن شارب ملشور دياز قد ازداد طولاً وأنقًا حتى وصل إلى شحمة أذنيه، وثُبّت طرفاه في موضعهما بسحر دهن لا أدري ما هو. وكان واقفًا في وسط طريق من تراب ويحوطه

اثنان من عسكره، كلٌّ يمسك بندقيته في اتجاه مختلف. ورأيت أن إسطبل الخيل عن شِمالي خالٍ، أما في اليمين فبدت قرية الهنود مهجورة، كأنما قد اختفى كل الهنود من كولياكان، من كانوا من أهلها وأولئك الذين أُسروا يوم حللنا بها مع رفاقي الثلاثة. لكن الحامية كانت كما عهدتها صامدة محروسة تعجّ برجال دياز. وقد سأل كورونادو دياز قبل أن يترجل عن حصانه عن سبب إفلات المارق آيابن من قبضته.

فأجاب دياز: لأن أحدًا غيره سيحلّ محلّه، وأخشى أن يكون أسوأ منه ويأتي من الفظائع ما لم يأتِهِ آيابن، وإن كنت أعلم أنه قد يُظن ألا أشنع منه. لكن صدّقني يا دون فرانسيسكو، سيبقى التمرد طالما ظلّت أحوال الهنود بهذا السوء. أمرني نونيو دي غوزمان...

قد انتهى عهد غوزمان.

قال دياز: أجل، وأؤكد لك أني لم أكن من أنصاره.

إن السبيل الأمثل هو الغزو السلميّ.

أجل، أجل. وإني قائل برأيك هذا منذ أمد بعيد، كما آمل أن يكون كابيزا دي فاكا قد أبلغ نائب الملك. ولكني سوف أعثر على آيابن لك.

وقال كورونادو: إذًا عجّل بالأمر، وإلا فسيكونُ لك معي شأن آخر.

وقطّب دياز حاجبيه بعد ذاك التهديد الصريح. ولم يرق له أن يُخاطب على هذا النحو وهو رجل كبير السن شديد الحنكة في تدبير شؤون الإقليم. لكنه لم يجرؤ على الرد بكلمة واحدة، واكتفى بالنظر إلى كورونادو وهو يناول خادمًا عنان فرسه ثم يسير إلى الثكنة.

***

وقد قضت أوامر نائب الملك بأن يلبث كورونادو في كولياكان أسابيع معدودة، وأرحل أنا مع الراهبين والأميغوس في رحلة استطلاع إلى الشمال، برسم تقديم سجل مفصّل عن تلك الأرض ومسالكها، ومنابع الماء فيها، وقراها، وقبائلها ومن يتحالف منهم. فكان أن أُمرنا بأن نتجسس ونجمع ما نعرفه لتيسير غزو الحاكم.

وبينما نحن ننتظر الأميغوس لإعداد ما نحتاج إليه من متاع لرحلتنا، كنتُ أخرج في نزهات طويلة خارج البلدة مع السلوقيين. وكنت قد تصدّقت أو عاوضت جميع ثيابي القشتالية في ذلك الحين، واستعضت عنها بعباءة من جلد أضعها فوق ثوب قطن من ذلك النوع الذي تنسجه قبائل نويفا غاليسيا. وكذلك فعلت أويوماسوت، لا سيما أنها تضيق بالثياب القشتالية مع حملها. ولاحظت أنها كثيرة التبسم مرتاحة الخاطر، بل إنها نظمت قافية لمّا حضّرتُ شراب الزعتر لأحد رجال الأميغوس. فأحسستُ أن زوجتي التي أعرفها عادت إليّ، كما عادت حياتي.

ولمّا آن وقت رحيلنا شيّعنا كورونادو عند أبواب الحامية. فأوصى الأب ماركو والأب أونوراتو بأن يكونا شديدي التفطّن لكل ما يمرّان به، وأن يبعثا إليه برسائل مع أحد هنود الأميغوس. ولما التفتَ إليّ كلّمني بلهجةٍ يعوزها التواضع، فقال: لقد كُلّفتَ بأمر عظيم يا إستبانكو، وأنا واثق أنك ستنفذه بكل أمانة.

أنا مستعد.

إن وجدتَ المدن السبعة فستلقى أحسن معاملة وأعظم جزاء. وإن خنت الأمانة، ولو كانت مخالفة يسيرة، فكأنك عصيت أمر جلالة الملك نفسه، وسوف أعثر عليك وأعاقبك أغلظ العقوبة بما لا يخطر على ذهنك.

فكررتُ قولي: أنا مستعد.

فوضع يمينه على كتفي وقال: بحفظ الله.

***

وبلغنا سفوح الجبال في أسوأ الأحوال، والريح تهب عاصفة والبرد يرعد الأبدان، ومسالكها وعرة زلقة. وكان الراهبان من ورائي يجرّان بغليهما من اللجام فلا يتحركان إلا رويدًا. ويليهما الحمّالون من الأميغوس وهم يوازنون قفافهم فوق رؤوسهم، فكانت معجزةً أن لم يقع منهم أحد فيهلك من حينه. وأما زوجتي فكانت مسرورة مستطيبة النفس، حتى أنها رفضت أن تمسك يدي التي مددتها، وقالت: سأرتقي لوحدي، لا تقلق. فكان حماسها عظيمًا لبلوغ الطرف الآخر كما هو حالي.

ولم نتمهل في المسير إلا بعد دخولنا بلاد الذرة. وقد عادت إلينا أسعد الذكريات من الأوقات الذي أمضيناها في السفر على هذا الطريق قبل سنين. وبعد حوالي سبعة أيام من السير، لقينا ذات صباح بائع ريش المقو، وقد تعرّف عليّ وعلى أويوماسوت، وقال إنه كان يتاجر مع قبيلة هومانو زمن وفودنا عليهم. وعلمنا منه أنّ هنود هذا الإقليم قد ابتلوا بالحمى القاتلة التي تصيب الإنسان ببثور حمراء وندوب كثيرة، فهلكوا بالمئات، وأنه مسافر إلى بلدة اسمها بيتاتلان في أقصى الشمال برسم العثور على طبيب حاذق، فانضمّ إلى جماعتنا حيث إننا نقصد الناحية نفسها.

ووصلنا إلى بيتاتلان ظهرًا بعد مسيرة أربعة أيام. وهي بلدة مليحة الهيئة فيها من الدور نحو الخمسين أو الستين، وكلّها مشيّدة بالطوب والطين. وقد علّق أهلها على الجدران مفارش صفراء وداكنة مكشوفة في حر الشمس، فلمّا يحل الليل ينزلونها ويرقدون عليها. ومن وراء البيوت مزارع شاسعة تنبت

فيها الذرة والفاصولياء، وفيها شخوص رأيتهم على البعد بين المحاصيل صغارًا يشتغلون في الأرض. ودعانا كبراء البلدة للمبيت وعرضوا علينا قِرى، رغم كثرة الناس في جماعتنا.

فلمّا غفا الراهبان في دارهما انصرفتُ ومعي أويوماسوت لزيارة كبراء القبيلة. ولم يكن معنا دواء للجدري الذي استعر في أهليهم، فأنصتنا إلى قصصهم وحدّثناهم بحكاياتنا. فوصفنا ما أبصرناه في تينو شتيت لان، والمعابد التي هدمها القشتاليون ليشيّدوا على أنقاضها كنائسهم، والعبيد الذين وُسمت وجوههم، والحملة التي يقودها كورونادو. فلمّا انصرفنا في ساعةٍ من الليل إلى الدار التي خُصّصت لنا ألفينا الراهبين ينتظران.

ودخلت أويوماسوت إلى الدار وتركتني واقفًا عند الباب معهما لا يضيء الموضعَ إلا سناءُ القمر. وكان الأب ماركو وهو أكبرهما في منتهى الطول ذا عينين جاحظتين لا تفوتهما شاردة ولا واردة، فعاين ثيابي وحقيبتي وحتى القرعة المجوّفة التي أهدانيها زعيم من سادة البلدة. وله لكنة إفرانسية تظهر حينما يتكلّم الإسبانية.

سألني: كم نبعد عن القرى الغنية التي تكلّم عنها كابيزا دي فاكا يا إستبانكو؟

فأجبته: هذه واحدة منها.

بيتاتلان واحدة منها؟ لكنها لا تبدو كما ينبغي أن تكون.

وكيف ينبغي لها أن تكون؟

إنها أفقر مما توقعتُ.

لو قارنتَها بمعسكرات القبائل التي عشنا بينهم أمدًا طويلاً فستعلم أن بيتاتلان أغنى منهم بكثير.

أجل. وإن الأمر يتبين بالمقارنة. ومع ذلك...

وسرح الأب ماركو بنظره إلى مكان بعيد. وقد أمره كورونادو بإرسال أخبار مفصّلة يصف فيها كل مدينة وقرية نبلغها، وأوصاه أن يرصد أي تحف ثمينة أو حلي للزينة أو سلع نفيسة تشير إلى اقترابنا من مدن الذهب السبعة، فأحسبه كان ساهمًا يفكر بما يكتب في رسالته القادمة إلى الحاكم.

وأما الآخر الأب أونوراتو فكان أصغر بكثير، ولم يخرج من إسبانية الجديدة من قبل قط. فكان يرنو إلي بلمحات الفضول والتطفّل حال أي رجل دين بادئ مهنته. وكل ملامحه توحي بالحدّة؛ فالحاجبان مستقيمان، والأنف مستطيل، والشفتان رفيعتان مزمومتان في استنكار.

ووضعت حقيبتي مع اليقطينة لدى الباب. وقبل أن يسألني عن هذا الغرض بادرته بالقول: إننا نستعمل القرع في أدويتنا.

ولعلّه كان يأمل أن أفتح هذا الباب لأنه انبرى يجادل: إنّي أظن أن ما تفعله مع هؤلاء الهنود لهو أشبه بالسحر.

أرأيتني أستدعي الجن؟

فسكت. ثم رمق الأب ماركو يريد منه نصرته، لكن الراهب المسنّ ظلّ صامتًا شارد الفكر بالمدن الغنية.

قال الأب أونوراتو: يدفعني الفضول إلى سؤالك عن رأي الرهبان الذين كانوا في حملة نارفاييز بعلاجك؟ ألم يحسبوا أنها كفر بقدرة الله؟

قلت: لم يشهد الرهبان أيًا من أدويتي قط.

وعمّ بيننا صمت طويل تحوّلت خلاله أفكار الأب ماركو من أمور الثروة إلى مسائل الدين، وقليلة هي عقول البشر التي تحوي الأمرين في آن معًا.

فثبّت عينيه الجاحظتين عليّ.

قال: أجل. فالرهبان الذين رافقوا حملة نارفاييز قد أُستشهدوا قبل مسيرة كابيزا دي فاكا في هذه الأرض.

فاستشعرت شيئًا من الضغينة وأنا أقول في نفسي: لا يفتأون يذكرون كابيزا دي فاكا، ويحسبون أن ما رواه ذلك الرجل عن وقائع أسفارنا هو الحق المطلق مهما حصل. وأحسستُ بالتمرد يفور في دمي، فقلت: لم يقضوا نحبهم كلهم، فقد استقرّ واحد منهم مع الهنود.

فرفع الأب أونوراتو حاجبيه مذهولاً وسأل: أحقًا ما تقول؟

قلت: هو الحق تمامًا. واسمه الأب أنسيلمو، وكان رجلاً صالحًا. وأما الرهبان الآخرين فغرق أحدهم في مركبه، وأُكل اثنان.

كرر الأب أونوراتو: أُكلا؟ أتقصد أن تقول... أكلهما بشر؟

وأجبته: أجل. أُكلا. وأغراني الذهول الذي ارتسم على وجه الأب أونوراتو بأن أبالغ في قصتي قليلاً. فتركت الصمت يشتملنا بعض الوقت ثم قلتُ: أكلوا جسديهما على مراحل، وادّخروا القلبين للنهاية.

وفغر الأب أونوراتو فمه، ولم يتصور قط أن يلجأ قشتاليون من بين جنسه إلى أكل لحم البشر، وقد حسب أنّي أقصد الهنود بكلامي فلم أصوّب ظنه الخاطئ.

وتمنّيت له نومًا هانئًا ثم تركته واقفًا في مكانه.

يقولون في الأمثال: من له حيلة فليحتلْ.

***

وبينما نحن نتأهّب للرحيل عن بيتاتلان في اليوم التالي، أخبرنا الأب

أونوراتو أن المرض أصابه من عشاء البارحة، وأنه لا يقوى على الركوب، فهو يريد البقاء في بيتاتلان حتى نرجع. فدخلتُ مع الأب ماركو إلى داره حيث كان يرقد على مفارشه وهو مشيح بوجهه ناحية جدار الطين.

جلس الأب ماركو إلى جانبه وقال: تحلَّ بالصبر فإنه وجع زائل.

فردّ الراهب الشاب: لا أقوى على الركوب. وكان منكفأً إلى جانبه ولم يحوّل نظره عن الجدار قط.

قال الأب ماركو: نستطيع البقاء هنا حتى تُشفى.

وقلت: ولكن يجب علينا أن نقطع عشرة فراسخ هذا النهار.

لا أودّ أن أؤخّر المسير. تابعوا السير يا أخي، وسوف أنتظركم هنا.

فوقف الأب ماركو بعد طول ترددٍ، وشدّ نطاقه على بطنه، وقال: فلنذهب.

وكانت أويوماسوت تنتظرنا في الخارج والكلبان راقدان عند قدميها، وأما الأميغوس فكانوا قاعدين القرفصاء في الفيء، فوقفوا لمّا دنونا منهم، واحتملوا القفاف والمتاع. وامتطى الأب ماركو بغله، وجعل القمطر الذي يحفظ أوراقه على السرج أمامه كأنه يُركب طفلاً.

وسرنا أربعة أيام، لم يتكلّم الأب ماركو خلالها ما عدا سؤاله أحيانًا عن الأرض أو الطريق. فلم يكن في رفقته راهب آخر من أخوية الفرنسيسكان، ولا كان في جماعتنا قشتاليون. فكان وحيدًا معتزلاً على صهوة بغله الأسود ونحن مشاة، ومن خلفنا تباعدت الجبال.

وبلغنا بلدة فاكابا قبيل المغيب، فلقينا أهلَها في استقبالنا في الساحة بعد أن سبقنا الرسل المبعوثون من بيتاتلان بخبر قدومنا. وفزع الراهب لمّا حيّونا

بالهتاف والصراخ، فطلب مني أن أدلّه على الدار التي سيبيت فيها على الفور.

وكانت الوليمة التي أقاموها لنا تلك الليلة فاخرة طويلة، كأي وليمة حضرناها منذ سنين في بلاد الذرة. لم يتسنّ لي الكلام مع الراهب إلا في صباح اليوم التالي، وكان يعاين قرط الفيروز الجديد في أذنيّ باستنكار، ثم سأل: ما هذا؟

فأجبته: هدية من أهل البلدة.

أعدّتَ إلى علاجهم بأدويتك مرة أخرى؟

إنما أساعدهم على قدر طاقتي.

سدّ الأبُ الدواة وجمع أوراقه. فقلت له: إن أردتَ سبقتُك إلى البلدة التي تليها.

قال: لا. قد تخلّف عنا الأخ أونوراتو، ولا أود تقسيم الجماعة. كما أنّ أمرَ الحاكم بينٌ في هذا الشأن.

لكن ألا تفكّر بما ستجنيه من ذلك؟

ماذا تقصد؟

ما جئتَ إلا لتعلّم هؤلاء الناس، ولكنهم لا يعرفون عنك شيئًا. فلو أن موفدًا منك يسبقك ويعرّف الناس جميعهم بعلمك وقدرتك..

أنا في غنى عن التعريف.

سوف تستميلُ الهنودَ الأشدّاء الذين يعيشون في هذا الإقليم إن عرفوا من تكون، فيشتهر صيتك بينهم. وهكذا كان كابيزا دي فاكا يفعل.

وتصارع طموح الراهب مع شكوكه، فغلب الطموحُ. سألني: وكيف

نتواصلُ الأخبارَ؟

وكنتُ قد دبّرت أمر بعث الأخبار. فقلتُ له إني سابقه إلى البلدة التالية، فأسأل الهنود عن موقع مدن الذهب السبعة. فإن سمعتُ أو رأيتُ إشارةً تهدينا إليها بعثت جماعة من الأميغوس بدلالة. فإن كانت البلدة فقيرة كانت الإشارة صليبًا أبيض بحجم الكفّ الواحد. وإن كانت ميسورة كانت الإشارة صليبًا بحجم الكفين. وإن كانت البلدة ثرية فالإشارة صليب بحجم الذراع، فإن كانت في منتهى الغنى، أي يقارب ثراؤها ثراء تينو شتيت لان، فتكون الإشارة صليبًا أبيض بحجم قامة الرجل البالغ.

ووافق الراهبُ.

فكان أن تخلّصتُ منه وأكملت المسير. وكنت في كل بلدة أصل إليها مع زوجتي أبعث إليه بجماعة من الأميغوس، ومعهم صليب يقلّ حجمه في كل بلدة عمّا قبلها، حتى لم يبقَ معي من الرجال إلا عشرة. ولمّا بلغنا بلدة هندية اسمها هاواكوه، بعثت العشرة الباقين وأعطيتهم صليبًا بحجم الكف.

وتحررت أخيرًا من الأميغوس الذين لم يكونوا أصحابًا قط. والآن انقطعتْ كل صلة تربطني بالإمبراطورية على الإطلاق.

25

حكاية هاواكوه

كانت الشمس في موقعها نظير السمت، فاصطبغت السماءُ بصفرةِ الكهرمان. والنسيم الدافئ رغم قرب المغيب ينشر عبير أنفاس الزهور البرّية. كنت مستلقيًا على العشب الطري، أضع رأسي في حجر أويوماسوت، مقرّبًا أذني من بطنها المنتفخ. إن ظللتُ ساكنًا دون حراك فربما أسمع نبضات قلب طفلنا المكتومة. وقد انتظرتُ أعوامًا طويلة حتى سمعتُ هذا الصوت، حتى يتحقق الوعد بحياة جديدة تبتدئ معه. ومن بحيرة قريبة علا نشيج الضفادع وصرير الجنادب، فخلتُ أن الكون يناجيني فيقول لي إني حرٌّ الآن، حرٌّ مهما صار وما يصير. فنزلت السكينة العظيمة على قلبي.

وقلت: اسمعي، دعيني أروي لكِ حكاية تروينها لطفلنا. وكنتُ أكلّم أويوماسوت بلسان قومها، اللغة التي اضطررتُ إلى تعلّمها كي أعيش، اللغة التي ألفتها فما عادت غريبة على لساني. وأخفضتْ رأسها تنظر إليّ، فمسح شعرها الطويل ذراعي، وأحسست برعشةٍ تسري في بدني. ورأيتُ لمحة من الفضول في عينيها، لكن وجهها كان هادئًا لا اضطراب فيه.

ونشرت شمس الغروب ضياءها البرّاق على عمائر هاواكوه المتلامسة، كلون الذهب الذي يسعى إليه خدّام الإمبراطورية طامعين يائسين. ومن بين كل البلاد التي زرتها في بلاد الذرة لم أجد مثل هذه نظيرًا لمدينتي في بلاد البربر. فتذكّرتُ أزمور في فصل الربيع حين تزهر أشجار التين، وتنقلب الحقول بحرًا من أخضر وأبيض. أواه ما أشوقني إلى رؤية تلك الحقول،

وإلى الاستلقاء على ترابها، وسماع أزيز النحل، والسباحة في أم الربيع، والجلوس على صخرة في حدّ النهر، ومشاهدة أسماك الشابل وهي تعوم فيه ضد أمواجه. ما أشوقني إلى رؤية وجه أمي، وزيارة قبر أبي والترحّم على روحه، والجلوس بجانب عمّي وهو يصنع صندوقًا أو متكأً. وما أشوقني إلى الاستيقاظ في الفجر على أصوات المؤذنين، فيزين الشيطان لي النوم، حتى أحسّ بأيدي أخويّ تهزّني كي أفيق.

لن أرجع إلى تلك الأحوال والأزمنة والبقاع قط، ولكن إن كان قدري الرحيل إلى الغرب فأصل إلى هذه البلاد الشاسعة العجيبة البديعة، فلعلّ القدرَ يسهّل لابني السفرَ في الناحية المعاكسة ليرى وطني، فتكون في نظره بلادًا شاسعة كهذه، عجيبة كهذه، بديعة الحسن كهذه. أم أقول في نظرها؟ يكاد صوتي يوم كنتُ صبيًا يبلغني، وأنا أرتّل مع الصبيان في المسجد آيات المصحف، وجذوعنا تهتزّ معها إلى الأمام وإلى الخلف. ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾.

هذه اللحظة هي أسعد أوقات حياتي، وهي كل ما أملك وتساوي عندي العمر بأتمّه. وما كنت أبالي بالهدايا التي قدّموها لي حتى وصولي إلى هاواكوه، من لازورد ومرجان وفيروز وجلود وفراء. فكل ما أردته هو أن أستلقي طليقًا على العشب، تحت سماءٍ تتزيّن للّيل، وزوجتي إلى جانبي. وفي الناحية القصية من البلدة يجتمع آهكو زعيم قبيلة زوني مع رجال قومه، ليتباحثوا بشأن الأخبار التي أبلغتهم بها وما ينبغي عليهم فعله.

فقد خرج آهكو لاستقبالنا حين بلغنا باب بلدته عصر ذلك اليوم، وكان آهكو مسنًا ظاهر الشيب، لكن له قوة المحارب الشاب. وكان يجلل كتفيه بعباءة حمراء يربط طرفيها ناحية كتفه الأيمن بمشبك من عظم. ووقف وراءه ثلاثة من أعوانه لا يخفون فضولهم بمرآنا، وكانوا يضعون على

رؤوسهم طواقي غير متكلفة مصنوعة من قطع الجلد، بيد أنهم يتقلّدون سلاسل عديدة من مرجان وفيروز منتظمة الواحدة فوق الأخرى. وما كان أحدهم يحمل سلاحًا لأن البلدة منيعة شديدة التحصّن.

دعاني آهكو إلى الدخول إلى داره، وكانت عمارة حسنة البنيان بالطين، وعلى جدرانها تستندُ السلالم البيضاء تفضي إلى منافذ في الأدوار العلوية. وقد أُعدّت لنا وليمة عظيمة في حجرة الاستقبال في داره، فأكلنا وتحدّثنا بدعة ويسر. ولكن لمّا أنبأته بخبر الرجال البيض الذين يقصدون بلدته، أبدى القلق وسأل: ماذا يريدون؟

أجبته: الذهب.

ليس عندنا ذهب.

أعلم. وهم يريدون غزو البلاد حتى وإن لم يكن بها ذهب. إنهم يحكمون كلّ البلاد الواقعة إلى الجنوب من هنا، ويجبرون الناس على حراثة الأرض، ومن يأبى منهم أو يقاتلهم يعدّونهم ثوّارًا ويقتلونهم أينما اتّجهوا.

وأنّى لك معرفة كل ذلك؟

لأني عشت بينهم، وجئت إلى هذه البلاد معهم.

مرّر آهكو إبهامه على شفتيه، فأذهب ظفره قطعًا من الجلد الجاف بحركة سريعة. وانتقل بصره بيننا، تارةً ينظر إليّ وتارة إلى زوجتي، فأدركتُ أنه يراقب كل حركة ونَفَس وكلمة. وأحضر خادم طبقًا من لحم الطير المشوي، ولم يتكلم آهكو ريثما ننال نصيبًا من الطعام. تقول إن أولئك الغازين بيض وأنت أسود. فكيف تعرف عنهم ما تعرفه؟ كيف تعرف عاداتهم ونيّاتهم؟

قلت: صحيح أنّي لا أشبههم لكني أتكلم بلسانهم وقد خالطتهم زمنًا طويلاً، فلذلك أعرف ما يريدون وما يعتزمون. يجب أن تصدّقني.

وحتى إن كان ما أخبرتنا هو الصدق، لِمَ أتيتَ إلى هنا؟ ماذا تستفيد من تحذيرنا؟

لا فائدة لي في الأمر البتة. فلستُ أنا الآمر بالغزو بل منذركم منه.

فسكت آهكو واستند إلى الجدار يفكّر بكل ما قلته، ورأيت وجهه يحتقن وقد عزم على أمرٍ. فليأتِ البيض إن أرادوا. وقد قاتلنا المعتدين من قبل وسنقاتل هؤلاء الآن.

وهزّ رجاله رؤوسهم مؤمّنين على قول زعيمهم. ولم تكن هاواكوه بلدة تُستلب دون قتال، فكان أهلها لا يخشون الحرب.

قلت: ولكن لا قوة لكم على مجابهة الرجال البيض. وبيّنتُ لآهكو أنه لم يرَ في حياته قط مثل أسلحة البيضان، وأن لا سبيل لنجاتهم إلا بابتداع قصةٍ.

فسأل آهكو: نبتدع حكاية؟

وأجبت: أجل. ابعث إلى فاكابا جماعةً من الرجال، على أن يكون لبعضهم جروح من أثر القتال. فيخبرون الراهب ماركو أن قبيلة زوني قتلوا إستبانكو.

ضحك آهكو وقال: لِمَ تريدنا أن نقول له إننا قتلناك؟ أتظن أن كذبتك ستلقي الرعب في قلبه فينكص راجعًا؟

قلت: إنما هي كذبة ما أحضرته إلى هنا. وكنت واثقًا أن لا شيء غير ذلك يردّ الأب ماركو ويعيده أدراجه. فكنتُ أريد أن يرجع الراهب إلى كورونادو، فينبأه بأنه لم يجد ذهبًا في أقاليم الشمال، وأن هنود هاواكوه الأشدّاء صدّوا حملته وقتلوا إستبانكو. فينسى خدّام الإمبراطورية حكاية مدن الذهب السبعة. ويكون أهل هاواكوه في أمان من شرّ الغزو. ويرقد إستبانكو في مثواه الأخير. وأما مصطفى فهو باقٍ حي يعيش الحياة التي يختارها.

فسأل آهكو: وإن كذّب الرجل الأبيض الموجود في فاكابا قصّتك؟

قلت: بل سيصدّقها إن أجاد الرسل روايتها.

فلمستُ أن الريبة داخلت قلب آهكو، حيث إنه قال إنه سيستشير سادة قومه قبل أن يبتّ بالأمر. وكان كل الهنود في هذه البلاد يصرّفون شؤونهم بالشورى. فلم أتعجب من طلبه، بل إن هذا أمر يُحمد لهم، وإن كنتُ أرجو أن يبتّ الزعيم في الأمر عاجلاً، لأن الراهب لا يبعد عن أبواب هاواكوه إلا مسيرة ثلاثة أسابيع.

وأيًا كان ما يقرره آهكو فإني راحل مع أويوماسوت في الصباح إلى قومها الأفافاري. وسنقضي حياتنا بين أهلها، نطرق المسالك التي طرقها أسلافها قرونًا عديدة، ونصيد حيثما كانوا يصيدون، ونأكل كما كانوا يأكلون، ونتاجر ما كانوا به يتاجرون. وسوف يتعلّم طفلنا عاداتهم، فيكرم الضيف ويقاتل العدو. ويأخذ عني أهم درس؛ ألا يرهن حياته في يديّ رجل آخر.

وضعت أويوماسوت كفها على خدّي، وسألتني: ما القصة التي أحكيها لطفلنا؟ وتذكّرت الحكايات التي ردّدتها أمي حين كنتُ صبيًا، فاحتملتها معي حين عبرت بحر الظلمات، وتقوّيتُ بها في أعوام الحرمان، واهتديتُ بها متى ضللت الطريق. ورويتها لّما أردتُ طمأنة فؤادي، وحين شئتُ تسكين أفئدة الناس. احتشدتْ الكلمات وراء شفتيّ ترجو الخروج. أريد أن أحكي لطفلي حكاية يذوق شهدها أو يألم لسمّها، لعلّه يعي منها دروسًا، ولعلّه يرويها بعد موتي أو بعد موت أمه، حتى لو كان ذلك لتزجية الوقت. أريد أن أحكي له قصة علّها تبقيني حيًا في قلبه.

ولهذا رويتُ حقيقة الوقائع فيما حصل حين سافرتُ في عرض هذه الأرض وطولها. وقد قدّم خدّام مملكة الإسبان روايةً مختلفة لملكهم

وأسقفهم، وزوجاتهم وأصحابهم. والهنود الذين خالطتهم ثمانية أعوام، كل فرد منهم، كل واحد من ألوف قال حكايات مختلفة. فلربما لا توجد حكاية صحيحة، وإنما حكايات مُختلقة، وتصوّرات لا نجد لها تفسيرًا لما أبصرنا وما سمعنا، وما أحسسنا وما ظننا. ولربما لو جُمعتْ رواياتنا بأشكالها العظيمة وألوانها البديعة فستقودنا إلى درب الحقيقة القويم. ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾. والله أكبر.

شكر

إنّ الكلمة التي ألقاها كاتب العدل في حملة نارفاييز في الفصل الأول هي نسخة موجزة ومنقّحة عن بيان رسمي قانوني يُسمّى «المطالبة» (Re-querimiento)، كتبه القاضي الإسباني خوان لوبيز دي بلاسيوس روبيو في عام ١٥١٣م. وكان هذا البيان يُلقى على أسماع الهنود في كل حملة إسبانية إلى القارتين الأمريكيتين منذ ذلك العام حتى إبطاله في عام ١٥٥٦م، وإن كان وجود الهنود ليس شرطًا لإلقائه، وبعد أن يُوقّع البيان يُرسل إلى إسبانيا. يمكنك الاطلاع على نص المطالبة المتوافر في المشاع العام، وإن أردت الاطلاع على تحليل للنص فيمكنك الرجوع إلى مقالة بعنوان «المطالبة ومفسّروها» للويس هانك في مجلة (Revista de Historia de América).

إن سبب اشتهار حملة نارفاييز هو تسجيل كابيزا دي فاكا لأحداثها في تقرير مرفوع ومُهدى إلى الملك كارلوس الخامس، ومن ثم نشره في كتاب يحمل عنوان (La Relacíon). وتتوافر ترجمة إنجليزية ممتازة للكتاب بعنوان «سجل حملة نارفاييز»، ترجمة فاني باندلير ومراجعة وتعليق هارولد أوجينبرام من مطبوعات بينغوين كلاسيك. وقد ازدانت تلك الطبعة بمقدمة من إيلان ستيفنز.

وقد اعتمدتُ في البحث أثناء كتابة هذه الرواية على مصادر شتى، لكنني أود الإشارة إلى المصادر الآتية على وجه الخصوص: رحلات ابن بطوطة، «غزو إسبانية الجديدة» تأليف: برنال دياز، «هنود كارانكاهوا: سكّان ساحل

تكساس» تأليف: ألبرت غاشييه، «عبور القارّة ١٥٢٧-١٥٤٠: قصة أول مستكشف أفريقي-أمريكي في الجنوب الأمريكي» تأليف: روبرت غودوين، «وصلنا حفاة عراة: رحلة كابيزا دي فاكا في أمريكا الشمالية» تأليف: أليكس دي كريغر، «هنود تكساس: منذ عصور ما قبل التاريخ حتى العصور الحديثة» تأليف: ويليام نيوكوم، «بلاد في غاية الغرابة: رحلة كابيزا دي فاكا الملحمية» تأليف: أندريس ريسنديس، «وصف أفريقيا» تأليف: الحسن الوزان (ليون الأفريقي). تتوافر قائمة كاملة بالمراجع والمصادر في موقعي الإلكتروني.

وعلى الرغم من أن هذه الرواية مستلهمة من أحداث حقيقية، فإن الشخصيات التي تتضمنها والمواقف التي تصفها من نسج الخيال، لا سيما خلفية بطلها الذي لا نعرف عنها إلا ما أورده كابيزا دي فاكا في سجلّه في سطر واحد فقط:

el cuarto [sobreviviente] se llama Estevanico, es negro alárabe, natural de Azamor

وترجمته: «[الناجي] الرابع هو إستيڤانيكو، وهو عربيّ أسود من أزمور».

أنا ممتنة لمؤسسة لينان لتسهيل إقامتي في مدينة مارفا بولاية تكساس، ولمؤسسة هيدجبروك لإقامتي في جزيرة ويدباي في واشنطن. وأود أن أعبر عن جزيل شكري لكريستن منجير أندرسن، وكيفن ماكفوي، ومازا منغستي، وسعاد سيدلك، وجاين سمايلي للتعليقات والملاحظات التي أبدوها على النسخة المبدئية لهذا الكتاب. وشكر خاص لتوم آر كينيدي للحوارات المطوّلة عن هاواكوه. كما أني أدين بأكثر الشكر لوكيلتي إيلين

ليفين التي لم يتزعزع إيمانها بي، وكذلك لمحرري إيرول مكدونالد الذي شكّل توجيهه فرقًا عظيمًا في كتابتي. والشكر كله لألكسندر ييرا الذي جعل كتاباتي، وكذلك حياتي، أمرًا ممكنًا.

"حكاية عجيبة عن الآمال الضائعة والحظوظ المتقلّبة"

ذا نيو يوركر

"تحدي جريء مثير يمنح شخصية حقيقية أخرسها التاريخ الفرصة للكلام في الأدب"

سان فرانسيسكو كرونيكال

"تشعر بأن [الرواية] تاريخية ومعاصرة في الـوقت نفسه... سرد الحكاية من نظر ليلى العلمي هو صراع لإرادة الأقوى بين الخـير والشر، وحرب على النسيان، لأنها رأت في قصة إستيفانيكو عبرة روحية وأخلاقية".

نيويورك تايمز بوك ريفيو

ليلى العلمي أديبة أمريكية من أصل مغربي، ولدت عام 1968م في الرباط، ونشأت فيها وتخرّجت من جامعة محـمد الخـامس، ثم انتقـلت إلى الولايات المتحدة الأمـريكية لإتمام دراستها العليا. بدأت بالتأليف والنشر منذ عام 1996م، وتعد ما رواه المغربي أشهر رواياتها التي استحقّت الترشيح لجائزة البولتزر الشهيرة عن فئة الأدب في عام 2015م.

illustration © James Nunn


ISBN 978-2-84409-646-3

